

الإشراق

خلافة الإنسان في الأرض

الحقوق كافة
محمولة
لاتحاد الكتاب العرب

E-mail : unecriv@net.sy

البريد الإلكتروني:

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>



محمد عرب

الإشراق خلافة الإنسان في الأرض

- دراسة -



من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - ٢٠٠١



مدخل

تاهت الحيرة في رحلة البحث عن الحقيقة. فألقينا عصا الترحال، نطلب الإمداد من مالك النور... فأخذ بنا الحال في شهود صاحب الوصول إلى "قاب قوسين" وحضر أمامنا "لقد جاءكم رسول من أنفسكم" فسلمنا عليه أو علينا في الحضرة الإنسانية الجامعة، وسألنا عن الطريق.

ف قيل: لا بد من الهجرة.. رقيقاً مثل أبي بكر الصديق السابق بما وقر عنده في القلب..

أو عمرياً، اتحد مع اليقين فصارا اثنين وإن كانا واحداً في مرآة العين..
أو عثمانياً، سمح اليد، رقيق الفؤاد. يستحي من القيل والقال، فكان الشهيد.
أو بالوقوف على باب مدينة العرفان عند علي صاحب الأسرار، الدائر مع القرآن حيث دار.

فسألت طامحاً أن أكون عند الجميع بعد أن ذبت في شهود حضرات الجمال والجلال في سير الأصحاب.

ف قيل لي: عند نهاية الطريق تشاهد المصطفى صلى الله عليه وسلم...
وعندها تشاهد الجميع بالقلب... وتفتح لك كنوز الأنوار... ولكن لا بد من المصاحبة في أول الطريق.. لا بد من دليل.. لأن الطريق صعب المسالك...
والأشواق العاصفة قد تقتل عقل الطالب قبل الوصول.. فيصبح مثل قيس مجنوناً في حب المحبوب... فلا تغامر بالسفر وحيداً... ولكن لا تكن مجنوناً بليلى إذا كانت هي الدليل، وكن عند المالك لا الملك..

فطلبت من الناصحين اختيار الحكيم.

فسألوني من تحب...

فقلت لهم: سلطان العارفين محيي الدين بن عربي.. لو كان حياً... فكلامه بالنسبة لي دواء، ولا أعرف حكيماً مثله سقاني من رحيق الجمال، حتى حرت من شهود الحروف على شفتيه وقد صارت جلالاً...

فقالوا لي: اذهب إليه، واطلب منه الإمداد.

فسألتهم: إلى أين وهو بين الأموات من مئات السنين.

فقالوا لي: إن الحب يصنع المعجزات. لو طلب الفقير بالحب بنت ملك الملوك ستعطف عليه، وتتنظر إليه.. فكيف بمن يريد رفيقاً للوصول إلى المالك الرحيم.. وحبنا ليس سوى فيض من اسمه الرحيم.

أما سمعت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن سلمان الفارسي: "سلمان منا أهل البيت" فصار الفارسي عربياً. بل صار هاشمياً. ثم إن الشيخ كان حاتمي العطاء في الدنيا، فكيف سيكون وقد صار روحاً في السماء؟ فتوجهت إلى المقام أطلب الإمداد، وأنا حيران بين بحار الأسئلة.

فغبت في بحر الظلمات... ثم أشرق نور... وصار سماء... وتكونت شمس... وفاضت الأسماء... فغبت في بحر الحيرة، وأنا أصلي على المصطفى صلى الله عليه وسلم خير الأسماء، وسر النور المتجلي من صفاء الحقائق، بعد أن كان أغصاناً وأزهاراً وطرائق. فقطفت من الثمرة اللبانة التي أزهرت بالإيمان... وفهمت أن العبودية هي السلطان... وأن الأمي لا ينطق ولا يكتب إلا بأمر الحق، وإن كان يعرف أسرار الكتابة والبلاغة والكلام. فقرأت "وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى".

ثم سألت وقد أذهلتني المسألة: هل المشكلة في السمع، أم في البصر لمن لا يسمع الكلام... ولا يبصر الألوان.

فقيل لي: إنها في قلب الإنسان.. وقلب الشيء حقيقته، فلا تغتر بصلاة من صلى، أو صيام من صام، إذا كان العقل في السوق يحسب الأموال.. أما قرأت قول الله تعالى: **[ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه]**.

فحقيقة الإنسان إما عند الله، وإما في السوق.. فكيف سيصل الراكض في كل الدروب.

واقراً هذه الحكمة في إنجيل لوقا: "ما من خادم يستطيع أن يخدم سيدين. فإما يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويرذل الآخر. لا يمكنكم أن تعبدوا الله والمال".

ثم تجلى لي الشيخ وقادني إلى من قال: "إذا أردت أن تدخل حرمي فلا تلتفت بالملك والملكوت ولا بالجبروت، لأن الملك شيطان العالم. والملكوت شيطان العارف. والجبروت شيطان الواقف".

فسألت، أي محال سنطلب إذا ذبنا، وذاب القلب...

واستولت عليك سباحات الوجه المحرقة كلما امتد البصر...

وأشرقت في ليلك أقمار العاشقين تلوح لك، بأنها البداية، لا القصد...

وليس للغايات منتهى... وكل غاية درب...

أي محال سنطلب، إذا خرجت من ملكي وملكوتي والجبروت...!

فقال لي الشيخ، إكسر كؤوس الوجد...

ولما كسرت كؤوسي... صار الوجود كأساً لغرامي،

فشربت... وشربت... وشربت... فما ارتويت

فأدركت أن عالم الهوى لا يحاط به وإن ذاقه القلب

فقال قلبي... إنها الدنيا.. وهذا الجمال

وأنت تطارد المستحيل...

تشرب إن ظمئت..

وتظماً إن شربت...

وتظل في يدك خيال...

وقال الوجود.. الآن جاء دوري

فكن لي كأساً لأشرب فيك أنواري

وكن لي خمراً لأنشد في جمالك أشعاري

لتعرف أي زهرة أشرقت حين كنت

وأي مجد فاضت فيه أكواني حين ظهرت...

ثم تجلى لي الشيخ في "الفتوحات" فقرأت:

"الإنسان الكامل الذي يدل بذاته من أول البديهة على ربه هو تاج الملك، وليس إلا الإنسان الكامل. وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته" و"هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فلم يظهر الكمال الإلهي إلا في المركب فإنه يتضمن البسيط، ولا يتضمن البسيط المركب. فالإنسان الكامل هو

الأول بالقصد، والآخر بالفعل، والظاهر بالحرف، والباطن بالمعنى، وهو الجامع بين الطبع والعقل، ففيه أكثف تركيب، وألطف تركيب من حيث طبعه، وفيه التجرد عن المواد والقوى الحاكمة على الأجساد، وليس ذلك لغيره من المخلوقات سواه. ولهذا خص بعلم الأسماء كلها، وبجوامع الكلم. ولم يعلمنا الله أن أحداً سواه أعطاه هذا إلا الإنسان الكامل. وليس فوق الإنسان مرتبة إلا مرتبة الملك في المخلوقات، وقد تلمذت الملائكة له حين علمهم الأسماء. ولا يدل هذا على أنه خير من الملك. ولكنه يدل على أنه أكمل نشأة من الملك. فلما كان مجلى الأسماء الإلهية صح له أن يكون للكتاب مثل التاج لأنه أشرف زينة يتزين بها الكتاب. وبذلك التتويج ظهرت آثار الأوامر في الملك. كذلك بالإنسان الكامل ظهر الحكم الإلهي في العالم بالثواب والعقاب، وبه قام النظام وانحرم، وفيه قضى وقدر وحكم".

ثم همس صوت في أذني: لا تخلع تاج العقل بطاعة أهواء الجسم، فيصبح عقلك خادماً في إمارة صبيائك. قابل كنز حقيقة الجود، بحقيقة الحق الممدودة إليك لتعرف من أنت، وماذا أراد الحق منك قبل أن تدخل جنة حيرة العرفان، لا حيرة الضلال. لتشاهد ما خبا الله للإنسان من الملك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب...

فسبحان من لم تتسع له السموات والأرض، ووسعه قلب الإنسان العبد، فسخرها له ليظهر المالك... ويظهر الملك.

إنها قصة الإنسان... وهو يبحث عن حقيقته في الوجود.

فأين كان قبل أن يكون...؟

وإلى أين سيمضي عندما لا يكون...؟

هل كان، ثم لن يكون...؟

أم إنه كان، ثم جاء، ثم ظهر بالأسماء، ثم مضى، فكان له في كل مكان وزمان.. صورة.. واسم...؟

ولكن الناس تاهوا في الخبر عندما فقدوا الأثر...

إذ كيف ستبصر العين وجه الحبيب المسافر...

وهي عين لا تبصر غير الصور...؟!...

■ ■

مقدمة

ما هو الوجود وما هي حقيقته؟. هل للوجود غاية من الإيجاد، أم إن مظاهر الوجود المختلفة ومنها النبات والحيوان والإنسان ليست إلا نتيجة لمصادفات غير مقصودة نشأت في الطبيعة، وهذه المصادفات التي لا يعرف الإنسان عنها شيئاً ستذهب بكوكبنا الأرض بمصادفات جديدة لا نستطيع التأثير فيها، ولا نعرف شيئاً عن توقيتها وقوانينها؟. أم إن الحكمة الإلهية المحيطة بالكون هي التي تتصرف وفقاً لغاياتها؟. كيف سنعرف الحقيقة إذا كان جدال الإنسان لم يتوقف منذ ظهر الإنسان. فكانت مسيرة الجدل حول هذه الأسئلة ربما أطول مسيرة في حياة الإنسان حيث لم يشبعها لا الفلسفة ولا الدين ولا العلوم كلها. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً؟. الإنسان يتقدم ويتعلم وتزداد أسئلته وتزداد شكوكه ويزداد قلقه. فما هي الغاية من حياته، ومن وجوده، وإلى أين سينتهي بعد الموت؟. إلى التراب، أم إلى حياة خالدة جديدة؟. هذه الأسئلة كانت وستظل مرافقة للإنسان في عالمه الغامض، ومسيرته المجهولة، ومصيره المقلق. فمن أين جاء، وإلى أين سينتهي؟. ما هي بدايته، وما هي نهايته؟. لماذا خلق، ولماذا سيموت وهو لم يخلق باختياره، ولن يموت باختياره. فأى قوة خلقته ليخوض بحر الحياة، ويشهد ما فيها من حزن وفرح، وشقاء وسعادة، ثم استدعته للعودة من حيث جاء؟. ألا تشكل مثل هذه الأسئلة التي يطرحها كل إنسان على نفسه مصدراً للقلق والعذاب والحيرة عندما لا يعرف الجواب عنها. إذا كانت حياة الإنسان ستنتهي إلى التراب والغناء فأى طعم للحياة، وأي قيمة لها؟. ما فائدة الخير والشر لإنسان سيفنى مثل أي نملة أو دودة في وقت ما طال أو قصر؟. ما أكثر الأجوبة، وما أكثر الفلسفات التي حاولت أن تجيب فأصابت وأخطأت، إلا إنها ظلت في حدود ما قدمته عاجزة عن الإجابة. منذ البدايات كان الإنسان يحاول، عبر الفلسفات الشرقية واليونانية. منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو وكل فلاسفة اليونان، كانت تجري محاولات مخصصة وجادة

للإجابة عن أسئلة الإنسان القلقة. من أين جاء وإلى أين سينتهي ولماذا؟.

وجاءت الأديان هي الأخرى لتجيب عن هذه الأسئلة. وبينما حاولت جميع الفلاسفات أن تبحث في العقل عن الإجابة، جاءت الأديان بأجوبة جاهزة غالباً لهذه الأسئلة الشائكة، وحملت معها فكرة الخلاص عن طريق تصعيد الروح. وقد وصل المسيح عليه السلام في دعوته إلى الخلاص بالتركيز على الروح إلى الذروة. وكان موسى عليه السلام قد قام بإيصال شريعة التطهير الجسدي من قبل. ولهذا كان من الطبيعي أن يشكل العهدان القديم والجديد كلاً متكاملًا في بناء الحياة الإنسانية على أسس صحيحة. إلا أن العهد القديم والجديد تعرضا لتعديلات وإضافات أفقدتهما الكثير مما جاء به الرسولان موسى وعيسى عليهما السلام. وكان لموقف اليهود من المسيح عليه السلام أثره في انغلاق اليهود على أنفسهم، لاعتقادهم بأنهم "شعب الله المختار" والذي قننته قوانين الأحبار اليهود بربطهم الشريعة الموسوية بالأنساب والسلالات اليهودية، مما جعل دين الله ديناً مغلقاً على اليهود بدون مبرر منطقي لإله هو رب العالم كله لا رب اليهود فقط. وإذا نظرنا إلى كل ما جرى من ضياع لأصول الرسالتين السماويتين اليهودية والمسيحية، والذي تدل عليه الإضافات المعترف بها على التوراة، وظهور عدة أناجيل معترف بها، مما يعرض كل ما وصلنا من التوراة والأنجيل إلى الشك بصحتها، وإلى الاستنتاج بأن ما وصلنا ليس كلام الأنبياء وإنما ما فهمه التلاميذ من كلامهم، فإننا لهذا سنجد أن كل هذه الملابس التي حدثت تقودنا إلى الاستنتاج بأن العالم كان بحاجة لرسالة جديدة صحيحة لا تحريف فيها، وكان من الطبيعي لإله يريد من البشر أمراً ما أن يرسل إليهم من يحمل هذا الأمر، وأن يخاطبهم بلغة يفهمونها، وأن يختار لهذا الأمر الإنسان المؤهل لحمل هذه الأمانة، والأمة الملائمة لنشرها. بهذا المنظار يجب أن نفهم ظهور الرسالة الإسلامية التي جمعت بين خطاب العقل وتصعيد الروح عبر تطهير الجسد. فكانت شريعة الشرائع التي أرادها الله لخلقه. فجمعت بين الإيمان والعقل للوصول إلى الإجابة على أسئلة الإنسان الكبرى.

ومع ذلك فإن الذين بالغوا بالبحث عن الإجابة في العقل حجبهم عقولهم عن المعرفة، كما إن الذين بالغوا بالبحث عن الإجابة بالإيمان لم يدركوا حتى وهم يكتشفون ما اكتشفوه أنهم توصلوا إلى الإجابة. وربما ظلوا في حيرة مما اكتشفوه ولذلك آثروا الصمت. والقليلون الذين صرحوا، اضطروا للإشارة إلى ما اكتشفوه بشكل غامض بسبب الظروف الاجتماعية التي كانت تحول بينهم وبين التصريح

بما اكتشفوه، لأن الجهل المسيطر والمفاهيم المغلوطة كانت تمنعهم من التصريح بالحقيقة، حقيقة الدين الحق المتمثل بالمعرفة، معرفة الله الصحيحة وليس بالطريقة التي يعرفه بها عامة الناس. لهذا حاول هؤلاء الذين وصلوا إلى معرفة الله أن يحيطوا كتبهم بالإشارات الغامضة والمصطلحات التي لا تتكشف إلا لمن وصل إلى مستوى قريب من العلم الذي وصلوا إليه. ولهذا فقدت هذه الكتب الكثير من تأثيرها لأنها لا تتكشف لغير العارف المدقق، وعبر تجربة خاصة لها ما يؤيدها في حوار الرسول صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن النعمان، أو الحارث بن مالك كما جاء في رواية ثانية: "عن أنس قال: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأنني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها. قال: أبصرت فالزم. عبداً نور الله الإيمان في قلبه. فقال: يا رسول الله! ادع لي بالشهادة. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد" (١).

فالوصول تحقق بعزوفه عن الدنيا. فرأى ما رأى من الجنة والنار ولم ينكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الإسراء الروحي. ومع ذلك جرى الإنكار على أهل المعرفة بعد ذلك. ولهذا استخدموا الإشارات لتجنب اتهامات الجهلاء لأن الظروف التاريخية كانت تحول دون التصريح بكل الحقائق، لأن مثل هذه الحقائق لن تكون مفهومة إلا لقلّة من الناس، فضلاً عما يمكن أن تثيره من مشاكل وضلالات قد لا تعود على الحقيقة وقائلها بأي فائدة، إذا لم تعد بالضرر. ولهذا أثر هؤلاء أن لا يكشفوا إلا عن ظلال من الحقائق لا تخفى على الخواص اقتداء بسيد العلماء والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: "لا تمنحوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم" ٢ و"خاطبوا الناس على قدر عقولهم" (٣).

وكذلك اقتداء بما جاء في إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام: "لا تعطوا الأقداس للكلاب، ولا تطرحوا جواهركم قدام الخنازير، لئلا تدوسها بأرجلها" (٤). ومن الملاحظ أنه قد ورد في الإنجيل ملاحظة حول هذه الفقرة في أسفل الصفحات تقول: "الكلاب والخنازير حيوانات نجسة" ولا ندري إذا كان

الخنزير نجساً فكيف يحل أكله! ولكن عصرنا الذي يشهد الاكتشافات اليومية، هذا العصر الذي أتيح فيه للإنسان أن يسير على سطح القمر، وأن يهبط بالمركبات الفضائية على سطح المريخ، وأن يكتشف بنور العلم عظمة الكون ومحدودية قدرات الإنسان وعجزه رغم علمه. هذا الإنسان الذي أصبح يعرف بأن الشمس ليست مركز الكون ولا الأرض كما كان يظن من قبل، وأن الأكوام ممثلة بالمجموعات المماثلة لمجموعتنا الشمسية والتي يحتمل أن توجد فيها الحياة، وأن يكون فيها بشر سبقونا بإبداعاتهم العقلية. كل هذه المسائل التي كانت تثير اضطراباً في نفوس السامعين غدت أموراً عادية مما يتيح المجال للإفصاح عما كان لا يفصح عنه إلا نادراً، بسبب ظروف اجتماعية وتاريخية وعلمية فرضت نفسها، مما كان يطوف في قلوب أهل المعرفة في شتى العصور. ولهذا ظل هذا العلم من العلوم الأسرار التي لا تلقن إلا سرّاً من الأستاذ إلى التلميذ أو من أهل المعرفة إلى من يرون فيه الأهلية والكفاءة لتلقي هذه الأسرار حفاظاً على مكانة العلم وغايته. لأن الهدف من العلم هو مصلحة الإنسانية. ولهذا إذا كان البوح بالحقيقة يضر بالإنسان وسيقوده إلى الضلال فإن الأفضل عدم البوح بالحقائق إلا لأهلها لنلا يدوسوها. ومع ذلك فإن القليل من العلم الذي باح به أهل المعرفة كان يثير الشجون والحيرة والقلق في النفوس، مما بات طبيعياً في عصرنا بل أصبح من الحقائق التي لا يجادل فيها مجادل. وقد أشار القرآن والأحاديث النبوية إلى وجود المخلوقات في الكون بشكل صريح فقال الله: **[ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة]** (٥). وجاء في الحديث: "قال الله عز وجل: يا جبريل إني خلقت ألف ألف أمة، لا تعلم أمة أنني خلقت سواها لم أطلع عليها اللوح المحفوظ، ولا صرير القلم، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون ولا تسبق الكاف النون" (٦).

وقد قال الشيخ أحمد الرفاعي: "له سبحانه من مصنوعاته ومخلوقاته في السماء الرابعة بحر رمل يجري مثل جريان الريح العاصف بقدرته من خلق السموات والأرض لا يعلم طوله ولا عرضه إلا الله تعالى. ولا يدري من أين يجيء وإلى أين يمضي إلا الله تعالى. بكل ذرة منها دنيا مثل دنياكم هذه. وما من ساعة تمضي في الليل والنهار إلا والله تعالى فيها قيامة تقوم على قوم وميزان ينصب، وصراط يمد، وقوم يدخلون الجنة، وقوم يدخلون النار، غير هذه التي ذكرت لنا، وغير هذه الجنان الموعودة لنا إن شاء الله تعالى" (٧).

كان مثل هذا الكلام يدعو إلى التساؤل فهل لدى هؤلاء الناس أديان وأنبياء

مثلاً، وأفكار وعلوم مثلنا؟. أو هل ستصل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث "رحمة للعالمين" إلى هؤلاء الناس. وهل العالمين كل الوجود أم أرضنا فقط، وهل الحقيقة المحمدية هنا نفس الحقيقة المحمدية هناك. وهل الحقيقة المحمدية السارية في الوجود عائدة للمعنى أم للصورة؟. وفي حديث ذكره الشيخ محيي الدين بن عربي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لقد خلق الله ألف آدم قبل آدم" وجاء عن علي رضي الله عنه قال: "خلق الله سبعين ألف آدم قبل آدم أبي البشر" (٨). ويؤيد القرآن هذه الحقيقة بقول الله: **[وكم أهلكننا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص]** (٩). وهذا التأكيد نفسه يتكرر في عدة آيات.

وهذا الكلام يقود إلى تساؤلات لا تقل إثارة عن التساؤلات التي يثيرها كلام القرآن والحديث وأهل المعرفة، وإن كان المقصود من مثل هذه الأحاديث الدلالة على قدم الإنسان في الوجود وبالتالي تتابع الخلق الإنساني بعد قيامة ذرية أبينا آدم في وقت لا يعلمه إلا الله. لهذا كانت كتب الشيخ محي الدين وأمثاله لا تقتنى ولا تقرأ إلا سراً. وما زال بعض المسلمين يحرم قراءتها لأسباب مختلفة. فبعض العلماء يحرمها لسوء ظنه بالشيخ، وبعضهم يحرمها لصعوبة فهمها على القارئ غير المتعمق مما لا تطبق بعض العقول فهمه وإدراكه، رغم أن فيها من الإشارات إلى بعض الحقائق المكتشفة حديثاً، مما يذهل العقول. قياساً إلى العصر الذي عاشوا فيه، والوسائل العلمية التي لم تكن بحوزتهم. فشاهدوا ببصيرتهم ما نعجز عن مشاهدته بأدوات الحضارة المعاصرة. فإضافة إلى الإشارات القرآنية عن العوالم المأهولة، تحدث الشيخ محي الدين بن عربي عن حفظ الجو للكلام الذي يقول به بعض العلماء الغربيين حديثاً فقال: "الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها، بخلاف الحروف الرقمية. وذلك لأن شكل الحرف الرقمي والكلمة الرقمية تقبل التغيير والزوال. لأنه في محل يقبل ذلك، والأشكال اللفظية (هي) في محل لا يقبل ذلك. ولهذا كان لها البقاء، فالجو كله مملوء من كلام العالم، يراه صاحب الكشف صوراً قائمة" (١٠). وقد نبه القرآن والأحاديث النبوية بلغة معاصرة لكل الأزمان إلى حقيقة تدوين كل ما ينطق به الإنسان من أجل الحساب.

ولكن رغم ما في هذه الكتب من العلوم ومن محاولات لربط الدين بالعقل والعلم والمعرفة، فإن ظروفنا كثيرة أدت إلى جعل هذه الكتب حكراً على عدد من الناس استغلوها في بعض الأحيان لمآربهم الشخصية وتفسيراتهم السطحية، مما

أساء إلى سمعة مؤلفيها، وشوه محتواها، وأدى إلى تحريمها أحياناً حرصاً على سلامة الشريعة من ضلال الضالين، وجهل الجاهلين. وأخص بالذكر كتب الشيخ محي الدين بن عربي كمثل على ما تعرض له من اتهامات بسبب سوء الفهم لكتبه أو تصرف متصوف جاهل وضع الشريعة في جيبه وادعى أنه من تلاميذه وأن الشيخ أستاذه، أو أستاذ أستاذه. وكل المتصوفة يقولون عن الشيخ إنه سلطان العارفين أو سلطانهم. ولكن لو سألتهم ماذا تعرفون عنه، فإن الجاهل منهم، وهم كثيرون، سيقول لك إنه يقول "بوحدة الوجود" أو "الحلول" مع إن الشيخ لم يقل مثل هذا الكلام. وهو العارف بالحقائق. ولهذا قال: "إن الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، إذ ليس كمثل شيء وهو السميع البصير" (١١).

وقال أيضاً: "لا حلول لأن الشيء لا يحل في ذاته، فإن الحلول يعطي ذاتين" (١٢). وقال: "أنت أنت وهو هو فاحذر أن تقول كما يقول العاشق - أنا من أهوى ومن أهوى أنا - فهل قدر على أن يرد العين واحدة. والله ما استطاع، فإن الجهل لا يستطيع فأتى بذكره وذكر من يهوى. ففرق واعتقد الفرقان تكن من أهل البرهان، لا بل من أهل الكشف والعيان، قد علمت أن ثم غطاء يكشف وقد آمنت به فلا تغالط نفسك بأن تقول أنا هو وهو أنا" (١٣). وقد نفى بشكل مطلق أي قدرة للإنسان على معرفة الله، كما هو، لكي لا يدعي مدع مثل هذه المعرفة المستحيلة. فقال: "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته" (١٤). فنحن نعرف عن الله.. عن آياته في خلقه.. ليس أكثر من ذلك.

ومع ذلك، فإننا لا بد أن نعترف بصعوبة قراءة كتب الشيخ ابن عربي، وربما استحالة فهمها دون مساعدة خبير بها، مما يبرر إلى حد ما النصح بعدم قراءتها دون مرشد عارف بها. وكدليل على هذه الصعوبة نقدم ما قاله الدكتور أبو العلا عفيفي، بتواضع يدعو إلى الإعجاب، عن معاناته حين حاول أن يقوم بدراسة كتاب ابن عربي "فصوص الحكم" لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة كمبردج عام ١٩٢٧. وكان قد اختار هذا الكتاب باقتراح من المستشرق الانجليزي المعروف نيكولسون، كما قال: "قبلت دعوة الأستاذ نيكولسون وأقبلت على قراءة كتب ابن عربي مبتدئاً بالفصوص فقرأته مع شرح القاشاني عليه عدة مرات، ولكن الله لم يفتح علي بشيء! فالكتاب عربي مبين، وكل لفظ فيه إذا أخذته بمفرده مفهوم المعنى، ولكن المعنى الإجمالي لكل جملة، أو لكثير من الجمل، أغاز وأحاج لا تزداد مع الشرح إلا تعقيداً وإمعاناً في الغموض. ذهبت إلى الأستاذ أشكوه حالي،

وأذكره بأن هذه أول مرة استعصى علي فهم كتاب باللغة العربية إلى هذا الحد. فنصحتني بترك الفصوص والإقبال على كتب ابن عربي الأخرى، فقرأت منها نيفاً وعشرين كتاباً ما بين مطبوع ومخطوط، منها الفتوحات المكية. وهنا بدأت تتكشف لي معاني الشيخ ومراميه بعدما أصبحت على إلف باصطلاحاته وأساليبه. فلما عدت إلى الفصوص وجدته مع صغر حجمه خلاصة مركزة لأمهات تلك المعاني، ووضح لأول مرة ما كان منه مستغلقاً، وأصبح يسيراً علي فهم ما ألفتته بالأمس عسيراً^(١٥). فإذا كان هذا حال المختص بالفلسفة الإسلامية مع ابن عربي، فماذا سنقول عن حال غير المختص. ومع ذلك فإن د. عفيفي أخطأ في فهم بعض إشارات ابن عربي وكلامه. ولهذا سيقول: "ولكن ابن عربي وإن وهب بسطة في الفكر والخيال، وعمقاً في الحس الروحي، يعوزه المنهج الفلسفي الدقيق والتحليل العلمي المنظم. فهو من غير شك فيلسوف صاحب مذهب ومؤسس مدرسة، ولكنه فيلسوف أثر أن يهمل منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والإشارة والاعتماد على أساليب الخيال في التعبير"^(١٦). ومع أن ابن عربي لم يقل عن نفسه إنه فيلسوف. والفرق بين كلام العارف وكلام الفيلسوف كالفرق بين المشاهد وغير المشاهد، مع ذلك فإن د. عفيفي لم يفهم المنهج العقلي الذي سار عليه ابن عربي، ولم يدرك معنى "الخيال في التعبير" كما يتضح من كلامه. وسوف يقع في نفس الإشكالات تقريباً الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه "فلسفة التأويل - دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي"^(١٧). وهذه مشكلة استوجبت التوضيح وإن كانت لا تستوجب التحريم، أي تحريم كتب الشيخ، لأن القرآن نفسه أبيحت قراءته للعالم والجاهل.

ولسنا هنا بصدد عرض الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين في كتب ابن عربي، ولكننا أردنا الإشارة إلى الصعوبات التي يتعرض لها قراؤه، وسوء الفهم الذي قد يتوصلون إليه حينما يعتمدون على قدراتهم العلمية والبلاغية لدراسته، دون سلوك طريق العبادة والطهارة وتنقية سريرتهم وعلانيتهم، مما يحول دون الوصول لإشراق قوى العقل الكامنة في الإنسان التي سيعرف بواسطتها نفسه وربّه معرفة اليقين. لأن تكوين الإنسان هو المعلوم الأقرب والدليل الأعظم على الله، وابن عربي وأمثاله كتبوا كل كتبهم لمساعدة الناس على تحقيق هذه الغاية، تجسيداً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من عرف نفسه عرف ربه"^(١٨). لأن من عرف نفسه وربّه، سيتصرف في حياته تصرف العبد المطيع لله عن معرفة ويقين، فلا يعدو مقامه، ولا يتجاوز حدوده، ويعطي لكل صورة في الوجود حقها الذي تستحقه، وإن كان في باطنه كالنحلة التي لا تأكل إلا طيباً، ولا تخرج إلا

طيباً، كما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن.

إننا والحمد لله ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين، وقد توصل الإنسان إلى ما توصل إليه من اكتشافات على الأرض وفي الفضاء، قد يكون أن الأوان للكشف عما يحمله الدين من معرفة تليق بأجيالنا المعاصرة التي لم يعد يكفيها منطلق آمن ثم فكر، بل إنها تحتاج إلى المعرفة لكي توفق بين الدين والعلم. وقد جاء في القرآن: **[سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يعلموا أنه الحق]** (١٩). إن آيات الله تتابع بدون توقف عن طريق العلم وجهود الإنسان المبذولة لاكتشاف الفضاء وسبر أغوار الأرض والتعرف على أسرار عالم النبات والحيوان، والمعجزة الكبرى للإنسان سر العالم وكنزه وغاية الغايات في الإبداع الإلهي، حيث خلقه على صورته وأعطاه الخلافة في الأرض ليكون المسؤول عن الأمانة الإلهية الموهوبة له عن جدارة واستحقاق لقدرة على أداء هذه الأمانة. ولكن قبل أن نخوض في فحوى هذه الأمانة لا بد أن نبدأ من معرفة الله الواهب، لكي نكون على مستوى المعرفة عندما نبلغ اليقين والطمأنينة إلى حقيقة هذه المعرفة ومغزاها. وإننا إذ نحاول فإننا سنتعرض لكل ما أثارته الأديان والفلسفات المثالية والمادية دون التعرض للتفاصيل التي لا ضرورة لها والتي لا تضيف جديداً إلى المعرفة التي نبحث عنها. إذ لا فائدة من استعراض الأسماء الكثيرة التي مرت في تاريخ الفلسفة أو استعراض الجدل الذي قام بين الفقهاء والفلاسفة المسلمين من شتى المذاهب ما دمنا نزيد الوصول إلى الحقيقة عبر أقصر الطرق وأسهلها. وإنني أحب أن أشير إلى أنني لست من الذين يدعون الإبداع فيما أعرضه إنصافاً لنفسى ولغيري، وإنما أنا من المتتبعين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما قرأته من الشروح التي قام بها عدد غفير من المسلمين لفحوى الرسالة وحقيقتها منذ بدايات الإسلام إلى عصرنا الحاضر. وأخص بالذكر لما كان له من تأثير علي فيما توصلت إليه وفهمته من أستاذاي الروحي الشيخ محي الدين بن عربي الذي تعلمت منه كل ما استعصى علي من الأمور التي لم يتح لي استيعابها إلا بقراءة كتبه التي هي بحق كما فهمتها الشرح العبقري لكل ما جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل لم يتح لي الاطلاع على مثيل له في كل الثقافات والشروح التي اطلعت عليها. وإنني إذ أعرض بعض ما شهدته في القرآن أو الحديث الشريف لا أدعي لنفسى سوى محاولة تجميع بعض ما رأيته في هذه الكتب وصياغته بأسلوبي الخاص، وإنني أتحمّل لوحدي مسؤولية سوء الفهم أو

أي أخطاء أو استنتاجات لا تتفق وجوهر المعرفة الإسلامية التي احتوت على إجابة عن كل التساؤلات التي نحن بصددھا. فكل المسلمين في الحقيقة تلاميذ لأستاذ الأنبياء، فكيف إذا كنا تلاميذ التلاميذ. نسأل الله المغفرة والعفو وأن يجعل ما نقوم به من عمل لوجهه الكريم، فهجرتنا إليه وكلامنا إليه. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قيل له إن البعض هاجر لامرأة يصيبها أو مال ينتفع به فقال صلى الله عليه وسلم: "كل لما هاجر له". وإذا كنا لا نملك إلا القليل من العلم، وهذا ما يشهد به العلماء رغم كل المحاولات المعرفية المبذولة. وقال الله: **[وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً] (٢٠)**. وقال الخضر عليه السلام وهو الذي كلف بتعليم سيدنا موسى: "علمي من علم الله كطائر غط منقاره في بحر من الماء وخرج بقطرة واحدة". فإذا كانت هذه حدود المعرفة الإنسانية للكاملين فماذا نقول عن علومنا؟ ولكن ما لا يعرف كله لا يترك كله. فإننا لهذا آثرنا أن نطرح في هذا البحث ما تعلمناه وفهمناه مع عجزنا وضعفنا ونحن لا نملك إلا الإخلاص لله ولرسوله الأمين وللناس أجمعين من ذرية آدم.



■ مراجع المقدمة

- ١- كنز العمال - رقم ١٣/٣٦٩٩١
- ٢- ابن عربي- الفتوحات المكية ج ٨ ص ٢٥٩. "م" وهي إشارة إلى الطبعة المحققة.
- ٣- محمد الرفاعي- قلادة الجواهر، ص ١٦٣
- ٤- إنجيل متى- ص ١٣.
- ٥- سورة الشورى- الآية ٢٩،
- ٦- كنز العمال- رقم ١٠/٢٩٨٤٤
- ٧- محمد الرفاعي- قلادة الجواهر- ص ١٦٣
- ٨- الرواس- المجموعة النادرة لأبناء الآخرة، ص ٤٠،
- ٩- سورة ق- الآية ٣٦،
- ١٠- ابن عربي- الفتوحات المكية، ج ٣ ص ٢٠٧ م.
- ١١- ابن عربي- الفتوحات المكية، ج ٤ ص ٢، الطبعة غير المحققة.
- ١٢- ابن عربي- الفتوحات المكية، ج ٤ ص ٧١، الطبعة غير المحققة. وقد أشرنا إلى الطبعة المحققة ب م.
- ١٣- ابن عربي- الفتوحات المكية، ج ٤ ص ٤٠١، الطبعة غير المحققة.

- ١٤- ابن عربي- الفتوحات المكية، ص ٢١٢ / ج ١ م.
١٥- د. أبو العلا عفيفي- فصوص الحكم والتعليقات عليه- ص، ٢١
١٦- المرجع السابق- ص، ٩
١٧- د. نصر حامد أبو زيد- فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي.
١٨- ابن عربي- الفتوحات المكية، ص ٢٨٦ / ج ١ م.
١٩- سورة فصلت الآية، ٥٣
٢٠- سورة الإسراء الآية ٨٥.





الفصل الأول :

الإشراق بالعقل



وسيلة المعرفة

سنبدأ الحوار الذي نحن بصدده في البحث عن وسيلة المعرفة التي يقوم الإنسان بواسطتها في اكتشاف أسرار عالم المعرفة، أي معرفة كانت ومن أي مستوى. فما هي هذه الأداة وما هو مدى صلاحيتها في اكتشاف المجهول. وهل هذه الصلاحية مطلقة أم إنها صلاحية نسبية قابلة للصواب والخطأ. أعتقد بأننا لا نختلف بأن الأداة الوحيدة المتاحة لنا استخدامها في معرفة الوجود هي الإنسان بكل ما يملك من قوى. وهذا الإنسان يجب أن يملك من الوسائل لإدراك الوجود المحيط ما يعادل الوجود المطلوب إدراكه وإلا فإن المحاولة لن تنجح. وكمثال على ذلك إذا كنت أريد أن أقوم بوزن ألف كيلوغرام من الحديد لا بد لي من ميزان مناسب للقيام بهذه العملية. ولكن إذا كان لدي ميزان لا يزن إلا عشر كيلوغرامات فإنني أستطيع أن أقوم بعملية الوزن على مراحل، كل مرحلة عشرة كيلوغرامات حتى أصل إلى الوزن الصحيح. وإنني أستطيع باستخدام المراحل أن أزن في هذا الميزان ملايين الأطنان، وأن أتأكد من صحة الوزن ما دامت كل العمليات التي أقوم بها صحيحة. والعقل في هذا الإطار هو ميزان وهو الميزان الوحيد المتاحة والذي نحكم به على الحقائق. فالإنسان هو الوجود مختصراً. والعقل هو الإنسان مختصراً. وهكذا سيكون لدينا وجود غير معروف، يقابله في الطرف الآخر الإنسان الوجود مختصراً. وميزان حاكم بين المشهود والموجود، والشاهد الإنسان. هذا الميزان هو العقل، يحكم على الشاهد والمشهود، فهو كالمؤشر بين كفتي الميزان.

ولكن من أين لي الحق بالاطمئنان إلى صحة ما يشهده العقل. وقد أخطأ كثير من العقلاء والفلاسفة والعلماء، وما زالت الآراء تتناقض والأفكار تتصارع وكلها من إنتاج العقل وأحكامه؟ ومن أين جاء العقل ولماذا سأعطيه هذه الصفة والصلاحية في الحكم على الوجود؟ لهذا قد يكون علينا أن نعود إلى فهم حقيقة الإنسان. فالإنسان من حيث التركيب، وليس من حيث الخلق، فخلقه الله. هو من

الطبيعة وهو من مادتها كما نشاهد من نموه بها وفناء عناصره فيها عند الموت. والطبيعة هي الأم الحامل لأسرار الوجود وصوره، كما إن آدم يحمل ذرية كل أبناء آدم بالقوة لا بالفعل. والطبيعة لا تستطيع أن تُظهر غير ما فيها، كما لا تستطيع أن تُخفي ما فيها وإن خفي علينا. ولهذا إذا نظرنا إلى عوالم النبات والحيوان من حيث الحقيقة سنجد كل هذه الكائنات مركبة من عناصر الطبيعة، والطبيعة تشبه إلى حد بعيد حروف اللغة. فكما تتألف الكلمات التي يتحدث بها البشر وبيدعون من عدد من الحروف لا تتجاوز في لغتنا العربية ثمانية وعشرين حرفاً. فكذلك الطبيعة تتألف من عناصر أو جواهر أو حروف، وهذه العناصر هي التي يتركب منها إبداع الطبيعة في النباتات والحيوان والإنسان في كل عصر ومرحلة من مراحل الزمان. وقد يكون من المناسب لتبسيط المسألة أن نقول: إن حروف الطبيعة التي اتفق عليها الأقدمون، وهي التراب والماء والنار والهواء، هي الحروف التي يكون الله منها ما يريد إظهاره في الوجود ويدفع به إلى الظهور. والوجود هو الوجود نفسه لا غيره. الوجود الكامن في الكل. لهذا كان النبات في مرحلة هو الطور الأعلى لتعبير الوجود عن نفسه. وفي مرحلة ثانية كان الحيوان أكثر كمالاً لأنه أكثر تعبيراً وأكثر تحرراً. كأن النبات هو طفل الطبيعة الذي لا يستطيع أن يبتعد عن ثدي أمه، بينما كان الحيوان هو مرحلة مراهقة الطبيعة وشبابها الذي أصبح فيه الطفل يجري على هواه، ولا يتعلق بثدي أمه طوال الوقت. ثم جاء الإنسان المنتصب على قدميه ليظهر ليس فقط حكمة الطبيعة وقوتها وجمالها بل عزتها وعظمتها. فهو صورة التراب والماء والهواء والنار المتحولة إلى اعتزاز بوقوفه الوقور بين يدي الأيوين، الشمس والكواكب المرسله بتأثيرها ودفئها إلى الأرض، والأم الحاملة والمغذية والواهبه له الجسد من الأرض. ولهذا كان الإنسان بالحقيقة هو المرآة العاكسة لحروف الطبيعة كلها. فهو عندما ينظر إلى نفسه ويبصر تركيبه وتغذيته سيجد نفسه بأنه من هذا المزيج من عناصر الطبيعة. وعندما ينظر إلى عقله سيدرك بأن هذا العقل النافذ في الصور والحاكم على الوجود ليس غير هذا الوجود المركب من نفس العناصر وقد تجلى في صورة جديدة هي صورة المعرفة التي ستنتطق بفضل اللسان بتمجيد الوجود في حروف اللغة المترجمة إلى كلمات في لوحة الحق الخالد، وهذا العقل المؤشر بين كفتي الميزان، بين وجوده الفاني، والوجود الخالد، لغز من ألغاز الطبيعة المتمظهرة في صورة من الصور غير المادية، مثل الضوء الذي يدرك أثره ومصدره ولا تعرف مادته. فهو نور الشمس الذي أشرق بالإنسان ليخرق به حجب ظلمة الكون، ويعرف أسرار الكهرباء

والإلكترون والذرة ويطير الطائرات والمركبات الفضائية باستخدام قوانين الوجود المكنونة بالوجود والمضاءة بالمعرفة الإنسانية. ما أصغر حجم الإنسان بالقياس إلى الوجود. ولكنه مثل الساعة التي تقيس حركات الكواكب ودورانها بالثواني والدقائق وهو مخترع الساعة وفقاً لنظام الكون. إنه العقل المتجلي عن الكون ليشهد الكون. وهو بحجمه المادي لا يقاس بالكون ولكنه بحجمه المعنوي يتسع للإنسان إن هناك مليار مليار مجموعة شمسية مثل مجموعتنا فإنه سيستوعب بسهولة هذه المساحة الشاسعة لكون بهذا الحجم بواسطة الخيال الذي سيمتد بشفاافية ليصير ويشهد صور الحياة في هذه الأكوان ويرسمها. **وهو ما هو الإنسان بالقياس إلى حجمه؟** لهذا عندما نقول إن الإنسان هو مختصر الوجود وهبته، فهو أيضاً الصورة المقابلة له والعارفة به وبعظمته. ولا تُعرف عظمة العظيم إلا من عظيم. كما لا يُقدر الحكمة إلا حكيم. لهذا يجب أن نطمئن إلى طبيعة العقل الإنساني وصدق أحكامه لأن الإنسان بما جُمع له في نشأته احتوى على كل عناصر الوجود. فهو من جهة الروح يحمل سر العقل وعظمته. وهو من ناحية الطبيعة يحمل كل عناصرها وما نشأ فيها. إذ فيه ما يشبه النبات في نموه كالشعر، وفيه ما يشبه غرائز الحيوان، بل إن فيه الأنهار التي تغذي جسمه، وجبال العظام التي تحفظ هيكله. فهو صورة الطبيعة ورمزها. ولهذا كما قال علي رضي الله عنه: "أتحسب إنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر". والإنسان وإن كان قطرة من بحر الطبيعة الصاخب بالحياة. فالقطرة هي كل البحر، ولهذا كان يحق للشاعر أن يقول: "أنا القطرة التي صارت بحراً".

ولكن لكي لا نختلف حول طبيعة العقل المطبوع بالطبيعة، وماهية هذا العقل العاكس للوجود، فإننا يجب أن نفرق بين أدوات العقل والعقل. فالعقل وإن كان يظل عقلاً بالأدوات نقصد السمع والبصر والشم والذوق واللمس والنطق المعبر عن كل هذه الأدوات ودون بعضها أو دونها كلها، إلا أنه بنقص إحدى هذه الأدوات سينقصه نوع من المعرفة. ولهذا طالبت الشريعة الإنسان الكامل بالكمال في أداء ما عليه وأنقصت عن الإنسان الناقص وخففت. فكان الحكم الشامل "إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب". فالأعمى منذ الولادة لا يستطيع أن يصف لنا الألوان، ولا يستطيع أن يخبرنا عما في أيدينا. والطفل المبصر لا يستطيع أن يفرق بين الماء والنار إلا بوسيلة أخرى تدخل في مجال حب البقاء وإن كان يملك عقلاً. فالعقل في مرحلة من العمر والخبرة وإن كان نفس عقل الشخص هو غير عقله في الطفولة. وعقل المريض وإن كان يمتلك كل الحواس هو غير عقل

السليم. وعقل العالم هو غير عقل الجاهل. لهذا يصبح لدينا مستويات من العقول. والعقول السليمة ترتكز إلى أدوات سليمة أي حواس سليمة. ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى خبرة الحواس دائماً. فالعاقل يستطيع أن يشهد الجمال وهو مغمض العينين. والخيال حسان العقل يستطيع أن يسافر إلى أي مكان في الكون بلحظات أسرع مما تفعله المركبات الفضائية. وفي العقل مخزون من المعارف المتوفرة منذ تكون الإنسان كبذرة في رحم الأم. وهذا ما يدعونا إلى القول بأن الإنسان الذي حمل العلوم كلها منذ ظهور الإنسان إلى آخر إنسان في الوجود هو آدم أبو البشر الذي كان يحمل كل العلوم بالقوة، ولكن الأبناء قاموا بإظهارها بالفعل. ولكن ما هو الدليل على هذا الكلام؟ إن كل قضية ستحملنا إلى الغوص أكثر فأكثر حتى نتوصل إلى الحقيقة. إن العقل كما قلنا له وجوده المستقل في الإنسان بوجود الحواس أو بدونها. ولكن العقل السليم هو في الجسم السليم. لأن الحواس هي شهود العقل. والعقل إذا نظرنا إليه من حيث طبيعته كما قلنا هو مختصر الإنسان. والأدوات، الحواس هي مختصرات أخرى لوجود الطبيعة. فالسمع هو عقل يعقل المسموعات والأصوات. والبصر هو عقل جزئي يبصر الصور. والشم هو عقل جزئي يشم الروائح ويحكم عليها. والتذوق هو عقل يحكم على ما في الطبيعة من حلو وحامض وغيره من المطاعم. واللمس هو عقل جزئي يحكم على النعومة والخشونة. والإحساس هو عقل جزئي نحكم به على الحرارة والبرودة. وحتى الغرائز هي عقول جزئية مبنوثة فينا للتعبير بلغة مادية عن حاجات الطبيعة، فبينما يهيم البصر بالجمال فيترجم العقل هذا الهيام إلى لغة جميلة وشعر وموسيقى فيأمر اللسان بترجمتها إلى حروف، فإن غريزة الجنس العاقلة تقوم بالطلب إلى العقول بترجمة لغته إلى فعل مادي للامتزاج بالآخر المحبوب حيث تعود الطبيعة إلى الامتزاج والتلاشي لتخلق من جديد في رحم الأم الأرض. كما إن جوع المعدة ينطق لدى العقل بحاجته إلى الطعام للحفاظ على توازن الجسم وبقائه. والأخبار والأحكام والطلبات تأتي إلى العقل من كل الجهات في الجسم. والعقل مصغ ملب لطلبات الجسم وحاكم على ما يريد وما لا يريد. فلو أن شوكة أصابت منطقة في الجسم، فإن هذه المنطقة ستئن بالشكوى إلى العقل فيأمر العقل اليد بالامتداد لنزع الشوكة. وهكذا فإننا لو نظرنا إلى تركيب الجسم الإنساني مع العقل لوجدنا بأن لدينا في كل ذرة من ذرات الجسم عقلاً جزئياً يدرك ما ينفعه وما يضره، وله لغته الخاصة مع عقل الإنسان الكلي الشامل والمتصل بكل ذرة في أنحاء الجسم. وهذا العقل الترجمان للطبيعة الإنسانية هو حاكم على الجسم وخبير به. ولكنه غير حاكم على موجدته، فموجدته يحكم عليه

في النهاية عبر رموز ومقدرات وأسباب نعي بعضها وبعضها لا نعيه، وربما لن نعيه، وإن كانت هذه الرموز موجودة في الجسم، ولكن العقل لم يتمكن من اكتشافها، أو حل رموزها. ما الذي يتكون لدينا من هذه الصورة التي نشهدها في الإنسان؟. إن العقل الإنساني يبدو كما لو إنه متربع على قمة مركز للاتصالات والأخبار تأتيه من كل جهة، والعقل ينظر إلى كل اتصال ويتفحصه ثم يرد عليه بما يناسبه. فالعقل يستفيد من الأخبار لمعرفة أحوال الجسم، والجسم يستفيد من العقل للقيام بتأمين احتياجات الجسم. وهكذا تتحقق المنفعة المتبادلة للطرفين بقدر ما يكون للعقل من سلطان على الجسم، وبقدر ما يكون للعقل من الحكمة في إقامة التوازن بين شتى حاجات الجسم. وهذا العقل الظاهر من الإنسان بالحقيقة ليس كل العقل. ويمكن أن نسمي هذا العقل بالعقل الحافظ للبقاء. وهذا العقل يرافق الإنسان منذ تخلقه في بطن الأم إلى نهاية الحياة. فالطفل المخلوق في بطن الأم يعرف كيف يأخذ حاجته من الغذاء وكفايته بدون زيادة أو نقصان لحفظ بقائه. كما يتبع هذه القواعد عندما يولد ويمد فمه إلى ثدي الأم فيأخذ من الحليب بقدر الحاجة لا أكثر ولا أقل من ذلك. كما تقوم المعدة والأجهزة الأخرى بالجسم بتصريف الزيادة وامتصاص ما تحتاجه من الغذاء مما يناسبها بعد أن يتحول هذا الطعام إلى دم وماء وأملاح مما نشهده يومياً في سلوك أجهزة الجسم. حيث تبدأ مهمتنا بتحضير الطعام وتنتهي بعد إدخال اللقمة إلى الفم ومضغها ودفنها إلى البلعوم، ثم تبدأ أجهزة الجسم بالعمل دون تدخلنا الإرادي لرعاية البدن والمحافظة على بقائه، بتوزيع الغذاء المناسب لقوانا المختلفة. وهذا ما يحدث أيضاً في الطبيعة في عالم النبات والحيوان. فكل عالم يكشف عن النظام الملائم لحفظ بقائه باستخدام الغذاء المناسب له من ناحية النوع والكم. ولكن عالم النبات كما قلنا إذا كان يشبه عالم الطفولة في الإنسان، حيث يعتمد على إصاق جذوره في الأرض بشكل دائم كالطفل الذي لا يفارق أمه. والحيوان يمثل عالم المراهقة أو مرحلة ما بعد الفطام بابتعاده عن الأم وانفصاله عنها واستقلاله في اختيار أنواع طعامه والبحث عن هذا الطعام كلما احتاج إليه. إن هذه الحرية التي يتصرف بها الحيوان لحفظ بقائه في مختلف الظروف التي يتعرض لها هي التي تميزه عن النبات. وبهذا الظهور يُكشف أكثر فأكثر عن تجلي الطبيعة المذهل والمعقد في الصور المختلفة للحيوانات التي تعيش في الماء أو على سطح الأرض أو التي تطير في الهواء. فالطبيعة تتجلى هنا في ملايين الأنواع من الحيوانات كما تجلت بملايين الأنواع من النبات. وفي كل تجل من هذه التجليات ينكشف لنا مستوى من مستويات العقل الذي نريد أن نطمئن إلى قدرته على المعرفة والاكتشاف

والتمييز وإطلاق الأحكام. إن هذه العقول تجلت بحسب الصورة التي ظهرت فيها. فعقل الحمار غير عقل الذئب، وعقل شجرة التفاح غير عقل شجرة الياسمين، فالأولى تأخذ الغذاء من الأم الأرض والهواء والشمس فتحوله إلى تقاح لذيق الطعم طيب المذاق، أما الثانية فتحول نفس هذا الغذاء وفق برنامجها الخاص إلى عطر طيب الرائحة يدغدغ المشاعر ويثير الشجون. فأين اللامعقول في وجود كل ما فيه يكشف عن العقول. عن ملايين العقول. فهل يا ترى تدور الأرض، وتطير الشمس والكواكب والأقوان كلها بدون عقول تدرك بها حدود مسارها، وتمضي بالصدفة وتعود بالصدفة؟. والنملة تتكلم بما فيها من الخبرة لتخزين الغذاء وقضم الرشيم من الحبوب التي تخزنها حتى لا تتب وتفسد. والنحلة تفصح عن خبرتها في الهندسة ببناء الخلية وفقاً لأفضل الأساليب للحيلولة دون إبقاء أي فراغ في خليتها وتخبرك عن ذكائها في اختيار الرحيق اللذيذ الطعم الذي يعجز الإنسان عن جمعه وأنت تتهمها باللاعقلانية. وهذا وذاك وكل ما تراه من صور الوجود على الأرض وحتى نفسك وعقلك هو ابن لهذه الطبيعة المنسوجة من تراب الوجود، وخيوط الشمس التي تتلألأ في كل صباح لتبعث بالدفء والنور إلى الأرض الأم. وماء الحياة الذي يتدفق لإنماء الصور العطشى إلى الظهور عبر ملايين الأنواع من الأزهار والثمار والحيوانات. فإن كنت لا تعرف من أنت ومن أمك وأبوك فانظر إلى ذرية الأرض واسمع أصواتهم واشهد صورهم، وتذوق وتحسس، فإن عرفت من أنت ومن هم فاعرف حق أمك وأبيك. وإن لم تعرف فاسأل نفسك، واسأل سمعك واسأل بصرك. فإن علمت بأنك تسمع وتبصر وتعمل بأن كل ما في الوجود له عقل وسمع وبصر ونطق ولغة. فاعلم بأنك الجامع لخواصهم، وبأنك مختصر الوجود الحادث في الوجود. وبأن عقلك هو عقل الكل، وسمعك سمع الكل، وبصرك بصر الكل في عالمك المحدود ومجموعتك الشمسية. ولهذا سخرت لك المجموعة وكننت فيها السيد الذي لا ينازعه في سيادته منازع، لتعرف عظمتك بمعرفتك لعظمة من تنتمي إليه ومن أعطاك ما أعطاك. الواهب الذي أرادك لتكون له عنواناً ومظهراً فتعرف حقه بالقدر الذي وهبك من الحقوق والقدرات "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان". وأما العاق لوالديه والجاهل بهما فهو بنفسه أجهل ويحق أخوته من أبناء آدم أكثر جهلاً، وليس له إلا الطرد من حب من أحبه وأظهره وأعطاه. إن العقل الإنساني يشهد لنفسه وفي نفسه وفي الوجود مظاهر العقل المتنوعة وتجليات العقول من الذرة إلى المجرة. وهو ابن الطبيعة المطبوعة والجوهرة المكونة الخفية في قلب الوجود قبل أن تظهر. والظاهرة بأحكامها وجلالها وصورة حاملها بعد أن ظهرت. فهل هناك أي مجال للشك أو

الإنكار لمعرفة العقل وقدرة العقل وسلطانه. ولكن لماذا يخطئ العقل الإنساني؟. ومع ذلك فإننا يجب أن ننبه إلى أن هذه القوى التي سميناها عقولاً جزئية تتجاوزاً، ليست في الواقع إلا آلات تعمل وفق نظام محدد لا تستطيع أن تتجاوزه. ولكن بما أن عمل كل ذرة في الكون، ما هو إلا تجلٍ للنظام السائد، وصورة من إبداعات العقل المهيمن على الوجود. لذا سمينا ما نراه من نظام وإبداع من حيث هو مرآة للعقل الشامل عقلاً جزئياً. وهذا يعود لرؤيتنا للمسبب وليس للأسباب. وأما إذا أردنا أن ننظر إلى الأجزاء، الصورة، في حركتها المستقلة عن الكون، من الطبيعي أن نشاهدها كآلات في النظام السائد. ولا يصح عندها أن نسمي استجابات الحواس أو الأنظمة السائدة في الكون عقولاً. لأن من أبسط مزايا العقل الإبداع. وعند هذا النظر، أي الأسباب، تصبح فعاليات الكون كله آلات في مسيرة الوجود المطلق، لتحقيق تجليات العقل الإلهي وإرادته. وسوف تتضح هذه المسألة في الفصول القادمة.

أخطاء العقل

إن الجسم الإنساني بشكل عام هو تركيب من كافة عناصر الطبيعة، ونقل اختصاراً الماء والهواء والنار والتراب. وهذا التركيب يجعله في وضع يحن فيه إلى أصوله المادية والروحية، إلى أمه الطبيعة وأبيه العقل. ولهذا فإنه في المرحلة الأولى من حياته يعيش مع أمه لا يكاد يفارقها، فهو ينشغل بغرائزه ولا يبصر من العقل إلا وميضه، ولا يبصر من هذا الوميض إلا عقل حب البقاء. فهو يعقل ما يحفظ له حياته ويسعى لهذا الحفظ. ثم في المرحلة الأعلى حينما ينمو العقل ويقوى ويبدأ بالتفكير المجرد يبدأ الصراع بين الميل إلى الأب والاستمرار في العيش بأحضان الأم. والأب لا يطلب من الإنسان في مرحلة الشباب الانقطاع عن أمه وإنما التفكير في أبيه والتعلم منه والالتفات إليه للوصول إلى مرحلة الرجولة. يطلب منه أن يتعلم كيف ينظم غرائزه المنتمية إلى الطبيعة. غريزة الجوع ومن ثم الجنس. وأن يصغي إلى غرائزه المنتمية إلى عالم العقل والتي تتغذى بالأمور المعنوية حيث يتغذى السمع بالمسموعات والبصر بالمشاهدات والشم بالمشمومات واللسان بالنطق للتعبير عما يسمع ويشهد ويتذوق. وهذه القوى الفاعلة في الإنسان تشترك جميعها في كل مراحل العمر بالتأثير على الإنسان. ولكن معرفة الحقائق تتعلق بنمو بعض القوى وضعف بعضها. فمن تشغله هموم المعدة، ويكون همه بطنه لا يمكن أن تنمو لديه القوى الأخرى وسيظل قريباً من

الطبيعية، وستضعف لديه القوى العقلية. وأما من تشغله غرائزه الجنسية فإن هذه الغريزة بما لها من قوة وفاعلية ستضعف القوى الأخرى بشكل قد يعطلها عن العمل وقد يحطمها إذا وصل هذا الانشغال إلى حد الهوس بالجنس. أما إذا كان الانشغال بالقوتين المذكورتين، غريزة المعدة والجنس، فإن الإنسان في هذه الحالة لن يكون أفضل من الدواب، وقد يكون أضل سبيلاً، لأنه لم يأخذ من نور العقل ما يساعده في الترقى عن مستوى الدواب. أما إذا ارتقى بإحساسه إلى قواه الأقرب، إلى شفافية العقل فسمع الحكمة وأبصر جمال الوجود فإنه لا بد أن يرتقي إلى رؤية بعض الحقائق أو تذوقها. وعند ذلك يبدأ في الصعود على أول درجات إنسانيته. ويقدر انشغاله بالترقي عبر إحدى هذه القوى فإنه سيستخرج من ذاته كنزه الدفين فيه إما شعراً أو بلاغة أو موسيقى إن كان من الذين يهتمون بالمسموعات، أو تصويراً أو رسماً إن كان من الذين يهتمون بالمرئيات. إذ إن كل قوة ستفيض بما فيها من العلوم على قدر عناية صاحبها بها. أما الحكيم فإنه ذاك الذي يستخدم كل القوى التي لديه ويحيلها إلى العقل ليستخرج من خزانة العقل ما لم يتوصل إليه غيره فيكون سابقاً غير مسبوق، ومبدعاً لا مقلداً. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الحدس أو الكشف. وهذا الموضوع سنتحدث عنه في المواضيع القادمة لأننا الآن بصدد مشكلة بحث أخطاء العقل. إن العقل الإنساني، كما استنتجنا، قادر على اكتشاف الحقائق. ويقدر صفاء كل عقل فإن بعض الحقائق ستشرق لصاحبه بإمداد ذاكرة العقل المهيأة للمعرفة. وبهذه القوة الكامنة سيكتشف المكتشف قوانين الوجود أو المعارف الجديدة التي لم يسبق إليها لينال قصب السبق. ولكن العقل المشغول بالترهات لن يأتي بغير الترهات.

وكمثال على عجز عقولنا عن إدراك كل ما يأتي من عالم الحواس الأقرب إلينا وأسباب هذا العجز، نقول: إننا لو كنا مجموعة، نجلس في مكان ما، وأمامنا التلفزيون، ونحن ننظر إليه ونتحدث بأمر تهمنا غير مبالين بما يعرضه التلفزيون ومر خبر ما، فإن أحدنا قد يلتقط من هذا الخبر اسم دولة ما يهمله أمرها فيتساءل ماذا قالوا عنها. وربما سيجيب الجميع لم تنتبه، مع أن التلفزيون يعرض الصور، والمذيع يتكلم ونحن نسمع ونبصر، ومع ذلك فإن الخبر قد فاتنا، وهذا أمر طبيعي وكثيراً ما يحدث معنا. ولهذا كانت قدراتنا على ضبط الوردات إلى عالم الحواس أصعب بكثير في حالة اليقظة منها في النوم لأننا في النوم إذا لم نكن منسغلين بالهواجس والمشاكل تكون قوانا في حالة ارتياح مما يساعد العقل على النشاط، والخيال على الانطلاق فيأتي بالعلوم والأخبار لسبب سنذكره في الصفحات القادمة. هذا الذي يحدث في النوم يمكن أن يحدث إرادياً في حالة اليقظة. فالعالم

الذي يريد أن يكتشف اكتشافاً ما لا بد له من التأمل والتأمل الطويل لكي يتهيأ العقل للانطلاق إلى الحقيقة والقبض عليها. وإن حادثة اكتشاف نيوتن مثلاً لقانون الجاذبية من سقوط التفاحة لم يكن بسبب سقوط التفاحة بالفعل، وإنما كانت لحظة سقوط التفاحة هي لحظة الانكشاف التي سبقها تأمل طويل جداً، حتى إن نيوتن كان في تلك اللحظة لا يفكر وهو في نزهته بالطبيعة، وإنما بالقانون أو بسر سقوط الأجسام إلى الأسفل. وكان قد توصل بخياله إلى إدراك بعض جوانب هذا القانون، ولكنه كان يحتاج إلى دليل علمي لتفسير هذا القانون، فكانت لحظة سقوط التفاحة هي لحظة تجلي البرهان لما التقطه العقل من قبل من عالم الحقائق المنثورة في جوهر العقل. والحقائق لكي تظهر تحتاج إلى أذن تسمعها وعين تشهدها لكي يكتمل البرهان. ولهذا نطق نيوتن بكلمته المشهورة وجدتها وجدتها. وعاد إلى مكتبه ليسجل ما اكتشفه بعد بحث طويل، وصبر جميل. وهكذا تتم الاكتشافات. تبرز الفكرة في العقل، ثم تنمو، ثم تتطور على الورق أو في المخابر أو على الطبيعة، ثم تظهر ويصبح بعض الخيال حقيقة وبعضه عدماً إن كان من عالم التخيل. ونقص بالعدم ما لا وجود له. من هنا تأتي أخطاء العقل أحياناً فيصيب بعض العلماء ويخطئ بعضهم. لأن بعضهم استطاع أن يوجه كل قواه إلى الأمر المبحوث، وبعضهم عجز عن تركيز هذه القوى بسبب انشغاله في أمور أخرى مما حال بينه وبين الاكتشاف، أو وصل إلى حدود معينة من الاكتشاف. وكمثال على ذلك إننا نستطيع أن نحرق ورقة بتركيز حزمة من أشعة الشمس في عدسة خلال دقائق، بينما لا تحترق الورقة بدون هذا التركيز ولو عرضناها لأشعة الشمس عشرات السنين. وهكذا يحتاج كل من يشتغل في مجالات الإبداع والاكتشاف إلى تركيز قواه العقلية حتى يحصل على المطلوب. وبدون هذا التركيز ستكون محاولاته عبثاً تذرره الرياح. ولكن من أين تأتي العلوم وتتطور ومن أين يظهر الإبداع؟ هل يظهر من العقل أم من خارج العقل، أي من الوجود؟.

مصادر المعرفة الإنسانية

لقد استنتجنا إن الإنسان هو مختصر الوجود. وبما أن هذا المختصر بالنسبة إلى الوجود هو مثل قطرة البحر من البحر لهذا فإنه يحتوي على كل أسرار الوجود، كما تحتوي القطرة على أسرار البحر، وهذه الأسرار الكامنة فيه تتعلق بنوعين من العلوم. فهناك قوانين أزلية للوجود وهذه القوانين كامنة في الإنسان

وتتجلى لعقله عندما يبحث عنها. وهناك حوادث في الوجود لا اطلاع للإنسان عليها إلا لمن شاء الله [ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء] (١). وعلم الله يشمل العلم بالوجود وما فيه والعلم بالحوادث، أي العلمين اللذين نبحت فيهما. وقد يتاح لبعض الناس الاطلاع على القوانين الأزلية ول بعضهم الاطلاع على بعض الحوادث الكونية في اليقظة أو في الرؤيا. ولكننا في إطار بحثنا في هذين العلمين نقول إن الإنسان يحمل في تكوينه نفس القوانين الأزلية السارية في الوجود بينما لا يطلع على عالم الحوادث إلا من شاء الله. ولهذا فإننا إذا أردنا أن نصف المعرفة الإنسانية العلمية الإبداعية بأنها فيض من فيوضات العقل تتحقق بالتجربة عبر رحلة الخيال للمقارنة بين ما تحتويه الذات العارفة العالمة والموضوع المبحوث فإننا لا نعدو الحقيقة. ولدينا أكثر من دليل على هذه الحقيقة. لنأخذ مثلاً بذرة التفاح، إنها بذرة صغيرة وفي هذه البذرة سر الشجرة ونظامها وثمرها.. ولا تختلف أي بذرة عما نشهده في بذرة التفاح. إن البذرة لا تستفيد من الطبيعة عندما نغرسها في التراب إلا العون لإظهار ما فيها. فالطبيعة تقوم بدور المساعد فقط للكشف عن محتوى البذرة. ولو كان للطبيعة تأثير على البذرة لكان بالإمكان مثلاً ظهور الورد من شجر التفاح أو ظهور الرمان أو غيره من الثمار. ولكن الحقيقة التي نشهدها هي أن البذرة لا تثبت إلا نوعها ولا تثمر إلا بأصلها وماضيها. ولهذا فهي منذ ظهرت لها مواصفات لا تتغير، وعندما تتغير هذه المواصفات لا تعود نفس الثمرة التي نعرفها. ولهذا فإننا لا نشاهد في كل ما يجري في الطبيعة تطوراً للطبيعة، بل نشاهد أزلتها التي تظهر عبر الأزمان وهذا يدحض قانون الارتقاء الذي تحدث عنه داروين في أصل الأنواع. لأن حديث داروين عن نظرية الارتقاء وبقاء الأقوى تدحضه الحياة نفسها. كما يدحضه تنوع الوجود. وإن كنا قد نجد العذر لداروين لخطئه بين تسلسل ظهورات الوجود ووصف هذا الظهور بالتطور. إذ لولا تنوع الوجود في الأزل لما ظهر تنوع الوجود في الزمان. فالفيض الإلهي هو دائماً من جنس المفاض عنه. وكما أننا لا نستطيع أن نشكل من حرف واحد في اللغة إلا حرفاً واحداً وبذلك نلغي كل الكلام. كذلك فإن الوجود انبثق من التركيب. وحتى العناصر الأربعة هي طبيعة مركبة، أي التراب والماء والنار والهواء. إن الارتقاء الذي نراه هو تتابع ظهورات الوجود الكامنة أزلاً عبر الزمان لغايات يعلمها الله. فهو الله الذي [يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب] (٢). وإلا لو أخذنا بنظرية داروين في ارتقاء الإنسان من القرد، والقرد من الحيوان، والحيوان من النبات، والنبات من الطبيعة،

فإننا سنضطر إلى القبول بوجود عنصر واحد في الطبيعة ارتقت عنه جميع الموجودات في مراحل مختلفة، وإلى الاعتراف بقدرة الطبيعة على التطور ذاتياً. وهذا ما يتناقض مع ما نشهده من تنوع في الطبيعة، وفيما توصلت إليه العلوم حيث لا يوجد إلا التركيب. البروتون والنيوترون، والكهرب السالبة والموجبة حتى في أدق الذرات التي توصل الإنسان إلى الكشف عن بعض مواصفاتها. إن هذا التركيب الذي صدر عنه الوجود الحادث سببه التنوع في الوجود الأزلي. ونقصد بالوجود العقل والطبيعة، فالوجود قديم والعالم محدث. ولكننا نعود إلى متابعة البحث في مصدر المعرفة الإنسانية، وما نشهده من إفاضة كل بذرة لما فيها. فالطبيعة تقوم بدور الحاضن. إنها تغذي البذرة بالماء والأزوت والسكر وغيره مما يحتوي عليه التراب. ويقوم الهواء بتقديم ما تحتاجه من عناصر الحياة. وتقوم الشمس بتقديم الدفء المناسب. وهكذا تتأزر آياؤنا العلويات في السماء، وأمهاتنا السفليات في الأرض، لمساعدة البذرة على النمو والتطور وإظهار ما في البذرة من الأسرار والأغاز وفق برنامج البذرة. فالشجرة تكشف عن الخضرة والجمال، والأزهار تكشف عن الروائح الطيبة التي يحبها الإنسان. والثمار تكشف عن ألوان العناصر الأربعة وطعمها بشكل لا نعرفه من نظرتنا أو تذوقنا لهذه العناصر فيما لو حاولنا. ومن يطبق أن يذوق التراب أو النار أو يعرف طعم الهواء أو الماء اللذين لا طعم لهما؟. فالبذرة هي أداة من أدوات الطبيعة تقوم بالكشف عما فيها من الأسرار. وقد يكون بإمكان الإنسان فيما لو اكتشف برنامج بذرة التفاح أن يقوم بإنتاج التفاح في معمل عناصره التراب والماء والنار والهواء. فالبذرة هي أداة لإظهار بعض ما في الطبيعة من أسرار. وكل بذرة تقوم وفقاً لبرنامجها الخاص بهذه المهمة بجمع حروف الطبيعة لإظهار الكلمات، تفاح، ورد. لأن الطبيعة بشكلها الخام مثل حروف اللغة لا تظهر الكلمات. ولا بد من جمع هذه الحروف لتصبح كلمة، والكلمة الطيبة تظهر الطيب، والكلمة الخبيثة تكشف عن الخبيث. فالشجرة كلمة والطبيعة حروف. وإن كان لكل مخلوق ما يناسبه من الكمال. فإننا عندما نتحدث عن الكمال المحدود، نقصد به الكمال اللائق بالمخلوق وليس بالوجود، لأن كل ما بالوجود يفيض بالكمال، وإن كان الوجود قد سخر للإنسان بحكمة الخالق لا بحكمة المخلوق الإنسان. فصوت الحمار منكر بالنسبة للإنسان وقد قال الله: [**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**] (٣). وإذا أردنا ظاهر الكلام، دون أن نتعرض للناس الذين لا ينتفعون من العلم الذي يحملونه، فإن صوت الحمار مزعج من حيث المقاييس الموسيقية الإنسانية، ولكن هذا الصوت بالنسبة لأنثى الحمار لا شك بأنه من أجمل الأصوات. وهذا مثال على الاختلاف بين

مقاييس المخلوقات، حيث لكل وجود كماله في مظاهر الوجود، بينما لا يدرك هذا الكمال إلا قلة من الناس. والحكمة لا تتجلى في المسموعات فقط، ففائدة الحمار تفوق إزعاج صوته، وصوت الحمار لإنسان فقد حماره ثم عرف مكانه من نهيقه هو صوت جميل. وهكذا فإن كمالات الوجود لا يمكن رؤيتها كلها وإن عجزنا عن فهمها في بعض الأحيان. ولهذا قيل: "مصائب قوم عند قوم فوائد". فما من ضرر عند قوم إلا وينتفع به آخرون. وهذا من حقيقة كمال الوجود. ومن كمال الوجود هذا التنوع الذي نشهده في جمال الطبيعة، حيث تقوم كل بذرة بصب الطبيعة في قالبها الخاص من حيث الشكل واللون والطعم والرائحة والملمس. والإنسان الذي يقوم بإنتاج المعرفة لا يأخذ من الطبيعة المعرفة التي تجلت فيه منذ خلقه الله، وإنما يأخذها من ذاته المبدعة العالمة. فالعلم الكوني مكنون فيه. والتجريب في المخابر تسبقه الفكرة. والتجريب يعطي البرهان ويؤكد الفكرة الهائمة في زوايا العقل. وكما إن البذرة لا تأخذ من الطبيعة إلا العناصر التي تساعدها على إظهار المكنون في برنامجها المعرفي. فإن العقل الإنساني لا يأخذ من الخارج علومه المكنونة في ذاته، إنه يأخذ من الطبيعة فقط الغذاء الملائم لإظهار ما في ذاته مما حباها به الوجود أزلاً منذ صار من ذرية آدم حيث علم الله آدم الأسماء كلها [وعلم آدم الأسماء كلها] (٤). فالإنسان يقوم بدور المفيض لما تعلم، وما كل ما تعلمه الإنسان يستطيع أن يفيضه. فكثيراً ما ينسى أقرب الدروس إليه، وحتى أسماء الأصدقاء، فكيف سيتذكر كل ما يعرفه ومشاكل الحياة ومشاكلها تنسيه حتى نفسه؟. ولكننا لو تتبعنا علوم الإنسان واكتشافاته التي ظهرت بتأن عقلائي سنعرف كيف استخرج الإنسان هذه العلوم من ذاته وليس من شيء آخر غير ذاته. فعلم الطيران بدأ يلوح للإنسان تشبهاً بالطائر. ولنقل أن عباس بن فرناس كما يقولون قد حاول وفشل، ثم جاء كتاب وتخلوا الإنسان وهو يطير بوسائط معينة، ثم اكتشف المحرك البخاري وجاءت السيارة ثم الطائرة ومن ثم المراكب الفضائية. فمن أين جاءت هذه العلوم للإنسان؟. إننا لو تتبعنا هذه المحاولات فإننا سنجد بأن كل عالم اكتشف جزءاً من المعلومات، وهذا المكتشف كان الأول في اكتشافه من أبناء آدم، واكتشافه كان من ذاته وليس على مثال سابق. ثم جاء آخر وأضاف شيئاً جديداً وهكذا جاءت كل الاكتشافات في كل العلوم من ذات الإنسان وليس من علم تعلمه من غيره. ولو استند العلم على المعلومات الإنسانية المعروفة سابقاً لما خرج الإنسان من العصر الحجري، ولهذا يصح أن نقول إن إنسان العصر الحجري هو نفسه إنسان القرن العشرين، مع فارق أن إنسان عصرنا الحالي قد

استخرج بعض ما في ذاته من العلوم المكونة أكثر مما فعله إنسان العصر الحجري. إن الفارق هو في استخدام طاقة العقل أكثر من السابق. وإلا لو كانت الطبيعة هي التي تتكشف أو تكشف عن نفسها بوضعها الراهن الخام لكانت معرفة الأوائل لا تختلف عن معرفة الأواخر. ولو كان الغذاء سبباً فإنه سيتاح لكل الناس أن يصبحوا علماء بوصف الأنواع التي يأكلها العلماء بدلاً من الدراسة وإرهاق العيون بما هو أسهل للإنسان. لهذا لا بد من سر وراء عملية الاكتشاف والاختراع. هذا السر يكمن في اجتهاد العالم. في تركيز قواه لاستخراج ما في عقله للإجابة على السؤال الذي يبحث عن جواب عليه وليس لاختراعه. فالوجود ينهل من الوجود وكل ما في الوجود مختبئ في الوجود، والجواب في العقل الذي يشع بحقائق الوجود تصوراً وفكرة وعلماً، والحدس هو هذا الوميض الذي يلتقط صورة الحقيقة في لحظة عندما يشع النور الخاطف مثل برق في سماء العقل فيكشف العلم والنظام ويصرخ وجدتها كما فعل نيوتن عند سقوط التفاحة. إنه يحتاج إلى نوع من العبادة، من التصوف لإدراك الحقيقة، وبدون هذه العبادة والتصوف وترك ما في العالم والانشغال بالبحث عن الجواب لكل سؤال غامض لا تظهر الحقيقة لصاحبها وإن قضى ملايين السنين في التفكير فيها بين حين وآخر. لقد قال الجاهليون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحي لأنه كان يذهب أياماً وأسابيع ويجلس في غار حراء يتعبد ربه ثم يعود إلى بيته كلما نفذ زاده ليتزود بما يحتاجه ويطمئن على أسرته، قالوا عنه "محمد عشق ربه" وقد وصف القرآن حب الذين آمنوا لله قياساً إلى الأنداد، أوثان الدنيا وشهواتها فقال: **[ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً، يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله]** (٥). بهذا الحب أعطاه الرب الجواب على حقيقة ما كان يسأل عنه. ولا بد لكل عابد من مثل هذا العشق الصافي الذي لا تكدره الحوادث حتى يتمكن من الاكتشاف. فالمعرفة كامنة في خزائن العقل. والكون هو حقل التجريب للتأكد من صحة المعرفة.

إن العالم قد يصل إلى معرفة قاصرة غير كاملة لأنه لم يتابع البحث عن الحقيقة واكتفى بأول وميض ظهر له فظن بأن ما شاهده هو الحقيقة الكاملة، فأخطأ وقاد الناس إلى الخطأ. ولهذا عبد بعض الناس الكواكب لأنهم شاهدوا تأثيرها وعلم علماءهم بهذا التأثير فقادوهم إلى عبادتها. وهذا التأثير حق ولكنه ليس كل الحق. وبعضهم عبد الشمس والقمر لنفس الأسباب. وفي نظريات الماديين القدماء والمحدثين من الماركسيين شهدوا تأثير الطبيعة وقالوا بخلودها.

وهذا كلام صحيح، إلا أنهم توقفوا عند هذا المستوى من العلم فضلوا وأضلوا ودعوا إلى الإلحاد. مع أنهم لو سألوا أنفسهم كيف يصدر عن غير العاقل العقل؟. كيف يعطي من لا يملك العقل عقلاً للإنسان؟. والحكمة تقول: "فاقد الشيء لا يعطيه" لعرفوا أكثر عن أسرار الطبيعة. وعرفوا بأن سر الألوهية سار في كل أنحاء الوجود وهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وقد قال الإمام الغزالي محتجاً على دعاويهم ومفنداً لها: "الطبيعة ما معناها فلا تخلو أن تكون جماداً أو حياً. فإن كان جماداً كان القول فيه- الجماد لا يوصف بالفاعل- وإن كان حياً قلنا هذا الحي لا يخلو أن يكون له فاعل أو لا فاعل له. فإن قيل له فاعل آخر فالطبيعة كآدم في افتقارها إلى محدث. وإن كانت الطبيعة حية لا فاعل لها ولا علة فهي الإله فأسقطوا لفظة الطبيعة وقولوا إله. فهو الذي نريد بيانه، فإن حوادث لا أولية لها محال إلا إذا قلنا فعلت الطبيعة طبيعة فذلك منتف فلا بد من استناد الحوادث إلى مبدأ لا علة له وليس بمعلول أصلاً" (٦). ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما آذاه قومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله قال: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (٧). بعلمه وحلمه عرف بأنهم لن يؤمنوا حتى يعلموا بالحقيقة التي جهلونها، ولكن بعض الناس لا تقيدهم الحقيقة حتى لو عرفوا لأن ظنونهم تقسد هذه المعرفة، وبعض الناس لا يخافون من العقاب الذي تفرضه قوانين الدول ويرتكبون الجرائم مع أنهم يعرفون هذه القوانين. وهؤلاء كيف يخافون من العقاب الإلهي المؤجل إذا كان لا يخيفهم العقاب المعجل؟. ربما لأنهم يظنون بأنهم ناجون من العذاب. وربما لأنهم لا يعتقدون بالمؤجل وإن ظنوا، ولو عرفوا الحقيقة لما أقدموا على قتل نملة لا تتعرض لهم بالإيذاء. إن العلم المكنون في الصدور لا يظهر إلا للعلماء الأتقياء الذين لا تشغلهم الدنيا عن علمهم والإجابة عن أسئلة عصرهم. ولسنا نقصد بالتقوى الدينية فقط. إذ أن رجل العلم حيثما كان ومهما كان معتقده لا بد له من تركيز قواه على المسائل التي يبحث عنها للوصول إلى المعرفة الكامنة في عقله، وهذا هو النور الإلهي المقصود المعطى لذرية آدم، والذي على كل إنسان أن يبحث عنه لينهل منه. وما كشف هو مساعد ودليل لما لم يكشف عنه. ولهذا على الإنسان بسبب عمره القصير أن يبدأ بالتعلم من حيث وصل العلم لمتابعة الطريق إذا كان قد هباً قواه ليكون من العلماء. والعلم هو تذكر كما قال أفلاطون. هو تذكر لما في العقل وكشف عنه وصياغة له بلغة العالم. إن العلماء الذين طيروا المركبات الفضائية اكتشفوا قوانين الفضاء. وقبل أن يرسلوا المركبات الفضائية أرسلوا خيالهم إلى هناك وسهروا الليالي وفكروا وناقشوا ما توصلوا إليه ثم قاموا بإطلاق مركباتهم. وهذه المركبات الشبيهة حركتها

بحركة الكواكب رغم أنها معجزة من معجزات العقل الإنساني، إلا أننا إذا نظرنا إليها في ضوء مجموعتنا الطائفة والكون الطائر والذرة التي تتحرك في أفلاكها، فإن معجزتنا الإنسانية لا تعادل اختراع بعوضة طائفة. ومع ذلك فإننا يجب أن نفخر بمنجزات الإنسان ولما حياه الله به من النعم حيث بتنا نرى ونشهد بعض الآيات في أنفسنا وفي الآفاق كما قال الله: [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد] (٨). إننا بهذا البحث نكون قد توصلنا إلى مصدر المعرفة الإنسانية المتعلقة بقوانين الوجود ونظامه الأزلي والإبداع الإنساني أو الاكتشاف. أما المعرفة بحوادث الوجود فليست من هذا الباب.

المعرفة الإنسانية بحوادث الوجود

إن المعرفة الإنسانية كما رأينا، الكامنة في الوجود، كامنة في العقل. أما الحوادث التي لا تخضع لنفس القوانين، الحوادث المتعلقة بالمشيئة الإلهية فهي وإن كانت تحدث بالأسباب إذ لا حدوث لشيء بلا أسباب وهذا قانون شامل لكل الوجود. وقد نص القرآن على أن الله جعل سبب الحياة الماء فقال: [وجعلنا من الماء كل شيء حي] (١). فإن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بكل الأسباب لأن الأسباب لا تتناهي وإن تناهت نظرياً. ولهذا فإن علمه بالأسباب هو علم محدود لا يتجاوز الأسباب الفاعلة المباشرة على وجه الاحتمال لا اليقين. فإننا قد نتنبأ بالطقس والأحوال الجوية إلا أن هذا التنبؤ يظل من نوع الاحتمال قياساً إلى معارفنا الحالية. ولكن قد تتوصل معارفنا العلمية للإحاطة بكل الأسباب المباشرة وعندها قد تبلغ نبوءاتنا الجوية مستوى اليقين فيصبح المجهول معلوماً، والاحتمال يقيناً. ولكننا لا نعرف على وجه اليقين حدود العلوم التي وضعها الله في آدم لنقول هذا النوع من العلم مما لا يحاط به وهذا مما يحاط به. ويجب ألا ندعي بما لا نعلم وإن كنا نظن بأن ادعاءاتنا تخدم قضية الإيمان، لأن الله كما قال عن نفسه: [إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيٌ حميد] (٢). وقال: [من جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين] (٣). وقال: "لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً" (٤). وقال: [لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة] (٥). ولو شاء لأظهر معجزة تذهل العقول في كل الأزمنة وتدفعهم للإيمان. ولكنه أراد الامتحان بعد أن زودنا بالعقل ميزان الحق.

فقال: [تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور] (٦). وهو الذي قال: [إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] (٧). "ألم نجعل له عينين ولساناً وشنوناً فتين وهديناه

النجدين] (٨). أي سهلنا له الطريقتين ليختار بينهما ويسير على أحدهما، إن الله غني عنا وعن علومنا، لهذا يجب ألا ندعي بعلم ما لا نعلم حتى نكون على يقين بما نتكلم فننال بصدقنا الأجر إذا أخطأنا. ولهذا فإننا نقول بأننا لا نستطيع أن نعلم الحوادث الكونية التي سترها الله عن العباد وإن كنا نقول بأن العلم بالأسباب يتيح لنا معرفة النتائج. فنحن نعلم بأن قلب الإنسان إذا توقف ستحدث الوفاة ولكن متى سيتوقف قلب هذا الإنسان أو ذلك لا نعلمه. وقد قال الله عما لا نعلمه: [إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأي أرض تموت] (٩). وقال أيضاً: [يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء] (١٠) وهو الذي علم آدم الأسماء كلها كما قال. ولكن إظهار علم آدم لا يحدث إلا بإذنه. وقد حدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة، ونحن نشهد بعض هذه العلامات أمامنا الآن. فمن أين جاءت هذه العلوم عن المحدثات. وقد نرى رؤيا عن إنسان ما فتتحقق، فمن أين جاءت هذه الرؤيا وهذا العلم. إذا بحثنا عن السر فيجب أن نعود إلى عالم الخيال في الإنسان. حيث يستطيع الإنسان أن يرسل خياله ليطوف في العوالم. فإذا كانت النفس صافية طاهرة غير ملوثة بالردائل فإن صاحبها قد يشهد بعض الحقائق النازلة من الأمر الإلهي إلى الأسباب التي ستحدث هذا الأمر ولهذا فإنه يصبح من الذين أحاطوا ببعض علم الله بإذنه، ولهذا قيل - كل معجزة لنبي يمكن أن تكون كرامة لولي - والولي هو الذي يوالي الله في كل ما أمر. ولكن حتى ظهور مثل هذه الكرامات من بعض الناس يجب أن لا نخدعنا لأن بعض من توصل إلى هذا النوع من العلوم قد يضل. وبعض هذه العلوم يشبه علم من تعلم الطب فإنه قد يستخدمه لمآربه الشخصية. ولهذا قال الإمام أبو القاسم الجنيد وكان سيد أهل التصوف في زمنه: "كتابنا هذا - يعني القرآن - سيد الكتب أجمعها، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا - أهل التصوف - مقيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيها لا يصح الاقتداء به". وكان يقول: "لو رأيت رجلاً قد

ترجع في الهواء، فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهي، فإن رأيتموه ممثلاً لجميع الأوامر الإلهية، مجتنباً لجميع المناهي فاعتقدوه واقتدوا به. وإن رأيتموه يخل بالأوامر ولا يجتنب المناهي فاجتنبوه" (١١). ولهذا فإن المقياس الصحيح لمعرفة الصالح من الطالح هو اتباع الشريعة والسير على هديها، وليس اتباع من ضل عن الطريق وإن امتلك المعجزات. إذ إن المعجزات قد تكون من نوع السحر، وقد تكون من علم العارفين بالله، فالخلوات المعروفة مع الذكر توصل الإنسان إلى بعض العلوم التي لا يعرفها إلا قلة من الناس فيفتح للإنسان باب لمعرفة بعض العلوم التي لا يعرف إلا الله الحكمة من إعطائها لهذا الإنسان أو ذلك. والخاصة التي نستطيع أن نتحدث عنها بأن الإنسان بإخلاصه وطاعته لله المتاحة له على قدر علمه قد تفتح له الباب إلى معرفة بعض الأسرار، إذا كان ممن يعمل بالوصايا العشر الموجودة في كل الأديان والمذاهب. وهذا الباب إذا فتح له وتابعه بالذكر المعروف - الله - فإنه قد يتوصل إلى معرفة حقائق النبوءات والإسلام والإيمان والإحسان. فطريق الله مفتوح للسالكين. وقد جاء في الحديث كدليل على عناية الله بعبده: "يقول الله أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني. والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة. ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً. ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه هرولة" ١٢. وهذه التوبة إذا استغرقت كيان العبد بكامله فإن الطريق سيفتح له لا شك في ذلك لمعرفة بعض الحوادث المكنونة في علم الله سواء في اليقظة أو الرؤيا. ولكن غالباً فإن الرؤيا هي التي تسبق، الرؤيا الصادقة، ولهذا سميت الرؤيا بالمبشرات لأنها من دلائل صلاح العبد وقبوله عند الله، إذا استمرت. أما إذا انقطعت أو حدثت لمرة واحدة فهذا له شأن آخر. وحوادث الوجود غير حقائق الوجود الأزلية. ولهذا فإن معرفة الحوادث يمكن الوصول إليها عن طريقين: عن طريق معرفة الأسباب وهذا غاية علم العلماء. كما لو درسنا أسباب العواصف وعرفنا هذه الأسباب فحكمتنا بأن عاصفة ستقع في مكان ما على ضوء الأسباب التي عرفناها. ومثل هذه المعرفة تبقى احتمالية. وأما الطريق الثاني لمعرفة الحوادث فهي المعرفة الكشفية المعطاة من الله. وهذه المعرفة وإن لم يتوقف صاحبها عند علوم الأسباب التي يقررها العلماء إلا أن نبوءاته تسبق نبوءاتهم ولا تخطئ أبداً. وهذه المعرفة لها مجال آخر غير مجال العقل الظاهر. وإن كانت من علوم العقل. وسوف نتحدث عنها في فصل آخر من هذا الكتاب إن شاء الله. ولكننا نشير إلى أن هذه المعرفة تتعلق بالسمع والبصر، أي بالحواس، وهي كما قلنا من قوى العقل، أو من وزرائه كما سماها الإمام الغزالي،

لأنها معرفة خارج الإنسان، وكل ما هو خارج الإنسان يشهد بإحدى القوى الحساسة ليعقل، وما هو داخل الإنسان فإنه يستخرج من العقل ويقوم الخيال بالبحث عن البرهان عليه في الوجود ليشهده السمع أو البصر ليصبح عين اليقين. وهكذا تتعاون قوى الإنسان لالتقاط الحقائق أو الحوادث من داخل الإنسان وخارجه. وإذا أردنا أن نأخذ مثال اكتشاف نيوتن للجاذبية، فإن توقيت سقوط التفاحة هو من عالم الحوادث وإن كان له أسبابه. وهذا لا يوجد في العقل. أما قانون الجاذبية وسقوط الأجسام للأسفل فهو خفي في العقل لأنه من قوانين الطبيعة التي تتكون منها والتي تعمل أجسامنا بموجبها، ولكنها خفية عنا بقدر خفاء الحروف على الأمي الذي لا يحسن الكتابة ولا القراءة. وفي مثل هذه الكشوف يتسابق العلماء ليظهر الكامل من الأكمل والعالم من الأعلم. إن ما توصلنا إليه حتى الآن يدلنا على أنواع القوى الموجودة في الإنسان التي تساعده على المعرفة. وهذه القوى إذا أردنا أن نحولها إلى لغة مختصرة فإنها تتألف من:

١- العقل الكلي وتحتة تنطوي عقول .

٢- الوزراء وهم كل القوى التي تمد العقل بالأخبار، السمع- البصر- الشم- الذوق- اللمس- الإحساس.

وكما قلنا فليس هناك في جسم الإنسان ذرة لا تخبر العقل إذا احتاجت إلى شيء أو تألمت، أو تأثرت. والعقل يتصرف وفقاً لما يريد. ولما يملك من الإمكانيات. فهو قادر ومقدور عليه. فهو قادر على العمل بما يعلم ويملك. وعاجز عما لا يملك ولا يقدر. فهو خليفة الإنسان في جسمه. كما صار الإنسان خليفة الله في أرضه. ولو نظرنا إلى الإنسان من حيث هو عقل. وإلى مكانة كل قوة من هذه القوى فإننا سنجد بأن علو العقل أو سموه جاء من هذا التجريد الشفاف لتركيب الإنسان. فهو مُدركٌ بالأثر غير مدركٍ بالنظر. إنه رمز، فهو فينا ولكن أين؟. قد يكون الدماغ مركز الطاقة العاقلة كإناء للعقل لأن كل وجود لا بد له من مكان، من إناء يتمظهر فيه. ولكن العقل يحيط بكل أنحاء البدن فهو في القدمين كما هو في الرأس. وهل هناك حركة أو سكون من الأفعال الإرادية يقوم بها الجسم بدون أمر العقل. لا يمكن أبداً. ولهذا قد يكون من حقه الكبرياء، ولكنه إذا نظر إلى مكانه الذي يؤويه وبيته الذي يحويه لا بد أن يتواضع. إنه هذا الجسم الإنساني الأكل الشارب، الراكض وراء التفاهات أحياناً. على من سيعلو وأصوله المتواضعة تشده، وجذوره الضاربة في الأرض تدعوه. ولهذا يظل الإنسان في تأرجح بين ما يشهده من طاقة العقل وأحواله، وبين الطبيعة وتجلياتها

المدهشة. وهو يتساءل أيهما أولى وأيهما أسبق في الوجود؟. أيهما صار به إنساناً، هل بالعقل وآثاره، أم بالطبيعة وعظمتها التي تغذى بها الإنسان وما زال ليكون إنساناً؟. إنه السؤال الجوهرى الذي طرحته المثالية والمادية أيهما سبق الآخر؟. أيهما ظهر قبل الآخر؟. ومن هنا عرف من عرف. وتاه من تاه. وضل من ضل. ولهذا كان لا بد من تصحيح السؤال المطروح، وإعادة صياغته لتصح الإجابة عليه. والسؤال من حق الإنسان ليعرف.

معرفة الله

لقد كانت الفكرة تدور في ذهني كما دارت وستدور في فكر كل إنسان عاقل. أيهما أسبق الفكرة أم المادة، أو البيضة أم الدجاجة؟. وكان الجواب دائماً يأتي وسيأتي كلما طرح السؤال هذا أو ذلك. ولكن إذا كانت الفكرة قد سبقت الوجود فمن أين سيأتي الوجود؟. ولماذا ستقوم الفكرة أو العقل ببناء هذا الوجود واستخلافه من شيء لا يوجد؟. وما لا يوجد كيف سيوجد؟. كانت الأسئلة الشائكة والأجوبة الشائكة تصدني وتقودني إلى ظلمات لا فائدة منها، فأعود لأرجح المادة وأتساءل كيف يمكن للمادة أن تنتظم بدون عقل ينظمها؟. وكيف ستقوم المادة بإيجاد العقل ليحكمها؟. وهل يمكن للمادة أن تخلق شيئاً فضلاً عن خلقها لنفسها؟. كان عجزى يؤلمني وظلمات الجهل تحيط بي أكثر مما كان يحيط بي إصراري على إيجاد الجواب. عبر سنوات وأنا أعاني من هذا العجز ومن إصراري على إيجاد جواب لهذا السؤال المحير، اللغز الذي أنفق فيه الفلاسفة كما أنفقنا من أعمارنا سنوات ونحن نبحث عنه فلم نصل إلى شيء مقنع، ولم يوصلنا إلى شيء مرض. فمرة كانت تبدو لنا الصدفة وقوانينها مرضية. ثم تسقط نظرية الصدفة بفعل الواقع. فلماذا لم تختلف الصور الإنسانية؟. لماذا لم يظهر إنسان يبصر من رأسه بدلاً من عينيه؟ وهكذا كانت مفاهيم الصدفة تسقط. كما كانت تسقط مفاهيم وقوانين التطور وبقاء الأقوى لأن مظاهر الطبيعة كانت تتكرر مثل هذا القانون الصارم، وإن كان فيها شيء من صحة القانون. ثم إن تطور الإنسان من قرد- ليس احتقاراً للقرد- أمر يفوق في الغرابة تطور القروود والديبة رغم جهود المدربين لتعليمها وتدريبها لإضحاك الناس وكسب دراهمهم. ثم إن المثالية بتفسيراتها الفلسفية الغامضة كانت لا تقل عن المادية إجحافاً في حق العقل وإن كانت أقل ادعاء بكثير مما ادعته المادية في مجال المعرفة. وكان الدين الذي عرفته قبل الغوص في الأحاديث النبوية لا يقل غموضاً في تفسيره لمسألة الوجود

عن الفلسفات المثالية والمادية. صحيح إننا كنا نؤمن إلى هذا الحد أو ذاك. إلا إن إيماني كان عرضة للشكوك والتساؤلات كما كان شكي عرضة للشكوك والتساؤلات. وطالت رحلة البحث حتى أتيت لي المجال للاطلاع على كتاب الشيخ محيي الدين بن عربي "الفتوحات المكية" وعندها بدأت أبصر الأجوبة التي كنت أبحث عنها. وكلما تعمقت كنت أدرك بأن صيغة السؤال من أساسه كانت خاطئة. والسؤال الخاطئ سيقود حتماً إلى جواب خاطئ، وإلى استحالة الوصول إلى جواب سليم. أيهما أسبق في الوجود، الفكر أم المادة؟. كما لو سألنا عن إنسان رأيناه، هذا زيد أو عمر؟. وقد يكون من رأيناه لا زيد ولا عمر فكيف سنجيب. كل ما تدوقناه من الحيرة كان من سؤال محير. وإن كان السؤال من حق الإنسان. ولهذا يجب أن نقول، من أين جاء الوجود؟. من أين جاء الفكر؟. من أين جاء الإنسان؟. من أين جاء ما نشهده ونبصره في العالم؟. من أين وإلى أين؟. إنني أحاور بالعقل، والعقل قد يخطئ وقد يصيب. وعلى المفكر أن لا يدعي أمام القارئ بتفسير أو شرح ما لا يعرف لأنه لا جدوى من الادعاء بما لا نعرف إذا كان إيمان البشر كلهم أو ضلالهم لا ينفع الخالق ولا يضره بشيء. هل نظن أن الله بحاجة لإيماننا. إذا كنا نظن مثل هذا الظن فإننا نخطئ ونتأول على الكامل بما لا يحتاج إليه. وهذا من أخطاء بعض الناس الذين لجأوا إلى الادعاء بما لا يعرفون، أو بما لا يؤمنون لأن الهوى هو الذي كان يجذبهم وليس العلم والمعرفة. فكانوا كما قال الله: [أفمن كان إلهه هواه] () مع أن الله أمرنا بالمعرفة وطالبنا بها. وما أكثر الآيات التي دعت إلى التفكير وإلى السمع وإلى النظر، لكي نعبده عن علم، وعن يقين. لهذا قرن الله خشيته بمن يعرفه من العلماء وليس بمن يجهله. وهذا يقودنا إلى أمرين أولهما أن الخشية مقرونة بالمعرفة وليس بالجهل. ثانياً إن هذه المعرفة، أي معرفة الله، مطلوبة وممكنة للوصول إلى العلم به. فما هو الطريق للوصول إلى هذه المعرفة؟.

المعرفة الإنسانية بالوجود

إن كل معرفة إنسانية بالحقائق الأزلية وليس بالحوادث الكونية تأتي من مصدرين:

المصدر الأول: هو عقل الإنسان نفسه.

المصدر الثاني: هو عقول أهل المعرفة المشهود لهم بالمعرفة في الموضوع

المبحوث شهوداً لا يعتوره أي شك.

وهذا يقودنا إلى القول بأن المعرفة لا تعرف إلا بالعقل، وليس بأي وسيلة أخرى، كما أننا لا نملك من دليل على صحتها إلا أدلة العقل ومنطقه. وكل معرفة يجب أن نقارنها بعد اختبارنا للأدلة بشهادات الشهود من أصحاب العقول، كما يجب أن نعرضها على شهود الإنسان السمع والبصر، للتأكد من التطابق بين ما اكتشفه العقل وبين ما يحدث في الطبيعة. فإذا تطابقت معرفتنا مع معرفتهم فإننا سنكون قد وصلنا إلى المعرفة الصحيحة. أما إذا تناقضت هذه المعرفة مع معرفتهم فإن علينا أن نعيد النظر فيما توصلنا إليه، لأن كثرة الشهود في مسألة وإن كانت لا تدل على صحتها دائماً إلا إنها تدل على مستوى من الصحة إذ لا دخان دون نار. ومع ذلك، فإننا لكي نصل إلى اليقين فمن الأفضل أن نطالب الشهود بالأدلة إذا كنا نريد أن نكون من أهل العلم. والأدلة الآن والحمد لله باتت وافرة، وأصبحت عقول أجيالنا أكثر نضجاً لقبول الحقائق وفهمها دون إسفاف أو تعنت. وعصرنا وإن كان فيه الكثير من الانحطاط، ففيه أيضاً الكثير من سمو بفضل العلم. فما هي هذه الأدلة التي بحوزتنا لمعرفة الله. سنبدأ أولاً بطرح السؤال التالي: من أين جاء الوجود وكيف ومتى؟. وهذا السؤال يضعنا أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن الوجود جاء من العدم. أي إنه لم يكن هناك وجود ثم ظهر الوجود. وهذا سيدعونا إلى التساؤل كيف سيظهر الوجود من العدم، والعدم لا يمكن أن يصبح وجوداً، وليس باستطاعته أن يملك زمام إظهار نفسه فكيف سيملك إظهار غيره. لهذا فإن قوانين العقل المعطاة لنا لنعرف بها تقول لنا هذا منطوق مغلوطة. فالعدم لا يمكن أن يصبح وجوداً ولو ظل مليارات السنين. وفاقده الشيء لا يعطيه، فمن لا يملك وجود نفسه لا يستطيع أن يعطي لغيره الوجود. ولو أننا عمدنا إلى زجاجة فارغة ووضعناها في مكان ما لن تمتلئ مهما طال الزمن عليها بأي شيء ولهذا لا نستطيع أن نأخذ منها أي شيء. فالعدم هو عدم، والعدم ليس له وجود، وما ليس له وجود ليس له ماهية لنتحدث عنه. ومع ذلك فإننا يمكن أن نقبل عقلياً بوجود العدم، وأن نعرفه بأنه كل ما هو خارج الوجود، وأنه نقيض الوجود، وهذا النقيض كان في الأزل ونعني بالأزل ما ليس له بداية ولا تحده بداية، فما كان كائن كما كان بدون نهاية. وليس لخيالنا فيما بين الأزل والأبد من تصور غير إن الأزمان تجري بدون بدء ولا نهاية. لأن البداية تتطلب السؤال متى، ومتى لا تصلح لمنطق الأزل. إن العقل يقول: إما إن الكون كان خالياً أي عدماً ثم ظهر الوجود، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نجيب عن سؤال متى بدأ الخلاء أو العدم. بينما سنقول عن العدم إنه ظهر في لحظة ما دون

تحديد، لأن مستوى معارفنا لا تبيح لنا التحديد. وإما سنقول بأن العدم لا يمكن أن يصبح وجوداً وهذا من قوانين العقل. وفي هذه الحالة لم يبق لدينا إلا أن نقول: إن الوجود كان إلى جوار العدم أولاً أي دون بداية، لأن الوجود لو صدر عن بداية، فكل بداية قبل الوجود ستحيلنا إلنا لعدم. والعدم كما استنتجنا لا يمكن أن يصدر منه الوجود ولا يمكن أن يكون رحماً لولادة الوجود لأن العدم لا شيء، وما هو لا شيء، لا يصدر منه شيء. من هذه المقدمات البديهية نتوصل إلى حقيقة أن الوجود كان أولاً. وبما إن الوجود لا يصبح عدماً كما إن العدم لا يصبح وجوداً فإننا نستنتج بأن ما ليس له بداية ليس له نهاية. أي إن الوجود خالد لا يفنى ولا تفنيه الدهور ولا الحوادث. ولهذا فهو أبدي خالد. ولو نظرنا ببساطة إلى قطرة ماء أو ذرة هواء وأردنا أن نفنيها فإننا لن نستطيع ولو استخدمنا كل وسائلنا العلمية التي توصلنا إليها لإفناء هذه القطرة أو الذرة. إننا نستطيع أن نبخر الماء أو نغير مواصفات ذرة الهواء ولكننا لا نستطيع أن نفنيهما. فالماء يتحول إلى بخار، والبخار قد يعود ماء عبر المطر من جديد، وقد يدخل في تركيب زهرة أو ثمرة. وهكذا لا يوجد إلا تحول المادة في الطبيعة من صورة إلى أخرى، أما فناء المادة فهذا أمر مستحيل رغم أن بعض العلماء افترضوا فرضيات لا صحة لها حول تبعثر الطاقة في الكون وفنائها واستنتجوا أن بالإمكان فناء المادة. وهذا يتناقض مع أبسط مبادئ المنطق. هذه النظرية قال بها أوسكار كلاين ثم تطورت على يد هانس آلف فين. ويعتمد أساس هذه النظرية في جوهره على فكرة المادة المضادة، وهو أمر معروف في ميكانيك الكم منذ سنوات عديدة. ونقول هذه الفكرة بأن لكل جسم جسيماً مناظراً يسمى الجسيم المضاد. فإذا كان الجسيم الأصلي مشحوناً فإن مضاده مشحون أيضاً بشحنة ذات إشارة معاكسة. وعند دمج الجسيم مع مضاده فإنهما يتفانيان محررين قدرًا هائلاً من الطاقة^١. يتابع المؤلف فيقول: "إن هنالك سؤالاً يطرح نفسه فيما إذا كانت هنالك سدم معينة أو حتى نجوم خاصة في مجرتنا يمكن أن تكون مؤلفة من المادة أو ضدها. حسب وجهة النظر التي نقول بوجود التناظر التام ما بين الجسيمات والجسيمات المضادة فإن معظم خواص المادة ستناظر خواص المادة المضادة. وعندما يتحد على سبيل المثال عدد كبير من ذرات الهيدروجين المضادة (أي الذرات المؤلفة من البروتون المضاد في المركز والالكترونون المضاد في المدار) مع عدد مناسب من ذرات الأوكسجين المضاد فإن ذلك يعطي الماء المضاد الذي يتجمد في درجة الصفر ويغلي عند الدرجة مائة، ولا نلاحظ أي خلاف بينه وبين الماء العادي ما لم يتلامسا. إذا حدث مثل هذا التلامس يحدث حينئذ انفجار كبير. وهكذا فمن

الممكن أن توجد نجوم مضادة تعطي قدرًا من الإشعاع مماثل لإشعاع النجوم ولا نملك أية وسيلة للتمييز بينها وبين النجوم بواسطة إشعاعها - وهنا يتساءل المؤلف - كم من الكون نستطيع أن نقول بصورة مؤكدة إنه مؤلف من المادة... ونحن هنا أمام خيارين فإما أن يكون الجزء البعيد من مجرتنا مؤلفاً من المادة المضادة أو إن جميع النجوم الواقعة في جوارنا مؤلفة من المادة المضادة. ولا يمكن التحقق، حتى من النوع كبير التناظر، بواسطة الرصد في الوقت الحالي^(٢). ويعلق الكاتب على هذا الرأي فيقول: "لقد حان الوقت الآن لمناقشة الرأيين المنفصلين لكلاين وآلف فين. لقد بنينا علم الكون الخاص بهما على مبدئين رئيسيين:

١- لا يجب أن تفترض قوانين طبيعية جديدة "أي أن القوانين المؤثرة في

مجرتنا ومجموعتنا الشمسية هي نفس القوانين السارية في الكون كله".

٢- إن هنالك تناظراً ما بين المادة وضدها - تعادل - ويسبب عدم وجود

قوانين طبيعية جديدة شعراً بأن مناقشة حادثة الخلق الوحيدة مستحيلة،

فابتدأ بمناقشة مسألة غيمة الغاز شديدة الانتشار والتي تكثفت مشكلة

السد، هذه السدم التي تتحرك بتأثير جذبها الثقالي ثم تتراجع أخيراً.

ومهما يكن من أمر فإن تحليلاً أكثر تفصيلاً لهذه الطريقة على أساس

التناظر ما بين المادة وضدها سيقود إلى قدر كبير من الفناء ولا بد أن يتدخل

شيء ما لإنقاذ الوضع وهذا الشيء هو المقدار الكبير من ضغط الإشعاع الناشئ

من عملية الفناء. إن ضغط الإشعاع هذا يسبب انفجار المادة بأكثر من طريقة

فيما إذا لم يتواجد^٣. يجب أن نشير كي نستكمل أسباب صدور هذه النظرية ما

قاله المؤلف حول الحصول على المادة المضادة تجريبياً، إنه يقول: "على الرغم

من وجود بعض النجاحات حيث أمكن الحصول على البروزيترون وهو عكس

الالكترون عام ١٩٣٠ من قبل أندرسن، كما أمكن الحصول على البروتون

المضاد أيضاً قبل عقدين من الزمن. إن تجارب كهذه هي في الحقيقة تجارب

صعبة الإجراء وذلك بسبب ضرورة الحصول على الجسيمات المضادة بعيداً عن

متناول المادة العادية لأن الجسيمات المضادة تقنى حالما تصادف المادة العادية

مصدرة قدرًا من الطاقة، كما ذكرنا من قبل. إن لدينا تناقضاً ظاهرياً وهو أن

القوانين الفيزيائية متناظرة بالنسبة للمادة وضدها في حين أن كوننا إذا ما اعتبرنا

ما نشاهده في جوارنا المباشر غير متناظر أبداً"^(٤).

إن كليف كيلمستر مؤلف كتاب "طبيعة الكون" قد رد على نظرية موت

الكون مستنداً إلى القول بعدم تناظر وتساوي المادة مع المادة المضادة في الكون. ورغم أن إمكانية مثل هذا القياس للمادة والمادة المضادة أنكرها المؤلف حتى على مستوى مجموعتنا الشمسية. أي إن الفرضية والفرضية المضادة قائمتان على اجتهادات شخصية. فإننا نعود لنؤكد بأن كل الوسائل العلمية المتوفرة عاجزة عن إفناء قطرة ماء أو ذرة هواء. وحتى على فرض أن ما سيصدر هو طاقة فإن الطاقة كالصوت لا بد لها من حامل مادي فضلاً عن أن الطاقة هي مادة. إننا لا نرفض إمكانية الانفجار الكوني وتلاشييه في الفضاء إلى أمد طويل أو قصير ولكننا نرفض إمكانية الفناء. فناء المادة. أما تغير شكلها وتحولها، تحول المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة، فهذا لا يتناقض مع ما نقوله عن استحالة فناء المادة. أما التغير في صور المادة فهو من البديهيات التي يقرها العقل ويشهدها البصر.

ربما إننا أطلنا في بحث هذه المسألة، ولكننا آثرنا أن نستعرض أكثر النظريات تشاؤماً حول مستقبل الكون لئلا نترك أي فكرة بدون طرحها للبحث سواء كانت مما نؤيده أو نرفضه لأن غايتنا العلم. ولا نقول الله لأن الله ليس بحاجة لتأييدنا ونصرتنا بما يتناقض مع مبادئ العقل. وهو الذي أمرنا بأن نفكر. أفلا يعقلون، أفلا ينظرون. ففي هذا الجدل نريد أن نطمئن، أن نعرف ما هي الحقيقة لمصلحتنا نحن البشر. ويجب أن نقول بأنه إما لدينا العقل القادر على المعرفة، وبه إذا كنا نملكه سنعرف الله. وإما إنه ليس لدينا مثل هذه الإمكانية في عقولنا وعندها لن يكون هناك أي جدوى من البحث عن الله ومعرفته. وما دام الله قد أمرنا بمعرفته بالتفكير والنظر فإنه لا بد أن يكون قد أعطانا إمكانية المعرفة لنعرف. إنني أقول هذا الكلام لأؤكد حق كل إنسان في البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة وليس من أجل الإيمان أو عكسه، لأن قاعدة "آمن ثم فكر" إذا كانت تصلح للعمل بها في مراحل الطفولة فإنها لا تصلح مع سنوات النضج. ولهذا يجب أن يكون شعارنا "فكر ثم آمن". وفي القرآن كانت البداية "اقرأ" وفي العهد الجديد "في البدء كان الكلمة"، أي الفكر. الله يقول لنا اعرفوني بالعقل. يجب أن نتجاوز بدون تعصب. وقد عاب الله الذين يعيشون حياتهم على قاعدة [**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**] (٥). وقد قال المسيح عليه الصلاة والسلام: "ما عجزت عن إحياء الموتى ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق" ٦. ومن أين تأتي الحماسة، وهل تأتي إلا من العقول المغلقة التي ترفض العلم، باحثة عما يغذي هواها. رافضة كل ما

يمس هذا الهوى المرضي حتى وإن كان يتناقض مع أبسط مبادئ العقل. لهذا إننا سنبحث بالعقل الموهوب لنا وبالشجاعة التي أمرنا الله بها لمعرفة الحقيقة. والحقيقة التي توصلنا إليها تقول، بأن المادة أزلية لا بداية لها ولا نهاية ولا فناء. إنها خالدة خلود العدم. والعدم هو الساحة الخلفية لحركة الوجود. وبما أن كل وجود له حدود يتحدد بها من حيث الكم والكيف، الحجم والمحتوى، الصورة والمعنى. فإننا نستطيع أن نستنتج بأن الوجود الأزلي كما أنه لا يفنى فإنه لا يزيد ولا ينقص وإن تغير شكله أو المساحة التي يشغلها. إنه (هو هو) سيظل وسيبقى كما كان إلى ما لا نهاية له. لقد كنا أمام خيارين لا ثالث لهما ولا بد لنا من القبول بهما عقلياً لفهم الوجود وهما:

- ١- إما إن أصل الوجود الذي نراه هو العدم. وقد سقط هذا الخيار منطقياً.
- ٢- أو إن أصل الوجود هو الوجود. ولا نقول البداية لأن كل بداية ستحيلنا إلى زمن سابق على البداية، ولا بداية للوجود. فهو الأول بالنسبة للحوادث فقط. أي المخلوقات. ولو أننا قلنا ببداية للوجود فإن هذا يؤدي إلى تسلسل مرفوض منطقياً. وقد اخترنا الحل الثاني لأنه ينسجم مع مبادئ العقل. فالوجود المادي أزلي، ليس له بداية وليس له نهاية، ولا يمكن أن يفنى، لأن الوجود لا يصبح عدماً، كما إن العدم لا يصبح وجوداً. وبهذا نتوصل إلى نتيجة مؤداها، حتمية استمرار الوجود بدون زيادة أو نقصان، وإن تغيرت صور ظهوره، وتبدلت عبر الأزمان. فما كان لا يزول، وما لم يكن لا يوجد. فالوجود قديم، والعالم محدث. والمحدث تحيط به شطآن الأزل والأبد.

مظاهر الوجود

إننا أمام أسئلة صعبة ليس من السهل الإجابة عنها. فإذا كنا نستطيع أن نطمئن إلى القول بأن للوجود الأزلي مواصفات محددة وكمية محددة لن تزيد لأن العدم لن يضيف عليها شيئاً من عنده، فإننا سنواجه صعوبة من نوع آخر حين نحاول أن نبحث في طبيعة هذا الكم ومحتواه. وإذا كان للإنسان وهو من بعض ظهورات الوجود وفيوضاته وهو الأقرب إلينا لا نستطيع أن نسبر غوره ونستطلع الكامن في ذاته فكيف سنعرف ذات هذا الوجود الغامض وما هو كامن فيه؟ طبعاً إن الطموح للوصول إلى مثل هذه المعرفة مستحيل، ولكننا نستطيع أن نحكم على

الوجود بأنه حي ما دامت تصدر الحياة منه، وبأن فيه ماء وناراً وتراباً وهواء، ما دمنا نرى بأن هذه المواد بعض من التركيب الظاهر للوجود. إننا سنختار الحكم والاستدلال على محتوى الوجود بما نراه ونلمسه مما يصدر عن الوجود مع الإقرار بأننا لن نشهد ولا نعرف كل ما يحتويه الوجود. وهذا ما يقره العقل ويشهد به العلم. فماذا نرى من هذا الوجود. إننا نرى العوالم القائمة أمامنا. الإنسان، والحيوان، والنبات والعناصر الأربعة وهذه كلها ظهورات للوجود بأشكال مختلفة. وهذه المظاهر وإن كانت تتصف بصفات تلتقي عندها إلا أنها تفترق في صفات أخرى. وإن الوجود لو كان واحداً في الجوهر لما صدر عنه التنوع. فتنوع الموجودات يدلنا على تنوع تركيب الوجود. وهذا لا يتناقض مع ترابط الوجود رغم مظاهره المتعددة. فالإنسان هو عقل وسمع وبصر وحواس وأيد وأقدام ولكنه واحد. والمادة وإن تنوعت فإن التنوع لا يتعارض مع تماسكها وارتباط كل عنصر بالعنصر الآخر. فالأكوان من الذرة إلى المجرة والمجرات كلها كما تؤكد الكشوف العلمية تسير وفق نظام مطلق شامل لا تشذ عنه، وهي فوق ذلك مترابطة مع بعضها في سيرها بأفلاكها ولا تستطيع ذرة أن تكون مستقلة بحركتها عما يجاورها من الذرات. فالكون كله يعمل وفق قوانين تحفظ له انتظامه وتماسكه وارتباطه. وإذا كنا نستطيع أن نقبل بتنوع الوجود كما قبلنا بوجود أزلي فمن أين سيأتي النظام إلى الوجود؟. وإذا كنا سنقبل بنظام في أعماق الوجود فمن الذي سيكون راعي هذا النظام. فإذا كان للبعوضة عقل لتسير به إلى هدفها، وللعصفور عقل، وللإنسان عقل وهو أعظم العقول الظاهرة، فمن أين جاءت هذه العقول، والإنسان والعصفور والبعوضة ليسوا إلا تركيبات من المادة؟ ثم إن كل نوع من هذه الأنواع له عقله المتناسب مع وجوده لحفظ بقاءه وتوازنه. وإذا كان كما يقول المثل "كل إناء ينضح بما فيه" فهل يمكن أن يُعطى الإنسان العقل من مادة لا عقل فيها، وفاقد الشيء لا يعطيه. إذا كان الوجود ليس فيه اللون الأحمر هل يمكن أن يظهر اللون الأحمر في مظاهر الوجود. طبعاً لا يمكن. وهذا ما يدعوننا إلى القول بوجود العقل في الوجود لأنه إحدى مظاهر الوجود التي تظهر في الموجودات بمستويات متنوعة. عند هذا الحد من الملاحظات عن الظاهر من الوجود لنا بالمظاهر المختلفة يمكن أن نتوقف لنبحث في نظام الوجود.

نظام الوجود

إننا نلاحظ النظام في الوجود. فمن أين جاء هذا النظام؟. والنظام يستدعي

المنظم فمن أين جاء المنظم؟.

على السؤال الأول يمكن أن نجيب بأن النظام إما أنه كان وما زال قوة خارقة جاءت من خارج الوجود وفرضت على الوجود النظام. وإما إن هذه القوة الخارقة التي تعرف ولا تشهد كامنة في قلب الوجود ومرافقة له وهي ما ندعوه بالعقل المهيمن والضابط والمسير لحركة الوجود.

الاحتمال الأول يقتضي أن تأتي هذه القوة العاقلة من خارج الوجود لتحكمه وتتصرف به تصرف المالك بملكه. وحتى لو قبلنا أن نتصرف به بحدود معينة بأن تضيف إليه شيئاً لم يكن فيه. فإن هذا الاحتمال يتنافى مع المبادئ التي توصلنا إليها عندما استنتجنا بأنه لا يوجد في الكون إلا الوجود والعدم. وما دام لن يأتي من عدم أي وجود فكيف ستأتي هذه القوة الخارقة من عدم. وهذه القوة المهيمنة حقيقة قائمة فنحن نرى آثارها ولا ننكر وجودها. ولكننا نريد أن نعرف مصدرها والجهة التي تتحكم منها، ونريد أن نعرف عنها كل ما يمكن معرفته. لنفترض أننا سنقبل بوجود قوة عاقلة أزلية منفصلة عن الوجود كما قبلنا بوجود أزلي فيصبح لدينا وجودين من نوعين مختلفين لا علاقة بينهما ولا رابط. وإذا كانا قد بدءا منفصلين فإنهما سيظلان منفصلين. إن مثل هذا الاحتمال ينتهي بنا إلى نتائج غير مقبولة ومستحيلة. ولهذا يجب أن نعيد البحث عبر صياغة أفضل. وهذا ما يقودنا إلى البحث في الاحتمال الثاني. حيث افترضنا بأن هذه القوة العاقلة كامنة في قلب الوجود ومرافقة له، أي إنها من ذات الوجود ومن طبيعته. وإن كان لها صفات غير صفات المادة وهي كجزء من الوجود أو مظهر من مظاهره لم تتأخر عن الوجود ولم تسبقه ولم تنفصل عنه ولا تنحل فيه إلى ماهية أخرى غير ماهيتها، لأن للمادة كما لاحظنا تحولات في مظاهر الوجود. فالعناصر الأربعة تتحول في النبات بشكل مختلف عن شكلها وتركيبها، كما تتحول في الحيوان إلى أشكال أخرى وفي الإنسان تأخذ شكلاً وتركيباً جديدين، بينما يظل العقل يعبر عن نفسه بنفس المفاهيم في كل هذه الصور وعلى مستويات مختلفة. فالنبات له برنامج للتغذية والظهور في كل مرحلة بمظهر جديد لا يشذ عنه. والحيوان تنتشر في أنواعه قوى العقل ورموزه، إلا أنه خال من أي إبداع غير ما رسخ فيه من الخبرات الغريزية. ثم يأتي الإنسان الذي اجتمع فيه من القوى العقلية ما لم يحصل لأي من مخلوقات الطبيعة المشهودة لنا. وإذا افترضنا بأن كل كائن محدث في الطبيعة هو جرم صغير بالقياس إلى الأجرام، فإننا نلاحظ بأن كل جرم من هذه الأجرام فيه من القوى الكامنة ما يناسب حياته

وجوده. ولو جئنا إلى تركيبنا الإنساني وحاولنا أن نبحث فيه عن مكان العقل وماهيته وتركيبه، فإننا قد نحكم بأن المكان هو في الرأس، ولكننا لو حاولنا أن نحصل من الجمجمة على عينة من العقل لنختبر ماهيته وتركيبه فلن نجد شيئاً. إننا لن نجد غير لحم ودم وأعصاب، أما العقل فلن نجد له أثراً مع إننا نشهد ونلاحظ بأنه سار في كل أنحاء البدن لرعايته والإشراف عليه وتأمين احتياجاته. ولهذا كانت له السيادة على البدن وإن كان البدن لا يبقى والعقل لا يبقى والإنسان لا يبقى إذا قطعنا للإنسان معدته وقلنا بأن هذه المعدة تسيء إلى الإنسان وتهدد به عن مستواه اللائق به. فالإنسان بكل ما فيه صار إنساناً من حيث الصورة والماهية. وبالعقل صار إنساناً عاقلاً وتمايزت الصور بتمايز المعاني المفاضة عن هذا العقل. فظهر العالي والرفيع والصغير والوضيع. وسؤالنا إذا كان الإنسان حياً، وهو كما نراه قد انتقل من عالم الذر من أبيه إلى أمه فمما في رحمها ثم ظهر وكبر بفضل الغذاء الذي أخذه مما ساهمت في إنضاجه الطبيعة المركبة من الأرض والكواكب في مجموعتنا الشمسية. ألا يدل هذا على أن الأجرام التي أمدتنا بالقوة لإظهار الحياة لها دورها وتأثيرها في تكوين حياتنا. وإذا كانت مجموعتنا محكومة بمؤثرات الأجرام الأخرى فإن المؤثرات التي وصلت إلينا لا يمكن أن تنتهي من حيث العلم بها، وإن كانت تنتهي من حيث التقدير العقلي. ولهذا يحق لنا أن نقول على ضوء ما نشهده في أنفسنا مما حباننا به الوجود ونحن من أبنائه أو مظاهره أن نقول بأن هذا الوجود هو أصل كل الحقائق. وبأن ما نشهده في أنفسنا وأجسامنا من حقائق عن حياة كل عضو وكل ذرة وعمما يكمن فيها من نظام متصل بعقلنا الكلي هو صورة مصغرة لدقائق هذا الوجود الذي صدرنا عنه.

إن هذه الشهادة تقودنا إلى القول بأننا إذا كنا من أركان هذا الوجود ومن حقائقه ومن فيضه، فإنه لا بد أن يكون المفيض الوجود مالكا لما فاض عنه. ولا بد أن يكون لكل ذرة في الوجود نظامها الخاص بها، ولا بد أن يكون لكل صورة مركبة في هذا الوجود دورها الخاص بصورتها الظاهرة. وفي النهاية لا بد أن يكون للوجود كله عقله الشامل في مقابل الأنظمة الجزئية. هذا ما تقودنا إليه الملاحظة الدقيقة. وهذه النتائج استنتاجات يفرضها العقل السليم. ولهذا يمكن أن نقول بأن الإنسان هو كون صغير، أما الكون فهو إنسان كبير. وفي كلا الجرمين يحكم العقل على المادة بحدود قابلية المادة لهذه الأحكام. ولكي نوضح المسألة سنضطر للعودة إلى البحث في ماهية العقل الحاكم على الوجود، العقل الكلي. وليس لدينا من مؤشرات أو دلائل غير العقل الإنساني، لأن العقل الإنساني

المفاض لا بد أن يحتوي على بعض صفات المفيض، ولهذا لكي ندرك بعض ما يحتويه العقل المفيض، لابد من تأمل العقل المفاض في الإنسان.

ماهية العقل

إذا أردنا أن نتأمل العقل الإنساني منذ بدء تكوينه في رحم الأم بل قبل ذلك وهو ذرة في عالم الأبوة الخفي. إن لهذا الكائن الخفي حياته التي عاش بموجبها وانتظر الفرصة حتى ينتقل إلى رحم الأم. ولهذه الذرة المادية التي لا ترى إلا بالمجهر عقلا الكامن فيها الذي سيرشدها إلى البحث عن مصيرها اللاحق بين ملايين الذرات من أمثالها. لنقل إنها حظوظ ولكن كل هذه الملايين من الذرات تبحث عن حظوظها وتتسابق للدخول إلى رحم الأم في لحظة اللقاء بين الرجل والمرأة. وربما إن السباق في هذه اللحظة للفوز بجائزة الحياة لو تخيلناه كما هو حقيقة، فهو أشد من السباق في مسابقة للجري بين أكثر من خمسة ملايين متسابق للوصول إلى بويضة الأم والفوز بالحياة الإنسانية. وإذا ما تابعا حياة هذا الجنين المتكون في رحم الأم سنشهد قوى عقلية ذاتية وهي ترى صورة قطعة اللحم التي ظهرت. وهذه القوى ستظل قائمة في رعاية الجنين طوال فترة الحمل. مع نهاية الفترة وعندما يشهد الجنين النور سيعرف أيضاً كيف يأخذ ثدي أمه ليتغذى بالحليب. وهنا ستبدأ أفعال الطفل الإرادية بالظهور. فهو سيبيكي عندما يجوع أو يتألم. وعندما سيدخل عالم الكبار سيبدأ بالتعبير عن إحساساته بلغتهم التي اصطالحوا عليها. وعندما يدخل المدرسة سيبدأ بتلقي العلوم وحفظ ما يطلب منه ونحن ولا نحتاج إلى أكثر من هذا التفصيل عن مراحل العمر المختلفة للبرهان على وجود هذا العقل الإنساني الكامن بدءاً من عالم الذر إلى نهاية الحياة. فمن أين جاء هذا العقل. ومن الذي كان يحمل هذا العقل. أليست نفس الذرة هي الحامل لهذا العقل الغريزي. ونفس هذا العقل هو الذي نما مع نمو الجسم أو صار عقلاً للطفل وللشباب والعالم والشيخ. هذا ما لا نستطيع أن ننكره. فالعقل الذي بدأ وألهم الطفل السباق لدخول رحم الأم هو نفسه الذي سيلهمه السباق في حظوظ الحياة مع أقرانه عندما يكبر. لقد اختلف نوع السباق مع اختلاف البيئة والظروف والقدرات. ألا يدلنا هذا على أن المادة هي حاضن حي للعقل غير مفارقة له وغير مفارق لها. بل إن المادة أو الطبيعة جاءت في لغتنا بالتأنيث لأنها رحم للعقل المذكر والحاكم على المادة. كل صورة في الوجود تدلنا على مستويات من العقل. النبات، والحيوان. إن كل إنسان يشهد هذه الحقائق

بنفسه ويشهدها من حوله، يشهد عقول الموجودات الباحثة عن أسباب البقاء والحياة وهي أنظمة كما بينا من قبل. ولكنها تعبر عن عقل مسبب الأسباب. وبما أننا نستطيع أن نشهد التصرفات الإرادية في الحيوانات بعد تطور الأبحاث العلمية ومتابعة حياة الحيوانات في بيئتها الطبيعية، فإن كل ما نراه من تصرفات وأنظمة وتزاوج ووسائل للإنذار وكماثن لتأمين الغذاء يدلنا على عقول غاية في التنظيم. وكلها تشير إلى فيض من العقول الذي لا يمكن حصر أنواعه. وكل هذه العقول محمولة في صور الطبيعة الطائرة والماشية على أربع والزاحفة والسابحة في الماء. أشكال من العقول والخبرات تتغذى من مواد الأرض التي نراها أمامنا ونمشي عليها ونحن لا ندري بالحياة والمشاعر السارية فيها مع أننا جننا منها وتغذينا بها. فهي وجودنا الخام وكل ما على ظهرها ليس إلا صور لهذا الوجود المادي والعقلي. فهل يمكن أن تخرج الحياة مما لا حياة فيه؟ وهل يمكن الوجود أن يخرج من العدم؟. هل استطعنا حتى الآن ولو عقلياً أن ننتج شيئاً من لا شيء. أو نستخرج شيئاً من لا شيء؟. وإذا كان ما يصدر من العقل وما نراه من مختلف العقول لا يصدر إلا منها طبقاً لنظام دقيق غريزي ما عدا الإنسان فلماذا لم يكتشف الإنسان كل ما يحتويه عقله في سن النضج مثلاً كما يجري في عالم النبات أو الحيوان. فكل نوع من الأشجار في الأوضاع الطبيعية يزهر ويثمر عند عمر معين، أي أنه يكشف عن محتوى البذرة. قالب الطبيعة الخاص بإظهار تجل معين من تجليات العقل. والحيوانات كلها تحفظ عند عمر معين كل الخبرات وتقتنها ثم تموت بدون أي تطور يذكر. أما الإنسان فإنه في تطور مستمر. ولو كان الغذاء هو المؤثر كما قلنا من قبل لأمكن إيجاد وصفات من الغذاء لتخريج الأطباء أو العلماء أو الفلاسفة. هذا يدلنا على أن الغذاء ليس هو السبب الأساسي في إظهار قوى العقل، إنه وقود لمساعدة الجسم على العمل. ولهذا فإننا نشاهد اختلاف عقول الأبناء في الأسرة الواحدة رغم تشابه الغذاء والتربية، وعوامل الوراثة الثابتة علمياً. فمن أين جاء الاختلاف؟. هل من التعلم إذا كنا نقول بتساوي العقول أم من شيء آخر. حتى إن أبناء العلماء لا يصبحون علماء غالباً. والبطن كما يقولون بستان يخرج الغث والثمين، فمن أين جاء الغث والثمين؟. لا بد من أسباب فما هي هذه الأسباب؟. إذا كانت البذرة نفسها قد قامت بنسخ نموذجها في رحم الأم وأخرجته إلى الحياة كاملاً معافى. نحن لا نريد هنا أن نبحث في الأسباب إلا للبرهان على أن العقول الإنسانية من ذرية آدم هي واحدة في كل العصور وإن اختلفت تجليات العقل من وقت لآخر ومن إنسان لإنسان. فالإنسان كما قلنا هو مختصر الوجود، وعقله هو الميزان الذي يحتفظ

بالمعلومات وسمعه وعينه هم الشهود للمقارنة والتجربة بين ما هو في العقل وما هو في الوجود، ولسانه هو المعبر عن شهادته وما يشهد ويبصر ويسمع ويحس. ولهذا كان انكشاف ما في العقل الإنساني على دفعات كما لو أردنا أن نزن مليون طن بميزان لا يزن أكثر من عشرة كيلوغرامات في المرة الواحدة، فإن العملية ستستغرق زمناً طويلاً وقد نقع بأخطاء في المحصلة بسبب الغفلة أو النسيان فنضطر لإعادة ما أخطأنا في وزنه. إن الإنسان يريد أن يعرف الوجود والعلم بالوجود لا يتأهى ولهذا فإن علم الإنسان لا يتأهى. فالوجود يتغير ويتأثر بالمحدثات والإنسان كجزء من هذا الوجود سيتأثر، ولهذا فإن الإنسان يتعرض لنوعين من العلوم. القوانين الأزلية السائدة في الوجود وصور الموجودات وهذا ما يحتويه العقل أو ما هو كامن في العقل. وعلم آخر بالحوادث وهذا متغير في كل لحظة على مستوى الكون وهذا من مهمة الشهود في الإنسان، السمع والبصر والقوى الأخرى، أي معرفة تاريخ الكون. من هنا تبدو الصعوبة بالنسبة لمعرفة تطور الكون فمن لم يحضر الحوادث لا يلم بها ولذلك فإنه يرتقي إلى معرفتها الظنية بالأسباب والمسببات. ولهذا فإن الإنسان كحادث لا يتوصل إلى علم يقيني تجريبي لمعرفة سبب وجوده، بينما لأنه نسخة الكون الجامعة ومرآته يستطيع أن يشاهد بوجي من عقله قوانينه الأزلية وصورته. ولكن مشكلة المعرفة والجهل تأتي من تنازع عدة قوى في الجسم الإنساني. فالجسم الإنساني يتألف من عدة قوى تشع بآثارها وتأثيرها على العقل. ولكي نصف عملية المعرفة فإننا يمكن أن نشبه الجسم الإنساني بمصنع للطاقة ومركز العقل هو الغرفة التي تحتوي على كل المعلومات المتعلقة بصورة الوجود وحقيقته. فالغذاء هو الوقود الذي تقدمه لهذا المصنع لتشغيله. وأثناء تشغيله ستقوم كل القوى بالعمل بدءاً من العقل إلى السمع إلى البصر والشم والذوق والغرائز، ومنها المعدة حيث تقوم بإخبارنا عن حاجة الجسم إلى الوقود، والجنس نصفنا الآخر. وهذه القوى كما هي مرتبة من الأعلى إلى الأسفل في الإنسان لتدلل على مراتبها. فالعالي منها للعلو بصاحبه والمنخفض يقود إلى الانخفاض. وكل قوة من هذه القوى تطالب مالكها بما يماثلها من الغذاء. فغذاء العقل العلوم والمعارف بالإبداع أو التلقي، وغذاء السمع الأصوات، وغذاء العين المشاهدات، وغذاء الأنف المشمومات وغذاء الذوق الطعام والشراب وهو أداة المعدة لتأمين الطيبات من الغذاء. وغذاء الجنس المرأة للرجل والرجل للمرأة، وبقية القوى الأيدي والأقدام ساعية في تأمين حاجات الجسم كالخدم بأمر من العقل. ولكن العقل تواجهه النفس أو الهوى. فإذا سيطر الهوى على العقل وبرزت سطوة المعدة فإن هذا الإنسان سيصبح أكلواً، مما سيؤدي إلى

تعطيل القوى الأخرى وإشغالها بهذا الهوى المسيطر مما سيؤدي إلى حدوث عطل نسبي لقوى العقل الكامنة. وإذا سيطر هوى الجنس على الإنسان فإن هذا الهوى سيكون أخطر على صاحبه من حب الطعام. وإذا اجتمع هوى الطعام مع الجنس فإن مثل هذا الإنسان لن يخرج منه شيء، وهذا ما نراه حقيقة. ولهذا كان المطلوب دائماً الاعتدال وتشغيل المصنع الإنساني لما خلق له، للاكتشاف والمعرفة. فإذا اشتغل المصنع بكل طاقته وأضاء النور على غرفة الذاكرة سيتاح لنا أن نقرأ ما هو مطبوع فيها من المعلومات وعند ذلك يبدأ الاكتشاف ومعرفة الوجود الحق. فإن الذاكرة داخل العقل مثل غرفة مطبوع فيها كل ما في الوجود من قوانين وصور. والجسم يقوم بفضل الطاقة المنتجة من الغذاء بإضاءة الغرفة، والعقل يقوم بقراءة ما فيها، وترجمته إلى اللغة التي يتقن النطق بها اصطلاحاً. ولهذا كلما استهلك الإنسان من الطاقة في الأمور غير المعرفية سيضعف الضوء في غرفة الذاكرة ليضيء الأهواء المختلفة للإنسان. وكلما ضعف الضوء في غرفة الذاكرة لن نتمكن من مشاهدة ما فيها. ألا تلاحظ أن هذا الوضع لا ينطبق على الأفراد بل على مجتمعات كاملة. فالمجتمعات المشغولة بالحصول على طعامها لا تبديع ولا تنتج غالباً. إن الهوى الذي رأيناه في النفس ليس شراً كله، إنه بحسب موقعه من الإنسان، فهوى العالم العلم. وهوى الأكل، ولهذا يصبح الهوى مفيداً في وقت وضاراً في وقت، والعبرة في الميزان العقلي إن كان يعرف أن يؤدي لكل ذي حق حقه. وإن كان يعرف الطريقة الصحيحة لاستخدام المفاتيح الكاشفة للذاكرة، وفي فهم ما بالذاكرة. فالفيلسوف قد يرى في ذاكرته إشارات لنظام الكهرباء إلا إنه لن يعرف أي معنى لما رآه إذا كان جاهلاً بالكهرباء، كما لو أننا تصفحنا كتاباً في لغة لا نتقنها، فإننا لن نتمكن من قراءة ما في الكتاب رغم أنه بين أيدينا. وقد يكون الكتاب في لغتنا إلا أنه يتحدث عن قوانين الرياضيات ولهذا حتى لو قرأنا فيه لن نفهم معنى ما نقرأ إذا كنا نجهل علوم الرياضيات. إننا نستطيع أن نشبه الوضع الإنساني بالنظر إلى الذاكرة بالحاسوب (الكمبيوتر). فالحاسوب هو ذاكرة، ولكن اكتشفنا لما فيه من المعلومات يتوقف أولاً على معرفة نظام التشغيل، فإذا كنا لا نعرف نظام التشغيل لن نتوصل إلى الاطلاع على أي معلومة مهما كانت صغيرة مما يحويه الجهاز. وللذاكرة أيضاً نظام تشغيل سنشير إليه فيما بعد. الأمر الثاني للحصول على المعلومات يتوقف على معرفتنا بلغة الحاسوب فإذا كنا لا نعرف هذه اللغة لن نستفيد من المعلومات ولن نفيد أحداً ولن نتمكن من ترجمة المعلومات إلى المشاهد الجاهل بالحاسوب. والذاكرة أيضاً لها لغتها. فالذاكرة قد نرى فيها صورة لشجرة فإذا كنا لا نعرف اللغة التي سنعبّر بها

عما رأيناه فإننا قد نتمكن من رسم صورة ما رأينا بدون أن نعرف أي معنى لما نراه حتى يأتي إنسان آخر ويقول لنا هذه شجرة من نوع كذا وفصيلة كذا. وهذا بعض ما يحدث معنا في حياتنا اليومية. فإننا قد نرى شخصاً في الطريق فيسلم علينا، ثم نتذكر فلا نهتدي إلى اسمه ولا نذكر أي تفاصيل عن ظروف لقائنا به مع أننا متأكدون من هذه المعرفة. فإذا سألنا إنسان من هو هذا الرجل فإننا سنقول له لا نعرف. ثم فجأة إذا انكشفت لنا حجب الذاكرة فإننا نتذكر كل شيء فنعرف من الذي لقيناه وكيف لقيناه. هذا مثال لرؤيتنا للصورة وعجزنا عن تعريفها بالاسم مما يمنع من حصول الفائدة من هذه المعرفة. في حالة أخرى قد نكون بانتظار إنسان ما في مطار مثلاً ونعرف أن اسمه محمود. وقد ننسى صورته، أو قد تكون صورته تبدلت عما في ذاكرتنا فإننا قد نراه بدون أن نعرفه. ولهذا لا تحصل الفائدة من معرفتنا بالاسم وجهلنا بالصورة، فلا يحصل اللقاء بيننا وبينه مع أننا قد نكون رأيناه بين القادمين. الأمر الثالث المطلوب لحصولنا على العلم من الحاسوب يتطلب معرفتنا بطبيعة العلم الذي نبحث عنه فضلاً عن معرفة الصورة واللغة. فلو أننا قرأنا معادلة رياضية بلغتنا ونحن لا نفقه الرياضيات لن نحصل على أي فائدة من قراءتنا للمعادلة أو لتطبيقاتها على الواقع. والذاكرة أيضاً فيها معلومات يتم كشفها في مسيرة الإنسان عبر الزمان. فالعقل هو تجل للكون في الإنسان. فإذا كان كل إنسان سيبدأ بالبحث عن تجليات هذا الكون في نفسه من الصفر فإنه لن يكتشف في عمره القصير ما تجلى للإنسانية عبر آلاف السنين. ولهذا يصبح تطور العلوم مفيداً كوسيلة للتذكر وحصول الفائدة. فلو قال لنا إنسان ونحن في المطار هذا محمود الذي تبحث عنه، فإن الفائدة ستحصل وسنوفر الوقت الضائع في البحث عما جهلناه من علوم الذاكرة. لهذا لا بد من متابعة التطور العلمي في آخر ما كشف عنه العقل البشري في علم من العلوم إذا أردنا أن نضيف جديداً إلى ما عرفته البشرية. وإننا نستطيع أن نقدم عشرات البراهين للدلالة على ما أشرنا إليه مما يحدث في حياة العلماء. فمندل الذي كشف عن قوانين الوراثة ظل لديه بعض الأمور التي لم يتمكن من البرهنة عليها مع إن العقل أنبأه بصحتها فوضعها في جدولته ثم جاء العلماء وأثبتوا صحة ما ذهب إليه بالبرهان. وبين رؤية الحقيقة والبرهنة عليها مسافة تقتضيها طبيعة الكشف سنتحدث عنها. ونيوتن كان يشهد قانون الجاذبية عقلياً كما نشهده نحن ثم يسقط التفاحة عليه وهو نائم أو وهو يتتزه اكتشف البرهان على ما كان قد أنبأ به العقل. وفي حديث جرى مع الأستاذ جان-مارك ليفي-لوبوند حول اكتشاف المادة المضادة، ونحن نسوق هذا المثال لأن هذه المادة لا يمكن أن تشهد بالنظر

وإنما بالتجربة. قال الأستاذ جان "هذا اكتشاف نظري يسهل نسبياً تأريخه- إنه "نظري" لأن المادة المضادة ظهرت لأول مرة في أعمال عالم نظري هو ديراك، وكان ذلك في الثلاثينيات، إذ كان يبحث هذا العالم عن معادلة قادرة على وصف سلوك الالكترونات في ظل النظرية الكوانتية، التي كانت في هذه الآونة في أوج نموها. وكان يريد بناء نظرية للالكترون كوانتية ونسبية في وقت واحد، بمعنى أنها متفقة مع مقتضيات نظرية آينشتاين النسبية. وسرعان ما أعطت نتائج غاية في الأهمية، لأنها ساعدت على وصف خواص للالكترون لم تكن قبلها مفهومة من الناحية النظرية، كالعزم المغناطيسي للالكترون. وهذا الجسم لم يكن موجوداً، أو بالأحرى لم يكن قد شوهد أبداً.. ولكن سرعان ما اتضح وجوده تجريبياً، ففي السنوات التي تلت ذلك استطاع أندرسون أثناء فحصه للصور الفوتوغرافية المأخوذة في غرف ولسون، حيث يمكن معاينة آثار الجسيمات الأولية، أن يكشف عن وجود مثل هذا الجسم الموجب، ففي هذه الغرف يسود حقل مغناطيسي، فترسم الجسيمات مسارات منحنية في اتجاه أو آخر حسب إشارة شحنتها الكهربائية. وقد كشف أندرسون عن أثر لمسار ينحني في اتجاه معاكس لاتجاه آثار الالكترونات. إنه أثر لجسيم شحنته معاكسة تماماً لشحنة الالكترون. ثم أمكن قياس كتلته، فكانت هي كتلة الالكترون نفسها. وهكذا إذا وجد جسيم ديراك" (١). وهكذا يتبين أن ديراك لم يكتشف الجسم الذي رآه عقلياً حتى جاء أندرسون وكشف عن وجوده بالدليل والبرهان. فالعقول تشهد أشياء كثيرة في الذاكرة ولكنها لا تعرف دائماً ما تشهد، فأنا وآن. والعقل ينهل من الذاكرة، والذاكرة محجوبة أحياناً بالظلمة أو مشرقة أحياناً بنور العقل. وعند الإشراق نشهد الوجود، وما كل ما نشهده نعرفه حتى في وضوح النهار. فكيف إذا كان ما نشهده مطوياً بين ضباب الذاكرة وأبجدية العقل الذي عليه أن يقوم بالترجمة. والهوى يشدنا، والهموم تعصف بنا. وأي عقل سيترجم إذا كان كل عقل مشغولاً بليلاه وقتلاه كما قال بشار بن برد عن العيون التي في طرفها حور وكم من الحور في العيون والقلوب. ففي أي لحظة سنغوص ونغوص في تلافيف الذاكرة لنرى الكون، والتكوين يشدنا ويحيرنا. لهذا كان المكتشفون قلة. وهؤلاء كان العلم ليلاهم فلم يشهدوا غيره ولم يحبوا سواه، ولهذا نجحوا عندما قرؤوا ما في ذاكرتهم قراءة صحيحة. فشاهدوا ما تحويه الذاكرة مطابقاً لما في الوجود، فأخذوا قوانين الوجود السارية وطبقوها في الصناعات مما أتاح الفرصة أمام التطور. فالماء قد يكون في الصحراء ولكننا لا نعرف مكانه فتظل الأرض عطشى. وحينما نعرف مكانه، ونعرف كيف نستخرجه نخضر الأرض، وتزهو بنور العقل المفاض، ونحن لم

نخترع الماء، ولكننا اكتشفناه. ونحن لم نضف جديداً إلى العقل ولكننا طورناه بالأدوات والوسائل وجعلنا له عيوناً أقوى، فتجلى لنا ما لم نكن نراه في الصحراء... فاخضرت الأرض وزهت بنور العقل المفاض، فأين الجديد، وأي جديد عرفناه في الوجود القديم. هل عرفنا غير ما كان وما هو كائن، كما نكتشف الجزر المجهولة في المحيطات. ويجدف العقل في عالم الذاكرة بمراكبه الشراعية. جدف أيها العقل إلى المدن المجهولة، واستخدم الرياح المواتية وابتحث في الصباح عندما تشرق الشمس عما تريد أن تراه، لأن الظلمة تحجب الحقائق. فإذا رأيت شيئاً لا تقل إنك اخترعته، ولكن قل بتواضع إنني وجدته، لأنه كان قبل أن تكون، فأين كنت أيها العقل، وكيف جئت؟

أين كان العقل قبل أن يصبح الإنسان أو يظهر، ومن أين جاء، وكيف؟ أسئلة تبلبل العقول وتصيبها بالحيرة والذهول. وهل لنا غير الظن، أو الإدراك من خلال الأسباب. نحن لا نريد أن ندعي ولكن لنجرب وليجرب كل إنسان يريد أن يعرف ويسأل نفسه. من أين جاء الحادث؟ وكيف؟. والإنسان حادث من حوادث الوجود، لأن ظهوره في الوجود كان بعد سلسلة من الحوادث. إذ تم تهويد الأرض وأعقبه ظهور النبات ومن ثم الحيوان، ثم ظهر الإنسان. فأين كان والوجود كما قلنا لا يفيض إلا مما فيه. فهل كان عدماً والعدم لا يوجد ولن يوجد، أم كان موجوداً ولم نلمس له أي وجود عبر مليارات السنين كما يقدر العلماء عمر الأرض. فأين كان؟. هنا يجب أن نلاحظ عملية الفيض أو التجلي. تجلي العقل الكوني، ولا يمكن أن نلاحظ هذه العملية إلا من عقولنا لأن المجهول لا يستدل عليه إلا من المعلوم. فالعقل أو النظام هو واجب الوجود للإنسان كما هو للشمس والقمر والأكوان كلها. وإلا لو فقد النظام أو العقل الذاتي لكل جرم لما تحرك المتحرك بنظام، ونحن لمسنا في أنفسنا المشيئة والإرادة للاختيار والاختراع ضمن الحدود التي تسمح بها القوانين الكونية. ولهذا نستدل على وجود مثل هذه الإرادة والاختيار لدى القوة التي بثت النظام والعقل في الكون. وقد علمنا أن فاقد الشيء لا يعطيه. فمن لا يملك الاختيار لا يستطيع أن يعطينا الاختيار، ومن لا يملك الإرادة لا يستطيع أن يعطينا الإرادة، لهذا نقول إن الكون لا يجري ذاتياً وفقاً لقوانين ذاتية. صحيح إن القوانين موجودة ولكن الإرادة موجودة. سنتحدث عن الإنسان. والإنسان لا يجري الخالق في شيء ولكن للتقريب. ومن المنطقي القول: إن ما يملكه الموهوب يملكه الواهب وزيادة. ومن يعطي لكل ليس كمن يعطي للواحد. فأين الإنسان من الوجود ومن الموجد، والموجد يعطي لكل العقول عقولها؟. ألا تدل البعرة على البعير، وأثار الأقدام ألا تدل على المسير كما قال

الأعرابي بمنطق بسيط؟ بهذا المنطق نريد أن نبحث في تجلي العلم بالإنسان، وطريقة الفيض الإنساني. لناخذ إنساناً ما اسمه محمود مثلاً. هذا الإنسان عالم بالرياضيات، والهندسة والموسيقى. كيف يعمل ويبدع. تأتيه الأفكار من عقله. فكرة عن بيت جميل، عن لحن موسيقي، عن لوحة فنية. هذه الأفكار تتزاحم في العقل ثم يختار منها واحدة ويبدأ بتنفيذها. فكرة البيت مثلاً. يبدأ برسم ملامحه في العقل، ثم ينزل ما في العقل إلى الورق، ثم يأتي بالعمال ليحولوا ما بالورق إلى أعمال حتى ينجز البيت ويظهر. الفكرة استخدمت عناصر من الوجود لإنجاز البيت. وهكذا كان لا بد للفكرة كي تظهر من المادة. وهكذا بتأزر الفكرة مع المادة ظهر الوجود المبدع وتميزت الحجارة والمادة القديمة من المادة الحادثة. فكرة اللحن، اللحن يتم تأليفه في العقل ثم ينفذ على الأوتار ويكتب على الورق نوتة ليعزف. وهكذا ظهر تجل آخر للعقل الإنساني في الصوت. الصوت موجود في الوجود ولكن الصوت الحادث غير الصوت القديم الذي فاض عن العقل. اللوحة تبدأ كفكرة ثم تنزل إلى الورق وتكسى بالألوان فيبرز جمال الوجود الحادث ويتميز عن الوجود القديم. دائماً كانت الفكرة تسبق العمل. ولكن الفكرة لكي تظهر لا بد لها من رداء، ورداؤها المادة القابلة والمطواعة لإظهار الفكرة. فالموسيقى لا ترسم بالألوان ولكن بالأصوات. هذه بديهيات في الوجود، والشعر لا يظهر بالمشاعر الجياشة ولكن بالصوت وعذوبة الألفاظ وسحر الكلام. من هنا تميز الإنسان الشاعر عن الإنسان غير الشاعر، والإنسان من الحيوان. ومن هنا تميز الكامل من الناقص، أو الإنسان الكامل من الإنسان الحيوان المفترس المتوحش الشيطان. فالفيض هو جزء من المفاض عنه. وهو صورة له. ولهذا نقول إن محموداً هو المهندس الموسيقي الرسام. إننا حكمنا عليه بما فاض منه أو ظهر وتجلي. فبعض عقله هو الذي أصبح بيتاً ولحناً ولوحة. ألا يدلنا هذا على طبيعة الفيض من المفيض الكامل صاحب العقل المطلق. إذا كان لكل وجود نظامه وعقله، ألا يدلنا تركيب الوجود واتصاله وتكامله على العقل الشامل الكامن في الوجود والحاكم عليه كما يحكم عقلنا على أجسامنا. فالعقل الكوني يركب من الوجود الصور المناسبة لإظهار كل فكرة ظهرت أو ستظهر في الكون. فهو الخالق والصانع دائماً وأبداً بأمره الأول وعنايته أو بالأسباب التي تعاقب الليل والنهار لإظهار الإنسان الكامل الخليفة على صورة الرحمن وفقاً لإرادته التي لمسنا بعضها فينا. لهذا استنتجنا حريتنا المعطاة لنا من العقل المطلق للحكم علينا فيما سنقوم به من الأعمال طبقاً لما نلناه من الحرية. أما إذا أخذ ما وهب أو بعض ما وهب فقد أسقط ما أوجب. ولهذا أسقطت الزكاة عن غير مالك النصاب الكامل

من المال. وأسقطت الصلاة عن المريض والعاجز. وكذلك سمح للمسافر والمريض بالإفطار. وطولب العاقل بمعرفة الله ولم يطالب المجنون بذلك. فأحكام الوجود صدرت لتمييز الصالح من الطالح. والعقل المطلق يحيط بكل ذرة في الوجود لأنها منه وإليه. لأنها كونه وتجلي عقله، لا تخفى عليه خافية، فهو يسمع ويبصر ويحكم على من أعطي الحكم ليعدل. أما من لم يعط الاختيار فحكمه حكم العاجز، ولهذا سقط الحكم عنه. وإن معرفة الله المسبقة للإنسان لا تعني أنه فرض عليه أن يرتكب الشر وينسبه إلى مبدعه. فنحن نعرف أن الكهرباء تضيء وتحرق وتدفئ وتبرد. والصانع يعرف هذا، ومع ذلك فقد أعطيت لنا لما فيها من الفائدة. فإذا استخدمناها للإحراق فليست مسؤولية الصانع. نحن في أحوالنا كبشر أحرار في حدود، ومقدر علينا في حدود. وفي حدود هذه الحرية تكمن مسؤولياتنا. فنحن الخلفاء فيما استخلفنا فيه من العطاء، ونحن العبيد فيما لا نملك. وإن كان الإنسان الصادق لا يدعي امتلاك المستعار من ملك غيره. ولهذا يعترف الكامل بعبوديته المطلقة، والناقص يدعي السيادة على ما وهب له من سيده. ومن هنا نشأ الثواب والعقاب.

لقد لاحظنا حتى الآن أننا فيض من فيض، وعقول من عقل كلي، ووجود من الوجود. وقد سئل أحد العلماء، هل الأكوان التي نراها مسكونة برأيك، فقال له العالم: وهل تعمر أنت بيتاً ليس لك فيه غاية. قال لا. فقال العالم: إذا كنت أنت لا تبني بيتاً بدون غاية فهل تظن أن ربك يفعل هذا. لا يوجد عبث في الكون، وتجلى الله بأسمائه عن العبث. كيف نتكلم عندما نعجز عن الإفصاح. الموسيقي يبدع اللحن ليس للناس، هو لنفسه قبل أن يكون للناس، يبدع لأن الإبداع من طبيعة المبدع. ولكن الناس يستفيدون من ظهور اللحن، يستمتعون به، يشهدون بعظمة الفنان. والموسيقي بدون حاجة لشهادتهم يبدع، فالإبداع له، ولكنه يطالبهم بالشهادة إذا كانوا من أصحاب الفهم والشعور، ويغضب من الجاهلين الذين ينكرون عليه عظمة لحنه. يقول لهم اذهبوا وتعلموا الموسيقى لكي تعرفوا عذوبة ألحاني. أحياناً يشرح لهم لكي يفهموا، لكي يتذوقوا، لكي يحسوا، وإبداعه لا يزيد ولا ينقص بسبب جهلهم أو علمهم. إن الكون لوحة العقل الذي لا بد منه لظهور التجلي ما دام هناك سمع وبصر. والإنسان هو الشاهد، شاهد حق أو شاهد زور. والشاهد لهذا سيسأل عما أعطي له، عن الطريقة التي تصرف بها في هذا العطاء. وإذا كنا نحن سنسأل أولادنا عن حصادهم في آخر العام الدراسي، عما حققوه وأنجزوه، وعما صنعوا بما أتحناه لهم من الفرص والراحة للدراسة. إذا كنا سنفرح بنجاحهم وتفوقهم، وسنغضب لإخفاقهم وقد نضربهم وقد نحرهم من أشياء

كنا نعطيها لهم. ليس بسبب حاجتنا إليهم. فحتى لو كنا من أصحاب الملايين سنغضب لإخفاقهم. بسبب حبنا لهم، وحرصنا عليهم، بسبب هذا الحب وحده. فماذا نقول عن المبدع المعطي الذي يملك الوجود كله. أليس من الطبيعي أن يسألنا عما فعلنا بالعقل الموهوب لنا، وعن السمع المعطى لنا، وعن البصر المشهود لنا، وعن كل الحواس والقوى؟. أليس من الطبيعي أن نُسأل عن الملك الذي وهب لنا كيف تصرفنا فيه. وفيما إذا كنا قد أصلحناه أو خربناه. لهذا نستنتج أن الصانع لا بد أن يسأل المصنوع عما فعله. لا تقل لماذا سيسألنا من يملك الوجود عن أعمالنا في أرض لا تشكل ذرة بالقياس إلى الكون. فهذا من العدل كأن يسأل الغني مهما بلغ غناه الخادم عما أصلح أو أفسد في مكتبه، ليثيبه أو يعاقبه أو يتجاوز عنه بحسب أعماله فهذا حقه. ليس لأنه أفسد له ما يملك، ولكن لأنه أفسد فيما لا يملك. إذا كان لك عشرة أولاد واعتدى أحدهم على الآخر فإنك كأب للمعتدي والمعتدى عليه ستهب لإنصاف المعتدى عليه إن عاجلاً أو آجلاً. قد تنذر المعتدي، قد تهدده بالعقاب، وتنتظر لعله يصلح نفسه، لعله يصلح ما أفسد. ولكنك في النهاية تعاقبه إذا أصر وكرر اعتدائه. وقد يكون متزوجاً، وقد يكون له أولاد، وقد يكون فقيراً، وأنت من الأغنياء. ولكنك حين تطرده قد تأخذ منه البيت الذي وهبته له وقد تحرمه من الإعانات التي كنت تعطيها له، فتكون جنايته على نفسه وعلى زوجته وأولاده. ولا أحد يقول لك إنك ظلمته غير ظالم مثله، أو إنك ظلمت أولاده مع أن أولاده قد يكونون صغاراً ولا يفقهون شيئاً، وقد يكونون كباراً ولا يوافقون على تصرفات أبيهم. ومع ذلك فإنهم يتحملون بعض ما جناه الأب، وقد يعطف الجد على الصالح منهم والبريء فيمد لهم يد المساعدة. وقد لا يفعل وهذا من العدل. وكلنا أبناء آدم. وأبناء آدم كلهم أحباب الله. لهذا كان لا بد من العدل لإنصاف الظالم من المظلوم. إن السؤال هو للعدل، والحساب عين العدل، والعدالة تمييز وليست مساواة. تمييز بين من أعطي كثيراً وبين من أعطي قليلاً. العدالة لا تحاسب الشرطي مثل الوزير ولا الغني مثل الفقير. لهذا وجدت موازين لا تحصى للحساب. نحن لا نريد أن نتحدث عن طريقة الحساب بعد الموت. ولكننا نستطيع أن نقرر عقلاً بأن من صنع شيئاً يستطيع أن يصنعه من جديد. وبما أن الصانع الذي صنع وأعطى طلب من المصنوع شيئاً أو أمره بشيء فلا بد أن يسأله عما فعل بالأمر المعطى إليه. العقل الإنساني السوي يرفض الظلم ويأنف منه فكيف بالعقل الإلهي الذي يحرك الوجود. لهذا قال: "يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا" (٢).

ليس هناك عبث في الوجود. وكل صاحب عقل يستطيع أن يبصر الحقائق التي نتكلم عنها. لجأنا إلى العقل وحاولنا بقدر ما نستطيع أن نتجنب البحث في الأدلة الشرعية أو الدينية لأننا أردنا أن نتحاور بالعقل، وأن نفهم بالعقل، وأن نبصر بالعقل. قبل أن ندخل في مفاهيم الأديان والمعتقدات والشرائع. وإن كان لا بد لنا من البحث في الشرائع والأديان لنستمد من قبس النبوة ما تعجز عقولنا عن الوصول إليه. فلكل علم رجاله، ونحن لا نستطيع أن نعلم علم الأنبياء والرسل إلا منهم. وهم أكثر الناس معرفة بما نتحدث عنه، ولهذا سنعتمد على أقوالهم لمشاهدة مستوى التطابق بين منطق العقل ومنطق النبوة. لتتأكد بأن ما يشهده العقل لا يتعارض مع ما شهده الأنبياء بالوحي. ولكن قبل أن نتحدث عن الوحي في إطار الأسئلة الإنسانية الكبرى، سنتحدث عن علوم العقل بالحوادث الكونية كي تكتمل اللوحة عن مدركات العقل وعلومه، ثم سننتقل بعد ذلك لمقارنة هذه العلوم العقلية مع علوم الوحي، للبحث عن الأجوبة لأسئلة الإنسان الكبرى في الوحي كما شهدناها في العقل.

الوجود القديم والوجود الحادث

لقد توصلنا إلى أن كل وجود يتحرك وفقاً لعقل أو نظام، وبهذا النظام يتحرك المتحرك ويسكن الساكن، وتتمو الشجرة، ويطلب الطفل ثدي أمه. ونحن لا نستطيع أن نقول بأن الطفل يطلب الحياة وهو لا يعرف معنى الحياة ولا معنى الموت. ولو وضعنا أمامه الماء والنار فإنه سيمد يديه إلى النار لأن لونها أكثر إثارة. والطفل المخلوق من ذرة في كيان الرجل لا يستطيع أن يفكر بخلق نفسه لغاية، وهو جاهل بما يضره أو ينفعه. والجنين في بطن أمه لا يمكن أن تقدم له الأم أي رعاية حقيقية بإرادتها. فالجنين يتحرك وفقاً لنظام، وينمو وفقاً لنظام دقيق لا يعلم عنه شيئاً، فأين العقل الذي نتحدث عنه. لهذا يجب أن نميز بين العقل القديم والعقل الحادث، فإن عقل الطفل القديم هو عقل أبويه. عقل آدم. فكما أن في البذرة سر السنبل. ولكن السر لا يظهر إلا بموت البذرة في أرض الطبيعة. وكذلك بذرة الإنسان لا تظهر إلا حين تزرع في الأرحام، في لحظة فناء الرجل بنصفه الآخر. عندها تتشكل النطفة. والنطفة من حيث الواقع هي الوجود الحادث، والوجود القديم. إنها الوجود الحادث من حيث الظاهر، والوجود القديم من حيث الباطن، أو السر، والغاية. ولهذا نسبنا إلى النطفة العقل حيث لا توجد غايات أو معرفة أو حتى إرادة للحياة، وإنما نظام، يدفع للحياة ويقود إليها. والعقل

الحادث هو في حالة كمون، إنه شمعة تتوهج من طاقة غير كافية لإظهار العقل القديم. إنه عود ثقاب صغير يحتاج كومة من اللحم والعظم والغذاء ليصبح ناراً أو سراجاً. ترى لو تمكنا من تسريع نمو الجنين إلى مرحلة النضج والرجولة خلال أيام هل سيختلف العقل الكامن عن العقل الذي ينضج خلال سنوات، من حيث الاستعدادات الفطرية في الإنسان. المسألة لاتعدو في مثالنا عن تسريع نمو شجرة حيث لن تختلف في مواصفاتها وثمارها عن الشجرة التي ستتمو ببطء. فالبذور هي كلمات العقل الكلي المصنوعة من أنية الطبيعة، العقل يبدع والطبيعة تظهر. والفكرة مثل العقل. كما أن العقل لا يدرك ولا يوصف ولا يقال عنه إنه في مكان أو له زمان. فكذلك الفكرة هي غيب في العقل لا تظهر إلا في الطبيعة. ولهذا كانت الطبيعة لوحاً للعقل. ولذلك كان العقل سيداً والطبيعة لوحاً للكتابة. منذ الأزل كان العقل القديم في قدمه، في أزليته هو نفس العقل المطلق لم يتغير ولا يتغير. لأن العقل المطلق هو عقل **الكون. والكون**، الوجود كما إنه لا يزيد ولا ينقص فإن العقل لا يزيد ولا ينقص. فالعقل المطلق للوجود المطلق. لهذا اختلف القديم عن الحادث. فالإنسان كحادث يتطور بالغذاء. عقله وهو في عالم الذر من جنس حجمه. ومناسب لوجوده. ولهذا لا تظهر ثمار العقل إلا مع مرحلة النضوج الكامل حيث تصبح الطاقة كاملة. وتنقص هذه الثمار عندما يبدأ الانحدار في سلم الهرم. أو إذا تعرضت هذه الطاقة لخلل ما. هذا هو الإنسان الحادث في قدمه. فهو يتقلب بين مستويات النضج الطبيعي في مراحل العمر المختلفة. وكل جرم يكشف عن عقل مختلف عن العقل الذي سبقه. فالإزهار غير الإثمار. فالحادث هو حادث له بداية وله نهاية. ولكن الحادث كان في ذات المبدع أزلاً وإلا ما خرج إلى الوجود. ولكن وجوده كان فكرة ممكنة. والممكن لا بد لظهوره من إرادة للإظهار أو ترجيح. لأن الحادث لا يخلق نفسه ولا يستطيع وإن كان فكرة مشهودة للموجد. فلا بد من وقت للإيجاد. إنه مثل فكرة المهندس الذي يريد أن يبني بيتاً. تظل الفكرة في ذات المهندس إلى حين ظهور البيت. وبين الفكرة وظهور البيت ستمر مرحلة التكوين. وفكرة التكوين تبدأ من تكوين الأساس إلى مرحلة البناء فالكسوة حتى يكتمل البيت بالترميزات ويصبح كاملاً صالحاً للسكن. لذلك اختلف القديم عن الجديد. كان فكرة فأصبح حقيقة. كان غيباً فأصبح شهادة. لهذا اختلف الحادث بأن له تاريخ، له ماض وحاضر ومستقبل، إنه يسير عبر الأنات إلى حقيقته الغائبة المرهونة بالأنات، بالزمان. لهذا انقسم العلم الإنساني إلى نوعين من العلم. علم بالحقائق الأزلية، وعلم بالحوادث. علم الحقائق مطبوع بالعقل. أما علم الحوادث فهو علم بالتاريخ الكوني، وهو علم مجهول للإنسان،

لأن الإنسان لم يشهد تطور الكون وتطور خلقه. ولأن مثل هذه الشهادة تتعلق بالسمع والبصر. وعلوم السمع والبصر ليست من جنس علوم العقل. لهذا ظل الإنسان يعبر عن علمه بالتاريخ بخياله والخيال يخطئ ويصيب. لأن التحقق مما نتوقعه عن تطور الكون شبه مستحيل وإن أصبنا، فالتحقق يحتاج إلى إعادة شريط الحوادث الكونية بعكس الاتجاه، إلى الماضي. وهذا ما لا نستطيع أن نفعله إلا بالخيال. وهذا الخيال لا يملك البرهان على ما نتخيله. بينما نستطيع في الحقائق الأزلية أن نقصي عن البرهان حتى نجده. فالذاكرة تتبنا بوجود المادة المضادة مثلاً في الكون. فنرسل الخيال إلى الطبيعة لنبحث فيها عن هذه المادة. وباستخدام الإمكانات العلمية المتوفرة نتحقق من وجودها أو عدمه، حيث يشهد السمع أو البصر بوجودها لأنها من مركبات الطبيعة. أما الحوادث مثل تاريخ شخصي لبيت أثري فنحن نستطيع أن نعرف العناصر التي يتألف منها، ولكننا لا نستطيع أن نعرف ما أنجز في كل لحظة حتى اكتمل البناء، والأدوات التي استخدمت في هذا الإنجاز. وإن كان خيالنا يستطيع أن يذهب شتى المذاهب لرؤية ظنونه في الطبيعة ومحاولة التحقق منها. ولكن الحقائق في هذه الحالة تظل أقل شفافية من صورة معكوسة في الماء تهتز في كل حين، فلا يتمكن الخيال من ضبطها. وكل حقيقة تحتاج لكي تعرف إلى شهادة الشهود. والشهود في الإنسان هم الحواس، السمع والبصر. ولهذا لكي ترقى الحقائق إلى مستوى عين اليقين يجب أن تشهدها العين كما شهد العقل بصحتها. وإذا اختلف المشهود عن المعقول، فإن المشهود يرفضه العقل. والعكس يحدث إذا عرف المعقول ولم يشهد. لهذا قد نتقق على تركيب المواد التي بنيت منها الأهرامات. ولكننا سنختلف على تاريخ وطريقة بنائها. لأن العقل يدرك النظام. يدرك ما هو من جنسه، المعقولات الكلية. يدرك بأن بيضة الدجاجة ستصبح دجاجة بعد ثلاثة أسابيع مثلاً إذا وضعت في حرارة معينة ونظام معين. ولكنه لا يدرك لحظات التطور في البيضة إلا إذا أحاط بالأسباب. وتعدد الأسباب الكونية لا يسمح بمثل هذه الإحاطة. ولذلك على العقل أن يعرف حدوده في المعرفة. ومعرفة هذه الحدود علم كما أن البحث فيما لا يمكن معرفته جهل. "العجز عن درك الإدراك إدراك" (١). كما قال الصديق. ومعرفة ما لا يحاط به علم. وكما إن العقل الإنساني يعرف ولا يُشهد، وليس له مكان في الجسم وإن كان في كل مكان. فكذلك العقل الإلهي يعرف ولا يشهد ولا يحاط به لنعرف الحوادث منه. والكون كله في تجدد. وكل لحظة تجري فيها الحوادث فنشهد آثار العقل المطلق الحاكم على كل شيء بما أراد أن يحكم. فأين الامتزاج وأين التخلق. وأين شهود العين

ممن لا يشهد بالعين. تعالى الله عن العلم ليعلم، وعن الجهل ليجهل. فهو المعلوم المجهول. وتعالى عن المواد ليدرك بها. والطبيعة مظهر أحكامه ومنصة ميزانه. وإن ظهر لنا منها ما أظهر. فهو ليس الظاهر بالحقيقة وإنما الظاهر بالحكم، بالأسماء. وكما قال الشيخ محي الدين بن عربي: "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته. فهو هو لهو لا لك. وأنت أنت لأنك وله. فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك" ٢. فكيف سيحيط العقل الإنساني بالحوادث. والعقل الإنساني فيض من فيض العقل الإلهي وحادثة من الحوادث. ولهذا كان العجز الإنساني في إدراك حوادث الوجود عجزاً لا شفاء منه. وبهذا العجز تميز العابد من المعبود. وتميز القديم من الحادث. وإن كان الإنسان أكمل العقول الآن في الوجود الحادث في مجموعتنا. ونقول الآن لأننا لا نعلم شيئاً عن الإبداع الإلهي في الأكوان القريبة منا، فكيف بالبعيدة. ولا نعلم شيئاً عن المستقبل وما سيحدث فيه، فهو الله المبدع من ذاته لذاته، لرؤية الإبداع. لنقل إن العقل هو الرب في الإنسان، والكون هو الصورة، هو الطبيعة. إن العقل المبدع سيفيض بالإبداع لأن الإبداع من طبيعته. الموسيقي محتاج إلى الموسيقى، إلى التأليف بين الأنغام لصياغة أصوات تتردد في أذنيه وفي الوجود. والرسام محتاج إلى الرسم لتأليف ألوان تعشقها العين تضيء على الوجود الجمال والكمال. والشاعر محتاج إلى الكلام لإطلاق كل المشاعر التي تجيش في عقله وحواسه. ولكن الموسيقي والرسام والشاعر غير محتاج لإبراز هذا اللحن أو اللوحة أو القصيدة بالتحديد، فهو غير محتاج، وإن كان لابد من الإبداع للمبدع. لهذا إن أماتنا الله يأتي بغيرنا. وإن بدل صور الأكوان سيأتي بصور جديدة. التبديل جار في كل لحظة وهو حقيقة. ولكن التوقف عن الإبداع غير وارد. فهذا من صفات المبدع ولا بد من ظهور صفات العقل في الكون لظهور العقل ومعرفته. في نطاق القوانين يتصرف العقل. ما تقبله المادة، كما قلنا لا يمكن أن نحول الأصوات إلى بيت جميل. ولكن الصوت نفسه يمكن أن يتحول إلى طاقة مدمرة. لأن حقائق المادة وتركيبها تسمح بكذا، ولا تسمح بكذا. هذا النظام مطبوع في العقل الإنساني. ولهذا يتم كشفه قبل أن تبصره العين في العديد من الاكتشافات العلمية. فالإكتشاف يبدأ من تقديرات العقل، من انشغال العقل بالذاكرة، العالم يغلق بابه ويتأمل الحقيقة التي يبحث عنها في رأسه، ويرسل خياله إلى الوجود. يتأمل ويتذكر. يضغط على الدماغ لكي يرفع المزلاج عما في الرأس، في الذاكرة. وعبر التأمل الطويل يكتشف ما كان يبحث عنه، مثل بريق تبدو الفكرة مضاءة في سماء العقل. والعقل ينهل من العقل. من شيء آخر داخل العقل. من ذاكرة

الإنسان. والاكتشاف قد يكون كاملاً. وقد يكون نصف اكتشاف ثم يبدأ السمع أو العين، الحواس بالتجريب للتأكد ثم تظهر النتائج، إما متطابقة مع منطق العقل أو مناقضة له. في كل مرة وعبر الأزمان الإنسانية يدخل العلماء إلى غرفة ذاكرة تحتوي على نظام الوجود الذي تشكل الإنسان وفقاً لحقائقه ومعهم المصاييح المؤلفة من سجل كتبه من سبقوهم. كما لو أن رحالة وصف لنا مدينة في القرن التاسع عشر. فإننا لو دخلنا المدينة في نفس الزمن فسوف نجد بعض المعلومات الناقصة أو التي أغفلها المؤلف، أما لو دخلنا في القرن العشرين فإننا قد نفاجاً بأن المؤلف يتحدث عن مدينة أخرى. ولكن بعض الحقائق الرئيسية ستدنا على أن المدينة التي وصفها هي نفسها كما لو أنه وصف لنا القاهرة والأهرامات والنيل. فهذه علامات وحقائق مميزة للمدينة، ولهذا سنحكم بأن المدينة تطورت وتغيرت. لهذا قد تكون بعض معلومات الإنسان صحيحة في وقت معين وخاطئة في وقت آخر. فلو اختفى النيل أو الأهرامات ستقل الدلالات عن المدينة التي يتكلم عنها المؤلف. وإن كان اسم المدينة سيظل كتعبير عن تجمع بشري كبير. لهذا يصبح الاكتشاف في بعض الأحيان مرهوناً بزمن معين ومكان معين. فقانون الجاذبية صحيح على الأرض، ولكن هل هو صحيح في الفضاء أو في المجموعات الكونية الأخرى بنفس النسب الرياضية. الجاذبية موجودة كقانون مطلق مثل قانون تحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة لأن الجاذبية ضرورية لترابط الكون. أما الأخطاء فإنها تتعلق بالأرقام. بما افترضنا صحته دون اعتبار للمكان والزمان. وهذه مسألة مثل النار التي لا توجد إلا محمولة في المادة. فهي في زمن مضى حالت دون ظهور الحياة على الأرض حسب تقديرات العلماء. ثم عندما أصبحت في درجات أكثر انخفاضاً ساعدت على ظهور الحياة. ثم جاءت الشمس لتقوم بالمهمة. لهذا فإن علم الإنسان بالحوادث يخطئ ويصيب لأنه علم مرتبط بالتجارب والخبرة والأحاسيس، علم مرتبط بالشهود، السمع والبصر والحواس. والشهود لا يمكن أن تطلب منهم الشهادة فيما لم يشهده، لأن شهادتهم ستكون مزورة. ولهذا سيرد العقل العادل السليم هذه الشهادة. بينما شهادة العقل العارف بنفسه ستكون هي الصحيحة، في بحثها عن الحقائق الكلية المنطقية. وعندما يسرق شيء يحكم العقل بأن السارق هو إنسان ما، ولكنه لا يقبل شهادة الشهود إذا لم يشهدوا برؤية السارق. والظن لا يكفي. ولهذا تبدأ مهمة العقل، بربط المادة المسروقة بالمحتاج لسرقتها، حتى يتحقق المطلوب ويعترف المذنب بذنبه فتسمع الأذن وتشهد العين فيرتاح العقل إلى حكمه الصائب. فيصدر الحكم المناسب. إن كل تركيب في الوجود يشهد على نفسه بما فيه. وللعين حكم على هذا التركيب،

وللسمع حكم، وللعقل حكم. هذا فيما يشهد. ولكن كيف سنحكم على ما لا يشهد. هل هناك من وسيلة للإدراك غير مقابلة ما لا يشهد بالحواس بما لا يشهد لنا وهو فينا أي العقل. لننظر إلى تناسب الأحكام ولنتأمل كيف نحكم بالغيب فينا على ما هو غيب في المادة مما لا يُشهد بالسمع أو البصر. كيف اصدر العالم حكمه على وجود المادة المضادة عندما رآها بالعقل. فصار العقل هو السمع والبصر والحواس. ثم اكتشفت بالتجارب. لهذا قلنا إن العقل هو مرآة للقوانين الكلية. لأننا بالتجربة نلمس بأن المكتشف علمياً هو كامن فينا. هو في الذاكرة. وإلا لو كان خارج الذاكرة فمن أين سنكتشف ما لا نراه قبل أن نراه. لهذا ميزنا بين العلم القديم بالقوانين الأزلية المطبوعة في ذرية آدم، وبين الحوادث الكونية. بين قضية الماء كأصل للحياة، وبين جريان النهر ووجود النيل أو اختفائه. بين ما يدرك بالعقل. فالعقل هو المحيط غير المحاط به. هو الكمال الإنساني مع أنه لا يشهد ولا يعرف إلا بآثاره. فأين العقل، وأين الذاكرة، وأين الضمير، وأين النفس، وكلها قوى للعقل مختبئة في ضباب الهالة الجسدية. ولو شرحنا الجسم والرأس لما وجدنا إلا عظماً ودماً ونخاعاً فهل هذا هو العقل. إن كل هذا المزيج من اللحم والدم والعظم والأعصاب هو من أجهزة العقل. ولا بد أن يكون للعقل موقعه في الجسم أو في الرأس. وقد يكون العقل في الجسم مثل نور الشمس الذي نكتشف به الشمس والأرض. فإننا لا ندري حتى الآن وإن كنا نعرف بأن إصابة الدماغ تؤدي إلى خلل عقلي للمصاب. ولكن الرأس قد يكون مثل مركز للاتصالات إذا أصيب بخلل سيؤدي إلى تعطيل كافة الاتصالات. ولهذا فإن تحديد مكان للعقل غير ممكن بالاعتماد على ملاحظة العلاقة بين سلامة الدماغ وسلامة العقل. إن المغناطيسية تدلنا على وجودها بالآثار. ويمكن أن نفسرها بوجود الكهرباء وحتى أن نصنع الحديد الممغنط ولكن الهالة المغناطيسية التي تنتشر حول القطعة الممغنطة لا تحتاج إلى مركز أو لنقل إلى دماغ لإحداث المغنطة. فإذا بحثنا في قطعة لن نجد، ولن نلمس شيئاً ما قد تشكل في منطقة معينة في القطعة نتيجة المغنطة، ما عدا التيارات الكهربائية التي قد يكون لها مركز تتقاطع فيه. أو تلتقي. ونحن لا نريد أن ندخل في بحث المغناطيسية، ولكننا نشير فقط إلى أن مادة الحديد الممغنطة تنشر هالة تحيط بكامل قطعة الحديد بنفس القوة في محيط القطعة بدون أن نرى أي إشارات ملموسة لهذه المغناطيسية التي لا نستدل على وجودها إلا بالتجربة. وإن السمع والبصر وكافة القوى الإنسانية عاجزة عن التمييز بين الحديد الممغنط وغير الممغنط بدون رؤية المغنطة في التجربة. وقد يكون هذا لغز بسيط من أغاز المادة، أو الحديد تحديداً، يشير إلى صعوبة رؤية كل ما

نشهده في المادة ونحن نمسك بها بين أيدينا. فكيف سندرك كل ما يحتويه العقل المحدث وهو فيوض من فيوضات العقل القديم. إن قطرة البحر قد تكون من حيث التركيب هي من نفس تركيب البحر. من حيث الماهية. ولكن هذه القطرة لا تدرك كل ما يجري في البحر من الحوادث. وقطرة البحر في السماء عندما تصبح غيماً غير هذه القطرة وهي في البحر. وهي غير ذلك عندما تسقط مطراً. فأين الإنسان من بحر الوجود الصاخب بإبداع صور الحياة. لهذا اختلف العلم والاجتهاد والمعرفة والإدراك. لأن المكتشفين مثل عدد من الرحالة قاموا بوصف مدينة واحدة في أزمان مختلفة. فكل واحد منهم سيصف ما يهمله مما رآه. وكل واحد سيصف ما رآه في زمنه. وللعقل توجهات، وللعين مشاهدات. ولهذا ستختلف الأوصاف طالما أن الحياة الإنسانية نفسها في تغير مستمر صاخب لا يتوقف، مع أن الماهية الإنسانية لا تتغير. واللسان قد يتعلم أن ينطق بالسرياني أو العربي إلا أن هذا من العلم المكتسب لا العلم المطبوع في الذاكرة، إنه من علوم الحواس، السمع هنا يتعلم الألفاظ، والبصر يتعلم الألفاظ، والبصر يتعلم القراءة بلغة العصر. أما العقل المتكون المطبوع فلن تتغير فيه الحقائق سواء سمينا الماء مطراً أو بحراً أو نهراً. وسواء كتبناه بهذا الحرف أو ذاك. فما في الطبيعة لا يتغير بناء على أوصافنا أو تسمياتنا أو لغتنا. وكذلك ما في العقل لا يتغير، لأن العقل صورة الطبيعة ومرآتها. كما إنه صورة الإنسان العارف بنفسه وبغيره، ولهذا رأينا أن كل اكتشاف تحقق لنظام الطبيعة وقوانينها فاض من العقل ثم قام العقل بإرسال شهوده الحواس للتحقق من صحة ما رآه. أما رؤية الحوادث. معرفة تاريخ الكون وتطوره المستقبلي فهذا شأن آخر لا يمكن إدراكه وإن كان بالإمكان إدراك بعضه ومعرفته معرفة يقينية فهذا له مجال آخر في البحث سنتعرض له.

لقد تحدثنا حتى الآن عن العقل الإنساني عبر فهمنا وتأملنا لحقيقة العقل، لإنتاجه وإبداعه. وحاولنا أن نعتمد على كل ما أوردناه بتأمل العقل الإنساني كما شهدناه، وكما يشهده كل إنسان. العقل كحقيقة كامنة في الوجود ومرتبطة به، متعالية على الطبيعة من حيث أحكام العقل وقدراته وحريته وسيادته على كل ما هو مادي في الوجود. كل ما يلمس ويظهر، وكل ما هو مركب من عناصر الوجود. فالعقل هو السيد لأن له السيادة، وهو العظيم لأن عظمته لا يجارها أي وجود آخر. لأن العقل هو مبدع صور العالم. الصور التي لم تخلق على مثال سابق. لولا الإنسان لا يوجد تاريخ للإنسانية. فتاريخ الإنسانية هي أفعالها التي لم تكن ثم كانت، فهي عدم قبل أن تكون، وعندما تكونت الإنسانية تكون تاريخ الإنسان. ليس العدم الذي نقصده في عملية الإبداع هو ما لا وجود له. وإنما

الوجود المبدع من الفكرة العظيمة والمتحقق في المادة القابلة. وبهذا كان ما لم يكن. وما هو كائن لا يظهر إلا بارتدائه ثياب الطبيعة ليزهو بأبيه وأمه، ويزهو بمن أوجده. الفكرة والثوب، العقل والطبيعة، العظيم والقدوس، اللاهوت والناسوت، الروح والمادة. أي فكرة شئت لا تظهر بدون أن تشهد، والشهود لا يشهدون إلا بالسمع والبصر والحواس. هل تعرفت طعاماً لم تتذوقه، أو رائحة لم تشمها، أو أجمل الصور بدون أن تراها، أو أعذب الشعر وآياته وطقوسه وأحزانه بدون أن تسمعه. إن القصيدة تقول للشاعر أكتبني لكي أظهر، والموسيقى تقول للموسيقي أعزفني لكي أسمع ويدوخ بي السامعون، لكي تبكي القلوب أو تفرح. كل لون يستمد من العظيم والمقدس لكي يتألق في نهر الوجود الثري بأشكال الحياة وبزورها وجمالها وتعاستها. لكي تظهر الأضداد ويمتاز المبصر ببصره كي يقود الأعمى إلى شمس الحياة الدافئة التي لا تغيب وإن أشرقت الشمس وغابت، حيث لا موت، ولا حياة لمن هو حي بالوجود. لقد حاورنا العقل بالعقل. والعقول الإنسانية وإن كانت واحدة، فقد منعها من إدراك الحقيقة مانع، ولهذا لا بد لكي يكون تأملنا لحقيقة العقل أكثر يقيناً، أن نلجأ إلى من كانوا أكثر علماً منا. لا بد أن نلجأ إلى الذين تطهروا حتى فاضت حقائق الوجود على ألسنتهم رموزاً تتناسب عصرهم. لا بد لكي نعرف العقل الإلهي من البحث في سيرة الرسل وكلامهم وإشاراتهم لكي نتأكد فيما إذا كان ما نقوله يتطابق مع ما قالوه أو يتناقض معهم. فالرسل أكثر الناس معرفة بالله. وأكثر الناس معرفة بأنفسهم. وقد كنا نود أن نعتمد في هذا البحث على ما جاء على لسان الرسل المعروفين وهم موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. ولكن ظروف كتابة التوراة والإنجيل التي حالت دون وصولهما إلينا بشكلهما الصحيح السليم، هو السبب الذي يمنعا من تتبع الإشارات المعروضة في هذه الكتب لحقيقة الله والإنسان. ولهذا فإننا سنكتفي بالاعتماد على القرآن والأحاديث النبوية التي لا مجال للطعن في صحتها لإظهار رأي الدين الإسلامي وموقفه من المواضيع التي نحن بصدد مناقشتها. وإن كنا لا نشك بصحة كل ما جاء على ألسنة الرسل والأنبياء. ولكن المشكلة تكمن في صحة ما وصلنا مما أتى به هؤلاء الرسل. وليس لدينا أي وثيقة صحيحة غير القرآن والحديث وهما مما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام. يضاف إلى ذلك أن القرآن والإسلام كخاتم لكل الرسالات السماوية، يحتوي على التوراة والإنجيل وكل الكتب التي سبقته من حيث المعنى. ولا نريد أن نعتمد في هذا الحوار على المجادلات اللفظية، بل على الحقائق. وكل من يريد الحق سيجد كل دعوة إلى فضيلة وردت في التوراة والأنجيل موجودة في القرآن. وهذا مما يدل دلالة قاطعة

على أن أمر الله الواحد لم يتعدد وإن تنوعت الألفاظ. فما أمر به الله وما نهى عنه اكتمل واجتمع في القرآن حتى لم يبق قول لقائل ولا جدل لمجادل، إلا لمن دفعه هواه وتعصبه أو جهله لهذا الجدل. ولسنا هنا بصدد الدفاع عن صحة عقيدة الإسلام. ولكننا نريد قيل أن نحكم على صحة الإيمان وأن نقارنه بصحة العلم وسلامة العقل. ولكي نوضح بعض الحقائق عن الظروف التي تم فيها تدوين التوراة والأنجيل الأربعة المعترف بها رسمياً لدى الكنائس، مقارنة بظروف تدوين القرآن والأحاديث النبوية. لا بد لنا من عرض سريع لهذه المشكلة التي أدت إلى طمس الكثير مما كان بالإمكان الاعتماد عليه في الاستفادة لمناقشة المسائل التي نحن بصدددها. والتي وردت توضيحات حولها في التوراة والأنجيل. ولنلاحظ أن لدينا أنجيل أربعة وليس إنجيل واحد. لأن ما وصلنا من التوراة والإنجيل هو ما فهم من الرسل وليس ما نطقوا به. وهناك فرق بين كلام الرسول الدقيق، وبين كلام التلميذ أو رسول الرسول أو رسول رسول الرسول. ولهذا حتى إذا حاولنا أن نستفيد من بعض ما ورد في العهدين القديم والجديد فعلى أساس أن ما ورد في العهدين هو من كلام التلاميذ لا الرسل وهذه حقيقة لا يجادل بها حتى أصحاب هذه الكتب. فالذين كتبوا التوراة والأنجيل هم التلاميذ كل بحسب فهمه. وعندما نقول التلاميذ فلا نقصد الذين سمعوا كلام موسى أو عيسى عليهما السلام، وإنما الذين تناقلوا هذه الأحاديث ثم دونوها بعد عشرات السنين. بينما حافظ المدونون الذين دونوا القرآن على دقة اللفظ والحرف وطريقة الكتابة كما أمر بها رسول الله عليه الصلاة والسلام. وعندما بدأ تدوين الأحاديث حافظ المدونون على الكلمة كما وردت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. وابتكروا طرقاً في تحقيق الأحاديث للتحقق من صحتها والحيلولة دون وقوع أي تزوير في الأحاديث، ولم يكتفوا بالمعنى، بل كانوا يطلبون النص كلمة بكلمة وحرفاً بحرف. وقد بين المحققون مستويات الحديث قويتها وضعيفها حتى جعلوا من هذا العلم، علم الحديث علماً قائماً بذاته لا يمكن تصل إلى دقته أكبر المعاهد والجامعات العلمية في عصرنا لتحقيق النصوص القديمة. ولهذا سيكون اعتمادنا لأي نص ورد في التوراة والأنجيل على أساس أن النص هو مما فهم عن الرسول وليس ما نطق به. أي إنه كلام التلاميذ. والتلميذ قد يخطئ وقد يصيب في أداء المعنى. ولهذا سنأخذ ما نراه صحيحاً في حوارنا. وإن صحة بعض المعاني والأفكار لا تجعل كل ما ورد في التوراة أو الأنجيل صحيحاً، كما أن كل ما ورد من أحاديث مما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليس صحيحاً وإن أصاب المعنى. ولهذا سجل المحققون رأيهم في كل حديث حتى مما اطمأنوا إلى صحة معناه، مما

جعلنا أمام مستويات متعددة من الأحاديث النبوية من حيث دقة اللفظ والنقل. وهذا لا يقلل من أهمية الكلام الواصل إلينا ولكنه يقلل من دقته وصحته. وإذا كنا نريد العدل والإنصاف، فإننا سنقبل بأحكام العقل وليس بما يناسب أهواءنا. وهذا هو ما نريد أن نتوصل إليه عبر هذا الحوار.

المعرفة بالحيرة

هل يستطيع الإنسان أن يعرف الله الخالق؟ وما هي الحكمة من خلق الإنسان؟ كلما أوغلنا في هذا البحر المضطرب العميق، تبرز أسئلة جديدة. فهل نستطيع أن نخوض في هذا البحر؟ لنجرب لأن هذا قدرنا، أن نحاول بصدق، بإخلاص، ليس من أجل الادعاء بل للحقيقة وعندما سنتكشف لنا الحقيقة. لماذا؟ لأن المبدع إذا كان قد أبدع شيئاً لغاية لابد أن يكون هذا الشيء المبدع مناسباً لتحقيق الغاية التي أبدع من أجلها، وإلا أصبح الإبداع عبثاً لا طائل منه. فأنت كإنسان لا تصنع السيارة إلا لتركبها. والشاعر لا يكتب القصيدة لكي لا تفهم. وقد قال الله: [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] (١). قال ابن عباس: "ليعرفون". فما هي حقيقة العبادة، ومن هو أكثر عبادة، من يعرف المعبود أو من جهله. وهل يمكن أن نعبد ما لا نعرف بدون أي دليل من العقل أو السمع أو البصر. لهذا نقول إن حقيقة العبادة تتحقق بالمعرفة، معرفة الله. ولكي نعرف الله لابد أن يكون لدينا العقل القادر على المعرفة. ولابد أن يكون الموضوع المطلوب معرفته بالإمكان معرفته. نحن أمام موضوع مطلوب معرفته بأمر الله، وعقل سنقوم بواسطته بهذه المعرفة فإذا كان العقل عاجزاً عن الإدراك في هذا المجال لن تحصل أي فائدة معرفية. ولهذا كان من شأن المبدع لكي يطالب الجن والإنس بعبادته أن يزودهم بأدوات العبادة، وأدوات العبادة كما قلنا هي أدوات معرفية كامنة في العقل والسمع والبصر والحواس، ولهذا قال الله: [إنما يخشى الله من عباده العلماء] (٢). ولم يقل، الجاهلون، وخاطب الله الناس الذين لا يدركون بالعقل بلغة الحواس فقال: [أفلا يسمعون. أفلا يبصرون. أفلا ينظرون] ولكن الخطاب الأعلى للعاقليين "أفلا يعقلون". ولكن إذا كنا نستطيع أن نعرف الله بالعقل فما هي حدود معرفتنا به، الحدود المتاحة لنا كبشر.

لقد تعددت مستويات الخطاب الإلهي للإنسان. بدأ القرآن بـ [اقرأ باسم ربك

الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم] (٣). وهو خطاب تعليمي للعقل والسمع. فلو كان الإنسان غير قادر على معرفة الله، فإن مثل هذا الخطاب لا جدوى منه. ولهذا لم يك مثل هذا الخطاب خطاباً إلا لكي يعرف الله. لكي يكون موضوعاً للمعرفة الإنسانية. وقد جاء في الإنجيل من بشارة القديس يوحنا: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان لدى الله وكان الكلمة الله" ٤- . فالكلمة هي تعبير عن تجليات العقل العارف، وهي شهادة لما يتجلى للعقل في الموضوع المشهود. والكلمة هي الأمر الإلهي الذي كان به الوجود المحدث، وكان به الإنسان "اقرأ" هكذا بدأ القرآن. أول سورة أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء [اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم] فالمعلم هو الله. هو العقل المطلق الذي اختار الإنسان لكي يعرف الله. ولكن ليس المعرفة الكاملة كما نظن. وإنما هي معرفة بحدود قدرة الإنسان. كما نعرف أن المهندس مهندس من إبداعه في البناء، والرسم رسام، والشاعر شاعر، هذا من بنائه وهذا من رسمه، وهذا من شعره. مع أننا قد لا نعرف أكثر من ذلك عن المهندس والرسم والشاعر، وقد نعرف أكثر على قدر قربنا منهم وتتبعنا لأعمالهم. ولكننا مهما حاولنا لن نعرف كل ما يخص هؤلاء، كل ما يدور في عقولهم، وهؤلاء بشر نستطيع أن نجالسهم، أن نحدثهم، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نعرفهم حق المعرفة. فكيف سنعرف الله حق المعرفة وهو الذي يدرك ولا يدرك، المحيط بكل شيء. كيف سيدرك من هو منبع كل العقول، وكل ما سكن أو تحرك؟ تعالى الله عن الإدراك، وعن الشهود، وإن كان ما نشهده منه، فهو المشهود الذي لا يشهد. فلوحة الفنان ليست الفنان وليست عقل الفنان، ولكن اللوحة هي تجلّ لعقله. ولهذا تتعدد لوحات الفنان ولا يحاط بعقله، وليست هي كل عقله. وعقل الفنان لا يشهد إلا كطاقة للمعرفة، فما يشهد منه آثار العقل وليس العقل، فما يدرك هو تجليات العقل، إبداعه. ولكن العقل لا يدرك ولا يبصر ولا يسمع، وإن العقل يدرك ويسمع ويبصر. ليتأمل الإنسان نفسه، ليغلق أذنيه ويغض عينيه وليتأمل كيف تجري الأصوات والصور في عقله، ليتأمل كيف ينام وهو يشهد أصواتاً وصوراً يعرف بعضها وبعضها لا يعرفه، فمن أين رأى ما رآه وهو يغط في نوم عميق؟ قد تكون بعض الرؤى من النفس كما يقولون، ولكن كيف شاهد العقل لوحات النفس وشاهد ما لم تعرفه النفس من صور وأصوات؟ أين سافر العقل وكيف وهو فينا ومعنا في حلنا وترحالنا وسفرنا ونومنا ويقظتنا، وبأي وسيلة؟ لنقل ببعض قوى العقل، لنقل

بالروح، بالخيال، المهم إن السفر يحدث والمعرفة تحدث. فماذا نعرف عن عقولنا وهل عرفنا كل شيء عنها؟ إذا كانت معرفتنا بعقولنا محدودة، فكيف سنعرف العقل الإلهي. لهذا أخطأ المشبهون فيما شبهوا إن كانوا قد فهموا أن الله يتجسد في الصور أو الأزمنة أو الحوادث. كما أخطأ الذين منعوا التشبيه وحرموه إن كانوا قد فهموا أن الألوهية لا تدرك من حيث الصفات فاختروا لغة النفي بدل الإثبات مع أن الألوهية يمكن أن تعرف بالإثبات والنفي، والحوادث المشهودة في الكون، مع أن كل ما يشهد وإن شهدنا كل ما حدث في الماضي لا يدل على حقيقة الله، لأن الله ليس من صنف الحوادث. والحوادث هي من أفعال العقل، ولهذا نحن لا نشهد ولن نشهد غير الأسباب والمسببات. إننا نشهد الوجود، ولا نشهد الصانع المبدع في الوجود. ولهذا طلب منا الله أن نعرفه بالعقل، بالأداة المناسبة للمعرفة، والتي لا يحيط بها التشبيه أو الإثبات أو النفي. ولكن لأن العقول اختلفت في مستويات المعرفة، خاطبنا الله خطاباً آخر يتناسب مع قدرات العقول في المرتبة الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، فورد في أسماء الله الحسنى هو الغني لإثبات الغنى المطلق له بامتلاكه للوجود. كما ورد أنه المغني ليظهر فضل العطاء وصفته وأثره في المحل المحتاج والمفتقر إليه. فالوردة محتاجة للجمال والعطر وهو الذي يغنيها بالجمال والعطر. والإنسان محتاج إلى العقل وإلى المال والرزق، والوجود الإلهي يمد الفقراء بما افتقروا إليه ليكشفوا عن مكونات العقل المطلق الذي لا يتقيد بالصور. ولا تحيط به العقول والأفكار. ولهذا قد تكون أعظم معرفة لله وأصحها هي أن يعرف من خلال الحيرة الإنسانية. والحيرة الإنسانية في معرفة الله هي المعرفة المنصفة للإنسان. ولهذا رأينا أنها أكمل مستوى يمكن أن يصل إليه الإنسان في معرفته لله. فالله يحب العدل وقد أمرنا به وحذرننا من الادعاء، لأن الادعاء كذب. والكذب محرم. لهذا قلنا إن الحيرة هي أكمل معرفة. فالإنسان قد يعرض عليه مهندس قصر مشيداً وحين يدخله ويشهد جمال القصر وروعة بنائه سيشهد بعظمة المهندس. فإذا نقله المهندس إلى قصر أجمل منه وفيه أمور غير مألوفة لديه يصاب الإنسان المشاهد بالدهشة. وسيقول للمهندس أو لمن معه إنه قصر عجيب. فإذا نقله المهندس إلى قصر ثالث أروع من الاثنين وأعظم وفيه عجائب من المخترعات والفنون فإن المشاهد سيصاب بالذهول وسيحتار في تقدير عظمة المهندس إذا ما سئل عن رأيه فيه، مع إنه لم يشهد غير بعض إبداعات عقل إنسان مثله. والإنسان يحتار أحياناً أمام طائر يقطع آلاف الكيلومترات ليبنى عشه في منطقة مألوفة لديه، ثم يعود مهاجراً في فصل آخر بدون أي خطأ. فكيف لو شهدنا حركة الكون في لحظة ما. وكل ما

يجري هو من تجليات العقل وإرادته؟ ألا يذهلنا البحر ونحن نجلس أمام التلفزيون ونشاهد حياة الأسماك وصراعها وتوالدها؟ ألا تذهلنا الغاية ونحن نشهد فيها صخب الأحياء وحساباتهم؟ ألم تذهلنا المركبة الفضائية التي ذهبت إلى المريخ لتستكشف ما فيه. فكيف لو رأينا كل الأفلاك والكواكب وهي تطير في سرعات هائلة لا يمكن للعقل أن يحيط بها. كيف بنا لو رأينا سعة الكون وحاولنا أن نحسب طوله وعرضه بالسنوات الضوئية كما يفعل العلماء لا بالكيلومترات مع أن الضوء يقطع / 3000000 كم/ في الثانية. وكل ما نراه ونحسه ونشده ما هو إلا تجليات لعقل واحد هو الله. وقد قال عن ذاته [يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن] (٥). فالتغيير جار بالوجود بأمره، والحوادث تتتابع والأكوان تسير والخلق لا يعرفون إلا ما يشهدون من الله وليس كل ما يجري ويحدث. فهل يمكن أن يعرف الله إلا بالحيرة؟ وهل تظهر الحيرة إلا من عارف مشاهد لبعض ما يحدث، متفهم لما يحدث؟ يقول السكندر كيتا يجورودسكي "لقد ثبت بالتأكيد استناداً إلى دراسة ظاهرة (دوبلر) في الأطياف العائدة لنجوم المجرات المختلفة، بأن تلك المجرات تجري (مبتعدة عنا). وقد تمت البرهنة على أن سرعة ابتعاد المجرة تتناسب طردياً مع المسافة التي (تفصلها عنا)، إن أبعاد المجرات المرئية تتحرك بسرعات تقترب من نصف الضوء" (٦). ويتساءل المؤلف "لماذا وضعنا عبارة (مبتعدة عنا) أو (تفصلها عنا) في داخل أقواس؟. إن سبب ذلك يتلخص في احتواء هذا التأكيد على شيء غير معقول. إن مثل هذا المنطق يمكنه أن يرضي فقط ذلك الإنسان البسيط الذي يعتقد بأن الأرض قد ظهرت إلى الوجود قبل كل شيء ثم ظهرت حولها الكواكب والوجود بعد ذلك" (٧). إن المؤلف أشار بكلمة (غير معقول) إلى سرعة المجرات، والمسافات التي تفصلها عنا. هذه هي الحيرة، حيرة العلماء فيما يشهدون. فالعقل يعقل السرعات والمسافات مهما بلغت الأرقام، ولكنه من جهة أخرى يصاب بالذهول "سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل: أزاليت الشمس؟ فقال: لا. نعم. قال وكيف؟. قال: منذ قلت لا. إلى أن قلت نعم قد تحركت مسيرة خمسمائة عام" (٨). هذا من إشارات النبوة التي عرفها

الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن تتوصل العلوم الحديثة إلى اكتشافها. وجاء في القرآن عن الجبال: [وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب] (٩).

كلما ازدادت المعرفة سيكون الذهول أكبر والحيرة أشد. لهذا كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول وهو يتأمل عظمة المصنوعات التي تدل على الصانع: "زدني فيك تحيراً" (١٠) أي زدني فيك علماً، واجعلني من المشاهدين لمظاهر عظمتك وإبداعك. من يعرف الله غير الله. أما حدود الإنسان فهي أن يعرف القدرة ومظاهر من هذه القدرة، بما وضعه الله فيه من الإمكانيات [الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان] (١١)، بما وضع الله في الإنسان من علم يعلم. يستخرج ما وضع فيه. يكتشف ويعرف الله، معرفة العبد الضعيف، معرفة الإنسان المحدودة بحدود ما هو كامن في آدم عليه السلام. ولا بد للإنسان لكي يعرف الله من وسيلة، من أداة للوصول إلى هذه المعرفة اليقينية. فما هي هذه الأداة، هل هي آمن ثم فكر أم فكر ثم آمن؟ لا بد لكي يحدث اليقين من العقل ومن الشهود كي تتحقق معرفة عين اليقين. عقل يعرف وعين تشهد لتكون النتيجة إيماناً لا يتزعزع أي - أن تعبد الله كأنك تراه - فما هي حقيقة رؤية عين اليقين.

عين اليقين

إن العقل الإنساني يدور بين الظنون والحقائق في معرفة الله. وكل إنسان طبيعي يريد أن يعرف الحقيقة. وكل إنسان يريد أن يستبدل بظنونه اليقين، واليقين هو علم لا يتحقق إلا بالعلم. فهل يستطيع كل إنسان أن يأخذ من العلم في أي اختصاص علمي مثل الإنسان الآخر. وهل يستطيع كل إنسان أن يتجاوز علم أستاذه ليصبح عالماً مبدعاً. لقد رأينا أن العلم كامن في الإنسان كما تكمن الشجرة في داخل البذرة. ولكن هل يتاح لكل بذرة أن تخرج ما فيها. هنا يلعب المجتمع دور الطبيعة، فالبينة قد تساعد الإنسان على النمو والتطور وقد لا تساعده. ولكن إذا كانت البيئة ملائمة فهنا تلعب استعدادات الشخص وإرادته الدور الرئيسي. وبما أننا نتحدث عن معرفة الله، فإن مثل هذه المعرفة تحتاج إلى جهد كبير وإرادة صلبة. وهذه المعرفة مثل كل العلوم تحتاج إلى بدايات. إن أول ما نتعلمه في المدرسة حروف الأبجدية، ثم نتعلم ربط هذه الحروف ببعضها لتشكيل الكلمات. فلو جاء أحد الأطفال أو الكبار وكان أمياً. وقال: أنا جئت لأدرس في الكتب وليس لتعلم الحروف، فإننا سنقول له لا بد من تعلم الحروف أولاً. وإذا أصر وعجزنا عن إقناعه بمتابعة الدراسة من الحروف فإنه لن يتعلم شيئاً من العلم. وإذا نظرنا إلى الحروف مجردة فإنه لا معنى لها إلا لفائدتها في المستقبل. ولهذا

سنقول للإنسان الجاهل بها آمن ثم فكر. وإذا قال لا أستطيع أن أؤمن بما لا أعرف. سنخاطبه بمستويات الخطاب التي يعرفها ويفهمها. فإذا أراد أن يتعلم سنقول له قف عند حدك، وإذا كنت تريد أن تفكر لتؤمن فنحن لا نمنعك ولكن عليك باتباع طرق العلم المعروفة. وكل علم أو مستوى من العلم يوصلك إلى حقيقة، والحقائق متعددة بتعدد العلوم. ولكل علم لغته ومنطقه ومصطلحاته وحقائقه. والدين الإسلامي له مستويات، فالمسلم غير المؤمن، والمؤمن غير الواصل إلى درجة الإحسان. وبين كل مستوى ومستوى حقائق وعلوم لا يعلمها إلا الخبير بها. لهذا تنوع سلوك الناس بتنوع المعارف والعلوم. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد معركة أحد، وبعد أن نال المشركون ما نالوا من المسلمين كما جرح الرسول وأصيبت ربايعته قال: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (١). وفي موقف آخر في الطائف قال: "اللهم أهد قومي". العلم هو عماد كل معرفة. وكلما كانت المعرفة المطلوبة عزيزة ونفيسة احتاجت لبذل المزيد من الجهد والسهر والعمل. فأستاذ الابتدائي ليس كمدرس الجامعة. وعلم الطب يحتاج إلى علوم لا يحتاجها علم التمريض. والمؤمن يحتاج إلى علم لا يحتاجه المسلم. فكيف إذا كان الطالب يريد أن يعرف الله ليعبده عبادة معرفة ويقين. هذه المعرفة تحتاج إلى بصيرة نافذة وقلب لا يخالطه الشر، ونفس مطهرة من كل دنس. لهذا بدأ الإسلام بتعليم أجدية معرفة الله للمسلم. وهذه الأجدية مناسبة لكل الناس وضرورية لمصلحة المجتمع. ومن تعلم الأجدية وأتقنها فإنه يستطيع إذا تابع العلم أن ينتقل إلى المرحلة الثانية الأعلى ليصبح مؤمناً. والإيمان يعلو على الإسلام لأنه يتضمنه ويزيد عليه بشيء آخر هو توافق الظاهر مع الباطن. لهذا فإن الإيمان تجاوز للإسلام وناسخ له بالنسبة للمؤمن، ومن ارتقى إلى درجة الإحسان فإنه سيكون قد تجاوز الإسلام والإيمان إلى درجة أعلى حيث سيحسن لمن أساء إليه داعياً له بالخير وليس بالشر "اللهم أهد قومي إنهم لا يعلمون" لعلم وقر في قلبه لا يفارقه ولا يغيره مهما تغير عليه الناس وتغيرت عليه الدنيا. ولهذا رأينا بأن شريعة المحسن ليست شريعة "العين بالعين والسن بالسن" إنها شريعة تلوذ برب الكون وتتنظر إليه في كل ما يمس هذا الإنسان. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فاتحاً ووقف أمام أهل مكة الذين آذوه وأجبروه على الهجرة من بلده وهم أسرى بين يديه. قال لهم: "أذهبوا فأنتم الطلقاء". كما إنه لم يسمع إلى إذلال زعيم الحزب المعادي أبي سفيان فقال رحمة به وبمكانته بين قومه" من دخل دار أبي سفيان فهو آمن". موقف سماحة ورحمة وحكمة. لأن حكمة المحسن هي الرحمة الدائمة للخلق، ليس لأي حساب لأبي سفيان أو من

شارك أبا سفيان في معاداة الإسلام. والإسلام في أوج قوته وانتصاره وعزه. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وقف في غير هذا الموقف عندما كان ضعيفاً مطاردًا أمام عمه أبي طالب وقال له، وعمه يطلب منه الكف عن الدعوة إلى الإسلام إذعاناً لإغراءات قريش وتهديداتها: "يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته" (٢). فالإحسان درجة في معرفة الله تزول عندها كل الهواجس، ولا يبقى غير اليقين والتسليم لأمر الله. فلو اجتمعت البشرية كلها في طريق وكان المحسن في طريق آخر فإنه لا يتزعزع حتى لو قطعوه إرباً. لقد هاجر موسى صلى الله عليه وسلم من مصر ثم واجه فرعون. وكذلك فعل المسيح صلى الله عليه وسلم مع تلاميذه حين لاحقه الكافرون من اليهود والرومان وعرف بنواياهم ومكائدهم لقتله ولم يتزعزع. ذلك لأن الإنسان المحسن لا يريد الشر لأعدائه، ولا يقابلهم بالمثل. لهذا رأينا بأن كل شريعة تحمل صاحبها إلى شريعة أعلى إذا أخلص لها كما تقود الحروف إلى الكلمات والكلمات إلى الجمل المفيدة. ولهذا فإننا نستنتج بأنه لا يوجد ناسخ ومنسوخ في القرآن إلا بالقياس لمرحلة سابقة أعلى في العمل والمعرفة. بمعنى أن هناك مراحل ما قبل الإسلام والإسلام والإيمان والإحسان. وكل مرحلة تحتاج إلى سلوك وأعمال وعلوم. كما أن الجاهلية موجودة في كل وقت. والجاهلية أنواع فيها الحسن وفيها الرديء و "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (٣). كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. والإسلام نقلة للإنسان من الظلمات إلى النور. فالإسلام يزيد الكرم كرمًا، والشجاع شجاعاً، لأن الأجرور إذا كانت تعطي في الدنيا مديحاً أو ذمًا من الناس للكرم والشجاع غير المؤمن، فإنها ستصبح بالإيمان أكبر قيمة لأن أجر العمل الصالح لن ينتهي بانتهاء حياة الإنسان. وعطاء العقيدة أصدق وأبقى من عطاء أهواء النفس. فإذا كانت جاهلية العربي تحضه على الكرم، فإن الكرم يصبح في الإسلام عقيدة واجبة ملزمة. وقس الفضائل كلها بنفس الميزان حيث كل فضيلة واجبة كما أنها أداة للترقي إلى مستوى أعلى. وهذا ما يدلنا عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاء جبريل وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. "عن عمر بن الخطاب أن رجلاً عليه ثياب بيض وذلك في آخر عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فقال: أنت رسول الله. قال نعم. قال: أدنو منك؟ قال: ادن مني. فوضع يده على ركبتيه فقال أنت رسول الله؟ قال نعم مرتين. قال ما الإسلام؟ قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله وتقويم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت. قال: فما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله. قال فما الإحسان؟ قال: تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك. قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن. قال نعم" (٤). إن هذه الشروط لاعتبار المسلم مسلماً والمؤمن مؤمناً والمحسن محسناً، وهذه الشروط لكي تصح لا بد أن تظهر نتائجها في العمل والسلوك. وإلا ما فائدة الصلاة لمن لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر. لهذا سنجد تفسيراً لكل مستوى من مستويات الإيمان ومراحله بتوضيح الرسول صلى الله عليه وسلم "عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم المسلمين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٥). فذروة إسلام المسلم هو الامتناع عن إيذاء الخلق بحواسه الظاهرة. لا يسيء إليهم بالكلام والغيبة ولا باليد، فلا تمتد يده إلى ما ليس من حقه شرعاً. وهذا يتضمن الحواس الأخرى، البصر وغيره، وإن لم تذكر. وأما الإيمان فهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عن ابن عمرو عليه السلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء حقيقة وما يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحبه لنفسه. وحتى يأمن جاره من بوائقه" (٦).

لماذا كان الإنسان

جاء في الحديث الشريف: "عن أبي هريرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن" (١). وجاء في حديث آخر "عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم لأخيه قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته" (٢). وجاء في حديث: "عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شبه الله بشيء، أو ظن أن الله يشبهه شيء فهو من المشركين" (٣). فالإنسان خلقه الله على صورته من حيث القوى التي فيه. وهذا هو المقصود من الأحاديث. ومما ورد في القرآن: [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم] (٤). إشارة إلى العناية الإلهية بالإنسان. وورد في وصف بعض الناس "إنهم إلا كالأنعام" وإن كانوا من حيث الصورة ليسوا كالأنعام. فمكانة الإنسان ناتجة عن عقله. فإذا ذهب العقل فهو كالأنعام "بل أضل سبيلاً" إذا تعمد أن يستخدم عقله في شرور لا تستعملها الدواب تلبية لغرائزه. فإشارة الرسول صلى الله عليه وسلم تتضمن معاني كثيرة، أهمها جمال وكمال الصورة الإنسانية. فهو الوحيد المميز بالوقوف على قدميه بين مخلوقات الله الظاهرة، والمكتسبي بالجمال

والاعتدال في كل قواه. وهذا هو كمال الظاهر. أما كمال الباطن فهو كمال القوى الإنسانية في المعرفة والإدراك وتجلي كل ذلك في قواه العقلية، ولسانه الناطق بما يعرف ويشهد. فهو القادر دون كل المخلوقات على معرفة عظمة الله. وإذا وجد خلق آخر في مجموعة كونية فلا نظن بأنه سيزيد من حيث القوى عما أعطي للإنسان، ما دام خالق الوجود قد وصف الإنسان بأنه خلقه في أحسن تقويم، وبأنه على صورته، وهذا منتهى الكمال من حيث المعنى. ولهذا أسجد الله له الملائكة. والسجود ليس لأدم عليه السلام فقط، وإنما لذريته الصالحة. فكل إنسان هو آدم من حيث الأصل. وكل إنسان يعلم الأسماء كلها كما علم الله آدم الأسماء كلها فاستغربت الملائكة علمه، بعد أن رأته في تركيبه ما يشير إلى فساده. فقالت حين علمت بخلق الإنسان [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك] (٥). فما هي الحكمة من خلق الإنسان. ومن هم الملائكة الذين سجدوا لأدم وما زالوا ساجدين لأبنائه الصالحين والطالحين. إن المسألة محيرة، والأجوبة في هذا المجال أكثر حيرة. ولكننا سنعتمد على ما حباننا الله من العقل ومن الإشارات النبوية لمن أوتي جوامع الكلم، وبلغ ما بلغ من الوصول في إسرائاته فقال ما قال وهو يشاهد من آيات ربه الكبرى [وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى] (٦). إن كل مالك لا بد له من إظهار ملكه إذا شاء أن يظهر ما يملك. وكل عظيم لا بد له من إظهار عظمته في الأقوال أو الأفعال إذا شاء إظهار عظمته، وكل مبدع لا بد له من إظهار إبداعه لخلق يتذوقون الإبداع إذا أراد أن يكشف لهم عن إبداعه. والمُلك يتطلب مالكاً ومملوكاً، سيداً وعبداً، والإبداع يتطلب متذوقاً مدركاً للإبداع. لهذا كان الإنسان على صورة الرحمن ليدرك إبداع وملك وعظمة الرحمن. ولهذا وهب ما وهب من فيض العقل الإلهي ليكون شاهداً بين يدي خالقه للقدرة، للإبداع. فالأسماء في الوجود تطلب حقائقها. لا يوجد الجميل بدون ظهور الجمال في الوجود. ولا يوجد جمال إذا لم يبصر الجمال من الشهود. فالناس هم شهود الحق للحق، في مملكة الحق. فيما أراده الله من الإظهار لملكه خلق المملكة وخلق

الإنسان الخليفة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفضل ما قلتها أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله" (٧).

وهذه الشهادة هي شهادة نفي وإثبات، فإذا أخذنا الكلمة الأولى فهي من حيث النظر لمن يفهم الحقيقة بأنه لا يوجد سواه، وحينما لا يوجد غير الله فما ثم مألوه، لأن الألوهية تظهر بالمألوه. كما يظهر الملك بالمملكة، والألوهية هي الأصل فما ثم غيره فهو الوجود المطلق ظاهراً وباطناً. ولكن عندما شاء الله الظهور أظهر الخلق، فظهروا في الظاهر وظل الباطن على أصله. ولهذا اقتضى القول بما استوجبه حقيقة ظهور الخلق (إلا الله) تمييزاً للحقيقة الثانية عن الحقيقة الأولى وإن تضمنت استثناءً للحقيقة الأولى. فإذا حذفنا (لا) الأولى و (إلا) الثانية لم يبق غير (إله الله) فهو الإله المطلق فيما ظهر وأظهر وفيما بطن وأبطن، لا إله سواه، وإن اقتضت المظاهر الوجودية ظهور العقل من جانب والطبيعة من جانب لظهور الألوهية (الله) مع بقاء الذات الإلهية على حالها بدون تغيير. "كان الله ولا شيء معه" كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم وإن أضاف العلماء "وهو الآن على ما عليه كان" فهذه نسبة للذات، وليست للوجود الذي تظهر فيه كلمات الله. كما كانت هذه الشهادة رداً على كل من اعتقد بتعدد الآلهة أو المشاركة لله، لأن الصورة المحدثة مالها حكم، وكل موجود مؤلف من صورة مركبة من عناصر الطبيعة ومن هوية تظهر معناه بعد جمعه في تركيب معين ليظهر بالاسم الذي هو له ظاهراً وباطناً. صورة ومعنى. كما أراد الله أن يظهره. فعناصر الوجود المختصرة بالماء والنار والتراب والهواء هي أبجدية الوجود التي خلقت منها الكلمات، بنظر العقل الإلهي لما شاء إظهاره من ذاته لذاته. ولهذا كان الإنسان بالمشيئة الإلهية حراً ومقيداً، سيداً وعبداً، وأعطى بما ركب الله فيه من القوى حرية الطاعة والعصيان لكي تكتمل المملكة وتظهر الحقيقة الإلهية في الوجود بظهور رب وعبد. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن ربه في حديث قدسي "كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني" (٨).

ولهذا عندما ستحدث العودة إلى الحالة الأولى، حالة فناء صور المحدثات في الأرض، حيث لا يبقى غير الله. سيقول الله بعد أن يقبض روح عزرائيل آخر الصور في كوكبنا الأرضي والمسؤول عن قبضها "لمن الملك اليوم" فلا أحد يجيب فيجيب الله نفسه بنفسه "الله الواحد القهار".

لنتصور هذا الموقف حيث يلتقي العلم مع الدين في الإقرار بنهاية حياة

الكائنات والنظام السائد في مجموعتنا أو في الكون بسبب اختلال قوانين الجاذبية أو لأسباب أخرى لا نتوقعها. ولكن هل سيفنى الوجود. إن العقل يقول لا والدين أيضاً، فالوجود باق. وستبدأ مرحلة أخرى عندما يبث الله روح الحياة في الوجود الجديد.

ودمار الكون هو مما أقره العلم بالاستناد لنظرية توسع الكون حسب رأي بعض العلماء، إذ شبهوا الكون بالبالون الذي سينفجر. ومع ذلك فإن توقع مثل هذا الانفجار في مجموعتنا لوحدها أولى، لأن ما نراه من ظواهر موت النجوم واحتراق الكواكب في الكون يدل على أن مثل هذا الربط بين نهاية مجموعتنا الشمسية والكون لا مبرر له. وقد ورد بيان القرآن عن القيامة على الأرض تحديداً فقال الله [حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون] (٩).

فالأمر يتعلق بالأرض وما عليها. وحتى هذه الإشارة لا تعني فناء الأرض وإنما فناء حياة الأحياء عليها. وقد ذكر القرآن سبب هذا الفناء بالنفخ. وقد استطاع الإنسان الآن اختراع أسلحة تدمر المنطقة التي تلقى عليها بالصوت - موجة الصدمة- والنفخ هو صوت يؤدي إلى صعق المخلوقات كما وصفه الله فقال [ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون] (١٠).

نحن لا نستطيع أن نحدد طريقة النفخ في الصور، وإن كان من الحق أن نشير إلى أن استخدام الصوت في تدمير المخلوقات كان حين أنزل القرآن في علم الغيب، ولا يمكن تصوره. ومع ذلك فقد اكتشفه الإنسان وصنع بناء على هذه الفكرة أسلحة مدمرة. أما النفخ الثاني فهو نفخ الروح في الأرض. ولا نعلم كم سيمضي من الأزمان بين النفختين، وليس في الأمر غرابة. فالهواء الذي نحيا به ونتنفسه يصبح بسبب موجة الصدمة قاتلاً. وعندما تمر الموجة وتنتهي يصبح مناسباً للحياة. هذه أسباب. وعلم الله لا يتعلق بعلمنا بالأسباب. إن العلماء يتوقعون دمار الكون بسبب توسعه واختلال قوانين الجاذبية. وقد قال الله [والسمااء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون] (١١).

وقد تكون كلمة موسعون تعني التوسع في الخلق كما تحتمل التوسع في المكان. ولكن فناء المحدثات هو حقيقة لا يجادل فيها مجادل. ويشهد على هذه الحقيقة موت النجوم ودمارها. وإن كان الخلق لا يتوقف فإله (كل يوم هو في

شان). ولهذا سيأتي إحياء إسرائيل بعد الموت لينفخ في الصور. والصور هو الجامع للصور المحدثه من قبل. إنه فكرة العقل الإلهي عن المخلوقات قبل إعدامها حيث سيخلو الوجود من الخلق وإن بقي كفكرة في ذات الله، وفي الطبيعة في حالة كمون من حيث الصورة الممكنة للظهور بمشيئة العقل الله. لهذا اقتضت إعادة الإبداع اللاحق بالمظهر السابق كسوة الفكرة المبدعة بأثواب الطبيعة القابلة. ولا جديد تحت الشمس وإن تجدد الجديد والنهر هو النهر وإن قال هيراقليطس "لا يستحم الإنسان بمياه النهر مرتين". فالوجود هو الوجود القديم الجديد. فمتى كنا ومتى عدمنا. وكل شيء في الوجود يسير على ضفتي الوجود. والصفتان هما الظاهر والباطن. والحقيقة هو الأول والآخر. وقد جاء في الحديث الشريف "عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولون هذا الله قبل كل شيء فما كان قبل الله. فإن قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول قبل كل شيء. وهو الآخر فليس بعده شيء. وهو الظاهر فوق كل شيء. وهو الباطن دون كل شيء. وهو بكل شيء عليم" (١٢). فهو الوجود قبل أن يظهر وهو المتجلي فيما ظهر وأظهر. فالطبيعة ثوب العقل وفكرته. والوجود مرآته. والإنسان صورة إبداعه وميزان مملكته. فهو القائم بأداء حق العبودية عن كل مخلوق بالنيابة، لهذا كان الخليفة والنائب إن قام بما أمر بعلم ومعرفة. فصلاته في وقوفه شهادة على عظمة من خلقه بالمعنى والصورة، وركوعه نيابة عن كل ما خلق الله في الأرض من مخلوقات تسير على أربع. وسجوده نيابة عن المخلوقات الأكثر ضعفاً الزاحفة أو الملتصقة بالأرض. ووضع جبهته على الأرض كتقبيل الابن لأمه وشكرها لما حبته به من العطاء والغذاء. وتوجهه إلى الكعبة لتقديس الطبيعة التي صدر منها والتواضع لها. فصلاة المسلم في كل حركاتها معاني لمن يفقه هذه الحركات وطاعة لمن لا يفهمها، حيث لا يوجد عبث في خلافة العبد المؤمن ولا في أعماله. فهو لتواضعه نال ما نال، ولعلمه رغم تركيبيه الذي يحرضه على الشهوات أعطي الخلافة من الله، ولهذا كان التسامح الإلهي والغفران مع الإنسان لما يتعرض له بسبب نشأته من عقل وطبيعة. حيث يشده عقله إلى كماله وخلافته ووقاره وإبداعه وعلمه، وتشده طبيعته إلى الطبيعيات ونار الشهوات وشيطانه الجاري في عروقه. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سدوا منافذ الشيطان".

بهذا الجهاد نال الإنسان الخلافة لمن أطاع الأمر الإلهي وعرف المنزلة التي وهبت له، وعمل لهذا الوهب. ألا يطرد الملك رئيس وزرائه إذا تصرف تصرف الصعاليك. لهذا كان الاستخلاف لمن كان مع الله، والطرده والإبعاد لمن عمل

لشهوته فقط. ناسياً حتى معرفة نفسه وربه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عرف نفسه عرف ربه" (١٣). فما هو المقصود بهذه المعرفة. ولماذا؟ إن معرفة الإنسان لنفسه تقتضي منه أن ينظر لنفسه مما يتألف. عليه أن ينظر إلى تركيبه، جسم مركب من عناصر الطبيعة، وعقل متصرف بهذا التركيب، سيد عليه، وهو على الصورة الإلهية. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بجبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله" (١٤). فالله هو الوجود كله حقيقة. ولكن وجود الأسماء اقتضى ظهور الصفات. وإدراك الإنسان مرهون بشهود ما يشهد. والإنسان لا يشهد إلا التنوع، والأنواع. وإن كانت حقيقة العقل واحدة لا تتعدد. فإن ما يصدر عن العقل متعدد. فالعقل الإنساني تصدر منه الرحمة والكرم والبخل وهو هنا "المانع". والإنسان يتصرف في كل لحظة بحسب ما يصدر من العقل من فناعات وأوامر إلى الجسم، وإلى ما يملكه الإنسان في خلافته. والحواس والسمع والبصر والذوق واللسان والغرائز كلها من نوع الملائكة ساجدة للإنسان في الباطن. فالسمع يقبل أن يستمع إلى الحلال المشروع، كما يقبل أن يستمع إلى الحرام. والعين قابلة للنظر إلى الحلال والنظر إلى الحرام. واليد قابلة للعمل بالحلال والحرام. والرجل قابلة للسير في طريق الخير والشر. والغرائز كلها مرهونة لإرادة العقل. فالقوى في الإنسان كلها نور لمساعدة العقل. والملائكة نور لمن يريد أن يستعين بها للسير على الطريق الصحيح. فهي قوى مساعدة. ولكن ملائكة آدم حينما أمرت بالسجود أطاعت وأصبحت بالتسخير لذرية آدم قابلة لغواية الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم لكون نار الغواية والغرور من قوى الإنسان. وقد جاء في الحديث "ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشيطان" ١٥-. ولهذا ستشهد هذه الملائكة على الإنسان يوم الحساب لكونها كأعضاء في جسم الإنسان مسخرة لتنفيذ أوامر العقل. وقد جاء في القرآن [هذه جهنم التي كنتم توعدون. إصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون] (١٦). ولهذا سيكون القصاص من العقل الذي أمر بالفساد. وقد جاء في الحديث الشريف عن وصف الملائكة "خلق الله الملائكة من نور وإن منهم لملائكة أصغر من الذباب" (١٧). وقد ظهرت الملائكة على جند أبرهة مثل طيور [وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل] (١٨). وظهر جبريل على شكل إنسان، وظهر على شكل الصحابي

دحية، ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم وله ستمائة جناح. فالملائكة لها التشكل في الصور، لأنها من الأنوار، والأنوار من جنس العقول والعقول تسري في الصور ويتشكل فيها. فالعقل يصبح لوحة فنية، ويصبح سيارة وطائرة ومركبة فضائية. هذا بالنسبة لتجليات العقل الإنساني. أما الإنسان فإنه لا يستطيع أن (يشكل) كالملائكة لأنه ليس من نور خالص وطبيعته تحكم عليه. ومع ذلك فإنه يستطيع أن يتحكم في هذه الطبيعة إذا صار نوراً كله. والإيمان يزيد وينقص لهذا لا يستطيع دائماً. ولهذا تظهر كرامات الأولياء في أوقات وتختفي في أوقات. فالإنسان بحسب وقته. وأحواله تحكم عليه. ومن حكم على أحواله دائماً صارت أحواله تابعة لإرادته. ومن حكمت أحواله عليه صارت تبعيته لأحواله. والإنسان غالباً بين بين إلا من عصمه الله. وكما قال الشيخ محي الدين "بقاء الحال من المحال" لهذا لا بد للأحوال من أحكام. وإن كانت المقامات ثابتة وباقية مع أصحابها، لأن المقامات علوم. والعلم الذي وصل إليه الإنسان لا يتغير إذا كان علماً يقينياً. وعلم الولاية هو علم عين اليقين. ولهذا لا يتغير المقام وإن تغيرت الأحوال إلا ما شاء الله. [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات] (١٩). ولهذا فالنور باق لمن امتلك النور، والنور هو العلم. فبالعلم عرفنا أن الذرة تتألف من نواة والكترونات ونيوترونات. وعرفنا تركيب الماء والهواء. وقد جاء في الحديث الشريف "إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة" أو "سبعين ألفاً" وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم: "أرأيت ربك". فقال: "نور أنى أراه" (٢٠). وحجاب النور هو الذي يمتد إليه عقل الإنسان وحواسه الشهود ليعرف خلق ربه. فإذا نفذ نور العقل بالحجاب تلون العقل بالنور وأبصرت العين. كالشمس حينما تشرق فإنها تكشف عن معالم الوجود والوجود على حاله لم يتغير، وبهذا التلون يحدث العلم. ولكن الإنسان لا يستطيع اختراق كل الحجب لأن النور لا يدرك كله وإن أدركنا بعضه. فنحن نعرف بنور الشمس ولكننا لا نستطيع أن ننظر إلى مصدر نور الشمس ولو نظرنا لدقائق لن نرى فيها غير النور. ولهذا لا يدرك النور إلا النور. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء سجوده: "اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت. سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره. تبارك الله أحسن الخالقين. اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، واجعل لي نوراً. واجعلني نوراً" (٢١). لشهود التجليات

الإلهية في الوجود. ولكن هل يستطيع كل إنسان أن يشهد ما شهده الرسل والأنبياء.

شهود الوجود

إذا كان الإنسان تاج الملك كما وصفه الشيخ محي الدين وبه اکتملت المملكة ونال الخلافة عن ربه. فإن هذه الخلافة لم تكن بدون سبب، وبدون جدارة. فلولا جدارة الإنسان من حيث الجوهر ما أعطيت له الخلافة. فالخلافة كامنة فيه كالثمرة في بذرة الشجرة، ولكن عليه تحصيلها. فكل أخلاق لها حظ في الخلافة. فالخلافة العبد في المملكة هي خلافة الخدمة. وخلافة رئيس الوزراء هي خلافة الرئاسة. وحديثنا عن الخلافة الكاملة، لا الناقصة، ولهذا اقتضت هذه الخلافة أموراً للوصول إليها. وكل إنسان مؤهل للخلافة "وأبواه يهودانه أو ينصرانه" (١). فينقص حظه في الخلافة. فالخلافة باختصار لها مقدمات، ومقدماتها تطهير الحواس عن كل ما يناقض الشريعة الإسلامية. وسلوك طريق معرفة الله. وهذه المعرفة ليست بالأمر الصعب، ولا تحتاج إلى العبادة الدائمة كما يظن البعض. فالعمل عبادة. والجهاد أمام الأسرة عبادة. وحتى استمتاع الإنسان مع زوجه عبادة. جاء في الحديث "إن الله ليعجب من مداعبة الرجل زوجته، ويكتب لهما بذلك أجراً، ويجعل لهما بذلك رزقاً حلالاً" (٢). "إذا سقى الرجل امرأته الماء أجر" ٣-. فالإنسان الملتزم بأمر الله هو في عبادة دائمة. فالسعي لتأمين لقمة العيال بالحلال عبادة، ومجاهدة النفس عبادة. فأوقات المسلم كلها عبادة لو أدرك معنى العبادة. وكل هذه العبادة لا تتحقق بدون النية. فالنية تسبق العمل. ولهذا لا يتوضأ المسلم أو غير المسلم إذا استحم ولم ينو الوضوء رغم أنه من حيث الظاهر توضأ. فالأصل في كل فعل هو نوايا العقل. ولهذا لا يتم الوصول إلى الحق إلا بإرادة العقل. والإنسان لا يتميز عن المخلوقات إلا بهذه الإرادة. فالمخلوقات كلها ما عدا الإنس والجن مطيعة طاعة ذاتية [وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم] (٤). [لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون] (٥). التسبيح طاعة، والسباحة طاعة، والكل مطيع، ما عدا الإنس والجن. فالخلافة عهد يقتضي حرية الإنسان، حرته فيما يملك وأول ملك للإنسان هو نفسه التي بين جنبيه وجسده. ولهذا جاء في الإشارات الإلهية

[ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين] (٦).

ولو شاء الله لعلم. [ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة] (٧). ولكنه تركهم لمشيئتهم، وهو العالم بهم، لأنه شهدهم وهم في عالم الذر، في صلب آدم. وهو أسهل على الله من معرفتنا بأن بذرة التفاح ستثمر تفاحاً وبذرة البرتقال ستثمر برتقالاً. ولأن نحن نعرف بأن ذرة الهيدروجين إذا اجتمعت مع ذرة الأوكسجين سيخرج من امتزاجهما الماء. [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] (٨). ولكن لحكمة أراد الله هذا الامتحان فنصب الميزان له. لو جاء أستاذ لبعض طلابه وحكم عليهم بالرسوب قبل أن يدخلوا الامتحان لما رآه من تقصيرهم في الدراسة، سيقولون له لقد ظلمتنا يا أستاذ فاسمح لنا بدخول الامتحان واحكم علينا ليكون حكمك عادلاً في حقنا. ولو قال لهم لقد حكمنا عليكم من تقصيركم وإهمالكم خلال العام، سيقولون له دعنا نجرب حظنا -أرجعنا نعمل صالحاً- ولن يعملوا غير ما عملوا. ولهذا سيتركهم الأستاذ ليجربوا حتى لا يبقى أي سبب للشكوى. ومع ذلك لو سألتهم بعد ظهور النتائج عن سبب رسوبهم سيقولون كانت الأسئلة صعبة أو غير متوقعة. وإذا سألتهم هل جاءت من الكتب التي معكم أم من غيرها. سيقولون من الكتب ولكن.. وسيجادلون وهم يتلعثمون. فمن حكم عليهم غير أعمالهم. إن الله أرسل الرسل بنور الهداية [وآتيناها الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين] (٩). ولكن الناس الذين استقاموا قلة، لأن شهوات الغالبية انتصرت على العقل. كثير من الناس يسرقون ويدخلون السجون بدون حاجة للمال إلا لرغبتهم في جمع المزيد منه بأي وسيلة كانت. فطلاب الدنيا كلابها. وهم لا يكفون عن نهش العظام وإن شبعوا. فمن حكم عليهم غير شهواتهم. مع أنهم شاهدوا مصير غيرهم، إلا أن كل ما شاهدوه لم يردعهم، فكيف سيردعهم العقاب المؤجل. لو أسلموا حقاً لما ارتكبوا المعاصي، ولما تعرض الناس لإيذائهم. ولو آمنوا حقاً سيأمن الناس من شرورهم "المسلم من سلم الناس من يده ولسانه". فإذا لم يسلم الناس من يده ولسانه فقد خرج من الإسلام حتى يتوب. وإذا لم يسلم الناس من يده ولسانه فهو في دائرة الإسلام ولكنه غير مسلم. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من أذى دميماً فأنا خصمه. ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة". (١٠). فكيف بمن يؤذي المسلم وهو من المسلمين. لهذا رأينا أن أولى خطوات الترقى في سلم المعرفة يبدأ من الإسلام للمسلم ويبدأ من دائرة الإسلام لغير المسلم. فالعبرة في الأعمال لا في الأقوال. الأعمال الصادرة عن النوايا الطيبة. فإذا توفرت النية الطيبة للمعرفة

ورافقها العمل سيكون الوصول سهلاً. وطرق الله على عدد أنفاس الخلائق. ولكن الإسلام هو الطريق الأسهل والأقصر. لأن لكل معرفة أصول وقواعد ومقدمات، ومقدمات هذه المعرفة تطهير الجوارح من الحرام. وفي المرحلة الثانية أن يجب للناس ما يجب لنفسه. وهي مرحلة الإيمان. أي أن يتطابق الظاهر مع الباطن للوصول إلى صفاء العقل وعدم إشغاله بمطالب الحواس والحسد والغيرة. وعندما نتوصل إلى صفاء العقل سنتمكن من جمع قوانا كلها لمعرفة ما نريد أن نعرف. فإذا كنا نريد أن نعرف الله فإن معرفتنا به تتعلق به وبنا. فهو الذي سيفتح لنا المفاتيح المغلقة. ولكن لما كان عدل الله شاملاً لا استثناء فيه لذلك رأينا بأن الأبواب ستفتح لكل طالب بقدر صدقه وجهاده

[والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا] (١١). وقد قال الله **[واتقوا الله ويعلمكم الله] (١٢).** وأمرنا بالذكر فقال **[واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار] (١٣).** وقال **[واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً] (١٤).** **[واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً] (١٥).** **[فإذا قضيت الصلاة فانكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم] (١٦).** والذكر المعروف والمأمور به للوصول هو ذكر اسم الله الأعظم (الله) بالجلوس في عزلة عن الناس وتصفية النفس بالذكر، وانتظار الإمداد من الله. وقد يطول الأمر على حسب الحال وقد يأتي الإمداد سريعاً. وأول ما سيفتح للعبد في حاسة السمع. فإذا ترقى إلى ما هو أعلى تنفتح له حاسة البصر عن حقائق غير مألوفة لديه. ثم إذا ازداد في الترقى يصبح كلامه بإلهام من الله. وكل ترقى ترافقه حقائق يراها العبد من نفسه. وقد لا يشعر بها أحياناً رغم رؤيته لآثارها لانشغاله بالله عن المعرفة حتى يتمكن في المقام. وأثار المقام تدل عليه الكرامات. وقد صح أن كل معجزة لنبي يمكن أن تكون كرامة لولي، لأن المعجزة هي نتيجة لأحوال وأعمال وعلوم ونوايا. فإذا اجتمعت الأحوال والأعمال والنوايا حصلت الكرامة. وقد سميت كرامة لأن الفضل فيها للمعلم الذي تعلمنا منه وهم الرسل الذين لا يستطيع أي إنسان الوصول إلى مقاماتهم لما فطروا عليه من الصفاء والصدق، وإن كان من المشروع الطموح إلى نيل ما نالوه من العلوم والتخلق بأخلاقهم. لذا أمر الله بطاعة الرسول فقال **[من يطع الرسول فقد أطاع الله] (١٧).** وإذا وصل الإنسان إلى هذه المقامات أو إلى بعضها فإنه سيعرف الله. وسيعرف عندئذ حقيقة النبوات والرسل ولن ينكر على أي رسول الشريعة التي جاء بها. وسيعرف بعلم لدني من الله حقيقة الشريعة الإسلامية الجامعة لكل الشرائع معرفة يقينية. وهو في أحواله تبعاً لأمر الله قد يعلن إسلامه وقد لا يظهر

الإسلام لحكمة يريد بها الله. إن طريق الله مفتوح لكل الخلائق بدون استثناء، ومن يطلب الله سيجده، ومن يطلب الدنيا سيجدها، وكل ميسر لما خلق له، فأهل الجنة يعملون بعمل أهل الجنة وإليها يسرون. وأهل النار يعملون بعمل أهل النار وإليها يسرون. فقد حكم عالم الذر في عالم الظهور، كما حكم سر البذرة المكنون على الشجرة التي ستبرز إلى النور. والكل يستمد من بحر الجود. هذا لجنته، وهذا لناره "وهديناه النجدين" والإنسان "إما شاكراً وإما كفوراً" وهنا سر الأقدار التي أخطأ بها القائلون. إن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. لأن البطن بستان ماهو منتج للبذور. وإن كانت البذرة الصالحة لا تنمو في الأرض المالحة. فقد اختلفت الأغصان وإن كانت الشجرة واحدة [كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً] (١٨). لقد دلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطريق كي نشهد رب الوجود فقال في حديث قدسي عن عائشة رضي الله عنها: "قال الله تعالى من أذى لي ولياً فقد استحل محاربي وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها وأذنه التي يسمع بها ويده التي يبسط بها ورجله التي يمشي بها وفؤاده الذي يعقل به ولسانه الذي يتكلم به إن دعاني أجبته وإن سألتني أعطيتة وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته وذلك لأنه يكره الموت وأنا أكره مساءته" (١٩).

والنوافل هي عبادة التطوع بعد أداء الفرائض للمسلم. وهذه العبادة هي التي يتم بها الوصول إلى شهود حقائق غيبية في الوجود قد تبدأ بالرؤيا الصادقة التي يتحقق الإنسان منها بوقوعها كما رآها. ثم يترقى لشهود بعض الأمور مكاشفة في اليقظة، عندما يسمع بسمع الله ويبصر بربه لا بنفسه. فيعرف قدرة الله ويتحقق بها معرفة عين اليقين فلا يشهد من الوجود غير رب الوجود. فيصبح من أولياء الله بموالاته لله لا لنفسه. فيقر ما أقره الله ويحرم ما حرم بدون التفات إلى حظوظ نفسه وشهواتها. لقد قيل لأبي بكر الصديق في مرض وفاته: "ألا ندعو لك مطيباً ينظر إليك. قال: قد نظر إلي. قالوا: فماذا قال لك؟. قال: إني فعّال لما أريد" (٢٠). وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "الله الطيب" (٢١). وقال: "يا أيها الناس تداووا فإن الله لم يخلق داء إلا خلق له شفاء، إلا السام والسم الموت" (٢٢). الرسول صلى الله عليه وسلم شرع للناس ليوسع عليهم. ولكن كما رأينا فإن لكل مقام مقال. فمن كان في كل أحواله مع الله فهو لله يتصرف به كيف شاء. فهو يتصرف فيما يلهم بإلهام من الله لا من نفسه. ومن كانت أحواله

مع نفسه فإنه سيتصرف تبعاً لأحواله النفسية. وكل إنسان مرتبط باختياره. فمن كان التفاته إلى رب الوجود لا يختار سواه، ولا يختار إلا باختياره عن معرفة. ومن كان اختياره عن عقله المتصل بنفسه لا بربه فإن الله سيؤكله إلى اختياره. ولهذا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في فهمه لكمال العبودية "إذا أردت أن تدخل حرماً فلا تلتفت بالملك والملوك ولا بالجبروت لأن الملك شيطان العالم. والملوك شيطان العارف. والجبروت شيطان الواقف فمن رضي بواحد منهما فهو عندي من المطرودين" (٢٣).

ولهذا إمض إلى الله بالله لا بنفسك. لا تعتقد باستحقاقك ولا تنتظر إلى أعمالك. واعتقد بأنه سيعطيك. وقد قال الله "أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله" (٢٤).

ضع قلبك وحواسك وعقلك وقواك كلها عنده وامض إليه كورقة في مهب الريح، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً لتصل إليه. فإن وصلت ستعرف. ومن عرف سيعلم بما يعلم. وعندها سيكون من الذين يستجرون من الجنة كما يستجير أهل النار من النار، لأنه يريد رب الجنة لا الجنة.

ولكن ماهي حدود هذا الشهود للوجود. وهل يستطيع الإنسان أن يعرف كل ما يريد معرفته.

مشكلات في المعرفة، لا تكذب

إن الرسل هم أصدق الخلق في كل ما قالوه وفعلوه. وهم أحرص الخلق على نصح الناس. وقد تجسدت هذه الحقيقة خير تجسيد في الرسول صلى الله عليه وسلم سيد أبناء آدم. ولهذا وصف الله الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم] (١). وأشار الله إلى الغاية من إرساله للرسول وهو المرسل له فقال [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] (٢). والرحمة لا تظهر آثارها بدون مالك ومحتاج إليها، راغب فيها. فالمالك مالك لا يفيد من يعرف ملكه وغناه، ولا يضره من يجهله، وإن كان حكم الجاهل ضاراً في نفس الوقت لأنه مبني على

الظن. ولكن ضرره بأمثاله أكبر لا بحقيقة من يحكم عليه بجهله. ولهذا يثير حكم الجاهل الغضب، كما تثير شهادة الزور هذا الغضب وإن كانت بحق الإنسان. لأن من بعض صفات المسلم عدم إيذاء الناس بلسانه، ولهذا لا يخوض المسلم فيما يجهل. وقد جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم: "كل خلة يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب" (٣). وقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم "دخل علي وأنا أفلي رأس أخي عبد الرحمن، وأنا أقصع أظفاري على غير شيء. فقال: مهلاً يا عائشة، أما علمت أن هذا من كذب الأنام" (٤). وقال "أعظم الخطايا اللسان الكذوب" (٥). وقال "ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم. ويل له، ويل له" (٦). وقال محذراً من الكذب بكل أشكاله "إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً، وعليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً" (٧).

وقد أرسل الله الرسل رحمة بالناس لأن كل الناس محتاجون إلى معرفة الله. ومن جملة دواعي هذه الرحمة الابتعاد عن الكذب في إصدار أي حكم. ولذلك جاء التحذير من الكذب في كل الديانات. ولهذا كانت شدة حرص الرسل على الناس في دعوتهم لمعرفة الله ومعرفة أنفسهم لئلا يخوضوا فيما لا يعلمون. وجاءوا بالحقائق والأدلة والإشارات المختلفة لإفهام الناس حقيقة الإنسان وما علموه عن الله. وكان على كل إنسان إما أن يسلم بالعلم الذي جاؤوا به، أو أن يتحقق بنفسه. فالدليل هو أنت، وإذا كنت لا تريد أو لا تستطيع أن تستدل بنفسك فلا خيار أمام الإنسان إلا أن يقتدي بعلم من هو أعلم منه. لهذا طوِّب الإنسان بالعلم ومعرفة ما يشهد به لكي يكون منصفاً عند أداء شهادته. وبما أن المعرفة شرط لأداء الشهادة الصحيحة والعادلة، لهذا كان الإنسان مؤهلاً من حيث التركيب للمعرفة. وعلوم الرسل وإن سبقوا فيها الناس بجهادهم وعصمتهم، فإن تعلمها من قبل الناس ليس من شاء. وقد قال الله: [**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَنَّهُمْ سَبِيلًا**] (٨). فالعلم متاح لكل إنسان. وما على الإنسان إلا أن يسعى بالطريقة الملائمة للوصول إلى المعرفة الإلهية. وإن الطريق للوصول إلى هذه المعرفة يبدأ من الإسلام "من سلم الناس من لسانه ويده". فالإسلام طريق للمعرفة لأن العبادة الصحيحة لا تقوم في حقيقتها إلا على معرفة صحيحة، ولكن الإسلام في حقيقته

تسليم واستسلام بين يدي الرسول أو رسول الرسول وهم العلماء القائمون على حفظ الشريعة. وهذا الباب من العلم يقود الإنسان إلى معرفة الأوامر الشرعية العامة بدون دخول في تفاصيل المعاني الكامنة في الشريعة. ولهذا يكون حال المسلم في هذا الوضع حال التسليم، أي آمن ثم فكر. لأن هذه العبادة لا تقوده إلى أي إجابة عن الأسئلة الكبرى التي نحن بصددها. وإن سمعها فإنه لا يرقى لدرجة الشهود، لأن عبادته لا تصدر عن معرفة وإنما عن حسن الظن بالله. وهو يثاب على هذا الظن الحسن. ولكن العلم في هذا المستوى من المعرفة يتعرض لكثير من الأخطاء والمخالفات، لأن الإنسان الذي يجهل الحقيقة ولا يشهد حقيقة الثواب والعقاب لا يستطيع أن يصدق في عبادته. فالإنسان لا يستطيع أن يحب من لا يعرف. ولا يستطيع أن ينصف من يجهل. والإنسان لو قيل له عن إنسان إنه كريم أو جميل لا يستطيع أن يتحقق من صحة ما سمع إلا إذا التقى بهذا الإنسان ولمس كرمه أو أبصر جماله. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم " أنا أتقاكم لله وأعلمكم لحدود الله" (٩). فالخوف اقترن بالمعرفة لا بالجهل. ولهذا استنتجنا بأن حالة الإسلام إذا لم ترافقها حالة الإيمان فإن المسلم سيظل في حالة صراع فيما بين قواه الظاهرة وقواه الباطنة. وإذا كان لا يؤدي الناس بقواه الظاهرة فإنه سيتمنى إيذاء من آذاه في أقل تقدير بقواه الباطنة وقد يتجاوز فيما يطلب القصاص العادل، ويرغب في الإنتقام. وهذا التمزق بين حالته الظاهرة والباطنة سيمنعه من الترقى في سلم المعرفة ولهذا قال الله: [**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**] (١٠). والكلام يشمل أعداء الإنسان في جسمه كما يشمل الأعداء في الخارج. لأن فاقد الشيء لا يعطيه. ومن لا ينتصر على نفسه فهو أعجز عن إصلاح غيره. لهذا جاء الإيمان لإغلاق هذه الفجوة بين الظاهر والباطن، لتسخير القوى كلها في فعل الخير. والانطلاق من تساوي حب الخير لكل الناس باطناً كما يحبه لنفسه. فالمسلم المؤمن يقول اللهم إهد المسلمين، ويتمنى الخير لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها. ولهذا فإن دعوته تكون خاصة، أما المحسن فإن دعوته بالخير تشمل كل ذرية آدم لأنه فضلاً عن حبه الخير لما فيه من الخير. فإنه يعرف بأن صلاح المجتمع يتكامل بصلاح أفراده وصلاح أفراده يتحقق بصلاح الأمم والمجتمعات. وإذا كان له عدو يؤذيه من الناس فإنه يدعو له بالصلاح لأنه يعرف بأن توبة هذا الإنسان ستعود بالخير عليه وعلى الناس حيث سيكف عن إيذائهم. ولهذا فإنه يترقى إلى مستوى من الحكمة العقلية، تبعده عن الشر، فلا يصدر منه إلا الخير ظاهراً وباطناً. وبهذا السلوك يتحقق للمحسن الانسجام الكامل بين قواه فتكون متعاونة في السراء

والضراء، مما يتيح له المجال لتحقيق الصفاء الداخلي والرضى عن نفسه، والإنسان هو أدرى الناس بنفسه. وموازين الخير والشر لا تفارق الإنسان مهما كان سيئاً. ولهذا فإن حالة الرضى الداخلي عن النفس هي التي ستقود الإنسان إلى قمة الإيمان حيث تتحقق طهارة القلب وتبدأ مرحلة الاكتشاف. فتأتي رؤيا المؤمن في كثير من الحالات صادقة. وتتحقق على يديه الاكتشافات إن كان من العلماء. وكل عالم بحسب اعتقاده إذا انسجم ظاهره مع باطنه لابد أن يكون له حظ في الاكتشاف والإبداع. لهذا نشاهد الدول والشركات تعطي للمبدعين أو لمن تنتظر منهم الإبداع كل ما يحتاجون إليه في حياتهم وزيادة لتوفير الأجواء الملائمة لهم لتركيز قواهم وعدم تشتيتها لنجاح البحوث. وقد قام العديد من الباحثين بدراسة ظاهرة الإبداع فأصابوا وأخطؤوا. وهذا مجال لنا بصدد الخوض فيه. وإن كنا نشير إلى حقيقة إضافية تتجلى للمؤمن لا يراها غيره. وهي تسليمه في كل ما يتعرض له إلى الله واتكاله عليه. وهذا الاتكال لا التواكل يجعله في حالة اطمئنان وارتياح لا تتحقق لغير المؤمن، مما يؤدي إلى تحقيق الانسجام الكامل للإنسان المؤمن. وهذا الانسجام سيتجلى في سلوك المؤمن وحياته على قدر إيمانه. في هذه المرحلة لابد للمؤمن إما أن يسلم تسليماً مطلقاً طاعة لله بكل ما جاءت به الشريعة، أو أن يتساءل عن أسباب طلب الإيمان منه إن كان من أصحاب الفكر. وفي هذه المرحلة يتعرض المؤمن صاحب الفكر إلى الامتحان الأصعب في حياته. وهو تشكيكه بالشريعة لما قد يظنه فيها من تناقضات ظاهرة وإشارات غامضة، مما يضطره للخوض في تجربة المعرفة لإدراك حقيقة الأسئلة التي كانت توقعه في الحيرة، وهو يتقلب بين الإيمان والشك. وفي هذه المرحلة من الحيرة قد يكون الأفضل للإنسان اللجوء إلى رجل عارف مطلع على الحقائق لاختصار الوقت والوصول إلى الحقيقة، لأن الكثير من الأمور التي يتعرض لها الإنسان في هذه المرحلة لا يمكن له أن يفقه منها إلى القليل. والكتب لا يوجد فيها إلا شرح للأحوال العامة. فالحديث النبوي أشار إلى مستوى من الأحوال يسمع بها الإنسان بسمع الله ويبصر ببصر الله، ولكن كيف سيمع ويبصر ليتحقق بربه. هذا لم يتم توضيحه، لأن الفتوحات الإنسانية على عدد أنفاس الخلائق. والإنسان إذا سافر إلى مدينة س وهو لا يعرفها لا يمكن أن يعرفها بدون دليل يخبره بوصوله إليها وإن وصل. وقد رأينا أن الإنسان إذا كان يريد أن يتعلم أبسط المهن يحتاج إلى معلم، مع أنه يستطيع أن يتعلم بدون معلم على طريقة المبتكر الأول. إلا أن الوقت سيطول ونحن في عصر السرعة. كما أن الكتب ليس فيها تعداد لأحوال البشر، وإنما تحتوي على قواعد عامة للمعرفة.

ولهذا فإن السير بدليل متحقق مما تريد أن تعرفه، ومتقيد بشروط الشريعة ظاهراً لأن الباطن لا يعلمه إلا الله، هو أفضل وسيلة للوصول إلى المعرفة الكاملة، "أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك". والمعرفة الثانية دون الأولى في المستوى والكمال. فإذا لم يهتد الإنسان إلى مثل هذا الرجل الذي لا يسعى إلى حظ نفسه كما يفعل كثير من الناس، وإنما يريد الله في كل ما يصدر عنه فإنه سيضطر إلى الاعتماد على نفسه بالذكر الدائم لله في كل أحواله والإخلاص له بعمل ما أمر به وتجنب ما نهى عنه والاعتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم والصالحين. والمثابرة على صلاة قيام الليل وقضاء بعض الأوقات بذكر الله بعيداً عن الناس، حتى يفتح له من الله فيسمع به ويبصر به. فيترقى في مدارج الكمال على قدر صدقه وإخلاصه وشهوته لربه. وهذه غاية الشريعة ونتيجة السير فيها، كما أوجزها القرآن في سيرة إبراهيم عليه السلام وهو ينتقل من طور إلى طور متسائلاً عن الحقيقة [فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون] (١١). إن إبراهيم عليه السلام حين وصل إلى مرحلة من الوعي دفعته للتساؤل عن حقيقة الخالق، وكان قد شاهد القمر والشمس منذ ولادته. فالأسئلة جاءت في مرحلة النضج والوعي. ولهذا بدأ يتساءل وحين عجز عن الإجابة آمن بأنه لن يعرف الخالق إلا بتعريف منه. فكان عطاء الله له: [وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين] (١٢). فإجابة الله للعبد الصادق حاصلة يقيناً [والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا] (١٣). فهذا عهد من الله. ونحن في وقت والحمد لله فيه من الخير الكثير. فقد كان إبراهيم عليه السلام في زمن يفتقر للعلم، وتعبد فيه الأصنام. بينما الشريعة في زمننا واضحة. وعلوم الشريعة والهداية متوفرة، بالقرآن والأحاديث وشروح الشارحين الغزيرة. فطريق المسلم الراغب في الكمال ممهد، وهو ينتقل من خير إلى خير. ونحن في زمن فيه من الخير الكثير بفضل العلم الذي كشف وما زال يكشف عما كان يحيط به الغموض من آيات الله على الذين سبقونا. وإن كان العلم إنما وجه لهدف آخر، وإن كان بعض العلماء قد سعوا إلى إثبات الصدف والعبثية في الكون، فقد كذبهم العلم. وهذا مما يساعدا على الوصول إلى اليقين بصحة ما نؤمن به، وصحة ما نسعى إليه. وقد تحدثت كتب كثيرة عن الإعجاز القرآني في عصر العلم، الإعجاز الذي أشار إليه القرآن في مظاهر الكون. ولكن الإعجاز الأهم هو أن

نشهد المعجزة في نفوسنا، أن نشهدا كما شهدها أهل الكمال. لنشهد الوجود بها شهود معرفة وتحقيق. فما هو المستوى الذي سنتتيحه لنا مثل هذه المعرفة. أو ماهي المعلومات التي سنتحقق بها في عمرنا القصير قبل خلودنا الطويل في عالم الأبد.

■ ■ ■

■ مراجع "الإشراق بالعقل"

مراجع "مصادر المعرفة الإنسانية"

- ١- سورة البقرة، الآية ٢٥٥،
- ٢- سورة الرعد، الآية ٣٩،
- ٣- سورة لقمان، الآية ١٩،
- ٤- سورة البقرة، الآية ٣١،
- ٥- الغزالي، رسائل الغزالي، ص ٥٦،
- ٦- الغزالي - رسائل الغزالي، ص ٥٦،
- ٧- كنز العمال - رقم ٢٩٨٨٣/١٠،
- ٨- سورة فصلت، الآية ٥٣.

مراجع المعرفة الإنسانية بحوادث الوجود

- ١- سورة الأنبياء، الآية ٣٠،
- ٢- سورة إبراهيم، الآية ٨،
- ٣- سورة العنكبوت، الآية ٦،
- ٤- سورة يونس، الآية ٩٩،
- ٥- سورة هود، الآية ١١٨،
- ٦- سورة الملك، الآية ١-٢،
- ٧- سورة الإنسان، الآية ٢-٣،
- ٨- سورة البلد، الآية ٨-١٠،
- ٩- سورة لقمان، الآية ٣٤،
- ١٠- سورة البقرة، الآية ٢٥٥،
- ١١- الشعرائي - تنبيه المغترين، ص ١٨،
- ١٢- كنز العمال، رقم ١١٣٦/١.

مراجع "المعرفة الإنسانية بالوجود"

- ١- كليف كيلمستر، طبيعة الكون، ص ٢٣٢،
- ٢- المرجع السابق، ص ٢٣٦،
- ٣- كليف كيلمستر، طبيعة الكون، ص ٢٣٧،

٤- المرجع السابق، ص ٢٣٣

٥- سورة الزخرف، الآية ٢٣

٦- الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص ١٧٦.

مراجع "ماهية العقل"

١- عدد من المؤلفين، المادة كما ترى اليوم، ص ١٠٧.

٢- كنز العمال، رقم ١٥/٤٣٥٩٠.

مراجع "الوجود القديم والوجود الحادث"

١- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١/ ص ٢٢٧ م.

٢- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١/ ٢١٢ م.

مراجع "المعرفة بالحيرة"

١- سورة الذاريات، الآية ٥٦

٢- سورة فاطر، الآية ٢٨

٣- سورة العلق، الآية ١-٥

٤- إنجيل القديس يوحنا، ص ١٧٥

٥- سورة الرحمن، الآية ٢٩

٦- الكسندر كيتايجورودسكي، الفتونات والنويات، ص ٣٤١

٧- المرجع السابق.

٨- الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص ٢٧٢

٩- سورة النمل، الآية ٨٨

١٠- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٦ ص ٢٦٥ م.

١١- سورة الرحمن، الآية ١-٤.

مراجع "مبين اليقين"

١- كنز العمال - رقم ٢٩٨٨٣/١٠.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية ج ١، ص ٢٠١

٣- كنز العمال - رقم ٣٧٤٢١/٣، ج ١٣

٤- كنز العمال، ١٣٥٩/١.

٥- كنز العمال، رقم ٦٣/١.

٦- كنز العمال، رقم ١٠٣/١.

مراجع "لماذا كان الإنسان"

١- كنز العمال، رقم ١١٤٦/١.

٢- كنز العمال، رقم ١١٥٠/١.

- ٣- كنز العمال، رقم ٤٤٥/١،
٤- سورة التين، الآية، ٤،
٥- سورة النقرة، الآية، ٣٠،
٦- سورة النجم، الآيات ٣-١٨،
٧- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٥ ص ١١٩ م.
٨- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١٢، ص ٥٧٤ م.
٩- سورة يونس، الآية، ٢٤،
١٠- سورة الزمر، الآية، ٦٨،
١١- سورة الذاريات، الآية، ٤٧،
١٢- كنز العمال، رقم ١٢٥٢/١،
١٣- ابن عربي، الفتوحات المكية، ص ٢٨٦/ج ١ م.
١٤- جزء من حديث رواه الترمذي، ٣٢٩٤. ابن عربي- الفتوحات المكية، ص ٣٧٠/ج ٧ م.
١٥- كنز العمال، رقم ١٢٧٥/١،
١٦- سورة يس، الآية ٦٣-٦٥،
١٧- كنز العمال، ٥١٧٥/٦،
١٨- سورة الفيل، الآية ٣-٤،
١٩- سورة التين، الآية ٤-٦،
٢٠- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٤ ص ١٤٠ م.
٢١- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٦ ص ٣٤٦ م.

مراجع "شهود الوجود"

- ١- كنز العمال- رقم ١٣٠٦/ج ١
الحديث "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".
٢- كنز العمال، ٤٤٤٠٤/١٦،
٣- كنز العمال، ٤٤٤٣٥/١٦،
٤- سورة الإسراء، الآية، ٤٤،
٥- سورة يس، الآية، ٤٠،
٦- سورة محمد، الآية، ٣١،
٧- سورة هود، الآية، ١١٨،
٨- سورة الملك، الآية، ١٤،
٩- سورة المائدة، الآية، ٤٦،
١٠- كنز العمال- رقم ١٠٩١٣/ج ٤،

- ١١- سورة العنكبوت، الآية ٦٩،
١٢- سورة النقرة، الآية ٢٨٢،
١٣- سورة آل عمران، الآية ٤١،
١٤- سورة المزمل، الآية ٨،
١٥- سورة الإنسان، الآية ٢٥،
١٦- سورة النساء، الآية ١٠٣،
١٧- سورة النساء، الآية ٨٠،
١٨- سورة الإسراء، الآية ٢٠،
١٩- كنز العمال، رقم ١١٥٧/١ ج،
٢٠- كنز العمال، رقم ٨٦٣٩/٣ ج،
٢١- كنز العمال، رقم ٢٨٠٧٣/١٠،
٢٢- كنز العمال، رقم ٢٨٠٩٠/١٠،
٢٣- الجيلاني، الفيوضات الربانية، ص ١١،
٢٤- كنز العمال- رقم ٥٨٥٠/٣ ج.

مراجع "مشكلات في المعرفة. لا تكذيب"

- ١- سورة التوبة، الآية ١٢٨-١٢٩،
٢- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧،
٣- كنز العمال- رقم ٨٢١١/٣ ج،
٤- كنز العمال- رقم ٨٢٢٧/٣ ج،
٥- كنز العمال- رقم ٨٢٠٣/٣ ج،
٦- كنز العمال- رقم ٨٢١٥/٣ ج،
٧- كنز العمال- رقم ٨٢١٩/٣ ج،
٨- سورة العنكبوت، الآية ٦٩،
٩- كنز العمال- رقم ٣١٩٦٤/١١ ج،
١٠- سورة التوبة، الآية ٣٦،
١١- سورة الأنعام، الآية ٧٧-٧٨،
١٢- سورة الأنعام، الآية ٧٥،
١٣- سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

■ ■ ■



الفصل الثاني :

الإشراق بالإيمان



المعرفة و الموت

لقد رأينا أن لكل صورة ظاهرة في الوجود بعض المزايا والصفات التي لا تتغير، وهي الحقيقة التي تتجلى فيها. وتنقسم إلى قسمين الظاهر والباطن. والحقيقة التي تؤثر فيها وتتأثر بها لكونها جزءاً من الوجود منفصلة عنه وفاعلة فيه. والصورة في الجوهر من حيث حقيقتها الظاهرة معدومة قبل أن تظهر. ولكنها ممكنة وقابلة للظهور كما هي خاصة مختلفة عما نعرفه عنها بعد تركيبها وتآلف أجزائها. ولهذا رأينا أن ظهور الصور مرتبط بالأزمان، وإن كانت الصور تجري في بحر الوجود المدهش متنقلة من حال إلى حال. فما سيكون الآن صار الآن، وما سيكون في المستقبل سيصير. لأن الوجود في كل لحظة هو صورة لإرادة العقل الإلهي في نفس اللحظة. والإنسان ليس له في هذا الوضع أي تأثير، إلا ذلك التأثير المحدود كمبدع من إبداعات الوجود منفعل عنه، يحيط به النظام الشامل من كل جانب. ومحكوم من جانب آخر بولادته وأحكام زمانه، ومصيره المحتوم بين بداية لم يخترها، ونهاية ليس بيده أن يحددها. فهو عاجز كل العجز، لا يملك غير أن يمضي في خط سير حياته باحثاً عما يحفظ له هذه الحياة بدون أي حماية من الموت الذي يدهم الأصحاء كما يدهم المرضى، ويدهم الأغنياء كما يدهم الفقراء، ويدهم الشجعان كما يدهم الجبناء. ولعل الإنسان هو الوحيد الذي يدرك أن الموت هو مصيره المحتوم الذي يلاحقه في كل لحظة، ويحاول أن يهرب منه في كل لحظة باستخدام كل الوسائل التي أتاحتها الحضارة للإنسان، مع أن كل هذه الوسائل ظلت وستظل عبثاً أمام هجوم الموت ومصادفاته التي تختفي في كل عضو من أعضاء الجسد، كما تختفي في الطريق والسيارة والطائرة وفي كل مكان يسكنه الناس ويذهبون إليه. فالموت يرافق الإنسان مثل ظله حتى يصيبه ويستعيد منه كل ما وهبه له الوجود من كمال. وهذا مصير كل محدث، وكل صورة منفصلة عن الوجود، ومركبة من أجزائه. فالوجود في لحظة ما يستعيد منها ما منح لها ليركب صوراً جديدة ليتم التجديد الدائم والإمداد الذي لا يتوقف

بعضاءات العقل الشامل بين ضفاف أزل ليس له بداية وأبد ليس لها نهاية. فما هو الإنسان في كل هذا النظام. وهل له حق التطلع إلى الخلود بصورته وحقيقته الإنسانية الموهوبة له، وليس كمادة من مواد الوجود التي لا تقنى. إن هذا السؤال الذي سيظل يشغل الإنسان لا يمكن الإجابة عليه إلا من خلال الدين، وأقوال الرسل وأعمالهم. وهذه الحقائق كلها يجب أن نأخذها بعين الاعتبار للوصول إلى الحقيقة والتأكد منها بقدر ما نستطيع، لأن حصن الموت المنيع لا يمكن اقتحامه والعودة لإخبار الناس عما سيعقبه من الحوادث. وكل إنسان يستطيع أن يدعي ما يشاء عن حصن لا يمكن تجاوز أسواره. ولهذا لا بد لنا من تأمل هذا الحصن بما نملكه من القوى العقلية، وبما سمعناه من الرسل أو من غيرهم لمعرفة الحقيقة الغامضة عن المصير اللاحق لوجودنا بعد الموت. وهذا التأمل لكل ما عرفناه عن الموت والحساب يمكن أن نتحقق من صحة ما أخبرنا المخبرون عنه بعدة أمور قد تكون البداية لإدراك الحقيقة منها:

١- التطابق بين الأقوال والأفعال بأن يكون المخبر لنا عن وجود حساب بعد الموت قد تصرف على أساس أنه سيحاسب. ولذلك فإنه عمل لينجو بنفسه مما سيتعرض له بعد الموت.

٢- بما أن كل مخبر أو ناقل لخبر لا بد له من دليل على صحة أخباره. فإن كل من كان رسولاً لا بد له أن يتميز بصحة أخباره سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة. وإن صحة نبوءات الرسل في الحياة الدنيا تقوي صحة أخبارهم عن الحياة الآخرة. لأن المخبر عن الله لا يمكن أن تتناقض أقواله طالما أن مصدر علومه الله الذي لا تخفى عليه خافية في الوجود.

٣- إن مما يقوي صحة الأخبار التي وصلتنا عن الرسل هو تصرف أصحابهم الأقرب إليهم لأن كل إنسان لا بد أن يتصرف في ضوء معتقده ومعرفته، فإذا كان أصحاب الرسل قد شاهدوا من الرسل أي إخلال بموازين المعاملات، أو أقل تهاون بأمور المعتقدات، لا بد أن ينتقل هذا الحال إلى الأصحاب الأقرب إليهم. كما أن هؤلاء الأصحاب سيضطرون للدفاع عن أنفسهم تجاه المعترضين، بالاستناد إلى أقوال أو أعمال قام بها الرسل لتبرير ما تصرفوا به. ولهذا فإن الأسرار الغامضة لا يمكن أن تبقى أسراراً عندما يتداولها عدد كبير من الناس. كما إن وجود معارضة وأعداء للرسل سيساعد في الكشف عن المرحلة التاريخية التي عاشها الرسل، وعن حياتهم الشخصية، لأن سلاح أي معارضة سيكون كما هي العادة دائماً الكشف عن سليات الخصم

لإضعافه ومواجهة المعتقدات التي يدعو إليها. ولا نشك بأن التهويل والأكاذيب سترافق مثل هذه المعارك كلما كانت المواجهة شديدة وحامية، لهذا فإن شهادات الخصوم ستصلنا بكل ما تحمله من مبالغات وأسرار وحقائق مهما كانت المحاولات ناجحة لطمس بعض معالم تلك المرحلة من قبل الفئة المنتصرة. لأنه لا يوجد انتصار أبدي في النهاية إلا للحقيقة. فما هو حق وصدق سيبقى، وأما ما هو من نوع الدعاية، المبني على الافتراءات سيسقط لأن ما فرضته المرحلة من دعاوى غير صحيحة سيسقط بانتهاء تلك المرحلة. والحقيقة تظل كالشمس وإن اختفت لبعض الوقت فإنها ستسطع من جديد. وخاصة عندما تكون الأمة في مرحلة من الوعي الذاتي والتاريخي بنفسها وكرامتها مما لا يسمح لها بالانجرار وراء أي دعوى دون لمس أثر يشعرها بصحة العقيدة المدعوة لها. وهذا ما تشهد به حياة العرب عندما نبحث عن سر نجاح الدعوة الإسلامية بينهم. فالعرب كانوا أمة الكلمة والأنفة والفخر والتاريخ كحفاظ لأنسابهم وحتى لأنساب خيولهم. فهم أول أمة اتفقت على كتابة الكلمة الجميلة بالذهب ووضعها في أقدس الأمكنة (الكعبة)، قبل أن تتفق على بناء دولة أو حتى إمارة لأن أنفة العربي كانت تمنعه من الخضوع إلا لشيخ العشيرة بالحق. وعن هذه الإنفة نشأ العلم بالأنساب والفخر بماضي الأجداد. وفي مثل هذه الأمة التي لا تدين لحاكم أو ملك، ولا تخضع إلا لشيخ العشيرة سيكون من الصعب القبول بأي زعامة لا تملك قدرات خارقة فكرية للسيطرة على الوضع وإقامة دولة تدين لها العشائر المتنافسة بالولاء، وإذا كان للنجاح العسكري حدوده الجغرافية والزمنية فإن النجاح العسكري لا يستطيع أن يطمس الحقائق، لأن كل نجاح عسكري مهما كان كبيراً هو نجاح مؤقت. بينما ستظل الحقيقة تفعل فعلها بما لها من أثر وإشعاع حتى تأخذ مكانها الذي تستحقه في حياة البشر. ولهذا سقطت الفلسفات الشرقية واليونانية رغم وفرة الجيوش لنشرها ورغم أن الاسكندر المكدوني هو تلميذ أرسطو. فإن كل هذه الفلسفات لم يبق منها إلا بريقها وأسئلتها، بينما نجح الإسلام وبقي وتسللت أفكار المسيح عليه السلام إلى روما التي لاحقته مع اليهود والتي بدت منتصرة بخلاصها منه، سواء برفعه إلى السماء كما يعتقد المسلمون، أم بصلبه كما يعتقد المسيحيون واليهود بما "شبه لهم". تسللت أفكاره إلى روما وحطمت حصونها بدون أي حرب لأنها كانت الأصدق والأرفع والأظهر في مواجهة كل الفلسفات والمعتقدات والمذاهب المعاصرة لها. وهذا لا يعود إلى قوة المسيح عليه

السلام الذي غاب عن تلاميذه وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، ولا يعود إلى سحر كلماته في شعوب قرأت أفلاطون وأرسطو والإلياذة والأوديسة وعرفت بلاغة شيشرون، وإنما يعود إلى الإشعاع والصدق الذي تحمله معاني الكلمات التي وصلت إلى روما التي كانت غارقة في وثنيها وتائية بين عبادة الامبراطور، وعبادة اللذة التي لا طائل من ورائها. فكانت كلمات المسيح عليه السلام هي الدواء للقلوب المحطمة بسبب أحزانها وبأسها وطغيانها وأثامها وضعفها. كانت كلمات المسيح تخاطب العقل كما تخاطب الروح، تخاطب الكمال في الإنسان. بينما كانت الفلسفات تخاطب العقل، وتتصارع بالعقل، وكان نجاحها يقوم على التفنن في الأقوال لا في الأفعال. وكانت الجيوش تخاطب الأجسام لتخضع العقل بالتهديد والوعيد وقتل الخصوم. لهذا انتصرت المسيحية لأن كلمات المسيح كانت حياته. لأنه نطق بالصدق، وكان تلاميذه على هذا المستوى من الإخلاص ولهذا نجحوا. وإخلاصهم له أسبابه، أي إنه لم ينشأ من فراغ، بدون إشراق ذاتي، وبدون مشاهدة لنور الحق الذي عرفوه من المسيح عليه السلام، ولهذا نجحوا حيث أخفقت الجيوش وعجزت الفلسفات. فانتشرت الأناجيل في بيوت كل الناس، العباقرة والحكام والعوام، وكان كل إنسان يجد فيها بعض الزاد لما يحتاج إليه. وهذا التأثير لم يتوصل إلى بلوغه أي كاتب قديم أو معاصر رغم تطور فنون النثر والشعر وبلاغة البلغاء وعقريات القدماء والمحدثين. فمن أين جاء هذا التأثير الذي سيبقى إلى قيام الساعة وإن أنكره المنكرون وشكك به الجاحدون، رغم ما قلناه عن اختلاف كلمات المسيح عليه السلام عما وصل إلينا من تلاميذه. فكيف لو وصلت إلينا نفس كلماته بحدافيرها. ولكن لأمر يريده الله حصل ما حصل وضاع ما ضاع ووصل ما وصل. وما قلناه عن الأناجيل ينطبق على التوراة (العهد القديم) وإن ضاع الأصل. ولكن إشراقات الحق التي فيه لا تخفى على المؤمن الذي يريد وجه الله بالتزامه بالوصايا العشر نحو أبناء آدم. لأن الله لم يرسل الرسل إلا هداة لا جباة للأموال ولا سعاة لجمعها وإن تصرف رسل الرسل، أو من ادعوا أنهم رسل الرسل في ضوء مصالح الجيوب والغرائز لا الأخلاق السامية التي دعا إليها الرسل. وكم حمل الناس رسلهم مالا يحملون ونسبوا إليهم مالا يعلمون، فكانوا دعاة نبذ للدين القويم ودعاة هدم، لا دعاة إحسان بالإحسان ولا دعاة بناء للإنسان، فحل القتل بين بني الإنسان لأن الإيمان بما في الجيوب، ووثنية عبادة الدرهم والدينار والدولار قد حلت محل عبادة مكون الأكوام. إن كل

هذه الحقائق التي يمكن أن نتأملها بالعقل، وأن نطلع عليها عند دراستنا لتاريخ الأفكار والأشخاص وجدلهم وصراعهم، لا بد أن يكشف لنا عن الحقيقة التي لا تخفى على المنصف. والسؤال الذي يفرض نفسه هو لماذا بقي ما بقي من الأفكار في التاريخ وذهب ما ذهب؟ ولماذا كانت الأفكار والفلسفات مثل موضوعات تذهب وتختفي وتعود بين الحين والآخر بأثواب جديدة وكلمات معاصرة، بينما ظلت الأديان تترسخ في حياة البشر عبر كل العصور، رغم كل دعوات الإلحاد وجيوشه الجرارة. ولماذا كان من السهل على غالبية الناس أن ينسوا لغتهم وقوميتهم بينما ظلوا يتمسكون بالدين، فكانوا وإن تركوا دينهم ينتقلون إلى دين آخر ليظلوا في حظيرة الرحمة الإلهية التي يتطلعون للدخول إليها من بوابات الرسل لا من فلسفات المتكلمين، ولا من وعود الداعين إلى دنيا تعاش وغرائز تلهو لتشبع، رغم قرب الغنيمة في الدنيا وبعدها في الآخرة؟. إن كل هذه الأسئلة تفرض نفسها على الإنسان المنصف الذي يريد الحق والحقيقة بغض النظر عن جحود الجاحدين وتقصير المقصرين. فهل يمكن أن نتهم العقل البشري بالضلال إذا كان في غالبية يدين بالولاء للدين أكثر مما يدين للفلسفة. ويجب ألا ننسى أن البوذية والكونفوشيوسية لا تخرجان في حقيقتهما عن الدين لكونهما دعوة أيضاً إلى سمو الإنسان الروحي بالعمل الصالح وخدمة الإنسان. ونحن نعرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر بأن الله قد أرسل إلى الناس آلاف الأنبياء. ونحن وإن كنا لا نعلم عن نبوة كونفوشيوس وبوذا شيئاً، أو عن المصادر التي أخذوا عنها وتعلموا منها، إلا أننا نستطيع أن نلمس من الأفكار التي تذخر بها كلا الدعوتين إشراقات النبوة وآثارها فيما تدعوان إليه من سمو روحي لمعرفة الله، وإصلاح الإنسانية. ولهذا صمدتا أمام شتى الأفكار التي حاولت أن تحد من تأثيرهما. وظلت دعوات الإلحاد رغم كل ما أتيح لها من الحرية لنشر أفكارها تعيش في جزر معزولة عن روح الناس وطبيعتهم. فكان كل ما ساهمت به أنها خلقت الأزمة وعجزت عن حلها. حاولت أن تدمر الدين بالتشكيك فيه، فدمرت المجتمع، بظهور فلسفات للقلق والغموض والحيرة واللاأدرية والإباحية فأصبح على الإنسان أن يستمد سموه من عورته أو من معدته أو من جيبه، لأن قدسية الروح وإشراقها تحطمت بين يدي المدينة الحديثة. وإن ظلت طهارة الإنسان وروحانيته وإيمانه تتردد في جوانحه مثل ومضات في لحظات الصفاء لاستعادة ما دمرته حضارة العصر برفعها شعار إفعل كل ما يسعدك، ودع كل ما يعذبك، في فلسفة

الأبيقورية الجديدة، التي انحطت بالإنسان، ولم تنقذه من العذاب بل زادت من عذابه حين حولت الحب إلى لحظة عابرة من لحظات المتعة. وحطمت أقدس ثمار الحب، الطفولة البريئة بحرمانها من دفء الأسرة وحنان الأم والأب، وإنتاجها لأولاد الزنا الذين سيردون لمجتمعهم ثمار القسوة التي عوملوا بها بقسوة وحقد لا نعرف حدودهما. ولكن القليل من هذه الثمار يدل على الكثير القادم في مجتمع المصالح القائم على المتعة لا الحب. إن الإيمان بالدين باق. ولكن المدينة الحديثة حرمت الناس من ثمارها حين حولته إلى وسيلة لاستعادة توازننا الإنساني في لحظات خرابنا الجسدي والروحي بعد كل الانحطاط التاريخي الذي يمارسه الإنسان في حياته. والدين ليس ماءً ساخنًا يغسل أوساخ الروح في لحظة وقوفنا تحت أنواره. إنه بداية لإشراق الروح، وكل بداية لا بد لها من متابعة للدخول إلى أعماق الروح لشهود ما فيها من ينابيع النور الفيضة التي لا تساويها كل متع الدنيا وغرائزها. ولكن حماقة إذا كانت كنز الحمقى، والحكمة كنز الحكماء، فإن الحكماء ليس لديهم إكسبير لتحويل الحمقى إلى حكماء. لهذا قال المسيح بحق "ما عجزت عن إحياء الموتى، ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق" (١). وعصرنا ويا للأسف عصر الحماقات رغم كل المطابع التي تطبع وتنتشر الثقافات. وقد غدونا كما قال الله عن الدين يقرؤون العلم ولا يستفيدون منه [مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا] (٢). فغدونا نعم برفاهية دور العجزة وحضانة المسنين، بسبب إلغائنا لدور الأسرة وحرماننا من علاقات الجيرة الحميمة، وصدقات الإخوان الصافية. فكان نجاح أفلام - القتل من أجل الدولار - تتويجاً لحالة الانحطاط الإنساني المعاصر وتعبيراً عنها. بعد أن حنطنا عقيدة الإيمان في كتب مزخرفة على رفوف المكتبات، ننظر إليها بين الحين والآخر. إنها مأساتنا التي يجب أن نواجهها بالعودة إلى العقل. وطرح كل الأسئلة التي من شأنها إعادة الإنسان إلى سموه الروحي ومكانته اللائقة به. ليس كحشرة من الحشرات التي تعيش لتأكل وتستمتع بدون إدراك لوظيفتها المرسومة من الخالق. لأن الخلق ليس فيه أي عبث. والإنسان الخليفة لم يخلق للاستهلاك والأكل، وإنما لشهود عظمة الخالق في المخلوقات، ومنها نفسه التي بين جنبيه. لإحياء روحه بالعلم، ومشاهدة جمال الخالق في مخلوقاته، والحكم بالحق على الخلق، للوصول إلى ما هو أسمى بصعود الروح وتصعيدها لرؤية النور وتجنب الانحطاط الذي يقود إلى العذاب بخراب الروح وموتها

بالجهل بمعرفة الله. لقد حاولنا أن نتأكد من صحة الأخبار التي وردت عن الثواب والعقاب بعد الموت في كل الأديان. ولا دليل لدينا على صحة هذه المسألة غير أقوال الرسل. وقد رأينا أن المشاهد للخطر المحدق بالإنسان بعد الموت لا بد أن تدفعه معرفته إلى تجنب الأخطار باتباع السلوك المأمور به من الله. أما إذا كانت هذه الأخبار المنقولة إلينا ناجمة عن الرغبة في إصلاح المجتمع، أو لأي غاية إنسانية نبيلة فلا بد أن تقود هذه الأفكار الإنسانية صاحب الدعوة إلى التهاون في تطبيق الشريعة على نفسه وإن تشدد في تطبيقها على غيره. ومهمتنا لحسم هذا النقاش والوصول إلى نتيجة صحيحة ستقوم على ما يلي:

١- تتبع حياة الرسل في أقوالهم وأفعالهم.

٢- تتبع إخبارات الرسل في الحياة الدنيا للتأكد من صحتها، لأن الناقل عن الله لا يمكن أن يخطئ فيما نقل من أخبار عن الدنيا أو الآخرة. وإن صحة أخباره ونبوءاته عن الدنيا تدل على صحة علمه بالآخرة.

٣- تتبع حياة الأصحاب الأقرب إلى الرسل للتأكد من حقيقة الإيمان الذي امتازوا به من غيرهم لأن الإيمان والزهد في الحياة لا يمكن أن يأتي من فراغ بدون وجود قناعة لدى هذا الإنسان بأنه اختار الطريق الأفضل لحياته ومماته، ما دام على قناعة بأن الموت هو مرحلة أخرى من الحياة سيعقبها الحساب.

وبما أن حياة الرسل العامة قد تشابهت من حيث الصراع ضد الوثنية والشر، وظلم الإنسان لأخيه في كل المجتمعات سواء في عهد موسى والمسيح عليهما السلام، وأتباعهما بعد ذلك. ونظراً لعدم وفرة الوثائق الدقيقة التي تؤرخ لحياتهم وحياة أصحابهم، وتوفر هذه الوثائق عن العصر الإسلامي. لذلك فإننا سنقتصر في بحثنا على تتبع بعض الجوانب في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأقرب إليه من الذين تخلقوا بأخلاق الإيمان وجاهدوا للوصول إلى مقام الإحسان أو وصلوا إليه. وبما أن غرضنا من هذا البحث الموازنة بين الأقوال والأفعال، بين الإيمان بالحساب بعد الموت إيماناً يقينياً وسلوك صاحب هذا الإيمان. لهذا سنقتصر في دراستنا على تتبع هذه الجوانب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه. لأن كل سلوك هو تعبير عن حاجة إنسانية، عن مصلحة ذاتية للإنسان. وإن دراستنا للأحوال النفسية للبشر تكشف لنا بأن كل سلوك إنساني للإنسان سواء كان حسناً أو سيئاً في عرف الجماعة يهدف إلى

تحقيق مصلحة فيها خير للفرد من وجهة نظره. فالسارق يسرق ليستفيد من المال أو ليصبح ثرياً وهذا بالنسبة له سيعود عليه بالخير وإن كان سيعود بالشر على المسروق. ولهذا سيكون الكشف عن السارق وقطع يده أو سجنه، وإعادة المال المسروق إلى صاحبه عملاً فيه كل الخير لمالك المال. وعلى هذا المنوال سنجد بأن السارق والمسروق يتفقان على أن المال هو خير، ولكنهما يختلفان على طريقة تحصيله وأسلوب الوصول إليه وإن كان محبوباً لكليهما. وبما أن كل الناس يحبون المال فإنهم أيضاً يختلفون على طريقة إنفاقه. فالكريم يجد متعة في الإنفاق لحكمة يؤمن بها أو عقيدة يحملها بينما يحرص البخيل كل الحرص على تكديس المال وإخفائه حتى عن أقرب الناس إليه، وقد يموت وهو يشتهي ثوباً فلا يشتريه. وإذا راقبنا تصرفات كل البشر، فإنهم جميعاً يتصرفون وفقاً لحكمة اهتموا إليها أو علم توصلوا إليه أو عقيدة آمنوا بها. فالإنسان لا يتصرف إلا وفقاً لأهداف وغايات. وقد ورد في بعض الحكايات أن أحد الخلفاء طلب من أحد أقاربه، وكان زاهداً، أن يتولى إحدى الولايات فاعتذر فقال له "والله ما رأيت أزهـد منك". فقال له "بلى يوجد يا أمير المؤمنين" فسأله "من" فقال له: "أنت". فسأله مستغرباً "أنا" فقال له "نعم، أنت زاهد في خالد، وأنا زاهد في فان". فالمؤمن الزاهد ليس أقل طمعاً في السعادة من محب الدنيا. ولكن محب الدنيا والعامل لها قد يريد الدنيا والآخرة فيختلط عمله ويكون فيه الحسن وفيه الرديء بحسب أحواله، أما المؤمن المشاهد فإنه لا يستطيع أن يخطط أبداً، ليس الحلال بالحرام، بل لا يستطيع أن يختار إلا الصافي والنقي من الحلال، بل إنه يؤثر غيره على نفسه، لرغبة في إثارة الله. فكل إنسان يطلب الجزاء والثواب، هذا من العبيد، وهذا من رب العباد. فمن عرف الله لا يستطيع أن ينظر إلى أفعال الخلق، ولا أن يرجو منهم خيراً، لأن نظره مرتبط بخالق الدنيا والآخرة. ومن لا يعرف الأمر كما هو عليه حقيقة تكون عيونه إلى الدنيا منصوبة وكرامته بما يظن أنه يرضي العبيد محسوبة. ولهذا فهو يهرج، أو يكذب، أو يسرق، أو يأتي أفعالاً لا يقبلها كريم أو عاقل ليسوي أمر دنياه، ويفوز فيها بالغنيمة. وبينما يتحير العقلاء والكرماء من البخيل ويضحكون من حرصه على الفلوس والقرش، فإنه يضحك منهم في قرارة نفسه لحماقتهم وإسرافهم حتى حينما يكون على مآذيبهم. ولهذا فإنه لا يتورع عن حشو معدته حتى الامتلاء بطعامهم ليوفر وجبة أو وجبتين. وربما كان لفرط حكمته في مثل هذه المناسبات ممن يحسد الجمال لما حباها الله من القدرة على استرجاع طعامها من معدتها لاستخدامه غذاء لعدة أيام. وعند هذا المستوى من الأعمال يتميز الإنسان من الإنسان. فإنسان يصعد بخيره، وإنسان ينزل بشره.

إنسان رأى الموت ولم يشاهد الحساب. فقال: "واغنم من الحاضر لذاته" لأن حياة الإنسان ستنتهي إلى فناء محقق لا شيء بعده. وإنسان رأى الموت ورأى شيئاً آخر وراءه. رأى جنة وناراً وحساباً. فتوقف عند هذه الحقائق وراح يعمل للفوز بالنعيم الدائم. والناس سائرون بين شتى الحكم إلى مصائرهم التي اختاروها، وإن ظنوا أنهم سائرون لسعادتهم، فهذا جنته من علمه، وذاك ناره من علمه. قالت رابعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا (٣)

ولهذا قال أهل المعرفة "حسانات الأبرار، سيئات المقربين" فالأبرار الذين آمنوا بالجنة عملوا للفوز بها. والمقربون الذين أتيح لهم أن يشهدوا رب الجنة كان مطلبهم المالك لا الملك، لأن من كان مع المالك لا يحرم من الملك. ولهذا قالت آسية زوجة فرعون حينما كانت تعذب حتى الموت بسبب إيمانها [رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة] (٤) والبيت الذي طلبته إنما يعني القرب لا المكان -عند الله- فهل يمكن لإنسان أن يستبدل بقصور فرعون بيتاً -عند الله- لا يعرف عنه شيئاً. هذه هي المسائل التي سنحاول أن نكشف عنها في عقول رأت وشاهدت فشهدت، وإلى ميزان الحق نظرت فانتظرت، فقال معلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له" (٥). وقال "سددوا وقاربوا وأبشروا، فإن أحدكم لن ينجيه عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته" (٦). ولهذا حين جاءته البشري بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ظل يقوم الليل حتى تتورم قدماه. وحين سئل عن سبب مواصلته لعبادته بعد الغفران، أجاب "أفلا أكون عبداً شكوراً" (٧). فماذا رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المشهد حتى كان يقوم الليل ويصلي حتى تتورم قدماه مع أنه قد غفر له. فهل هناك من جزاء للعطاء إلا زيادة الشكر كما قال الله [لئن شكرتم لأزيدنكم] (٨) فغاية الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن نيل الغفران بعد أن تحقق، وإنما كان يعمل لغاية أسمى، غاية الغايات، عبودية العبد الكامل في عبوديته لسيدته، حتى يستحق الخلافة الكاملة، بعبوديته الكاملة. بأن تكون حياته كلها لله كما أمر، وكما أراد، ليفور بكنز العطاء الإلهي في الدنيا والآخرة. وقد كان كنزه في الدنيا نجاح الإسلام وتبليغ الرسالة وكنزه في الآخرة أن ينال المقام

الذي طلب من المسلمين الدعاء له بالوصول إليه وهو مقام الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الموعود به. وهذا هو السر الذي يجب أن يتطلع كل عاقل لمعرفة. يجب أن يسأل عن سر هذا الزهد الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حياتهم، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم حين توفي "كانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير" (٩). واحتاجت أم المؤمنين عائشة لقليل من الزيت أو السمن لإشعال المصباح ليلة مرض الرسول صلى الله عليه وسلم فلم تجد، فأرسلت "بمصباحها إلى امرأة من النساء وقالت لها أظطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن" (١٠). هذه هي بعض كنوز خاتم النبيين الذي أعطى للناس عطاء من لا يخشى الفقر، فلم يجد أهله الزيت لإشعال مصباحهم عشية مرضه. لقد أعطى واغتنى بكنوز كثيرة خالدة، كنز التوكل على الله والتسليم له، لسر عرفه وصرح به "والله إنني لأتقاكم لله، وأخشاكم له". فمن عرف الله خاف، ومن جهله طاش.

مهمة التبليغ والكفاح الدامي

إن أول ما يلفت انتباه الباحث في تاريخ الإسلام هو حجم الصعوبات التي تعرض لها المسلمون الأوائل وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم مما اضطر بعضهم للهجرة مرتين إلى الحبشة قبل أن يأتي الأمر بالهجرة الشاملة إلى المدينة فراراً من اضطهاد قريش. وهذا يدل على حدة الصراع وعنفة إذ استخدمت قريش في مكة كل الوسائل التي تستخدمها الدول الحديثة الديكتاتورية لمحاصرة الحركات السياسية المناوئة. مما اضطر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة للمدينة رغم الحماية النسبية التي استطاع بنو هاشم أن يوفروها للرسول في بداية الدعوة، ثم عجزوا عنها بسبب ضغط القبائل بزعامة أبي سفيان وأبي لهب واستخدام الزعامة القرشية لكل الوسائل للقضاء على الدعوة الإسلامية، من تعذيب بعض المسلمين وسجنهم وقتل بعضهم ومقاطعتهم، ثم مقاطعة بني هاشم بأجمعهم لمدة ثلاث سنوات ومحاصرتهم في شعب من شعاب مكة، وقطع كل العلاقات الاجتماعية معهم من بيع وشراء وزواج وتعامل. حتى وصل الحال بالمقاطعين إلى جوع شديد اضطرهم إلى أكل الأعشاب وأوراق الشجر إن وجدت مما لا تطيقه إلا نفوس تساوى لديها -في ظل إيمانها- الموت والحياة. والروايات التي تحدثت عن أحوال الناس في هذه الظروف كثيرة نقدم منها بعض هذه الصور. فالمشركون لم يكتفوا بملاحقة المسلمين في مكة بل طاردوهم إلى

الحبشة، عندما اتخذت هذه الحروب بين الإسلام والشرك طابعاً جديداً بلجوء بعض المسلمين إلى الحبشة هرباً من المعاناة والتعذيب والظلم. لقد استخدم المشركون دبلوماسيتهم لدى النجاشي لطرد المهاجرين وسد كل الأبواب أمام المسلمين لخنق الإسلام في مهده ومحاصرته والقضاء عليه. وكان من جملة الأسلحة تعذيب من استطاعوا تعذيبه من العبيد ومن الذين ليس لهم أي حماية في النظام القبلي السائد حتى الموت ليرتدوا عن الإسلام، وليكونوا عبرة لكل من يفكر بقبول الدين الجديد. فكان "بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهرية، يعذبونهم برمضاء مكة. فأما أمه فقتلواها". وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمر بهم فيقول لهم "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة" (١). وتعرض خباب بن الأرت لمثل هذه الأنواع من العذاب. وبلال أيضاً. وهذه ملامح مما جاء في كتب التاريخ عن أنواع التعذيب التي استخدمت لإرهاب المؤمنين وإجبارهم على الردة ولو بالكلام. جاء عن عبد المطلب بن عباس "كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى أن الجعل ليمر بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم مما يبلغون من جهده" (٢).

كانت قريش قد جربت كل الوسائل لإغراء الرسول صلى الله عليه وسلم بالمال، والمكانة، والنساء. وحين فشلت جاء أشرف قريش إلى أبي طالب عمه الذي كان يحميه يهددونه قائلين "يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنته عنه.. وإنا -والله- لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أعلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين" (٣).

لم يترك الإنذار أي مجال للاختيار. وكان على أبي طالب أن يختار الطريق الأسلم من وجهة نظر العقل. لأن بني هاشم لا يستطيعون مواجهة قوة قريش الغاضبة. وربما ظن أبو طالب أن بإمكانه إقناع الرسول بالتوقف عن الدعوة إلى الإسلام لما له من مكانة كسيد لبني هاشم، ولما له من مكانة عند الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو ليس العم فقط بل والمربي والحامي والرجل الذي تكفل بمعيشة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الطفولة حتى كان من الرسول صلى الله عليه وسلم بموقع الأب. وكان أبو طالب يعرف من أخلاق ابن أخيه وحنوه على أهله وعشيرته والناس جميعاً ما يطمئنه لإقناع الرسول صلى الله عليه وسلم بالكف

عن الدعوة إلى الإسلام ما دام موقف قريش المتحدي يملئ مثل هذا القرار، حيث لا طاقة لبني هاشم في مجابتهم. وكانت حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم الواضحة تبعث الآمال في نفوس من لا يعرف حقيقة الرسالة على قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لمنطق حسابات القوة وموازينها، والعمل بمقتضاها ما دامت قريش هي الأقوى. ولهذا بعث أبو طالب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لإقناعه بسبب تحدي قريش بالتوقف عن الدعوة إلى الإسلام. ولا شك أن أبا طالب قد عرض الموقف على الرسول صلى الله عليه وسلم حين اجتمع به، وبين له موازين القوى الراجحة كلياً لصالح قريش. وقال له "يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، وكلموني في أمرك، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق" (٤). كلمات فيها الرجاء والأمل والخوف على النفس والأهل وابن الأخ، كلمات من شيخ العشيرة وحكيمها في موقف صعب. فماذا كان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المحب لعمه والمشفق عليه. قال له "يا عم. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" (٥). فقال أبو طالب له: "قل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً" (٦).

هذه خلاصة الحديث. ولكن لا بد أن يكون الحوار قد اتخذ طابعاً تقييمياً لكل الأمور من زاوية العقل. ولا بد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاب عمه من زاوية الإيمان التي لا تتفق مع مقولات العقل الظاهر حتى اطمأن أبو طالب وقال له "قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً".

لا بد أن أبا طالب قد رأى شيئاً خارقاً للمألوف والمعتاد—وهو الذي ظل حتى آخر لحظة في حياته لا يقبل الإسلام—حتى اتخذ هذا القرار الحاسم في مواجهة قريش. وإلا فإن أبا طالب كمسؤول عن مصير بني هاشم كان سيلجأ إلى كل أنواع الضغوط الممكنة للحوار، إرسال آخرين من العشيرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأخراجه والضغط عليه، لولا أنه رأى شيئاً ما طمأنه على مصير ابن أخيه والعشيرة، مما دفعه إلى الوقوف إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يقتنع برسالته. وربما كان في حيرة من أمره بشأن الرسالة وإن اتخذ قراره الحاسم بدعم صاحبها. فما هو السر الذي أبصره أبو طالب. لقد ظهر لبني هاشم بعض الإشارات الغريبة من إطعام الرسول صلى الله عليه وسلم للعشيرة مرتين من طعام قليل. فقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته إلى الطعام مرتين، وعرض عليهم الإسلام فقال أبو طالب: "ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا

لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب. فقال أبو لهب: هذه والله لسوءة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا" (٧).

ومثل هذه الظاهرة، أي تكثير الطعام القليل ستتكرر أمام الصحابة، وإن كان الأمر سيظل محيراً لغير المؤمن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتعرض في غالب الأوقات مثل بقية المسلمين إلى الجوع وقلة الموارد المالية. فكيف ستنتفح إمكانية حصول المعجزة وتكثير الطعام مع ظاهرة الفقر التي عاش فيها الصحابة وعانوا منها، والرسول صلى الله عليه وسلم مثلهم يعاني، مع ظاهرة مناقضة أيضاً وهي ظاهرة السخاء التي تميز بها الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قيل عنه "والله إن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر". وقد امتعض ذات مرة من عمر بن الخطاب رغم مكانته عنده، حين جاءه رجل وسأله المال، فوعده الرسول صلى الله عليه وسلم بالمساعدة، ولم يكن لديه المال. فقال عمر "يا رسول الله ما كلفك ما لا تقدر عليه، فكره النبي قول عمر حتى عرف في وجهه. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بهذا أمرت" (٨).

إنها مسائل تدعو إلى التأمل والحيرة. لأن كل واحدة منها تنقض الأخرى، وتكشف عن حقيقة من طبيعة تخالف غيرها. فكيف يجوع من يملك معجزة إكثار الطعام. حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف على المنبر في المدينة وخطب معتذراً عن تأمين طعام غير التمر لأهل "الصفّة" من الفقراء بعد أن اشتكى أحدهم فقال "أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الخنف". أي الثياب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "والله لو وجدت اللحم والخبز لأطعمتكموه" ٩- وكيف أطعم أكثر من ألف من طعام لا يكفى عشرة. أحد هذه المعجزات وقعت عندما كانوا يحفرون الخندق حول المدينة. قال جابر بن عبد الله "عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق، فكانت عندي شويهة، غير جد سميئة. قال فقال: والله لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير، فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة، فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله عليه

وسلم الانصراف عن الخندق - قال: وكنا نعمل فيه نهارنا، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا - قال: فقلت: يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تتصرف معي إلى منزلي. وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده. قال: فلما أن قلت له ذلك، قال نعم، ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبد الله، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال: فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه. قال: فجلس وأخرجنا إليه. قال: فبرك وسمى الله، ثم أكل وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها" ١٠- . في حادثة ثانية سنأتي أخت النعمان بن بشير بطعام لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة أثناء حفر الخندق "دعنتي أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك بغدائهما. قالت: فأخذتها، فانطلقت بها، فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي. فقال: تعالي يا بنية ما هذا الذي معك؟. قالت: فقلت يارسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله يتغذيانه. قال: هاتيه. قالت: فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال للإنسان عنده: إصرخ في أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء. فاجتمع الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب" (١١).

إن مثل هذه الحوادث ستتكرر في مناسبات مختلفة، وستشمل زيادة الماء أيضاً. ولكن لنعد بعد أن استعمنا إلى الرواة عن هذه الحوادث المتباعدة، لنعد إلى البدايات. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الناس إني رسول الله، ولا بد للإنسان العاقل أن يتساءل إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، لماذا لا يحمينا الله من العذاب الذي نتعرض له، إذا كنا نحن جنوده كما تقول. لا بد أن يقال له: يا رسول الله إطلب لنا الحماية من ربك. من ينسب نفسه إلى حاكم ويتكلم بتكليف منه لا بد أن يطلب الحماية من هذا الحاكم إذا تعرض للأذى، وإذا امتنع الحاكم عن حمايته لا بد لهذا الإنسان من ترك الحاكم وشأنه، فكيف بمن يقول إنه يتكلم بأمر حاكم الكون ومالكه. إن أي تعليل أو تبرير لن يكون مقبولاً عند الذين تعرضوا للأذى إذا لم يشهدوا بعضاً من مظاهر الإعجاز للوصول إلى الطمأنينة التي تدفعهم للثبات، ولا بد أن الصحابة الذين تعرضوا للعذاب قد شاهدوا شيئاً من المعجزات حتى استطاعوا أن يتحملوا ما تحملوه. في وصف لعذاب

عمار بن ياسر قال عمرو بن الحكم "كان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول". وقال عمرو بن ميمون: "أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به ويمر يده على رأسه ويقول: يانار كوني برداً وسلاماً على (عمار)، كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم" (١٢). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يزور آل ياسر، فقال له عمار ذات مرة: "يا رسول الله لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ". فكان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة".

وكما مر معنا لأبد أن يتساءل الإنسان العادي بعقله المضطرب أمام جحيم العذاب لماذا الانتظار إلى الجنة، إلى عالم الغيب المجهول. لماذا لا يعاقب الله معذب آل ياسر فوراً أو يميته. لماذا لا يدافع عن الذين آمنوا. ولابد أن تتعرض النفس البشرية لشتى الهواجس في مثل هذا الموقف، كلما بلغ العذاب والظلم مداهما. ومع ذلك فقد صبر آل ياسر راضين بالإيمان والعذاب، فما هو سر هذا الصبر والرضى؟ في حديث الذكريات يقص عمار بن ياسر أنواع العذاب التي تعرض لها من الكي بالنار إلى إغراقه بالماء، ويتذكر أن الضعف أصابه ذات يوم وهم يأمرونه بأن يذكر ألتهم بخير، فقال لهم ما أرادوا ليرتاح قليلاً من هول العذاب. إلا أنه ندم أشد الندم وجلس يبكي بعد أن تركوه. وحين لقي الرسول صلى الله عليه وسلم كانت دموعه تتساب على خديه وأراد أن يتكلم لتوضيح ما تعرض له، وما نطق به. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يمسح الدموع عن عينيه بيده وهو يخبره عما حدث معه "أخذك الكفار فغطوك في الماء، فقلت: كذا.. وكذا - نفس الكلمات التي نطق بها عمار، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كان حاضراً معه - أجاب عمار وهو ينتحب: نعم يا رسول الله. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم: إن عادوا، فقل لهم مثل قولك هذا.. ثم تلا عليه الآية الكريمة (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).". وفرح عمار بنجاته من الذنب الذي نغص عليه حياته. كما تأكد عمار بأن إطلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على عذابه وكلامه لا يمكن أن يتم إلا بإطلاع الله له. ولهذا كان يقينه يزداد بالإشارات المعجزة التي سمعها وتذوق معناها.

في موقف آخر أعلن خباب بن الأريث إسلامه على ملأ من قريش بدون اضطرار لذلك. كان ذلك النور قد أذهله فلم يعد يطيق الصمت. وكان خباب عبداً لأم أنمار وصانعاً للسيوف. فطلب أعداء الإسلام من أم أنمار أن تساعدهم لرده عن الإسلام بالإرهاب المتبع. وأفقت أم أنمار وأتت بالجلادين وبدؤوا تجربة

العذاب معه "جعلوا يلصقون ظهره العاري بالرضف -الحجارة المحماة- حتى ذهب لحمه". لقد استخدموا كل فنون التعذيب، الحديد والحجارة والماء والصحراء دونما فائدة. ولكن خباباً كان يتألم وهو يتعرض لألوان العذاب التي لا تطاق. وكان من حقه أن يشكو لعل الرسول صلى الله عليه وسلم ينقذه مما يتعرض له بدعاء أو نصيحة. فذهب كما يروي خباب مع عدد من المعذبين أمثاله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببرد له في ظل الكعبة، فقلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ فجلس صلى الله عليه وسلم وقد احمر وجهه وقال: قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من (صنعاء) إلى (حضر موت) لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون" (١٣). -عليكم بالصبر- هذا هو مغزى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن إلى متى، وأي خيال سيتصور بأن الإسلام المطارد في مكة سينتشر منها إلى صنعاء وحضر موت وهم يطلبون رفع العذاب عنهم فيقال لهم اصبروا. أي حيرة ستصيب الإنسان في مثل هذا الموقف، وأي إيمان سينقذه إن لم يشاهد إشارة ما تعينه على الثبات؟. لقد مر الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً وشاهد خباباً وهو يعذب بوضع الحديد المحمي فوق رأسه، فرفع يديه إلى السماء وقال "اللهم أنصر خباباً" (١٤). وبعد أيام قليلة أصيبت أم أنمار بمرض عصبي غريب في رأسها جعلها تعوي مثل الكلاب كما يذكر المؤرخون، فجأؤها بالأطباء إلا أن أدويتهم عجزت عن شفائها. فاقترحوا لها كي رأسها بالحديد المحمي، وهذا كان علاجها الذي لم يشفها حتى ماتت. أمور غريبة في نظر العقل، ومصادفات ليس لها أي تفسير. إذ ما العلاقة بين كي خباب بالنار ومرض أم أنمار؟ وقصص النبوة من هذا النوع لا تخضع لمنطق وقوانين العقل الظاهر، بل لقوانين مكنونة في العقل الباطن مستمدة من العقل الكلي التي تقول بأن -الله معكم أينما كنتم، وبأنه أقرب إليكم من حبل الوريد- وبأن [من يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] (١٥). وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو بغى جبل على جبل لُدك الباغي منهما" (١٦). هذا هو القانون الإلهي الشامل للكون. ميزان يقيس الأعمال بالذرة ويحاسب عليها. وهذا الميزان يجهله كل ظالم كما جهلته أم أنمار. فالعقل يفهم العدالة ومنطقها. ولكن، لا يفهم كل عقل العلاقة بين الظالم والمظلوم. لا يفهم هذه العلاقة إلا عقل الإيمان المشاهد للعدالة الإلهية السارية في الكون. ولو شاهد

كل ظالم حقيقة العدالة ولغة القصاص الإلهي لما أقدم إنسان على الظلم. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما آذاه سفهاء أهل الطائف بضربه بالحجارة ومطاردته في طرقاتهم وهو يدعوهم إلى الله، وقد أوى إلى بستان يحتمي بحائطه من الحجارة الموجهة إليه، قال: "اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون". وراح يطلب من الله العون والتأييد مثله مثل بقية الصحابة الذين كانوا يعذبون فقال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟... إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى.. ولا حول ولا قوة إلا بك" (١٧). كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم حقيقة كل كلمة نطق بها. وكان يعلم أن الامتحان سيصيب كل مؤمن بالنفس والأهل والولد والمال. وإشارات القرآن ليس فيها أي لبس. وهو القائل لخباب "ولكنكم تعجلون". لم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم على قومه بل دعا لهم بالهداية وقال "لعل في أصلابهم من يأتي ويوحده الله". والقرآن يبشر وينذر [أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون] ١٨ - "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" (١٩). لو كان الإسلام للدنيا والريح بدون جهاد فإن أول من سيؤيده محبو الدنيا وعشاقها، ولكن الإسلام حتى في الدولة المسلمة حين لا يوجد عذاب ولا اضطهاد ولا خوف، طالب المسلم بالزهد والاستقامة والصدق، بمشاهدة أوامر الله وتطبيقها حتى يثاب على جهاده بأن يكون لبنة صالحة في بناء المجتمع، وفي المسيرة الكونية للوجود. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم يصف نفسه وموقعه في هذه المسيرة بالنسبة للأنبياء والرسول الذين سبقوه بكل تواضع: "مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنين ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة! فأنا في النبيين تلك اللبنة" (٢٠).

كانت الامتحانات تتوالى والصحابة يشهدون معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم المتتالية في البلاغة، في الحكمة، في معرفة السرائر، في تكثير الطعام والشراب عند الأزمات. في كرم الرسول صلى الله عليه وسلم وإنفاقه إنفاق من لا يخشى الفقر، في زهده ونقشفه، في الطب وتطبيب ما يعجز عنه الطب حتى الآن ووصف أدوية لأمراض اكتشفها الطب حديثاً وتأكد من صحتها. معجزات تحدثت

عنها كتب التاريخ، ومعجزات بقيت أشار إليها القرآن، ومعجزات أشارت إليها الأحاديث، ومعجزات مضت وانتهت، وكرامات مستمرة ما زالت تتوالى وتظهر على أيدي الصالحين، وكأن النبوة باقية في الإسلام وإن مضى صاحب الرسالة المحمدية. كان المشركون يخافون من الاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويحذرون أتباعهم من سحر كلامه. وكانوا يعرفون الكهانة والعرافة والسحر، إلا أنهم كانوا يشهدون سحراً من نوع لم يألوه. وكان جهلهم وكبرياءهم ومصالحهم تمنعهم من الانصياع لأمر الحق. ولهذا حذروا الطفيل بن عمرو الدوسي الشاعر حين جاء لزيارة أصدقاء له في مكة من الاستماع للرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا له: "إنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته. وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئاً" (٢١). ما هذا الكلام المعجز الذي يؤثر إلى هذا الحد، وهم أهل الذوق والبلاغة، ومسابقات الشعر والمعلقات، وفنون الكلام. وهل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم غير نوع من أنواع كلامهم المنسوج من حروف لغتهم؟ لقد اختلفت موازين بلاغتهم أمام كلام القرآن وقال الوليد بن المغيرة وهو يتشاور مع زعماء مكة للاتفاق على رأي موحد لمواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم أمام القبائل القادمة للحج. فقالوا: "نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: نقول: مجنون. قال: ما هو مجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر.. هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته" (٢٢). لقد حيرهم الرسول صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام فماذا يقولون وقد ضاقت بهم الحيل، وسدت أمامهم الدروب. لقد حفظوا كلام الوليد وراحوا يرددونه أمام كل قادم وزائر، كما فعلوا مع الطفيل. مما اضطر الطفيل خوفاً على نفسه إلى سد أذنيه كي لا يسمع شيئاً من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال "فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى خشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمع.. فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة.. فقمتم منه قريباً فأبى الله إلا أن

يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً. فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إنني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.. فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: يا محمد: إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، ولذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك... ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك. فعرض الرسول علي الإسلام، وتلا علي القرآن.. فلا والله، ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.. فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت يا نبي الله، إنني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال عليه السلام: اللهم اجعل له آية (٢٣). لقد حدث السحر وأثر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم. وعاد الطفيل إلى موطن قبيلته دوس يدعوهم إلى الإسلام. فأسلم أبوه وأمه وزوجته، وأبو هريرة. ولكن بقية العشيرة لم تقبل الإسلام. وضاق الطفيل من رفض عشيرته للإسلام. فعاد إلى مكة ولقي الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليه وضعه وغضبه من العشيرة وقال له "يا نبي الله... إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم" وكانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الجديدة أنه دعا لهم بدلاً من الدعاء عليهم كما طلب الطفيل فقَالَ: "اللهم

اهد دوساً". ثم التفت إلى الطفيل وقال له: "ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم" (٢٤). لقد شاهد الطفيل بعض سعة ورحمة هذا القلب الكبير فعاد لقومه وقد فاض من رحمة قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الرحمة إلى قلب الطفيل الذي امتلأ غضباً على عشيرته. فأخذ يدعوهم بالحسنى إلى الإسلام، وبدأ الإسلام بالانتشار بينهم، ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت العشيرة قد أسلمت. وجاء الطفيل إلى -خيبر- أثناء فتحها من المسلمين، ومعه ثمانون أسرة من دوس أقبلوا مهللين مكبرين وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام. فأبي سحر كان في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم أو دعائه. كان إيمان الطفيل يتصاعد كلما شهد الآيات والإعجاز فملك الإيمان عليه جوارحه.. وكان يتمنى أن يعطي ما بقي من حياته لهذا الدين. وجاءت الفرصة حين تهيأ المسلمون لقتال مسيلمة الكذاب فذهب الطفيل ومعه ابنه عمرو للقتال. وفي موقعة اليمامة قاتل قتال الشهادة وفاز بها ليكون قدوة لابنه، الذي تبعه في فداء الإسلام بحياته التي يملكها، ولكن في موقعة اليرموك بالشام.

رسول الحب

في ظروف مختلفة سنكتشف إعجازاً من نوع آخر. وما أكثر إشارات النبوة ومعجزاتها. سيتعرض خبيب بن عدي إلى الاختيار بين القتل أو الردة، وهو أنصاري من أوس المدينة. كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسله في مهمة ومعه عشرة رجال بقيادة عاصم بن ثابت الأنصاري لاستطلاع تحركات قريش في مكة بعد غزوة بدر. إلا أن السرية اكتشفت من قبل حي من (هُذَيْل) يقال لهم (بنو حيان). فحاصروهم بمائة فارس ووعدوهم بالأمان إذا ما استسلموا. إلا أن عاصم قال: "والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً.. اللهم أخبر عنا نبيك" (١). وبدأ القتال بينهم فاستشهد عاصم وسبعة آخرون. واستسلم زيد بن الدثنة وخبيب بعد أن أعطوهم الأمان. ولكن بنو حيان قاموا بعرض زيد وخبيب للبيع في مكة. وكان خبيب قد قتل في موقعة بدر الحارث بن عامر بن نوفل. ولهذا سارع بنو الحارث إلى شراء خبيب للانتقام منه، كما تنافس آخرون على شراء زيد بن الدثنة. وبدأت عملية تعذيب خبيب بكل ما تملكه مشاعر الجاهلية من حقد وتشف ورجبة في الثأر. أي مؤمن يستطيع أن يمارس التعذيب الفظيع الذي كانت تلجأ إليه قوى الشرك والضلال في كل العصور. لقد شاهدنا أسرى الجاهلية لدى المسلمين وكيف عوملوا مع أنهم اشتركوا في القتال وقتلوا من المسلمين. ولكن أين رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمة المسلمين من شراسة الشرك وبهيميته. كانت بهيميتهم تلهمهم التفنن في أساليب التعذيب حتى مات زيد بن الدثنة. وطلبوا من خبيب الكفر ووعدوه بالعفو عنه. ولكن خبيباً أبى وراحوا يجربون فنونهم أياماً وخبيب لا يتغير. وكان صموده أمام جلاديه معجزة لا يفقهون مغزاها. كل ما طلبوه منه أن ينطق بكلمات ترضيهم، لعله ينجو. ولكن خبيباً كان يعرف سر صموده وهم مندهشون ومتحIRON وياؤسون. وذات يوم انكشف لهم لغز أشد غموضاً وإدهاشاً لعقولهم. لقد دخلت ماوية، مولاة حجير بن أبي إهاب على خبيب وهو مربوط بأغلاله فأخذها العجب عندما شاهدت قطعاً كبيراً من العنب بين يديه قالت "كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لقطعاً من العنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل" (٢). فمن أين جاء العنب، وما فائدة تجويع خبيب. لقد طاش صواب المجرمين فأخذوه إلى مكان يسمى التتعيم لقتله. فاستأذنهم خبيب في الصلاة قبل موته. فسمحوا له، ولعلمهم كانوا يأملون بتراجعته، ولكنه بعد أن صلى قال لهم:

"والله، لولا أن تحسبوا أن بي جزءاً من الموت لازدت صلاة" ثم رفع يديه نحو السماء وقال "الهم أحصهم عدداً واقتلهم بديداً" وراح ينشد:
ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ببارك على أوصال شلو ممزع

لقد أخذه المشركون وربطوه على جذوع النخل على شكل صليب، وبدؤوا بوخزه بالرماح والسيوف ببطء شديد لإطالة عذابه، والمشركون بين منفرج وقاتل يشهدون في إحساس بهيمي الدم وهو يتفجر من شرايين المصلوب. وهنا خطر لأبي سفيان أن يقترب منه ويسأله: "أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى في أهلك". فانتفض خبيب وقال: "والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة" (٣) ما هذا الحب العجيب. "لقد ضرب أبو سفيان كفاً بكف قائلاً: والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً" (٤) كيف سيفهم البعيدون عن الإسلام سر التربية المحمدية. كيف سيفهمون سر فدائهم لقائدهم بالأرواح. كيف سيفهمون قول الله [لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم] (٥). كيف سيفهمون سر هذا التآلف والحب، كيف سيفهمون سر اندفاع أبي عبيدة بن الجراح ومزاحمته لأبي بكر الصديق لرفع حلقات الدرع عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إصابته في معركة أحد، مما أدى إلى سقوط أضرار أبي عبيدة حين رفع الحلقة الأولى، وسقوط أضراره في الطرف الثاني حين رفع الحلقة الثانية فأصبح أثرم، وكان فخره بما أصابه لا يعادله أي فخر رغم تواضعه وزهده.

في مناسبة غريبة قبل النبوة سيختار زيد بن حارثة الرسول صلى الله عليه وسلم على أبويه رغم فخر العرب بأنسابهم. وقصة زيد أنه أخذ طفلاً في إحدى الغارات وبيع في سوق عكاظ فاشترته قريب لخديجة رضي الله عنها وأهداه لها. وحين تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهبته زيداً ليكون خادماً فقبله وأعتقه. وراح يربيته تربية الابن. وكان والد زيد يبحث عن ابنه حتى علم أنه في مكة، ف جاء إليها مع أخيه، وزار الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فقال له: "يا ابن عبد المطلب.. يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم، تفكون العاني، وتطمعون الأسير.. جئناك في ولدنا، فامنن علينا وأحسن في فدائه" فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم "ادعوا زيداً وخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء.. وإن اختارني

فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء" فقال حارثة بعد أن لمس كل هذا الكرم "لقد أنصفتنا وزدتنا على النصف". فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم وراء زيد وحينما وصل سأله "هل تعرف هؤلاء". فقال زيد: نعم، هذا أبي وهذا عمي" فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار بينهما. فأجاب زيد "ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأب والعم". فجرت دمعة من عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بيد زيد إلى فناء الكعبة حيث قريش مجتمعة ونادى "اشهدوا إن زيدا ابني.. يرثني وأرثه"(٦) فعاد الأب والعم فرحين مطمئنين ببنة ابنهما من سليل بني هاشم. ولكن شاءت الظروف أن يتعرض حب زيد للامتحان مرة ثانية بعد الإسلام حيث كان زيد ثاني المسلمين إسلاماً في مكة وقيل أولهم. فقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم زوجة لزيد قريته زينب. وقال مبرراً هذا الزواج "إنما زوجت مولاي زيد بن حارثة زينب بنت جحش وزوجت المقداد ضباعة بنت الزبير لتعلموا أن أكرمكم عند الله أحسنكم إسلاماً"(٧). ومن الواضح أن زينب قد وافقت على هذا الزواج طاعة للرسول صلى الله عليه وسلم. إلا أنها حين عاشت مع زيد بدأت المشاكل والخلافات تتتاب حياتهما حتى وصلا إلى الطلاق. فقام الرسول صلى الله عليه وسلم بضم زينب إليه لأسباب عديدة منها مسؤوليته الأدبية نحوها، وزواجها امتثالاً لأمره بالرضى بما اختاره لها. واختار لزيد زوجة جديدة هي أم كلثوم بنت عقبة. وبدأت الأقاويل والشائعات تسعى للنيل من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن زيد. وجاء القرآن موضعاً للمسألة في كل أبعادها في سورة الأحزاب [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً](٨). وقيل بأنها نزلت في عبد الله وأخته زينب لكرهتهما الزواج من زيد. وجاءت الآية التي تليها مفسرة للوضع الذي نشأ بعد الزواج حيث كره زيد كما كرهت زينب استمرار الزواج. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متردداً في الموافقة على الطلاق وفي زواجه لزينب بعد طلاقها. وربما كان تردده بسبب حبه لزيد وتبنيه إياه. فجاء القرآن ليحكم بأمر الله لا بأمر الناس، ولتصحيح ما كان شائعاً في التبنّي من إلغاء نسب المتبنّي مما يؤدي إلى اختلاط غير صحيح في الأنساب وربما إلى وقوع حوادث مخالفة للشريعة في قضايا الزواج والإرث، فقال الله: [وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في

أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمراً لله مفعولاً] (٩). ثم جاءت الآية لتوضح موقع النبي من الصحابة [ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً] (١٠). لقد أزال القرآن كل التباس في هذه القضية التي دارت حولها الشائعات دون مبرر. وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها وقد أدركت حرج الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية "لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتّم هذه الآية" (١١).

ولكننا في بحثنا هذا عن إخلاص زيد وحبّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنجد زيداً كما عرفناه لا يختار إلا باختيار الرسول له حيث سيتزوج المرأة التي اختارها له مرة ثانية. وسيعطي زيد للرسول وللإسلام ليس مشاعره فقط وحبّه بل روحه أيضاً حيث سيستشهد في معركة مؤتة مع الروم مع جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة الذين اختارهم للقيادة حسب تسلسلهم فاستشهدوا جميعاً حتى عاد خالد بن الوليد بالجيش منسحباً. وكما قالت السيدة عائشة عن زيد "ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم" صلى الله عليه وسلم. وفي موقف آخر سيكشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن حبه لأسامة بن زيد حين كلفه بقيادة جيش وهو لم يتجاوز العشرين ليلاً حدود الروم وفيه كبار الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر. فتهاشم البعض مشككين بقدرة أسامة مع صغر سنه. فصعد الرسول صلى الله عليه وسلم المنبر حين بلغه بعض الأقوال وخطب في المسلمين فقال "إن أناساً منكم قد طعنوا في تأمير أسامة وإنما طعنوا في تأمير أسامة كما طعنوا في تأمير أبيه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان من أحب الناس إلي، وإن ابنه من أحب الناس إلي من بعده، وإنني لأرجو أن يكون من صالحكم فاستوصوا به خيراً" (١٣). ومرض الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان أسامة يعد العدة لتهيئة الجيش للتحرك. وتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يوصيهم "أنفذوا بعث أسامة" وحين تولى أبو بكر الخلافة نفذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واستأذن أسامة في إبقاء عمر بن الخطاب معه للاستعانة به في إدارة شؤون الخلافة. وفي موقف آخر سيكشف عمر بن الخطاب عن حبه لأسامة طاعة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم حين قام عمر رضي الله عنه بتقسيم أموال بيت المال على المسلمين تبعاً لفضلهم وأسبقيتهم بالإسلام "ففرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف وفرض لعبد الله بن عمر (ابنه) ثلاثة آلاف. فقال: يا أبت لم

زدته علي ألفاً. ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وما كان له ما لم يكن لي. فقال: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فأثرت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حبي" (١٤). هذا قليل من كثير من وفاء الصحابة، ليس فقط للإسلام ورسوله، بل لما أحبه الرسول في حياته وبعد وفاته. وهذا الحب لا يمكن أن تحيط به العقول إلا بكمال الإيمان. وكمال الإيمان لا يتحقق إلا بحب الخير للناس، وحب الأفضل فيهم وفدائه بالروح. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله. قال عمر: والله لأنت أحب إلي من نفسي وأهلي" (١٥). من يستطيع أن يحب أحداً أكثر من نفسه، وأن يفدي أحداً بروحه غير أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم. إنه لأمر غريب لمن لا يعرف الحقيقة. حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة. ولكن من يعرف لا يقول إلا كما قال خبيب وهو يقتل مصلوباً "والله ما أحب أني في أهلي وولدي ومعني عافية الدنيا كلها ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة". والأغرب من هذا وذاك أن بعض الصحابة الذين لم يطيقوا فراق الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقاتلون في حروبهم الشرك رغبة بالشهادة، رغم إقبال الدنيا عليهم بعد الفتوحات. وهم يقولون "غداً ألقى الأحبة، غداً ألقى محمداً وصحبه". ومنهم من قاتل لينال الشهادة تكفيراً عن مقاومته للإسلام قبل الهداية. من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل الذي عاهد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه فقال: "إنني أكثر قريش مالاً -و- كل نفقة أنفقها لأصد بها عن سبيل الله فوالله لئن طالت بي حياة لأضاعفن ذلك كله في سبيل الله" (١٦). ولكن عكرمة لم يكتف بالإنفاق. وكان الفارس الذي نادى بالمسلمين من يبايعني على الشهادة يوم معركة اليرموك مع الروم بعد أن تراجع المسلمون في الهجوم الأول "فقال له خالد بن الوليد لا تفعل فإن قتلك على المسلمين شديد، فقال: خل عني يا خالد! فإنه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة، وإني وأبي كنا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمشى حتى قتل" (١٧). واستشهد معه ابنه. كان إيمانه بالإسلام، وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه كل حب للحياة، فكأنما كان يريد أن يعتذر، وأن يلقي الرسول صلى الله عليه وسلم بثياب الشهداء بعد أن أخره التزامه بأمر أبيه عن الإسلام.

في موقف من المواقف تعرض المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم عند الكعبة يهددونه فتدخل أبو بكر رضي الله عنه فوثبوا عليه وضربوه بشدة، حتى ظنوا أنه مات. فحملوه في ثوب إلى بيته، ولما أفاق حاولت أمه أن تطعمه، فقال:

"إن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله" (١٨). وذهب مستنداً على أمه وأم جميل بنت الخطاب حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم واطمأن عليه.

إن الأحوال النفسية لرجال أي قائد لا تتكشف إلا في الملمات، لأن الشدائد هي محك صدق الرجال، ومحك إخلاصهم. فأبي وفاء سيبلغ هذا الوفاء ونحن نشاهد ما نشاهد من فداء للرسول صلى الله عليه وسلم بالأموال والأرواح. في معركة بدر سيتجلى حب الصحابة للرسول بصورة أوضح. فقد كان يستشير قادة المهاجرين والأنصار في الإقدام على حرب المشركين رغم عدم التكافؤ. إذ كان المسلمون ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً بينما كان المشركون حوالي ألف مقاتل. فقال له سعد بن معاذ أحد قادة الأنصار "إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاطعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، وإقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله: لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك" (١٩). ولما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قرار الحرب، ونظم مواقع المسلمين، جاء سعد خائفاً على الرسول صلى الله عليه وسلم من التعرض للأذى فقال: "يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن أشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنحك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك" (٢٠). فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم وبني له عريش ليقود المعركة، وما هو بأحرص على نفسه من نفوسهم. ولكنها مسؤولية القيادة، ورغبة المسلمين، وحرصهم على فدائه بأرواحهم. فقد كان قائداً ليس كالقواد في التاريخ. كانت نبوة العدل والإيثار والعطاء. وهل تحقق هذا الحب بدون تربية وتأثير من أخلاق النبي وعشرته وحنوه عليهم. وقف الرسول صلى الله عليه وسلم يسوي صفوف جيشه استعداداً للمعركة. وكان سواد بن غزية خارجاً من الصف، فطعن الرسول صلى الله عليه وسلم بطنه بقدح كان في يده وقال له "استو يا سواد" فقال سواد يا رسول الله أوجعتني فأقطني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد. فاعتقه سواد وقبل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك" (٢١). ربما كان سواد ينتظر الشهادة، وينتظر معها رضى رسول الله صلى

الله عليه وسلم. وهو رجل من عامة المسلمين، لا ينتظر مركزاً ولا كسباً. ولكن هل بالإمكان كبت عواطف المحبين.

في موقف أكثر حساسية سيتعرض موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي للامتحان، بعد أن شاهد ما شاهد من نفاق أبيه. وكان الابن رجلاً صالحاً، وقد سمع بقول أبيه الذي أكده القرآن [ليخرجن الأعرز منها الأذل] (٢٢). فخشي عبد الله أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل أبيه. فجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له "يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله يمشي في الناس، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل نترفق به ونحسن صحبته" (٢٣). ولكن الابن لم يكتف بسماحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفوه. فوقف على باب المدينة ومعه سيفه بانتظار أبيه. ولما دخلها قال له "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل" (٢٤). فأتيا النبي حتى أذن له فتركه ابنه. إننا بين هذه المشاهد التي لا نريد أن نطيل في عرضها ولهذا نختصر روايتها بقدر المستطاع، نريد أن يبحث الباحثون في علم النفس، وأسرار القيادة عن سر هذا الحب الذي لم يصل إليه أي إنسان خلال التاريخ.

سنعرض لروايتين من روايات المشركين عما رأوه وشاهدوه. الأولى لعروة بن مسعود الثقفي. فقد أرسله قومه قبل صلح الحديبية لاستطلاع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه فعاد إليهم بعد أن قابل الرسول صلى الله عليه وسلم ورأى حب أصحابه له، بل تقدسهم له بطريقة لم يشهد مثلها، ولم يسمع عنها. فعاد ونصحهم بالصلح قائلاً لهم: "أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي. والله! ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً. والله! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده. وما يمدون إليه النظر تعظيماً له. وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها" (٢٥).

بعد صلح الحديبية ونقضه من المشركين في العام الثامن للهجرة، باعتماد بني بكر على بني خزاعة ليلاً، حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم. جاء أبو

سفيان إلى المدينة بهدف تثبيت صلح الحديبية مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتمديده، ودخل في المدينة على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه. فقال: يا بنية: ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج" (٢٦). أي شر هذا الذي رآه أبو سفيان. ولكن هل يستطيع غير المؤمن أن يفقه سر هذا الإيمان ومعناه.

في حادث غريب سيلتقي فروة بن عمر الجذامي ببعض المسلمين الذين قاتلوا في معركة مؤتة. ثلاثة آلاف في مواجهة مئتي ألف. وكان فروة قائداً رومانياً من العرب يسكن في معان فأسلم وبعث للرسول صلى الله عليه وسلم رسولاً ليخبره بإسلامه ومعه بغلة بيضاء هدية. ولما "علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختر الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه" (٢٧). هذا الرجل رأى من رأى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولم يتح له أن يعرف عن الإسلام إلا ما سمعه من الصحابة الذين اجتمع بهم. فعرضه إيمانه لامتحان الموت أو الردة. فرضي بالموت في سبيل هذا الإيمان.

في معركة أحد لا يمكن أن نعدد مواقف الرجال والنساء، سواء في دفاعهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو في قتالهم ضد عدوهم المتفوق عدداً وعدة. ولكننا سنشير إلى حادثة واحدة بعد عودة المسلمين إلى المدينة ووصول أخبار الشهداء. فقد روى سعد بن أبي وقاص قال: "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دینار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو الحمد لله كما تحبين، قالت: كل مصيبة بعدك جليل! تريد صغيرة" (٢٨). فأى موقع كان للرسول صلى الله عليه وسلم في نفس هذه المرأة التي لم يشغلها استشهاد ذويها الثلاثة عن الاطمئنان على الرسول صلى الله عليه وسلم، والسعادة بعودته سالماً. هل يصلح أي كلام بلاغي لوصف حال هذه المرأة المؤمنة. فماذا بقي لها إذا ذهب الأب والأخ والعشير؟ لا شك أنها كانت راضية بقضاء الله، وقد بقي لها الله ورسوله.

لقد استعرضنا بعض الحوادث التي تدل على مكانة الرسول صلى الله عليه

وسلم في نفوس أصحابه والذين عرفوه قبل البعثة وبعدها. فقبل البعثة كان يلقب بالأمين بين قومه، وكان الحكيم عندما عجز كل سادات أهل مكة عن الاتفاق على وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة عندما قاموا بإصلاحها، وكادوا يتقاتلون على هذا الشرف، لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يتلأأ عندما عرضوا عليه أسباب خلافهم عن إيجاد حل، ببديهة نادرة وحكمة مرضية للجميع. ومثل هذا الموقف وحده كان يؤهله لزعامتهم، كما كان يكشف عن سجايه وحكمته. وإذا أضفنا إلى هذه المؤهلات أمانته، وكرمه، ورحمته بالناس، مما دفع زيد بن حارثة إلى تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على أمه وأبيه عندما جاء أبوه ليسترده. كل هذه الإشارات تنبئ عن طبيعة الإنسان الذين سيوزن بالأمة فيرجح عليها. فالرسول صلى الله عليه وسلم صنع تاريخاً، وغير مجرى التاريخ بما امتلکه من المؤهلات التي حباه الله بها. وجاء القرآن يشهد له **[لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك] (٢٩)**. **[وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] (٣٠)**. فكان من رحمته بالخلق أن يعطي ليغني الناس بينما كان أهله وابنته وأصحابه المقربين يفتقرون إلى الطعام "فيكلهم إلى إسلامهم" وإيمانهم كما قال للأنصار. فقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تنشأ من فراغ، ولم يعط الله النبوة بدون مؤهلات لمن أعطى. فلو استعرضنا حياة الأنبياء كلهم لن نجد عندهم إلا الورع والتقوى والإيثار، وبهذه الصفات والأخلاق صاروا قادة للبشرية وقدوة لها. فانحنت العقول الطبيعية لإرشادهم، وحلقت أرواح العلماء إلى عوالم النور بقدر أخذهم من علومهم. بينما حاربهم أصحاب النفوس المتكبرة والمتجبرة بالسلف والغرور فقصموا وخسروا ولو بعد حين مع من تبعهم. وقد قال الله في حديث "العز إزاري، والكبرياء رداي، فمن نازعني فيما عذبتة" (٣١). لقد كان أبو سفيان وأبو جهل والمطعم بن عدي والمغيرة بن شعبة وهم من كبراء قريش وزعمائها يتساءلون كيف ستنزل رسالة السماء على من هو دونهم في المال والعمر والزعامة، لا الجاه. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من حيث النسب من أبناء السادة المعروفين بالكرم والأخلاق الفاضلة، ولهذا ظن أبو جهل أن النبوة تدخل في سباق قريش مع بني هاشم. فقال جواباً لسؤال الأحنس بن شريق عن رأيه فيما سمعه من الرسول "ماذا سمعت. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه. والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه" (٣٢). وهذا هو حال المنافق عبد الله بن أبي الذي كان يكيّد المكائد

للإسلام وللرسول خاصة بسبب غروره كما فسره أسيد بن حضير الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم في توضيح حالته: "يا رسول الله، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً" (٣٣). والجهل والصلف والغرور هو الذي دفع زعماء مكة والمدينة للمقاومة، كما فعل فرعون حينما جاءه موسى بدعوته إلى الله فقال أنا ربكم الأعلى.

لقد نجح الإسلام وسقط الفراعنة، كما رأينا، وظل حب بعضهم للظهور لا يفارق مخيلتهم. ولهذا قال العباس للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء فتح مكة "إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" (٣٤). كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف بالرحمة حرصاً على الناس وعلى دماء من سيكونون سناً للإسلام. ولهذا عزل سعد بن عباد عن قيادة المجموعة التي كلفه بها أثناء الإعداد لدخول مكة حينما قيل له إن سعداً يقول "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة" (٣٥). وحين فتحت مكة للرسول صلى الله عليه وسلم طاف حول الكعبة قائلاً: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده" (٣٦). في هذه المناسبة كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة ودخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها وطرحها لتطهير البيت من كل أثر للشرك. فقام إليه العباس أو علي رضي الله عنهما في بعض الروايات فقال "يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان. اليوم يوم بر ووفاء" (٣٧). هذه هي أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم التي غيرت الرجال، وغيرت التاريخ، فارتفعت أصوات الرحمة والعدل في كل مكان دخله الإسلام بالتكبير خمس مرات في اليوم "الله أكبر" ليفهم الناس أن الملك كله لله، وليتذكروا ويفهموا أن عبوديتهم للمثل العليا بشكل لم يكن له مثل في التاريخ. فبدأ الله خلق الإنسان بالكلمة، وختمه بدعوة الكلمة، بدأه بالعقل، وختمه بالعقل، عندما اكتمل فيض النبوات وأشرق في ذروة العقول وقمتها محمد صلى الله عليه وسلم، وكان إلى جواره العرب الذين نصره وأذروه بشكل لم يسبقهم إليه أحد من أمم الأنبياء أو أصحابهم. ومن هذا الباب قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي" (٣٨). وقال "حب العرب من الإيمان وبغضهم كفر" (٣٩) وقال "خير الناس قرني ثم الثاني ثم الثالث ثم يجيء قوم لا خير فيهم" (٤٠). وليس كل القوم، والحديث يشير إلى زيادة الفساد مع الأيام.

لقد خذل اليهود موسى عليه السلام في عدة مواقف، كما خذلوا الأنبياء من بعده وقتلوا فريقاً منهم. كما لاحقوا المسيح عليه السلام وقتلوه، ولم يدافع تلاميذه عنه كما فعل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هاجروا معه وقتلوا معه وأحيوه أكثر من أنفسهم، وإن كان ما حدث بتوفيق من الله، فالله أعلم حيث يضع رسالته، ويختتم نبوته، بالمؤهلين من عبادة وتوفيقه. ولهذا رأينا وما زلنا نرى تأمر العالم الكاره للإسلام على المسلمين عامة والعرب خاصة، لأنهم هم عماد الإسلام ورأسه. ولهذا أخطأ من كره العرب من المسلمين ونسي بأنهم هم الذين حملوا رسالة الإسلام والتقوى إلى العالم ليتبين فضلهم بين أبناء آدم "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" فهم وإن قاتلوا واختلفوا وبغى بعضهم على بعض، فقد دافعوا بأرواحهم وأبنائهم عن طريق الحق، قبل أن يأتي المتأملون والمتفلسفون والمنظرون لتفتيت عرى الإسلام بالفتن والتحامل على العرب. إننا لا نتكلم من أية مواقع عنصرية. فالعربية هي لسان، ولكن العربي يولد ومعه إسلامه، وإن ضل من ضل، ويولد ونداء "الله أكبر" يرتفع في سمائه، وتراث الإسلام كله بين يديه. يتنفس منه، ويتزود منه، ويشم رائحة تاريخه ووجوده منه. فالعرب لضرورة لا يستطيعون إلا أن يرجعوا لإسلامهم ودينهم وإن ضلوا في بعض الأوقات أفراداً وجماعات. سماؤهم تناديهم، وتاريخهم يناديهم، وحتى مصيرهم الذي كتبه أجدادهم بدمائهم في ساحة الإسلام، وصراعات الإسلام، وجهاد الإسلام، واختلاف الإسلام، ووحدة الإسلام. وهم قوم كما قال عنهم بعض أعدائهم ولورنس منهم -إنهم لا يinquادون إلا لنبي- وإن بدوا منقادين. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم كشخص منهم. وهو الذي قال "سيد القوم خادمهم". وقام ليساعد أصحابه في تحضير طعامهم بجمع الحطب، فقالوا له: "نحن نكفيك". فقال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه" (٤١). وهو الذي قال لأصحابه حين هموا بضرب الأعرابي الذي كان يبول بالمسجد عن جهل "لا تقطعوا عليه بوله" فمنعهم ليس من ضربه فقط، بل من إيذائه بحصر بوله في مثانته. فقال الأعرابي وقد رأى ما رأى من رفق الرسول صلى الله عليه وسلم به "اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً". فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم "لقد ضيقت واسعاً يا أبا العرب". هذه هي الأخلاق التي بنى بها الرسول صلى الله عليه وسلم الأمة وقادها إلى عالم النور، لتكون بفضل هذا النور وبسببه (خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر).

لقد استعرضنا في هذا الفصل بعض الصور المعبرة عن الأحوال النفسية

لبعض الصحابة، التي تجلت في مظاهر الحب، وقدمنا بعض الشهادات لرجال قبل إسلامهم، لنتعرف من خلال هذه الصور على حقيقة النبوة، ومظاهرها وتأثيرها، لرجل لم تصنعه الأساطير، فهو إنما عاش بين قومه منذ الطفولة، فعرفوا عنه كل خطوة، وسجلوا له كل كلمة، ليناوئوه في حربهم الإعلامية، فما وجدوا ما يتهمونه به غير السحر. وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة وأربعة أيام. إذ ولد "في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعشرين من شهر نيسان إبريل سنة ٥٧١م. وتوفي في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ". ولهذا لم يرو الرواة عنه إلا ما شاهدوه وسمعوه منه، دون أي تأثير للأساطير التي تنشأ عادة من غموض حياة الإنسان، أو تأخر الرواة في تدوين تاريخه. لقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العامة معروفة، وحتى الخاص منها دون لفائدة التشريع. حتى إن بعض المشركين استغربوا بساطة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونزوله إلى الأسواق للتجارة في أول أمره. إن كل هذه الظروف التي عرضناها تتيح لدارسي التاريخ والباحثين في علوم النفس المنصفين، إدراك العوامل النفسية التي أسهمت في نجاح الرسول صلى الله عليه وسلم ونجاح رسالته. وفي فهم معنى اكتمال الرسالة التشريعية بالكلمة، وبالقوة لتحرير الناس من طغيان العبودية، لإظهار حقيقة خلافة الإنسان في الأرض، بعد أن تهيأ من تهيأ في هذا الزمن الذي استدار ليكون أفضل الأزمان بأفضل الناس الذين نصرروا الرسول صلى الله عليه وسلم وأيدوه، وتابعوا طريقه فحرروا الناس من تسلط الحكام، وتركوا لهم الحرية في اختيار عقيدتهم، وفرضوا الجزية بدلاً من ضربية الدم على غير المسلمين لئلا يجبروا غير المسلم على القتال عن عقيدة لا يؤمن بها. وهذا مالا تفعله الدول المعاصرة حتى الديمقراطية منها. مع أن بعضهم لسوء فهم أو سوء نية فسر موضوع الجزية تفسيراً مغايراً لحقيقته ومعناه. وإن خسارة العالم بانحطاط المسلمين لا تعادلها خسارة وخاصة بعد أن ارتفعت رايات المنافع والمصالح المادية، فذهبت القيم الروحية أدراج الرياح. وأصبحت مبررات قتل الأمم والشعوب وإقامة الدول وتحطيمها جزءاً لا يتجزأ من حسابات الجيوب، بل إنه المبرر الحقيقي لهذه الحسابات. وفي ظل هذه الحسابات لا يخسر الإنسان روحه فقط بل جيبه أيضاً. لقد قدمنا لوحة عن حب الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم في هذا القسم. ولكي تكتمل اللوحة لأبد لنا من تقديم الوجه الآخر لها، ببيان الأسباب التي جعلت المسلمين يحبون قائدهم صلى الله عليه وسلم كل هذا الحب. والوجه الآخر للوحة سنجد في حياته وحياة

أقرب الناس إليه بناته وزوجاته وأصحابه المقربين إليه. فهو القائد والقوة الذي كان بسبب من حكمته ورحمته في القيادة رحمة مهداة لكل الخلق من الله، كما كان الأنبياء والرسل من قبل رحمة مهداة للأممهم.

الرسول الشاهد

قبل أن تبلغ وسائل الاستطلاع والتصوير الجوي بواسطة الأقمار الصناعية مع وسائل الاتصال ما بلغت من الدقة والسرعة في متابعة الحوادث والحروب والتطورات في كل بقاع الأرض. كانت السرعة التي تلقى بها الرسول صلى الله عليه وسلم أخبار موقعة مؤتة تفوق كل هذه الإمكانيات. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتابع تطورات المعركة ويخبر بها أصحابه "عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث زيداً وجعفرأً وعبد الله بن رواحة فدفع الراية إلى زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله فأصيب، ثم أخذ الراية بعده سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فجعل يحدث الناس وعيانه تذرّفان" (١).

إن كل نبوة ستؤيدها المعجزة، وسيكون من نصيب عباد الله الصالحين الكرامة كما سنرى. كان المسيح عليه السلام يخبر الناس عما في بيوتهم من الطعام، ويعالج بعض الأمراض بدواء الإيمان. وقد وقف عمر بن الخطاب على المنبر في المدينة وكان يخطب بالناس في صلاة الجمعة فنادى "يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثاً. ثم أقبل على خطبته، فقال بعض الحاضرين: لقد جن، إنه لمجنون، فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً. بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: يا سارية الجبل، أي شيء هذا؟ قال: والله إنني ما ملكت ذلك. رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل، ليلحقوا بالجبل. فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا منادياً ينادي: يا سارية الجبل -مرتين، فلحقنا بالجبل، فلم نزل قاهرين لعدونا إلى أن هزمهم الله وقتلهم. فقال أولئك الذين طعنوا عليه: دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له" (٢).

كانت الآيات تتتابع أمام الصحابة، وكانوا يشهدون عن قرب معجزات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي قال: "إن الله تعالى زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أممي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكنزين

الأحمر والأبيض" (٣) أي الروم والفرس - وقال في حديث آخر: "إن الله تعالى قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه جليان من الله جلاه لنبيه كما جلاه للنبيين من قبله" (٤).

بهذه المعجزات كان يترسخ الإيمان في القلوب والمسلمون يشاهدون من الرسول صلى الله عليه وسلم ما تعجز عن إدراكه العقول غير المؤمنة. قيل لأبي بكر الصديق "هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء في هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.. فقال لهم أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك. فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه. فهذا أبعد مما تعجبون منه" (٥). ثم ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله عن خبر الإسراء فحدثه الرسول صلى الله عليه وسلم عنه. فقال له صدقت أشهد أنك رسول الله. فسماه الصديق. بهذا الإيمان واليقين وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه. ولكن هذا التسليم لم ينشأ إلا لأسباب. فإضافة إلى الخير الذي جاء به الإسلام للإنسانية من حيث العلاقة بين الإنسان وربّه كطريق للمعرفة والوصول إلى الخير الأسمى بالوصول إلى الجنة، والعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان التي تقوم على المساواة في الحقوق والواجبات والعدل والرحمة. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لديه من الوسائل والمعجزات إضافة للأفكار الخيرة، دواء شافياً لمداواة النفوس القلقة. ولهذا كان الناس يسلمون في آخر الأمر بنبوته وصحة رسالته مهما أحاطت بهم الشكوك لما يرونه من المعجزات. فقد جمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل معجزات من جاء قبله من الرسل والأنبياء لأنه جاء بكمال النبوة والرسالة، وانطوت في رسالة الإسلام كل رسالات الرسل. ولهذا كان جامعاً لعلومهم ومقاماتهم ومعجزاتهم. فقال "أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الأمور اختصاراً" (٦). ولا بد لبقاء الرسالة لمن يشكك في الخير الذي تنطوي عليه ويحبذ الربا على التجارة، والزنا على شريعة الزواج. والقوانين المدنية التي يسنها الناس على شرع الله. لا بد له من تأييد الله باستمرار المعجزة. ولهذا كان الإسلام طريقاً للترقي للوصول إلى المعجزة عن طريق التقرب إلى الله - ليسمع بسمع الله ويبصر به وينطق به ويبطش به بالحق - وإن غفل الغافلون عن سر طريق الإسلام وحقيقته. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه "متى ألقى أحبائي. فقال بعض الصحابة: أوليس نحن أحبائك؟ قال: أنتم أصحابي، ولكن أحبائي قوم لم يروني وآمنوا بي. أنا إليهم بالأشواق" (٧).

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف وعورة طريق الإسلام وصعوبته لمن سيأتي بعد وفاته، ولمن سيأتي في القرون التالية حيث سيبدأ التشكيك بأخبار النبوة وإلهاماتها. ولذلك سمي المؤمنون القادمين بالأحباب، لأنهم لم يشهدوا ما شهده الصحابة من المآثر والمعجزات. وإن كانت المعجزات باقية وظاهرة في كرامات النفوس المؤمنة إلى قيام الساعة. ولكن شهودها وإظهارها لا يشهد إلا لمن بحث عنها في غيره أو في نفسه. والباحثون عن هذا الطريق قلة نادرة. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "العلماء مصابيح الأرض، وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء" (ج ١٠/٢٨٦٧٧) والنبوة تعني التنبؤ وقد جاء في لسان العرب في مادة "نبا" "النبا الخبر. والجمع أنباء. قال الفراء: النبي هو من أنبا عن الله، فترك همزة. قال: وإن أخذ من النبوة والنباوة وهي الإرتفاع عن الأرض. أي أنه أشرف على سائر الخلق. وقال ابن الأثير: "الرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا" (٩) وقد قال الله "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (يوسف الآية ٢) أي إن آيات القرآن تفسرها لغة العرب وأساليبهم البلاغية والنحوية. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنه لم يبعث نبيا قط إلا كان في أمته من يحدث، وإن يكن في أمتي أحد فهو عمر. قيل: يا رسول الله كيف يحدث؟ قال: تتلكم الملائكة على لسانه" (١٠).

فالإلهام سار في أفئدة المؤمنين كما قلنا بمشيئة الله ووعدده لمن تقرب إليه بالنوافل التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحدث عليها، من صيام وقيام بالليل وزهد، وهي عبادات تقود للترقي في الإيمان وإن أنكرها المنكرون، كما أنكروا صدق رؤيا المؤمن، فأحالوا تفسير كل رؤيا إلى منطق الجنس لجهلهم بحقيقة الإنسان كما فعلت الفرويدية وأنصارها. وإن إخبارات الرسول صلى الله عليه وسلم بالحوادث أو الأخبار التي وقعت والتي ستقع كثيرة، ولهذا سنقتصر على رواية بعض هذه الأخبار "عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا. فقال أبو سفيان لهند: أترين هذا من الله؟ ثم أصبح فغدا أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلت لهند أترين هذا من الله؟ نعم هو من الله. فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به أبو سفيان ما سمع قولي هذا أحد من الناس إلا الله وهند" (١١). كان أبو سفيان عند فتح مكة قد جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ليطلب العفو والأمان لنفسه وغيره من أهل مكة. ولما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: "ويحك أبا سفيان ألم يئن لك أن تعلم أن

لا إله إلا الله. قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك قد كان يقع في نفسي أن لو كان مع الله إله آخر لقد أغنى شيئاً بعد. قال: يا أبا سفيان ألم يئنن لك أن تعلم أنني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، أما هذه فو الله إن في النفس منها شيئاً بعد" (١٢) لقد شهد أبو سفيان شهادة الإسلام ولكنه كما قال "في النفس منها شيئاً بعد". ولكن بعد أن اضطرت الظروف للاجتماع بالرسول صلى الله عليه وسلم بدأ يشاهد بنفسه بعض أسرار النبوة الغريبة عليه فصلاح إسلامه، وإن كان حب الزعامة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين فكيف بأبي سفيان، وقد انتزعت منه زعامته عنوة.

في حادثة مشابهة ولكن أكثر غرابة سيقوم عمير بن وهب الجمحي بالسفر إلى المدينة لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم غيلة بناء على اتفاق بينه وبين صفوان بن أمية. فقد جلس صفوان وعمير الذي كان يلقب بشيطان قريش يجتران أحقادهما على الإسلام بعد وقعة بدر. فقد كان ابن عمير أسيراً لدى المسلمين وكان والد صفوان قد لقي مصرعه في بدر. وكان صفوان وعمير أبناء عمومة "فقال صفوان وهو يذكر قتلى بدر! والله ما في العيش بعدهم خير..! وقال له عمير: صدقت، والله لولا دين علي لا أملك قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي عنده علة أعتل بها عليه: أقول قدمت من أجل ابني هذا الأسير. فاغتمها صفوان وقال: علي دينك أنا أفضيه عنك.. وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا.. فقال له عمير: إذن فاكتم شأنني وشأنك". وقام عمير فشحذ سيفه وسمه وانطلق إلى المدينة. وعند وصول عمير إلى المدينة صادفه عمر بن الخطاب وقد أناخ راحلته عند باب المسجد ومعه سيفه فقال عمر "هذا الكلب عدو الله عمير والله ما جاء إلا لشر. وذهب عمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أدخله علي! فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبه بها. وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار. ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ودخل به عمر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بحمالة سيفه في عنقه. فلما رآه الرسول قال: دعه يا عمر.. أدن يا عمير. فدنا عمير وقال: انعموا صباحاً وهي تحية الجاهلية. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة. فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال الرسول: فما

جاء بك يا عمير . قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم .. قال النبي : فما بال السيف في عنقك ؟ قال عمير : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : أصدقني يا عمير ، ما الذي جئت له . قال : ما جئت إلا لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت لولا دين عليّ ، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك . وعندئذ صاح عمير : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .. هذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فو الله ما أنباك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : فقهاوا أحاكم في الدين وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره " (١٣) وصار عمير داعياً متحمساً للإسلام بينما كان صفوان ينتظر خير اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم وإذا به يفاجأ بخبر إسلام عمير .

وعند فتح مكة كان عمير من جنود الإيمان الذين دخلوها مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتذكر عمير قريبه صفوان وحالة الضلال التي كانوا فيها ورق قلبه له حين علم بهربه من مكة ف جاء عمير إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : "يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد في قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو آمن . قال : يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك . فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل فيها مكة . فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فذاك أبي وأمي .. الله الله في نفسك أن تهلكها .. هذا أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئت بك به .. قال له صفوان : ويحك ، أغرب عني فلا تكلمني .. قال : أي صفوان .. فذاك أبي وأمي ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس .. عزه عزك ، وشرفه شرفك .. قال : إني أخاف على نفسي . قال : هو أحلم من ذاك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال صفوان للنبي : إن هذا يزعم أنك قد أمنتني قال الرسول صلى الله عليه وسلم : صدق . قال صفوان : فاجعلني فيه بالخيار شهرين . قال الرسول ص : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر " (١٤) ، وأسلم صفوان بعد ذلك راضياً بعد أن تبين له الرشد من الغي . وإذا تتبنا المحاولات التي جرت لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم أو قتله ونتائجها فإن أي عاقل سيدرك بأن الأعمار بيد الله لا تنتهي إلا بأجلها وأسبابها . وكان من قضاء الله أن يتم رسوله الرسالة ، كما كان من قضائه أن يصاب الرسول صلى

الله عليه وسلم في غزوة أحد بجرح في رأسه، وأن تصاب رباعيته. وكان من قضائه أن يذوق لقمة من فخذ الشاة المسمومة التي أرسلتها اليهودية، وأن لا يعلم بتسميمها إلا بعد أن مضغ اللقمة الأولى منها.

من يستطيع أن يحيط بعلم الله وأقداره. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر الله لئلا يظن به أصحابه وهم يرون منه المعجزات أنه يعلم كل علوم الغيب [قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي (١٥)]. وجاء في سورة الأعراف "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون" [١٦] وجاء في سورة هود [والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون] [١٧] وجاء القرآن بوصف الرسول صلى الله عليه وسلم لكي لا يتوهم أو يضل ضال عن طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم الإنسانية، كما ضل الذين بالغوا في تقديس أنبيائهم حتى خلعوا عنهم صفات البشرية. فقال الله [قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد] [١٨]. وقد تكرر هذا التأكيد والتنبيه للسامعين مرتين، في سورة فصلت، وآخر سورة الكهف، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعرف حقيقة نفسه وانتسابه كإنسان. فالرسل في أرفع مقاماتهم هم عبيد في منتهى العبودية لله يتصرفون بأمره ويعملون بوحيه ليس لهم من أنفسهم قوة للتصرف بها. والأولياء على هذا الطريق يسيرون ووصولهم بقدر عبوديتهم. فالعلم الذي نتحدث عنه حقيقة واقعية وليس من قبيل المصادفات كما يظن البعض. بل هو علم مستمد من مشكاة النبوة التي لم تنطفئ شعلتها منذ آدم عليه السلام حيث علمها لأولاده فعمل بها بعضهم، وتركها بعضهم. وكان الأنبياء يتتابعون، والرسالات تأتي حتى ختمت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي حمل إلى البشرية إضافة لقيم الإسلام، سر آدم وسجود الملائكة له، وعلوم الغيب المستمدة من العلم اللدني الذي يستطيع كل إنسان أن يتذوق حقائقه بالوصول إلى مقام الإحسان، أو شهوده عند من وصل إلى هذا المقام بدون تلبيس أو خروج عن دائرة الشريعة الإسلامية. لأن كل كرامة لا يؤيدها شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم هي عمى وتلبيس. ومن رفع ميزان الشريعة فهو كالشيطان الذي أبى أن يسجد لآدم ظاناً أنه يطيع الله بعدم سجوده لغيره. وقد جاء القرآن بالأمر الصريح بوجود طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والافتداء به فقال الله [ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه

فانتهاها][١٩].

ومقام الإحسان مثل كل مقام لا يتساوى فيه الواصلون وإن وصلوا. ولهذا جاء في القرآن [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات][٢٠] وجاء أيضاً [ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض][١٢] ولكن أتى الأمر الإلهي بعدم التفریق بين الرسل فقال الله [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير][٢٢]. فالمؤمن يعرف أن كل الرسل رسل الحق ولهذا لا يفرق بينهم، ولكنه حين يستمد من علومهم عن معرفة لا بد له من التفریق من حيث العلم بين من أعطي "جوامع الكلم" وبين من سمع الكلام. والكل بفضل الله، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" لأن الفخر للصانع المبدع. فالمقامات وإن اجتمعت فإن الأحوال تفرق. والعالم بشريعة الحواس الظاهرة وما لها وما عليها غير العالم بشريعة القلوب. ولهذا كان هناك إسلام وإيمان وإحسان. وكانت علوم الغيب من هذا الميزان. الاقتداء بالرسول في كفة والعلم اللدني في الكفة الأخرى. الكفة الأولى فيها الأعمال والثانية فيها المقامات والأحوال. والشريعة حاکمة عند رأس الميزان تحكم بين الكفتين لئلا يختل الميزان. فلا تغتر بعلم أو سحر لا تقابله في الكفة الأخرى الأعمال. فقد عبد بعض الناس الأصنام والحيوانات والنجوم وظنوا أنهم يعبدون الله، ونسبوا لله أبناء وبناتاً وربما زوجة تطبخ له الطعام. ولهذا جاء تأكيد القرآن "إنما أنا بشر مثلكم" وجاء خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لابنته وقومه بني هاشم لكي لا يظن أحد أن قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم تبيح له تحليل ما حرم الله فقال: "يا فاطمة - يا صفية- اشترى نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً" (٢٣). كل هذه الإنذارات كانت لاعتبار القيمة الوحيدة للإنسان من زاوية الأعمال التي ترافقها النوايا الطيبة والصادقة، وعدم خداع النفس أو الغير بظاهر الأمور. فمن أنفق ليقال عنه كريم فهو لما أنفق له، ومن أنفق طاعة لله فإنفاقه لله. إن الميزان الإلهي أدق مما يستطيع الناس أن يتخيلوا. وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إنسان يستطيع أن يعرف سر صفوان وغيره كما رأينا. وهذا العلم كما قلنا ورثه بعض الأولياء، وهم يتناقلونه إلى قيام الساعة وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع أن يشاهد بعض ما سيحدث في المستقبل كما رأينا في صحيح أخباره، ألا يدلنا هذا من قبيل القياس المنطقي على أن الله "يعلم السر

وأخفى" ولهذا قلنا إن عدل الله لا يحتاج إلى دليل إلا من نفسك. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أخبر صفوان عن خبر المؤامرة إلا بإطلاع الله له على ما في نفسه بينما لم يخبره عن الشاة المسمومة إلا بعد اللقمة الأولى. وقد جاء في القرآن في سورة البقرة [يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما

شاء](٢٤) ولكن بعض الناس تاهوا في رؤية الأسباب عن مسبب الأسباب، مع أن الأسباب هي وسائط المشيئة بين الله وخلقه. ولهذا كان الوصول بالأسباب، وليس بالأنساب، وبالأعمال لا بالأقوال. فالأمر الإلهي إنما يحدث بالأسباب. وفي سورة الفيل حيث "أرسل عليهم طيراً أبابيل" وفي إمداد الله لرسوله بالملائكة غنية لمن يريد أن يتفهم حقيقة ما نسبه الله لنفسه من الفعل بالأسباب وإنما تُذكر بهذا الكلام لتفنيد إدعاء من يدعي أنه غير محتاج للعمل بعد الوصول، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه كما ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها، وكان يخشى أن يلاقي الله وعنده أي شيء من المال. فتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة بثلاثين صاع من الشعير. بينما بعض من يدعون الوصول يفتنمون الفرصة ويتلاعبون بعقول السذج من الناس لجمع الأموال وتكديس الثروة وتوزيع ثروتهم وخبرتهم في المشيخة لأولادهم بدون خوف أو رادع. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين سمع بعض الصحابة يتناقشون في أمر الدجال "غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال الأئمة المضلون"(٢٥) وقال محذراً من طلب الدنيا بالدين رغم إتساع أبواب الرزق أمام العباد "علم الله تعالى آدم ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذريتك إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له"(٢٦) فالوصول له أسباب وأصول. بدايته في تطهير النفس بالسجود على التراب. ونهايته في الإسراء الروحي الذي يقف فيه عند قاب قوسين بدون أين. متبعاً خطا الرسول الكريم ليكون في موقع المستمع إلى هذا الوصف الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم [إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين](٢٧). وليقارن ذلك بقول الله للرسول صلى الله عليه وسلم: [ليس لك من الأمر شيء](٢٨) وهما مسألتان لا تتناقضان لمن يفهم السر في هذا الكلام. وإن بدا الكلام الأول في روعة الجمال. والكلام الثاني من بحر الجلال، فإن الكمال هو الجامع بين البرازخ وهو الذي [مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان](٢٩) ففي برزخ

الشهود والعيان تغنى العين. وفي برزخ الجمال لا بد من سمع وعينين. وإلا فكيف يعرف الحق من غير شهود، وكيف يوصل إليه بغير شرع رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الذي كلف بأداء الرسالة. هل يموت الرسول قبل أن يؤدي الرسالة ويقول لمن أرسل إليهم [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً] (٣٠). لهذا حين اتفق المشركون على انتداب فرسان من كل القبائل لقتله وتضييع دمه بين القبائل خوفاً من ثأر بني هاشم. جاء الأمر الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة. فخرج من بيته وفرسان المشركين الذين وقفوا على بابه كانوا ينتظرون، وحين فوجئوا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أخذ مكانه في الفراش، ذهبوا يتتبعون آثار خطواته ووصلوا إلى غار حراء حيث اختفى مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فضلتهم خيوط العنكبوت المنسوجة على الباب. وعندما استطاع سراقه بن مالك بن جعشم أن يلحق بالرسول صلى الله عليه وسلم طمعاً بالحصول على مكافأة قريش المعلنة، مائة من الإبل لمن يأتي بالرسول صلى الله عليه وسلم، وحاول الاقتراب منه غاصت فرسه بالرمل، يقول سراقه في حديث طويل: "فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعها دخان كالإعصار. قال فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم فقلت: أنا سراقه بن جعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر. قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: أكتب له يا أبا بكر.. فكتب لي كتاباً.. فجعلته في كنانتي ثم رجعت.. حتى إذا كان فتح مكة خرجت ومعني الكتاب لألقاه.. فلقيته بالجعرانة.. فدنوت من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته وقلت يا رسول الله هذا كتابك، أنا سراقه بن جعشم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يوم وفاء وبر أدنه. فدنوت منه فأسلمت.. ثم قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تغطي حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: نعم، في كل ذات كبد حزى أجر. ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتي" (٣١). لماذا عاد سراقه وهو الطامع بمكافأة قريش بعد أن وصل إلى هدفه؟ وكيف يمكن لرجل باحث عن الثروة وهو على دين قريش أن يعود عما جاء من أجله، مقابل عهد من رجل مطارد من قومه أو وعد بالمكافأة؟ إن أي تحليل أو تفسير للأسباب التي دفعت سراقه للعودة عن هدفه لا يمكن الأخذ بها أو النظر إليها إلا من خلال اعتراف سراقه في حديثه. بأن الرسول صلى الله عليه

وسلم ممنوع منه. وكم سيتعرض الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لمحاولات الغدر التي ستكشف له، لتتأكد حقيقة ما قاله عن نفسه "إني لأراكم من ورائي كما أراكم" (٣٢) أي من أمامي و"إني لأراكم من وراء ظهري" (٣٣). وقال الله: [وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى] (٣٤) لقد قرأنا بعض إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم في إطلاعه على بعض ما دار في النفوس واختفى في الأذهان، لنعلم أن ابن الإنسان إذا كان يستطيع أن يعرف بعض ما كان يدور في النفوس والأذهان، فإن الله لا يخفى عليه خافية، وهو الممد لرسوله صلى الله عليه وسلم. وإن الأنبياء والرسل كلهم يأخذون من مشكاة الحق الواحد كما قال النجاشي حين كان عليه أن يحكم بين المسلمين اللاجئين إلى بلاده، وبين وفد قريش المطالب بتسليمهم. فقد بكى النجاشي حين قرأ عليه جعفر بن أبي طالب بعض الآيات من سورة مريم عليها السلام حتى "إخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم" فالتفت إلى وفد قريش الذي جاء محملاً بالهدايا لكسب تأييد النجاشي. وقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.. انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما" (٣٥). وحين ظن عمرو بن العاص رئيس وفد قريش أنه اكتشف الوسيلة للنيل من المسلمين المهاجرين بعد أن خاب مسعاه الأول، عاد إلى النجاشي فأخبره "أنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً" فدعي المسلمون من جديد للمثول بين يدي النجاشي وسألهم: "ماذا تقولون في عيسى" بحضور وفد قريش وجماعة من الأساقفة، فأجاب جعفر رضي الله عنه "نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: "هو عبد الله ورسوله وروح منه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول" فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فاخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ما قلت هذا العود" ثم قال للمسلمين رغم احتجاج بعض أساقفته "اذهبوا فأنتم شيوم- أي آمنون- بأرضي، من سبكم غرم. ما أحب أن لي جبلاً من ذهب، وإني آذيت رجلاً منكم" ثم التفت إلى حبابه وقال: "ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه" (٣٦) وخرج وفد قريش مخذولاً مرة أخرى. ومن الأمور الغريبة أن عمرو بن العاص أسلم في النهاية بنصيحة من النجاشي عندما كان يزور الحبشة للتجارة، فقال له النجاشي عند لقائه به "أطعني يا عمرو واتبعه، فإنه والله لعلى حق، وليظهرن على من خالفه" (٣٧) فعاد عمرو إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة وباع على الإسلام. وما أكثر الأمور الغريبة التي كانت تحدث أمام العيون، والتي تستحق التأمل. ومنها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة. فلماذا اختار الحبشة ولم يختار

اليمن أو بلاد الشام أو مصر رغم سعة البلدان المحيطة بمكة. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرف النجاشي ولم يلتق به، ولم يتفق معه حين أمر الصحابة بالهجرة إليه. فهل لهذا الأمر من تفسير غير الإلهام الإلهي الذي لا يفهم ولا يدرك بمنطق الحسابات السياسية، ولا تحيط به العقول غير المستتيرة بالإيمان. كم سنشاهد من المعجزات لنؤمن بقدرة الله المتجلية في عباده وخلقه وهو يدعونا حرصاً علينا، ومحبة لنا، بواسطة الرسل ومعجزاتهم وشرائعهم العادلة التي لا يرفضها إلا ظالم أو جاهل، لنكون الخلفاء والأمناء في أرضه. كم خاطبنا أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون أفلا يبصرون. "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (٣٨).

ألا تشهدون الموت المحيط بكم- كم ينادي الله العباد ويمد يده في النهار لمسيء الليل، ويبسط يده في الليل لمسيء النهار.. وكم بشر وحذر- إذا جاءني عيدي ماشياً، بالإيمان والتوبة، أتيته هرولة- وكم أنذر.. فمن يعقل تكريم الله للإنسان- وسخر لكم ما في السموات والأرض- من يعقل والأرض تضج بالشكوى من ظلم الإنسان. وقد أصبح الإنسان في فلسفة عصرنا غريزة جنسية تبحث عن المتع بإباحية لا تقبلها ديوك الدجاج، أو معدة نهمة إلى طيب الطعام بظلم العباد، وفلسفة الذرائع التي داست على حقوق الضعفاء، وجعلت القوة هي الحق، وجعلت الرحمة من أعمال البلهاء. فضاعت الحقوق كما ضاعت الأنساب، وأصبح أولاد الحرام كما في رواية برنارد شو "ميجر بربرة" يحكمون العالم بتجارة السلاح وإشعال الفتن والحروب للحصول على المقدس في حضارة الذهب الآيلة

إلى الدمار [إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون] (٣٩) و "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء" (٤٠).

فلا يغتر المغتر بما يلقاه من نجاح أو توفيق، فقد بكى عمر بن الخطاب حين رأى أثر الحصار في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله: "ما يبكيك يا عمر. قال: أنت نبي الله وكسرى وقيصر على أسرة الذهب. قال: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة" (٤١) فالانشغال بالدنيا والإقبال عليها ليس من غايات العارفين، وإن كان كل ما يشهد آيات للعالمين. ومن حكمة العرب أنهم سمو المال مالاً لأنه يميل بجامعه عن الطريق المستقيم. فسوي الجمع بالإنفاق في الشريعة ليعود المائل بجمعه إلى الميل بكرمه لتستوي كفتا الميزان. فويل للذين يكنزون ويخلون، ولا ينفقون مما يعلمون، وقد أوتوا كنوز العلم بالعقل الموهوب لهم ليفكروا. وويل للفقراء المحتاجين الذين إن جاءهم رزق الكرام من الأتقياء تكبروا، فكيف بمن يرفض عطاء العلماء الأغنياء بزد الدنيا والآخرة، وكيف بمن شغله جسمه عن رأسه، وجعل العالي منه في خدمة السافل. وقال عن نفسه أنا الإنسان.. فهل هذا هو الإنسان إذا ركبت شهواته رأسه، وصار شعاره سأعيش كالحيوان؟ فماذا يسعنا أن نقول له غير ما قاله عن نفسه. وعند ذلك تصح نظرية دارون في التطور، ليس من القرد إلى الإنسان، بل في تطور معاكس يأباه الحيوان، ومن الناس من هم -كالأنعام بل أضل سبيلاً- كما وصفهم الله. وفي مثل هذا التطور المحزن ستنتسخ شريعة الإيمان والإحسان لتسود شريعة الغابة. وعندها سيأتي الطوفان.

الرسول الطبيب

الطب من اختصاص الأطباء، ومع ذلك فقد قام المسيح عليه السلام، كما جاء في القرآن والإنجيل بشفاء الأكمه والأبرص في بعض المناسبات. لأن كل نبوة لا بد أن تؤيدها المعجزة لتكون دليلاً على صدق صاحبها. ولهذا طلب الحواريون من المسيح إنزال مائدة من السماء ليطمئنوا [إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين] (١) وقد أنزلت المائدة مراعاة

لحقيقة الإنسان. ولهذا آمن الحواريون عندما شاهدوا المعجزات وقاموا بنشر رسالة المسيح عليه السلام غير عابئين بكفر من كفر ولا بطغيان روما، أو ضلال اليهود وأفكارهم وغدرهم. كما شاهد اليهود الذين تبعوا موسى عليه السلام من معجزاته الخارقة ما جعلهم يتبعونه ويخرجون معه من مصر. وبدون هذه الحوادث الخارقة التي أتى بها الأنبياء والرسل لا يمكن أن نفسر هذا التأثير العميق الذي أحدثته النبوات في حياة البشر طوال التاريخ. وهذا التأثير لا يمكن تفسيره بالأسباب الاقتصادية وصراع المصالح والطبقات كما هو في المفهوم الماركسي ولا بالصراعات القومية، أو ردادات الفعل حسب رؤية أرنولد توينبي للتاريخ أو حضارات الأنهار والصحارى والبحار، أو على ضوء الخلدونية في تطور الأمم من الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالموت. كما إن النظرية الفرويدية عن الدوافع وإن كان صاحبها لم يحاول استخدامها لتفسير أي بعد تاريخي، إلا أن دراساته لحياة بعض الشخصيات التاريخية لتفسير تصرفاتهم على ضوء فهمه للدوافع وخاصة الجنسية، وتأثيرها في حياة من درسهم قد أتاح المجال لزج نظريته في صلب تقييم العميلة التاريخية على أساس أن التاريخ هو تاريخ أشخاص. وكان مفتاحه ومفتاح من تبعه يقتضي فهم العقد الجنسية في حياة العظماء لفهم التاريخ. وهكذا كما طوحت الماركسية ولكن بشكل أكثر سمواً بكل القيم الإنسانية حينما ربطت التطور بقيم المعدة وحاجاتها. فإن الفرويدية ألفت بهذه القيم إلى الحضيض حين ربطت تطور الإنسان بعورته. ولهذا اعتبر نجاح بافلوف في تجاربه على الكلاب نصراً لمنطق المعدة، كما اعتبر كل العهر الذي توصلت إليه الحضارة الغربية والحضارة بشكل عام نصراً للفرويدية، لسبب بسيط هو أن الإنسان قد تم مسخه ليكون كلباً، أو ليكون عاهراً. وإذا كان لهذه الأفكار أي حظ في النجاح فإنما يعود إلى دور ما نسميه بأفرازات الحضارة وسمومها السابقة التي قتلت في الإنسان كل القيم الروحية، بالظلم والاستبداد والتجويع والحروب الظالمة التي أشعلتها البرجوازيات الغربية على مساحة الكرة الأرضية، فخرج الإنسان المشوه الذي رأته الماركسية والفرويدية في عصرنا الراهن. وكان ما كان من صرخات العنف ودعايات القوة والإنسان "السوبرمان" الكوني المتفوق الذي حمل على مراكبه نماذج من الطغيان والوحشية لا حصر لهما في عصر الغابة المفجع الذي حوله النيتشويون ومن سار على نهجهم إلى هدف قومي. ولكن مع ذلك ورغم كل الثمار الأرضية الموعودة، فقد بقيت الرسالات السماوية وقيم الأنبياء متألفة فوق كل الأزمنة، وفوق كل الفلسفات والتيارات والمصالح والسياسات، مثل نور سماوي لا يمكن أن تلوته أيدي البشر. وبقي كثير من الناس يستحسون في

هذا النور، بينما كل الفلسفات والتيارات والمذاهب جاءت وزهبت مثل مواضع الأزياء. فما هو سر احتفاظ الديانات ببريقها؟ ما هو سر إتباع اليهود لموسى عليه السلام. وسر الإخلاص الذي دفع تلاميذ المسيح عليه السلام إلى أقصى بقاع الأرض لنشر رسالته والتبشير بها، حتى فتحت لهم روما التي حاصرته لتقتله وتصلبه مع اليهود الذين أنكروه. لقد أحيا المسيح عليه السلام إضافة لإحيائه للموتى الضمائر الميتة. أحيا الروح الإلهية في الإنسان. أحيا ما قتله اليهودية في عصره من رسالة موسى عليه السلام، فكان محيياً ليس للجسد فقط ولكن للروح. ليتألق الإنسان بمجد الله المعطى له. فكان طبيباً وكان من بعض طبه المستمر هذا الإحياء للروح. ولكن حين اندثرت روح المسيحية الأصيلة، جاء الإحياء الأخير على يد محمد صلى الله عليه وسلم وكان هذا الإحياء جمعاً للشرائع المتفرقة ليكتمل النور، وكان لا بد لكي تصح نسبة من جاء جامعاً للشرائع إلى الله، من إحاطته بعلوم كل الرسل وشرائعهم ومعجزاتهم ليكون خطابه شاملاً ومعجزاته كاملة. ولهذا أوتي الرسول صلى الله عليه وسلم القدرة على شفاء من دعى لهم بالشفاء من المرض وأوتي من العلوم الطبية التي تؤيدها علوم زمننا ما لم يأت به سواه لتكون معجزاته من جنس رسالته التي ختم الله بها الرسالات السماوية، ولتكون كرامات المسلمين من الأولياء من عطاء رسولهم وحجته إلى قيام الساعة. وإذا كان حديثنا عن بعض المعجزات الطبية التي ظهرت على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه مما يؤيد ما أشرنا إليه. فإن تأييد بعض المعلومات التي وردت بالقرآن أو الحديث النبوي بمكتشفات الطب الحديث هو بعض مظاهر المعجزة الدائمة التي لا يستطيع أن يجادل فيها مجادل إلا إذا كان من نوع يهودا الاسخريوطي، الذي لم يقنعه الحق والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها السيد المسيح عليه السلام ولا المعجزات التي شهد بها بنفسه. ومثل هذا الإنسان المنكر لا يفيد معه الكلام، ولهذا فإننا نتوجه إلى من يريد أن يؤمن بالحقيقة والحق. فالرسول صلى الله عليه وسلم قام بأعمال من نوع الطب مع أنه لم يكن طبيباً. وقد جاء عن الفضل بن عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان حدثني أبي عن أبيه عمر عن أبيه قتادة بن النعمان قال: "أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوساً فدفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي يوم أحد، فرميت بها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اندقت من سنتها ولم أزل عن مقامي نصب وجه رسول الله ألقى السهام بوجهي، كلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ميلت رأسي لأقي وجه الرسول صلى الله عليه وسلم بلا رمي أرميه، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي على خدي وافترق

الجمع، فأخذت حدقتي بكفي فسعيت بها في كفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم دمعت عيناه فقال: اللهم إن قتادة فدى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظراً، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً" (٢) وفي قصة علي بن أبي طالب يوم فتح خيبر دليل على صحة هذه الرواية. فقد استدعى الرسول صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه من بيته لأن رمد عينيه منعه من حضور غزوة خيبر وتقل فيهما فشفيتا، وأعطاه الراية فكان فتح خيبر على يديه. وقال علي "ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهي وتقل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية" (٣).

ومعجزات الرسول الظاهرة في هذا المجال وإن كان لم يصلنا منها إلا القليل، فإن معجزاته الطبية ونصائحه الباقية بين أيدينا ما اكتشف منها أو لم يكتشف تدل دلالات قاطعة على الجهة التي استمد منها علمه وشريعته فيما حلل للمسلمين أو حرم عليهم. وإذا ذكرنا تحريم الخمر لما له من أضرار أخلاقية غير خافية وصحية حيث يؤدي إلى تشمع الكبد، فإن في تحريم القرآن للحم الخنزير عبرة ودليلاً على إعجاز القرآن حيث كشفت آية التحريم عن الغامض في أضرار لحم الخنزير بالإنسان مما لم تتوصل إليه علوم ذلك العصر حتى تبين لنا ضرره في عصرنا وعلى يد الذين يأكلونه. إذ ثبت أن كل قطعة من لحم الخنزير تحتاج إلى فحص للتأكد من خلوه من الأمراض التي تتعرض لها الخنازير. ولهذا كما أوضح الدكتور محمد ناظم النسيمي "لا يمكن للطبيب أن يحكم بخلو الخنزير من هذا المرض (داء الشعريات) إلا إذا فحص جميع ألياف عضلات لحم الخنزير قطعة قطعة بواسطة المجهر، وهذا طبعاً لا يمكن تيسره" (٤) وهذا المرض أي داء الشعريات هو أحد الأمراض المحتملة التي قد يحملها لحم الخنزير للإنسان إضافة إلى ما قد يحمله من الأمراض لمن يأكلون لحمه وهي كما ذكرها الدكتور نسيمي "الشريطية الوحيدة وتصلب الشرايين - التسمم النقانقي أو الوثيقي". وأما من يحبون تربيته للمتاجرة به فهم معرضون بسبب ملامسته إلى "الزحار الزقي - الداء البريمي اليرقاني النزفي - حيات البطن الخنزيرية - الحمى المتموجة المالطية" (٥) "وقد أعلن البروفسور النمساوي فرانز هالز في المؤتمر الطبي العالمي الحادي عشر المعقود في فيينا - إن الإكثار من تناول لحم الخنزير لا يؤدي فقط إلى الإصابة بتصلب الشرايين، بل إلى سقوط الشعر أيضاً" (٦) وإن ما عرفته البشرية عن مضار لحم الخنزير وإن كنا لم نعرف كل أسباب التحريم تكفي للدلالة على معرفة مصدر هذه الشريعة التي لم يكن ناقلها إلينا طبيباً. وإن الأمر الذي يلفت النظر أن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ في بيئة لا تهتم بتربية الخنازير ولا

تستخدمها في غذائها. ومع ذلك فقد جاء التشديد في تحريمه إلى درجة وصفه بأنه رجس. جاء في سورة الأنعام [قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دوماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله] (٧) وحسب تفسير الماوردي فإن الضمير في قوله تعالى (فإنه رجس) عائد إلى الخنزير، لكونه أقرب مذکور، ولا يخفي علينا الآن ضرر الميتة أو الدم، فهما أيضاً رجس إذا كان الرجس يشمل الثلاثة المذكورة لمن رأى أن الضمير يشمل الجميع لما فيها من أخطار على صحة الإنسان. فنحن أمام مسألة لا تتعلق بمسائل العبادة، ولا تؤثر في عقل الإنسان مباشرة كما في الخمر مما قد ينبذه العقلاء لما فيه من الخروج عن الاتزان. ومع ذلك فقد صار التحريم جزءاً من العبادة، والمسلمون أطاعوا الأمر دون أن يسألوا عن أسباب تحريمه. وإنني أرجح لهذا السبب بأن التشديد ووصفه بالرجس يعود على الخنزير، لأنه إذا كان من الممكن فهم الضرر من أكل الميتة والدم، فإن فهم الضرر من لحم الخنزير لم يكن واضحاً، ولهذا كان التشديد، وكان تحريم المتاجرة به وبكل ما حرم الله على المسلم، فالشريعة لم تكن بالرأي كما قال علي رضي الله عنه وضرب مثلاً على ذلك بمسح الخفين، إذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمسحهما من الأعلى عند الوضوء لمن لم يخلعهما. فقال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه. وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسخ أعلى الخف" (٨) وذلك لما يتعرض له أسفل الخف من القذارة. ومع ذلك فإن الشريعة سيؤيدها العقل دائماً عندما تتكشف له حقائقها، لأن كل أمر للشريعة كما يكشف تطور العلوم جاء لحماية الإنسان مما يضره، وللارتقاء به إلى مستوى القدسية لاكتشاف النور الإلهي المبتوث في العقل، ولهذا كان تحريم بعض أنواع الطعام من جملة العناية للوصول بالجسم السليم إلى سلامة العقل لتفجير الطاقات الإنسانية الكامنة في تركيب الجسم الإنساني من خالق هذا التركيب. فكان نصح الخالق وهو أدري بما صنع لئلا يهبط من جنته الدنيوية بتناوله للخبائث، كما هبط آدم عليه السلام من جنته الإلهية. الصانع مثلاً ينصحنا باستعمال بنزين من نوع معين للسيارة، وإن كان كل بنزين يصلح. والصانع ينصحنا باستخدام أسلاك النحاس لنقل التيار الكهربائي وإن كانت المعادن كلها تصلح للناقلية. فهل يستطيع كل إنسان أن يعرف أسباب هذه النصائح وإن غابت عنه الحكمة منها. إن الحكمة الإلهية يؤيدها علم العلماء، وتؤيدها إعجازات النبوة، ولهذا عندما تتكشف الإعجازات لا يبقى للعاقل أي مبرر للجدال سواء عرف كل أسباب

النصائح التي جعلتها النبوة جزءاً من الشريعة أو لم يعرف. والسؤال الذي نطرحه، ما هي فائدة الشريعة من تحريم لحم الخنزير؟ إذا كان المسلم ينفذ كل العبادات المطلوبة منه فما علاقة طعامه بالعبادة؟ يجب أن نتوقف أمام هذه الأسرار والآيات التي لا يمكن فهمها إلا من خلال إدراك الحرص الإلهي على الإنسان لإيصاله إلى مستوى الكمال بما جعله من العبادة مع أنه ليس منها.

لهذا كانت تزكية الرزق وتطهيره من جملة العبادات بإعطاء كل سائل **[وأما السائل فلا تنهر]** (٩) و"انقوا النار ولو بشق تمره فإن لم تجدوا فبكملة طيبة" (١٠) لأن "العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر" (١١) فالحسد والعين إذا كانتا تمحقان البركة في الرزق فإن العطاء يردهما. فالعطاء هو طب المال. ونشر العلم هو زكاة العلماء، وزكاة الإيمان هو النصيحة لكل الخلق. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا عباد الله تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد هو الهرم" (١٢) وكل معرفة تقود إلى اكتشاف أدوية هذا للجسم، وهذا للعقل، وهذا للعين. وقس أوامر الشريعة من حيث هي دواء للترقي والوصول إلى الأسرار الكامنة فيك. ولهذا لا يحق للمجتهد الذي لا يعرف أسرار الشريعة أن يجتهد برأيه، لأن الشريعة علم عميق بل هي قمة العلم، ولا يخاض العلم بالرأي بل بالعلم، ولهذا حرم الإمام الغزالي على العوام الخوض في الشريعة إلا للتعلم في كتابه "إلجام العوام عن علم الكلام" حقائق الشريعة لا تتكشف لكل إنسان بسهولة، فهي مثل الطب. فالطبيب الذي تذهب إليه مريضاً يريد أن يشفيك من المرض ويقترح عليك دواء ما، فإذا رفضت أن تأخذ الدواء إلا بعد معرفة تركيبه وتأثيره فعليك أن تدرس الطب والصيدلة وقد يقضي عليك المرض قبل أن تتوصل إلى المعرفة التي تطلبها. وفي الشريعة ونصائح النبوة الطبية أمور لم يتم التحقق من تأثيرها رغم تقدم العلم. ولا يستطيع العلم الذي يتعامل بالماديات أن يفهم سر قول الرسول صلى الله عليه وسلم "الله الطبيب" (١٣) أو قول الله **[وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين]** (١٤) ولهذا شرع الرسول صلى الله عليه وسلم لكل الأحوال، لكي يأخذ كل مسلم ما يناسب أحواله، ولهذا عندما مرض أبو بكر رضي الله عنه وسأله بعض أصحابه "ألا ندعو لك مطبياً ينظر إليك. قال: قد نظر إلي قالوا: فماذا قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد" (١٥).

لقد أخذ أبو بكر من علم الرسول صلى الله عليه وسلم فرأى أن "الله الطبيب" فهذه هي أحواله، وهذا هو إيمانه، فسكن إلى قول الله **[ما أصاب من مصيبة]**

في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب] (١٦). ولا تناقض بين الأمرين لمن يفهم الكلام. فقد قيل لعمر بن الخطاب حين لم يدخل الشام لانتشار مرض الطاعون فيها "أفراراً من قدر الله" فقال : "نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله" (١٧) وهل هناك من يؤثر المرض على الصحة لو كان بيده أن يشفي نفسه. لهذا لجأ الكل إلى الطبيب على قدر علمهم وأحوالهم ومعرفتهم بالشافعي.

وكانت النبوة تشرع لهذا وذاك للتوسيع على الخلق بقدر علومهم في أبواب المعرفة، فكانت أسرار أدوية النبوة وإعجازها في الكشف عن أدوية الأرواح والعقول والأجسام. كما كان في الكشف عن مراحل تطور الجنين إشارات للعلماء الذين سيكتشفون التوافق بين ما جاء به القرآن وبين ما تبين لهم في مختبراتهم. كما إن إشارات القرآن إلى مراحل خلق الإنسان خير دليل على مفهوم التطور الذي اكتشفه العلم الحديث. وبما أن بحثنا لا يهدف إلى الدخول فيما توصل إليه الطب حول الأدوية التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه في بعض المناسبات مثل الحبة السوداء والعرسل وزيت الزيتون والحجامة والجراحة والسواك وغير ذلك من الأدوية أو النصائح التي لا مجال للشك في صحتها إذا فهمت كما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يتعارض مع استخدام الأدوية الحديثة. وبما أننا لا نريد في هذا البحث غير الإشارة إلى آيات الإعجاز الإلهي للاعتبار والتأمل للوصول إلى الحق الذي علم وعلم. لهذا سنكتفي بتقديم بعض الإشارات ذات الدلالة.

من هذه الإشارات حديث القرآن عن خلق الإنسان حيث سنحتاج إلى أربعة عشر قرناً لاكتشاف بعض ما جاء به القرآن في مختبرات العلم لكي نكتشف سر الإعجاز القرآني وننسبه إلى مصدره الإلهي، وليس لمن لم يكن طبيباً أو مخبرياً [فليُنظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر] (١٨) "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة. ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم. ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى. ثم نخرجكم طفلاً. ثم لتبلغوا أشدكم. ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً] (١٩). هنا نلاحظ مفهوم التطور في خلق الإنسان والانتقال في عملية الخلق من التراب إلى الإنسان. [يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو

فأنى تصرفون][٢٠) يجب أن نتوقف عند هذا التحديد (ظلمات ثلاث) [ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة. فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً. ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون][٢١) أصل الإنسان سلالة الطين [ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً][٢٢). [وإنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى. وإن عليه النشأة الأخرى][٢٣) "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً][٢٤) الحرية والمسؤولية "أحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى" (٢٥) حوار بالعقل للدلالة على قدرة الصانع على إعادة ما صنع. لقد قال الدكتور نسيمي "كان يظن بعد اكتشاف النطفة عام ١٥٩٠ أنها إنسان صغير جداً ينمو في الرحم حتى يبلغ حجمه المعروف. ثم اكتشفت البيضة سنة ١٨٢٧ أما أبحاث تنامي المضغة والجنين فإنها من أبحاث القرن العشرين. فالإسلام إذاً سبق في نصوصه هذه الاكتشافات العلمية بقرون عديدة" (٢٦).

وفي توضيح للرسول صلى الله عليه وسلم عن مراحل خلق الإنسان جاء في عدة أحاديث عن حذيفة بن أسيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب أذكر أو أنثى؟ فيكتبان. ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص" (٢٧).

وفي رواية عن ابن مسعود قال: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه نطفة أربعين، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد" (٢٨).

إننا هنا نواجه إضافة إلى مسألة الخلق ومراحل تطوره، مسألة القدر المحكوم به الجنين. وهذا القدر له أسبابه، إذ تشترك عوامل نعرفها، وعوامل لا نعرفها.

منها عوامل الوراثة التي لم تكن معروفة فنبه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث فقال: "تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن" (٢٩) وقال: "تزوجوا في الحجز (أي الأصل) الصالح، فإن العرق دساس" (٣٠) كما إن علينا أن نستنتج من تحريم الرضاع لما حرّمته القرابة، علاقة الرضاع بعوامل الوراثة وتأثيرها في الطفل الرضيع. وقد كشف الدكتور هشام حوراني في بحث له عن خطورة بنوك الإرضاع الوالدي المنتشرة في أوروبا وأمريكا، حيث تحتفظ هذه البنوك بحليب أمهات للبيع لأطفال آخرين بدون إكتراث بمعرفة الأم صاحبة الحليب، مما قد يؤدي إلى حدوث زيجات بين الطفل الرضيع وأخته من الرضاعة في المستقبل. وقد بين بعض المخاطر التي ستنتج في مثل هذه الحالات على ضوء المكتشفات الطبية الحديثة. فقال من هذه المخاطر: "إمكان حدوث العقم- الأمراض العائلية الوراثية- التشوهات الخلقية للأبناء- شواذات استقلاب المواد السكرية والبروتينية والدمسة - وأخيراً إمكانية ترفقه بأمراض مناعية ذاتية وينسب عالية" (٣١).

لقد حرم الله في سورة النساء من الرضاع ما حرّمه النسب [حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمّهاتكم اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرضاعة] (٣٢).

وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم الرضاع الذي يحرم ما حرّمه النسب فقال: "لا رضاع إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم" (٣٣) وحدد بأنه: "لا رضاع إلا ما فتق الأمعاء" (٣٤) وقال: "إن الله حرم من الرضاع ما حرم من الولادة" (٣٥) وما يهمننا هو الإشارة إلى علم الله بخلقه وحرصه عليهم فيما حرم لنشوء الأطفال نشأة سليمة باتباع الأساليب التي تؤدي إلى هذه الغاية، رغم جهل الناس في ذلك الوقت بضرر الزواج من الأقارب، أو بنقل المورثات من المرضعة إلى الطفل الرضيع. كما أننا أمام مسألة نوع الجنين سنجد سبباً لذكورة الجنين أو تأنيثه. فقد جاء في حديث عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لحبر من أحبار اليهود، قال جئت أسأل عن الولد، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل أننا بإذن الله" (٣٦) فالذكورة والأنوثة ناجمان عن الأسباب وهي سابقة لكتابة الملك. والأسباب هي النظام الذي وضعه الله وإن كان الله يحكم بالأسباب فإن الأسباب لا تحكم عليه، فهو الحاكم غير المحكوم، ولكن حصول نفس النتائج من نفس الأسباب من عدل الله. ولهذا فإن كتابة الملك

من ميزان العدل الإلهي الحاكم بالأسباب على خلقه، إذ لو اختلطت الأسباب والنتائج، فإن الطريق السليم لن يعرف، والعلم سيضيع ولهذا ظهر الإعجاز الإلهي باكتشاف النظام في خلق الإنسان الذي أشار إليه القرآن. وبكشف العلم عن الضرر من أكل لحم الخنزير، وعن وجود مصلحة للإنسان في كل ما أباحه أو حرمه الإسلام، سواء علم بذلك أو جهله. ولكن من فوائد العلم الحديث أنه كشف لنا عن حقيقة الرحمة الإلهية بالإنسان المطبق لشرائع الإسلام ليكون سليم الجسم والروح مستحقاً للخلافة، ولهذا كان الإسلام دين العالم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم الخاتم وصاحب المعجزة الدائمة التي لا تنتهي آياتها إلى قيام الساعة. فهو نور الكمال الإنساني الذي تجلى في الحكمة والعلم والأخلاق لتحقيق خلافة الإنسان. ولأن الكمالات تقتضي كمالات الزمان والمكان والناس لذلك ظهر في أكمل الأزمنة والأمكنة وكان أصحابه هم الكمل الذين لا يسابقون ولا يسبقون. فهم نجوم الهداية المحمدية. وهم الذين قال عنهم: "دعوا لي أصحابي، فو الذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم" (٣٧). ولهذا قال: "خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر" (٣٨).

وقال "خيركم قرني ثم الذي يلونهم ثم الذين يلونهم" (٣٩) وقال: "طوبى لمن رآني وأمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني" (٤٠) فهم الذين سهروا على الإسلام ونقلوه إلينا، وإن اختلفت مواقعهم في ميزان الكمال المحمدي، فقد كانوا الأمناء في التبليغ وإن شغلته الدنيا أحياناً وكانوا الأوفياء للإسلام وإن اختلفوا. ونحن في إسلامنا الذي وصل إلينا، ثمرة كفاح، وحصاد جهاد من رآه أو من رأى من رآه أو من رأى من رآه. فطوبى لهم. فقد كان إيمانهم إيمان طاعة ويقين. وكانوا يصدقون بالكلمة ويطيرون على أجنحتها، ويخضعون للحق. فلانت قلوبهم للقرآن وأنست به كما فعل الدوسي الشاعر، قبل أن يشهدوا معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبل أن تكشف العلوم الحديثة عن آيات النبوة. فأين نحن منهم، وأين جهادنا من جهادهم رغم كل المعجزات التي تشهد بها مختبرات العلم ومشارح الأطباء وقاعات المؤتمرات الفلكية وريادة الفضاء. أين الأحباب الذين يجاهدون جهاد الأصحاب، ما أقلهم في زبد المسلمين الكثر.

الفتوحات الإسلامية بين الخيال والحقيقة

إن العقل والخيال لا يستطيع أن يصف مشهد الانتصارات الإسلامية غير المتوقعة التي ستتطلق سريعاً لتواجه أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمان وهما إمبراطوريتا الروم والفرس. فالإمبراطوريتان كانتا تمثلان كل جبروت القوة والسلطة والمال والسلاح في عالم مقسم بينهما لا يخرج عن طاعة أحدهما. فالغساسنة والمناذرة على تخوم الدولتين ولايات عربية محكومة بإسهما. والعراق واليمن تابعان للفرس. وشمال أفريقيا مع بلاد الشام تحكمها روما. فاي أمل لقبائل مبعثرة في الحجاز بالانتصار على مثل هذه الإمبراطوريات مع خلافات القبائل وثاراتها وصراعاتها وفقرها، حيث كان يؤدي تعرضها لمواسم الجفاف إلى الجوع والموت. حتى إن أبا طالب وهو سيد من سادات مكة وسيد بني هاشم اضطر للرضى بإعطاء بعض أولاده للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ولأخيه العباس لما أصابه من الفقر. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم علياً، وأخذ العباس جعفرًا لتوفير ثمن طعامهما على أبي طالب. إذا قرأنا الخريطة السياسية والاقتصادية والعسكرية في تلك المرحلة وقارنا بين قوة العرب وقوة إمبراطوريتي الفرس والروم وأردنا أن نتنبأ بسقوطهما واحتلال أراضيها على يد أية قوة، فإننا ربما لن نجد على ظهر الأرض من يستطيع أن يتخيل إمكانية مواجهة أي دولة منهما دون التحالف مع الدولة الأخرى كما فعل الغساسنة والمناذرة لحماية إمارتهما. فقد كان العالم مقسماً كما هو شأنه اليوم بين أمريكا وروسيا أو أوروبا. وإذا كان هناك من أمل لمواجهة أحدهما من دولة منفردة فإن مثل هذا الأمل قد يكون في دولة الحبشة أو مصر أو اليمن، إلا أن أي عاقل لن يعد قبائل الحجاز أو سكان مكة والمدينة لمثل هذا الاحتمال. وحتى في حال وجود مثل هذا الأمل لدى أي أمير فإنه لن يتجاوز الأمل بتوسيع مملكته في ظروف ضعف إحدى الإمبراطوريتين والاستقلال بإقليمه إلى أجل محدود. ولو قال قائل في ذلك الوقت إن عرب مكة والمدينة سيعتدون حتى مجرد اعتداء على إحدى الإمبراطوريتين دون أن يواجهوا الدمار، سيكون مثل من يقول الآن إن إمارة خليجية ستحتل باريس أو لندن أو موسكو أو واشنطن. ومع ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط ذهول أصحابه بأن هذه المدن ستفتح عليكم وهم يشكون إليه فقرهم. قال عبد الله بن حوالة: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكونا إليه الفقر والعري وقلّة الشيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا، فوالله لأنا من كثرة الشيء أخوف عليكم من قلته! والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى تفتح لكم أرض فارس وأرض الروم وأرض حمير، وحتى تكونوا أجناداً ثلاثة: جنداً بالشام، وجنداً

بالعراق، وجنداً باليمن، وحتى يعطى الرجل مائة دينار فيستخّطها. قال ابن حوالة: فقلت يا رسول الله! ومن يستطيع الشام وبها الروم ذات القرون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ليفتحها الله عليكم ويستخلفنكم الله فيها، حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلقة أبقاؤهم قياماً على الرجل الأسود منكم، ما أمرهم فعلوا. وإن بها اليوم رجالاً لأنتم اليوم أحقر في أعينهم من القردان في أعجاز الإبل. قال ابن حوالة: فقلت: فاختر لي يا رسول الله إن أدركني ذلك. قال: أختار لك الشام، فإنها صفوة الله من بلاده، وإليها يجتبي صفوته من عباده، يا أهل اليمن! عليكم بالشام، فإن صفوة الله من الأرض الشام. فمن أبى فليحرق بيمنه وليسق بغدره، وإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله" (١).

أنظر إلى هذا الوصف الدقيق للحالة التي كان عليها العرب، فقد كان العرب في نظر الروم "أحقر من القردان في أعجاز الإبل" وربما هذا شأنهم مع الفرس. ولذا سأل الصحابي الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أذهله كلامه "ومن يستطيع الشام وبها الروم ذات القرون". مثل هذه الوعود لا تكاد تصدق لولا النبوة، ولولا ما كان يشهده الصحابة من الرسول صلى الله عليه وسلم من علم بشؤونهم الخاصة والعامّة. ولولا إيمانهم بما كان يخبرهم به دون اعتبار لمقاييس العقل وحسابات القوة والضعف. لولا حقائق من هذا النوع لما صدقوا مثل هذه الأقوال. في موقف آخر والصحابة يحفرون الخندق حول المدينة قال سلمان الفارسي الذي اقترح حفر الخندق دفاعاً عن المدينة العاجزة عن الدفاع ومسلميها في مواجهة تحالف الشرك مع اليهود قال: "ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني فلما رأيته رأيت شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم. قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق" (٢).

كيف ستفتح كل هذه البلاد والإسلام يلجأ إلى التحصن داخل المدينة للدفاع عن نفسه ضد المهاجمين القادمين؟ لا يمكن لمنطق العقل المجرد أن يفهم لغة صاحب الرسالة في مثل هذا الموقف الصعب. كانت قريش قد أجمعت أمرها على غزو المسلمين بالمدينة للقضاء عليهم بتحريض من بعض زعماء اليهود الذين

ساروا إلى مكة وطلبوا منهم التعاون معهم لإعلان الحرب على الرسول صلى الله عليه وسلم والقضاء عليه وقالوا لهم: "إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه" ولهذا أنزل الله فيهم [ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد لهم نصيراً] (٣) إلى آخر الآيات المذكورة في شأنهم. كان وفد اليهود الذين ذهبوا إلى مكة لتشكيل التحالف العسكري مع قريش بقيادة سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي حقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، واتفقت كلمتهم على غزو المدينة في شوال في السنة الخامسة من الهجرة. ولما وصل خبر إتفاق اليهود مع المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم وكان بينه وبين اليهود عهداً "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عباد بن بني ساعدة وهو سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تقتوا في أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس، قال: فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن عباد: دع عنك مشاتمهم، فما بيننا وبينهم أربي من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين" (٤).

كانت المؤامرة كبيرة، بل كانت أكبر مؤامرة هددت الإسلام والمسلمين في عقر دارهم، وكان الهدف خطيراً لأنهم لم يسعوا إلى تحقيق نصر محدد على المسلمين أو رد ثأر لغزو بغزو، بل كان هدفهم تدمير الإسلام وقتل صاحب الرسالة. كأنما كل تاريخ اليهود وماضيهم وعراقتهم في قتل الأنبياء وإشعال الفتن، كأنما تبلور في هذه الفترة من التاريخ لصياغة أخطر حلف ضد الإسلام. حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطر أثناء حصار التحالف المشرك للمدينة والذي

دام قريباً من شهر، اضطر إلى التفاوض مع قائد غطفان الحارث بن عوف وعيينه بن حصن وكانوا مع عشائريهم من جملة التحالف المعادي، وأغراهم بالمال لينسحبوا بمن معهم من الحلف، ووصلا بعد التفاوض إلى الاتفاق على "إعطائهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه" (٥). وقبل أن يوقع الرسول صلى الله عليه وسلم على الاتفاق بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليستشيرهما بالاتفاق فقالا له: "يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب. فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قوى أو بيعاً، أفرحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت وذاك" (٦).

أليس في كلامهما سعد وسعد الألم والشكوى "أفرحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا" لقد تبرع الأنصار بأموالهم لله، تقاسموها مع إخوانهم المهاجرين، وهبوا للإسلام كما وهبوا أرواحهم بإرادتهم ولكن ليس بالقوة، أبعده الإسلام يعطون لعدوهم بالقوة أموالهم. كان الإيمان وعزة النفس يمنعهما من الرضى، وكان الامتحان كبيراً. ولو قال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم أعطوا لأعطوا. ولكنه لحكمة شاورهم، ربما ليتيقن من صلابتهم، وكان بعض المسلمين من الأنصار قد خافوا الحرب فطلب أوس بن قبيظي أحد بني حارثة بن الحارث من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمح له مع قومه بالانسحاب قائلاً: "يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك عن ملأ من رجال قومه. فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة" (٧) وقال معتب بن قشير وهو أحد المسلمين الذين شهدوا بدرًا، وقد ألقته الوسواس وجوع المسلمين وسوء أحوالهم: "محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط" (٨) وربما كان له العذر لأن الإيمان لا ينسجم دائماً مع منطق حسابات العقل بدون شفافية ومعرفة بعلوم النبوة وإلهاماتها.

كانت الإشارات الإلهية تتوالى قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده بعثته لمن يفهم لغة الإشارات. فقد كان على عبد المطلب أن يبصر بقسمه وأن

يضحي بعبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم وفاء لعهدده إن ولد له عشرة رجال وكبروا حتى يكونوا له حمى لينحرن أحدهم عند الكعبة. وحين كبروا وجاء بهم ليضرب عليهم بالقداح ووضع سهماً باسم كل واحد منهم، خرج سهم عبد الله الذي سيكون والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا أن قریشاً منعت عبد المطلب من التضحية بعبد الله وتم فداؤه حسب نصح العرافة بالإبل التي بلغت المائة لتغير مجرى التاريخ الإنساني كله. ولكن ما حدث لمن يعرف كان من جملة الإشارات والمقدمات لما سيحدث قبل ولادة الهادي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وكان اللغز الثاني قدوم أبرهة لهدم الكعبة في عام ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ولد الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. وقد ذكر في التواريخ أن الفيل جاء مكة في المحرم، وأنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوماً. فكان قدوم جيش أبرهة والنكبة التي أصيب بها حيث قضي على الجيش بمرض الحصبة المفاجئ بعد أن وصل إلى تخوم مكة ونزل في مراعيها مما جعله يصيب إبل عبد المطلب ويحتجزها ثم تخلى عنها بعد زيارة عبد المطلب. كل هذه الحوادث التمهيدية كانت إشارات لها دلالاتها التي لا يمكن أن تفهم بدون النظر إلى صاحب الرسالة المختار محمد صلى الله عليه وسلم المعتمى به من الله. فقد أسهم مصير جيش أبرهة وما آل إليه في رفع مكانة الكعبة في أنظار العرب، وراحت كلمة عبد المطلب التي سخر منها أبرهة تدوي في أرجاء الجزيرة العربية "إن للبيت رباً يحميه" بعد أن شاهدوا وسمعوا بما آل إليه مصير الجيش الذي أراد أن يهدم الكعبة. كان عبد المطلب قد جاء إلى أبرهة الحبشي بعد أن وصل جيشه لتخوم مكة واحتجز له مائتي بعير. ولما قابله سأله عن حاجته فقال "حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه، قل له: كنت قد أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه قال: ما كان ليمتع مني. قال: أنت وذاك" (٩).

كانت زيارة عبد المطلب قد طمأننت أبرهة على سلامة جيشه بعد ان تأكد من حوار مع عبد المطلب إلى خلو الكعبة من أي مدافعين عنها. لهذا رد الإبل لعبد المطلب لئلا يواجه أي مقاومة، وهياً جيشه لتنفيذ هدفه الذي بدا له سهلاً.

ولكن مفاجأة أبرهة كانت لا تقل عن مفاجأة العرب فقد بدأ المرض يحصد الجيش، وأصيب أبرهة نفسه بالمرض فأمر جيشه بالعودة إلى صنعاء التي كان يسيطر عليها، ولم يمت حتى شاهد بعينه مصير جيشه وقد حصده الموت، مما رفع مكانة الكعبة في أذهان العرب وقد تأكد لهم "أن للبيت رباً يحميه". كما رفع مكانة قريش لجوارهم للحرم بشكل عام ومكانة بني هاشم بشكل خاص لتوليهم خدمة الحرم. وكان الله يمهد الطريق للإسلام وللرسول بما هيأه من أسباب لرفع مكانة الكعبة، وبما هيأه من مجاورين للحرم إمتازوا بالسخاء والكرم والشجاعة، فكانت قريش موضع نظر العرب ورمز سيادتها رغم جاهليتهم التي لم تمنعهم من اختيار الأخلاق الفاضلة، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما ولدتني بغي قط منذ خرجت من صلب آدم، ولم تزل تنازعني الأمم كابرأ عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب: هاشم وزهرة" (١٠) وكان ما كان من تطور الحوادث على الأحباش بعد ذلك حيث قضى على ملكهم في اليمن بتعاون سيف بن ذي يزن مع الفرس.

إن كل من يحاول أن يقرأ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والأحداث المحيطة به سيكتشف في كل مرحلة إشارة من الإشارات التي تدل على وقوع حدث خطير. فقد كان التاريخ يتهدى والرسول صلى الله عليه وسلم يهياً لحدوث هذا الأمر العظيم. لقد اختلف زعماء قريش وهم يعيدون بناء الكعبة على وضع الحجر الأسود في مكانه لمكانته عندهم، ولم يتوصلوا إلى قرار يرضيهم حتى اقترح أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أن يحكموا أول من يدخل من باب الكعبة. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الداخلين فقالوا "هذا الأمين رضينا، هذا محمد". كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشهوداً له بالأمانة بينهم وهي سبب خطبته من خديجة بنت خويلد نفسها رغم فقره وغناها. وكانت المفاجأة التي لم تخطر لهم على بال أنه اقترح حلاً يرضي الجميع حين عرضوا عليه مشكلتهم، فقال: "هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعه جميعاً. ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه" (١١) كان عمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت خمسة وثلاثين عاماً. كان الاشتراك في بناء الكعبة شرفاً بحد ذاته. أما وضع الركن في مكانه فقد كان شرفاً خاصاً تنازعوا عليه حتى جاء الرسول فأطفأ نار هذا النزاع، وحظي بالشرف الخاص الذي تسابقوا عليه، فبدت لهم حكمته التي فاقت حكمة كل من حوله، وظهرت جدارته فوق ما يعرفون عنه. فكان التاريخ يسير والمصادقات تأتي، لمن يريد أن يعتقد بالمصادقات،

لإبراز الحكمة التي حظي بها هبة إلهية حتى قال "أدبني ربي فأحسن تأديبي" (١٢) ولهذا شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ما زوي له من الدنيا، ورأى من أحداث التاريخ المتلاحقة ما أخبرنا عنه. لتصح له السيادة على الإنسانية بما علم وعلم وأخبر حباً بالعباد ورحمة بهم لئلا يكونوا من أصحاب النار. لهذا كان إرساله من باب الرحمة فقال الله [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] (١٣).

لقد أراد كسرى وهو أبرويز بن هرمز بن أنوشروان أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكثيرون حاولوا ذلك وأخفقوا فأرسل كتاباً إلى عامله على اليمن باذان، وكانت اليمن كما مر معنا قد وقعت تحت سيطرة الفرس، جاء فيه: "إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة، يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب، وإلا فابعث إلي برأسه". فبعث باذان بكتاب كسرى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا" فلما وصل الكتاب إلى باذان توقف لينظر وقال: "إن كان نبياً فسيكون ما قال" (١٤) ثم جاءت الأنباء إلى باذان بقتله على يد ابنه شيرويه ليلة الثلاثاء لعشر من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة. لهذا أرسل باذان بوفد من العرب والفرس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبإيعوه على الإسلام في السنة العاشرة للهجرة بعد أن أقنع من حوله من أصحاب الرأي ولهذا دخلت اليمن الإسلام بدون حرب.

لقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه حدود تحركات المسلمين وجولاتهم في المستقبل كما رآها، وأخبرهم بما سيفتح عليهم من البلدان كما رأينا من نصوص الأحاديث.

ولم يكد ينتهي العقد الثاني من الهجرة النبوية حتى كان المسلمون قد فتحوا بلاد الشام ومعظم بلاد فارس. ففي خلافة أبي بكر الصديق عام ١١-١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤ م وجه أبو بكر الجيوش لإمبراطوريتي الفرس والروم وتابع عمر بن الخطاب سياسته بعد أن تولى الخلافة من ١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤ م ففتحت دمشق أواخر عام ١٣هـ والقدس سنة ١٦هـ والاسكندرية عام ٢١هـ ونهاوند عام ٢١هـ وقتل يزيدجرد الثالث سنة ٣١هـ في خراسان آخر ملوك الفرس. وكان رستم قد قتل في وقعة القادسية عام ١٥هـ وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى" (١٥) كان رستم قد قال

للمغيرة بن شعبة حين جاء يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب "والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين" فقال المغيرة "لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه" (١٦).

لقد كان ذهول المسلمين الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه حين جاءتهم أخبار الفتوحات لا يقل عن ذهولنا ونحن نستمع إلى هذه الأخبار ونقارنها بحقائق العصر السياسية فتنبو عن المقارنة. هؤلاء الذين حوصروا في مدينتهم في السنة الخامسة كيف تمكنوا من توجيه ضربة واحدة لأكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت. لو حقق المسلمون بعض الانتصارات فقط، ربما كنا سنظن بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقوي المعنويات بمثل هذه الوعود. لو صدقت بعض النبوءات دون بعض سيكون من حقنا أن ننظر إلى هذا الكلام على أنه رفع للمعنويات. ولكن أي نبوءة لم تتحقق؟ عندما نقرأ كل النبوءات ونشهد تحققها على الأرض لن يبقى لنا أي حق في الجدل في أمور لا يعلمها إلا الله. ولو كان مثل هذا العلم يمكن تعلمه بالقراءة والكتابة لتعلمه أغلب الناس. ومع ذلك فإنه علم العابدين لله الممثلين لأمره. ولهذا لا يقدر في صحة هذا العلم أن يعرفه أناس ليسوا من الرسل. وقد قال الله "ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء" [١٧].

ولم يخصص الذين قد يحيطون هل هم من الرسل أو غيرهم، كما لم يخصص مستوى الإحاطة فهو الذي يعطي ما شاء لمن شاء من علمه. فعلم الغيب علمه. ومع ذلك فالوصول إليه بالأسباب وهذا من عدل الله. فكل من عرف معنى العبودية وعمل بما تقتضيه سيكون له نصيب من هذا العلم على قدر إمتثاله للأمر والغوص فيه لربط العقل المصنوع بالصانع والاستمداد منه. وبما أن الرسل كانوا أكثر عبودية من غيرهم لهذا كان حظهم أكبر في هذا المجال من الأنبياء. وكان حظ الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من كل الرسل لأن عبوديته بلغت الذروة التي لا يستطيع أي إنسان أن يتجاوزها، لأن الاستعدادات الإنسانية لها حدود. وقد بلغت هذه الاستعدادات ذروتها في الرسول صلى الله عليه وسلم قد يقول قائل: إن جهاد بعض الأولياء وعبادتهم فاقت كل عبادة ممكنة، ومع ذلك فإنهم لم يتوصلوا إلى العلوم التي توصل إليها الرسل. وقد يكون هذا صحيحاً بالظاهر لأن هذا العلم لا يوصل إليه بعبادة العابدين ولا بعلم العالمين، وإنما بنور الإيمان وصدقته. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين أراد أن يسبق أبا بكر: "يا عمر! وترت قوسك بغير وتر،

ما بين صدقتكما كما بين كلمتيكما" (١٨). والسبق ثمرة سباق المتسابقين، والمتسابقون كان منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. ولكن أبا بكر كان سباقاً، وقال عنه عمر "لا أسبقه إلى شيء أبداً" فقد ورد في حديث عن عمر بن الخطاب قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدق ووافق ذلك ما لاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً" (١٩) وكان من المتسابقين أناس فرغوا أنفسهم للعبادة في المسجد فأخرجهم عمر كي يعملوا قائلًا: "إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"، وكانوا يظنون أنهم سيسبقون بهذا التفرغ. وربما غاب عنهم أن العمل عبادة. ولهذا حدد الرسول صلى الله عليه وسلم السباق بالشرعية فقال حين جاءه الشبان الثلاثة وقرروا أن يعبدوا الله بما لم تأمر به الشرعية كما جاء في الحديث: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" (٢٠) فالالاقتداء يتطلب متابعة المقتدى به، بمعرفة أعماله وأقواله للمقتدى ليتحقق الوصول وإدراك سر الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وسر خلافته وعبوديته. لأن سر العبودية هو من أسرار العلم. فالإنسان لا يخضع بشكل إرادي إلا لمن هو أعلم منه وأعظم. وطالب العلم يطبع أستاذه لما يراه من علمه وحرصه عليه. وحينما يتجاوز علم أستاذه لا يطيعه وإن احتفظ بوده. وكل إنسان لا يعرف قدر من هو أعلى منه إلا من حقيقة معرفته بالعلم والعالم. لهذا فإن عالم الفضاء يعرف عظمة علماء الفضاء، ولكن النجار لا يعرف عنهم شيئاً ولهذا لو جاءه عالم فضاء سيتعامل معه كزبون عادي وإن أثر فيه الاسم. بينما لو شاهده تلميذه قد يستغرب لذهوله أن يراه يتحدث إلى نجار لما يعرف من عظمة علمه. ولهذا لا تتحقق العبودية بدون المعرفة. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إني لأخشاكم لله وأتقاكم له" وقال "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وكيتم كثيراً" (٢١) واختار بما له من المعرفة العبودية المطلقة لله بالترامه بما أمر. لهذا لا يتجنب المسلم الجاهل بعض المحرمات وإن صلى

وصام. ولو عرف آكل لقمة الحرام ضررها لما أكلها، ولو لم يعرف وأطاع الشريعة لانتفع من طاعته، لأن كل جسم نبت من الحرام فالنار أولى به كما جاء في الحديث الشريف. والنار في الدنيا والآخرة لها إحراق، ولكن لا يرى ما تقعله غير العالم أو المصدق. لهذا قاتل المسلمون مع الرسول صلى الله عليه وسلم دفاعاً عن المدينة وهم واثقون من النصر. ولكنهم لم يقاتلوا لينتصروا على هرقل وكسرى أو ليستمتعوا بأموالهم، وإن استمتعوا، وإن وجد بينهم من قاتل لدنيا يصيبها، فنحن إنما نتكلم عن الخواص لا العوام، وكان الخواص على هذا المنوال يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا. لقد أجزنهم في صلح الحديبية أن يعودوا إلى المدينة بدون أداء الحج، وأن يوقع الرسول صلى الله عليه وسلم على معاهدة لا تساوي بين حقوق المسلمين والمشركين. إذ كان من بنودها أن يعيد الرسول صلى الله عليه وسلم كل مسلم من أهل مكة إلى ذويه. بينما كانت قريش غير ملزمة بإعادة المرتد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا جاء عمر بن الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله "أأنت رسول الله.. أأليسوا بالمشركين.. أولسنا بالمسلمين - والرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: نعم فقال عمر "فعلام نعطى الدنيا في ديننا، فقال صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني" (٢٢) كانت أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤاه تحير أقرب الناس إليه وتكشف عن معنى العناية الإلهية بالإنسان الخليفة الذي كانت تظهر على يديه القدرات الخارقة التي لم يعرفها البشر في ماضيهم أو حاضرهم، ولهذا حاروا بين ظهوره بالصورة البشرية، وبين قدراته الخارقة التي قاسوها بمقاييسهم. وهو أمر محير لا طاقة للإنسان بمعرفته وقبوله بسهولة. وقد تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لما يشبه هذا الموقف في بداية أمره حين جاءه الوحي ثم انقطع عنه حتى حزن حزناً دفعه إلى التفكير في التردّي من شواهد الجبال. فكان كلما خطر له مثل هذا خاطر "تبدى له جبريل. فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقاً" (٢٣) ثم جاءه الوحي بعد ذلك بسورة الضحى التي بدأت بتأكيد الله للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما تركه ولا أهمله [والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولنسوف يعطيك ربك فترضى] (٢٤) ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعذر قومه ويجادلهم بالحسن، لمعرفته بجهل من يجادلهم بأمر الوحي وأسراره وصعوبة التصديق به، بعد أن ذاق الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه مثل هذه الحيرة كما رأينا. فالعلم بالوحي

أمر عظيم لا تطيقه كل العقول، وإن كانت براهينه تتتابع أمامهم بإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم للناس عن بعض شؤونهم أو أفكارهم. ولهذا آمن المؤمنون بالوحي من الله، ونسب الكافرون علم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السحر، لأن الكافرين بالغوا في اعتقادهم بما يجب على الرسول أن يفعله فيما لو كان صادقاً فضلوا. ولهذا سألوه أن يرقى في السماء، أو أن يفجر لهم جنات وأنهاراً، وأن لا يحتاج إلى العمل والكفاح. فقالوا: **[ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق]** (٢٥) لقد ضللّتهم مبالغاتهم في تصور إمكانيات من ينسب نفسه إلى الله، فلم يفهموا حقيقة الرسول كعبد، وحقيقة الله المالك، وبدا لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله، فهو ليس بالرسول، وإنما هو بشر مثلهم وإن تميز ببعض المزايا الخارقة. وظن بعضهم أن الله لا يمكن أن يختار رسله من بين البشر. والرسول كما عرفوه فهو منهم ويتكلم بلغتهم ويستخدم حروفهم ومنطقهم، فكيف سيؤمنون به وهو يشبههم. لقد التبس عليهم الأمر فقال لهم الله **[ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون]** (٢٦) ولكنهم لم يفهموا سر الامتحان الإلهي في دنيا الكفاح والمعاناة للوصول إلى الجزاء في الآخرة التي التبس عليهم أمرهم أيضاً.

من يدقق في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بنور البصيرة ليقراً ما وراء الكلمات ستبدو له حقائق غابت عنه وهو يقرأ ببصره ويلجأ إلى القواميس لفهم معاني أقواله. لأن كلامه صلى الله عليه وسلم لا تحيط به القواميس ولا شروح الشارحين، لأنه المعجزة الكبرى في ذرية آدم فكيف سيعرف وكل الذرية دونه في الخلق والعلم وإن تشابهوا في الخلقة. تتبع المشركون حياته وبحثوا عن هفوات له قبل النبوة لإعلائها والاحتجاج بها لمنع دعوته من الانتشار، وكانت حياته وحياة كل مكي معروفة منذ الطفولة إلى آخر لحظات العمر. فمكة كانت قرية كبيرة وكان كل إنسان فيها يعرف الإنسان الآخر على عادة أهل القرى اليوم. وكانت كل عائلة تسجل على العائلات الأخرى أخطاءها للتشهير بها عندما تدعو الحاجة إلى التشهير. وقد فتشوا وبحثوا ورجعوا إلى أيام طفولته الأولى وكان من الذين فتشوا عمه أبو لهب الذي كان قد خطب ابنتيه إلى ولديه عتبه وربيعه، ثم تركهما بعد أن ظهر أمر نبوته صلى الله عليه وسلم ومع ذلك لم يكتشفوا تهمة واحدة تسيء إليه، فاتهموه بالسحر عندما رأوا ما لم يفهموه. ومن أخلاق الجاهلية فيما يبدو قول الصدق وتجنب إتهام الخصم بما ليس فيه مما نفتقر إليه في حياتنا المعاصرة في المعاملات بين المسلمين أنفسهم. وهذه الأخلاق هي التي دفعت

أخت عمرو بن ود إلى القول في وصف قاتل أخيها علي بن أبي طالب يوم غزوة الخندق، مع إن عمرو كان يقوم بألف فارس:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظيره وكان يدعى أبوه بيضة البلد

هذا هو المجتمع الذي جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم ليرتفع به إلى الذروة بما فيه من الأخلاق، وبما سيضيفه الإسلام إليه. مجتمع الكلمة والفخر بالأنساب والبطولة والكرم. حتى أن هنذاً زوجة أبي سفيان حين جلست بين النساء لتبايع على الإسلام وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من شروط هذه المبايعة "وأن لا تزنين" تساءلت مستغربة وكأن هذا الأمر من البديهيات " وهل تزني الحرة..". وما أكثر المناسبات التي تدعو للتأمل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي حياة مجتمعه، الذي سينطلق خلال أقل من عقدين من الزمان لتقويض أعظم الممالك القائمة في ذلك العصر، وهما مملكتا الروم والفرس كما تتبأ العالم بالتاريخ وحوادثه. فقال لأصحابه عندما جاؤوا يشكون إليه ما يتعرضون له من العذاب "ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون" (٢٧).

ومشى الراكب بين صنعاء والمدينة وبين مكة والمدائن، ومن المدائن إلى الاسكندرية لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه. كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى أصحابه بأهل مصر خيراً عند فتحها فقال لهم: "إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقطبها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة" (٢٨) وفي حديث آخر "الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله" (٢٩) وقد نقل عمرو بن العاص هذا الحديث إلى زعماء النصارى وأساقفتهم عندما اجتمع بهم ليخبرهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب فقال لهم: "لقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا، وأوصانا بأهلها خيراً فقال: ستفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقطبها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً. فإن أجبتمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذمة إلى ذمة" فقال أحد الأساقفة: "إن الرحم الذي أوصاكم بها نبيكم لهي قرابة بعيدة، لا يصل مثلها إلا الأنبياء" (٣٠) فقبط مصر بمنزلة أخوال إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. لأن هاجر أم إسماعيل كانت منهم. لقد سارت حقائق التاريخ بحسب مشاهد النبوة. سارت بالأمس كما تسير

اليوم، وكما ستسير في المستقبل إلى قيام الساعة. وإذا كان حديثنا عما تحقق مما تحدث عنه صاحب الرسالة قد وصل إلى كل عقل، وشهده كل إنسان في الشرق والغرب. فإن البقية الباقية من الأحاديث التي وصلت إلينا قد تفيد المكابر والمنكر لأن من قال كما وصف القرآن قول المشركين في ذلك الوقت **[إن هذا إلا سحر يؤثر]** (٣١) لا يصح على زمننا مع تقدم العلم وانكشاف السحر وإطلاق المراكب الفضائية. المشركون السابقون لم يشاهدوا آيات التاريخ كما نشاهدها اليوم ولهذا فليس لنا العذر الذي كان لهم ونحن نشهد آيات الله ورسوله في شتى الميادين لإظهار حقيقة الرسول والرسالة بالإعجاز الذي لا يملكه البشر. وكان من آيات الرسول صلى الله عليه وسلم إخباره لأصحابه عن بعض ما سيتعرضون له في المستقبل، كما رأينا، وكما سنرى ذلك.

النبوة والدليل النفسي

في كل مرحلة من مراحل التاريخ تظهر فيه قيادة لها تأثيرها، لابد لهذه القيادة أن تترك آثارها وبصماتها على من حولها سلباً أو إيجاباً. وقد تمتد هذه الآثار والتأثير على الأجيال القادمة بقدر إخلاص هذه القيادة وحكمتها. والنبوة لا يمكن أن تؤثر في الناس إلا بالأسباب التي يقبلها العقل البشري. ولهذا فإن نجاح الرسول يتطلب كل ما يتطلبه نجاح أي قيادة سياسية في مجتمعها ومحيطها. ولا يمكن أن يأتي الكمال إلا من الكاملين، كما أن الحكمة لا تأتي إلا من الحكماء.

ولهذا، وإن كنا نربط بين نجاح الأنبياء والتأييد الإلهي، فإن هذا الربط لا يجوز أن يجعلنا غافلين عن فهم أسباب نجاح الرسل من كونهم بشراً تعاملوا مع البشر بكل الحرص والحكمة التي تتطلبها القيادة الإنسانية في أرفع مستوياتها. لهذا فإننا سننظر إلى أوضاع الرسل في مسيرة التاريخ الإنساني من كونهم بشراً كان لهم دورهم في حركة التاريخ. فإلى أي حد كان هذا الدور والتأثير؟

لو نظرنا إلى التاريخ نظرة عامة شاملة وأردنا أن نتذكر القادة التاريخيين، وربما لن نذكر إلا قلة منهم، الإسكندر المقدوني، وبعض قياصرة روما، والفراعنة. ولكن كل هؤلاء القادة التاريخيين لم يبق لنا التاريخ من ذكرهم غير بعض الآثار والمدن التي قاموا بإشادتها، وربما بعض الكلمات. وسنجد أشهرهم يوليوس قيصر الذي قتله المجلس الروماني غيلة بعد أن تحول إلى طاغية. سنجد أن أقرب الناس إليه كان مع المتآمرين على قتله حتى قال وهو يلفظ أنفاسه "حتى أنت يا

بروتس". وهذا كما لا تخفى دلالاته. فإنه يدل على ضيق الشعب بحكامه كلما طاللت أعمارهم أو فترة حكمهم. وأما الاسكندر المكدوني فقد مات شاباً ولهذا لم يضطر رفاقه إلى تنحيته بالقوة. وإذا نظرنا إلى أحوال الصراع بين قادة الفرس فكم سنجد من حوادث الغدر، الولد بأبيه، والمرأة بزوجها. وإن تاريخ الرومان حافل هو الآخر بهذا النوع من الاغتيالات والانقلابات وسمل عيون الحكام وإعدامهم، ولعن كل حاكم لمن سبقه من الحكام. وبعضهم لم يتورع عن قتل أمه ومنهم نيرون قيصر روما. وإذا نظرنا إلى قيادة هؤلاء فلن نجد واحداً منهم زاهداً في الدنيا، بل كلهم أكل منها وشرب، حتى الثمالة، واستمتع بكل ما أتاحه له عصره بدون أي رادع أخلاقي أو ديني حتى عندما كان يدعي الإيمان. وإذا أخذنا مثال شارلمان الذي كان معاصراً لهارون الرشيد، والذي استمر حكمه سبعاً وأربعين سنة تقريباً من عام ٧٦٨م إلى وفاته في عام ٨١٤م. فإننا سنجد هذا الملك الملقب بشارلمان العظيم، والذي "كان عدل الحكام الذين عرفتهم أوروبا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكثرهم استتارة" (١)، كما يقول ول ديورانت، سنجد هذا الملك المتحمس لنشر المسيحية، بل إن "أشد ما كانت قسوته فيما بذله لنشر الدين المسيحي" (٢). سنجد أن هذا الملك المسيحي قد ضرب عرض الحائط بالأخلاق والقيم المسيحية حين نستعرض حياته الشخصية، وإن كان لا يأكل طعامه قبل أن يباركه الأسقف. فهذا الملك كما يقول عنه ول ديورانت: "بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج، وقال إنه لا يطيق فراقهن، ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتداء في أحضان العشاق، وجئن بعدة أبناء غير شرعيين. وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى، وأربع عشيقات أو حظايا... وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون. وعض من في حاشيته ومن في روما من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية" (٣). هذا هو شارلمان الذي كان على رأس "دولة أعظم من الامبراطورية البيزنطية لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين" (٤). والذي كان قاسياً في نشر المسيحية، التي أعفى نفسه منها. فالحكام على هذا المنوال كانوا يأمرون الناس بالأخلاق الحميدة ولكنهم غالباً كانوا يفعلون غير ما يقولون، لهذا كان تأثيرهم في التاريخ لا يعدو عصرهم. وكان المؤرخون غالباً، بل أقرب الناس إليهم، هم الذين يقومون بنبش ماضيهم للكشف عن انحطاطهم وانحرافاتهم عن الطريق المستقيم. وإذا أردنا أن نذهب إلى تاريخنا المعاصر الأقرب إلينا لإلقاء نظرة على أصحاب القضايا،

ودعاة الإصلاح أو الثورة، فإننا سنواجه في حياة المصلحين والثوريين زيفاً وتناقضاً بين أقوالهم وأفعالهم، لا يقل عما وجدناه في حياة شارلمان. فالمصلح كان مصلحاً في خطابه وفي تطبيقاته على الشعب. والاشتراكي كان اشتراكياً في المهرجانات والإذاعات. ولكنه لم يتورع عن قتل الناس الذين اشتبه بمعاداتهم للاشتراكية أو الماركسية كما رأينا في الأنظمة الشيوعية. أما حياة القادة فكانت مفتوحة إلى أقصى الحدود على الترف والملذات والحياة غير الاشتراكية، لأن المبادئ كانت بالنسبة للقادة زاد الحمقى الذين لا زاد لهم. ولهذا أسقط ستالين عشية سقوطه، وسقط غيره من كبار الحكام وصغارهم، كما سقطت ثوراتهم وثورتهم. وصار سلاح العصر لضبط خداع الحكام ومكرهم هو الديموقراطية ورقابة الشعب، لأن رايات الإيمان والمعتقدات والشعارات أحبطتها حياة الحكام الذين كانوا يقولون ولا يفعلون، قبل أن يحبطها هجوم الأعداء في الخارج. ولهذا سقطت الشيوعية كما رأينا، كما سقطت الثورة الفرنسية من قبل بأيدي الثوار أنفسهم. إزاء هذا الواقع الذي عاصرناه أو قرأنا عنه لا بد أن نتساءل عن سر بقاء الأديان وارتقاع الرسل إلى مستوى القدسية رغم انحطاط الأخلاق، وانحسار الأديان. لماذا بقي موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلوات والسلام رموزاً ساطعة في تاريخ البشرية. كما بقي بوذا وكونفوشيوس على هذا المستوى من السمو في قلوب شعوبهم.

لماذا كان تلاميذهم الأقرب إليهم أشد تعلقاً بهم، بينما كان الرفاق الأقرب للقادة التاريخيين يتصلون منهم ومن أعمالهم، ولا يتورعون عن توجيه النقد إليهم ليس بسبب أخطائهم السياسية، بل لما كانوا عليه من التناقض بين خطابهم السياسي وحياتهم الشخصية. وربما كانت مصالح بعض نقادهم لا تقل سوءاً عن مصالح القادة الذين وجهوا إليهم اتهاماتهم، حتى بتنا رغم كثرة وسائل الإعلام لا نعرف الحق من الباطل في نقد الناقدين لتعارض الناقدين إلى درجة لا تصدق بسبب سيادة المصالح، والتخلي عن الصدق لحساب أرباح الدعاية، مما جعل الكلمة سلعة من سلع التجارة، التي تقال لنصرة باطل لا خلاف عليه أحياناً. إننا أمام هذه المسائل الشائكة ولعن الآخرين للسابقين، ولعن الشعوب بحسب ولانها للجميع، لا بد أن نقف لتأمل الأسباب التي وضعت الرسل في المكان الأرفع بين رجال التاريخ، فلم يتعرضوا إلى ما تعرض إليه القادة والسياسيون حين امتلكوا السلطة، وقد وصل إخلاص أصحابهم لهم إلى حد فدائهم ليس بالمال وإنما بالروح في حياتهم وبعد وفاتهم. ولكي لا نتحدث بدون سند فإننا سنقدم بعض الحوادث للدلالة على مظاهر هذا الولاء من أقرب المقربين إلى الرسل صلوات الله عليهم.

ونحن نريد أن نعتمد على سلوك أقرب المقربين لأن المقربين هم الذين كانوا ينقلبون على قادتهم دائماً قبل الآخرين، ليس بسبب حب المقربين للتأمر، ولكن لأنهم كانوا يعرفون بسبب قريتهم من قادتهم أسرار هؤلاء القادة وخيانتهم لمبادئهم. ولهذا كان من الطبيعي أن يخونهم الذين من حولهم في حياتهم أو بعد مماتهم. بينما ظل أتباع الرسل محافظين على ولائهم وإيمانهم، فتلاميذ موسى عليه الصلاة والسلام حافظوا على إخلاصهم لإيمانهم، وظل موسى بالنسبة لليهود قدوة عالية لا يختلفون عليه، وإن اختلفوا على تفسير التوراة أو على تطبيقها كما فهموها وفسروها.

ونحن لا نريد أن ندخل في سلوك اليهود ولكننا نستطيع أن نلاحظ اجتماعهم على احترام موسى عليه الصلاة والسلام والأمر لا يختلف بالنسبة للمسيحيين في رؤيتهم للمسيح عليه الصلاة والسلام الذي غاب عن تلاميذه وهو في الثالثة والثلاثين، فحمل الحواريون رسالته إلى العالم ونشروها، وتحملوا المشاق الكثيرة من أجلها.

ورغم أن موسى وعيسى عليهما السلام قد ظلا مثل أسطورة نظراً للظروف الغامضة التي مرا بها في حياتهما. إذ هرب موسى عليه الصلاة والسلام من مصر وعاش عند النبي شعيب ثم عاد إليها بعد حوالي عشر سنوات ليدعو إلى الله. كما أن حياة المسيح عليه الصلاة والسلام يكتنفها الكثير من الغموض إذ جاءت الرواية عن حياة المسيح عليه الصلاة والسلام في الأناجيل لا تتعدى أربع صفحات وهي تنقل عن زواج أمه السيدة مريم العذراء من يوسف النجار، وإبلاغ الله ليوسف في الرؤيا بحمل مريم قبل أن يتزوجا من الروح القدس، ثم ولادة المسيح عليه الصلاة والسلام وهرب يوسف به مع أمه إلى مصر خوفاً عليه من القتل في زمن حكم هيرودس لفلسطين بأمر الله. ثم تنتقل الرواية وتحدث فجأة عن ظهور يسوع في الجليل وانتقاله إلى الأردن للدعوة إلى الله. ونحن وإن كنا لا نشك في نبوة المسيح عليه الصلاة والسلام، إلا أننا نلاحظ شدة غموض حياته وجهل أقرب الناس إليه بها. ولهذا كانت حياة المسيح عليه الصلاة والسلام شبه أسطورية، وكان بإمكان كل شخص أن ينسج حولها الكثير من التصورات والقصص بخلاف حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت حياته واضحة كل الوضوح، وكان بإمكان كل باحث تتبع هذه الحياة من بدايتها إلى نهايتها بدون أي خلاف ذو أهمية بين الروايات المتعددة التي تحدثت عن حياته وحياة أجداده، لنتأكد من حقيقة مروره بالأصلاص الطاهرة، ومن علو مكانة بني

هاشم وبني زهرة بين قبائل العرب بما كان لهم من الأخلاق والقيم، مما أدى إلى اتفاق عرب مكة إلى تسليم بني هاشم سقاية الحاج، لشرفهم ومكانتهم في قريش. وإن وضوح حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قد أتاح المجال لمن حوله وهم من أتريابه الذين عاصروه وعرفوه قبل النبوة أن يختاروا بين تأييده أو معارضته تبعاً لمعرفتهم به، وأحوالهم العقلية والخلقية. وقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان منذ بداية دعوته إلى نهايتها وهو يدعو إلى عبادة الله الواحد، والزهد في الحياة. وما كان لديه أي غنائم أو وعود بهذه الغنائم إلا في الحياة الآخرة، مما يعني أن الدين سيؤيدونه لن تكون لهم أي غايات دنيوية. ولو كان الذين سيتبعونه لديهم أي قدر من الطعن في سلوكه، أو الشك في كلامه لن يختاروا إتباعه والإيمان بنبوته على معتقدات ألفوها، وهم على قدر من النضج والمعرفة والشأن في قومهم. فلو استعرضنا أسماء الرجال الأوائل الذين آمنوا به سنجدهم على قدر من الوعي والمكانة في قومهم والأخلاق بحيث لا يمكن أن يخطئوا في اختيارهم.

وكما قلنا فإن هؤلاء كانوا على معرفة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الولادة إلى اللحظة التي سمعوا فيها بنبوته. ويجب أن نضيف إلى أحوال الناس النفسية في كل العصور تسابق الأثراب فيما بينهم، والغيرة الإنسانية الطبيعية بين أهل البيت الواحد، مما يحول دون القبول أو التسليم لأحد أفراد العائلة الواحدة بالزعامة أو حق القيادة، إلا لأسباب خارقة للعادة. ولهذا قيل "لا كرامة لنبى في وطنه"، لأن حياته معهم وألفتهم له تجعل كل ما يأتيه بينهم طبيعياً، ولا يبرر له المطالبة بأي حقوق تختلف عن حقوقهم. وإذا أضفنا إلى هذه العوامل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم في قوم، كانت إنفتهم تدفعهم إلى التقاتل على أي مظهر من مظاهر التفاخر كما رأينا في قصة خلافهم على رفع الحجر الأسود. وأضفنا شدة افتخارهم بالأنساب والولاء لأجدادهم. فإن كل هذه العوامل ستجعل من العسير على سليل بني هاشم إقناع أبناء العائلات الأخرى باتباعه، كما ستجعل حتى أبناء عمومته من بني هاشم معارضين له، لأن الزعامة المألوفة كانت قد وصلت إلى أبي طالب وهم الذين سيرثونها بحكم الأعراف القبلية والعادات. إن كل هذه الأمور التي تدعو إلى التأمل لا تسمح للرسول صلى الله عليه وسلم بنجاح دعوته بين أبناء عمومته وأتريابه من أهل مكة بدون رؤيتهم لأمر خارق للعادة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أخلاقه أو فيما يدعو إليه. وقد اجتمع للرسول صلى الله عليه وسلم كل هذه العوامل ولهذا سنجد أول الرجال مبايعة له أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد إسلام زوجته خديجة وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة. وهؤلاء ربما يطعن الطاعنون في صحة معرفتهم

بالدين لصغر سنهم، ما عدا خديجة، وكونهم من بعض أهله. ولكن أبا بكر كان يماثل الرسول صلى الله عليه وسلم في العمر تقريباً وكان من الرجال المعروفين بخبرته في التاريخ والأنساب، وكان قومه يألفونه لعلمه وتجارته وحسن معاملته. ومثل أبي بكر لا يمكن أن يبايع الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام والتبعية بدون أسباب وجيهة مقنعة لديه. وقس على ذلك الذين بايعوا على الإسلام من أهل مكة وهم من كل بطون قريش، وقد رضوا بالمعاناة والإيذاء من ذويهم والهجرة، ومن ثم الموت في سبيل الإسلام. وإذا أردنا أن نعدد أسماء الرجال الأوائل من المسلمين لكي لا نطيل فإننا سنجدهم على التوالي: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية؛ الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد؛ عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن مرة بن كعب؛ سعد بن أبي وقاص بن مالك بن عبد مناف بن زهرة؛ طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي؛ أبو عبيدة الجراح بن هلال بن أهيب بن الضبة بن الحارث بن فهر؛ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد؛ الأرقم بن أبي الأرقم بن عبد مناف بن أسد؛ عثمان بن مظعون وأخويه بن حبيب؛ عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب... ثم جاء إسلام حمزة بن عبد المطلب وتبعه عمر بن الخطاب ليكون ختام الأربعين الذين آمنوا. فكان إسلام عمر إيداناً بتحدي قريش كما قال عبد الله بن مسعود عنه: "إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه" (٥). هؤلاء هم الرجال الأوائل الذين شهدوا للرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة وبايعوه على الإسلام والقيادة والطاعة، وهم من أشرف مكة والعارفين بها. وكانت معرفتهم بمزايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نشأ بينهم هي التي جعلتهم يسلمون إليه أمرهم رغم كل عوائق التريبة القبلية التي ذكرناها. فهل يمكن لمثل هذا التسليم أن يحدث لرجل مثلهم بدون مشاهدة هؤلاء لأمر تميز الرسول صلى الله عليه وسلم عن غيره، وترجح به على من سواه من الرجال؟..

صحيح إن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطر إلى الهجرة من مكة، ولكننا كما سنرى كان سيف الإسلام وترسه المهاجرون من قومه الذين قام على صدقهم وإخلاصهم عمود الإسلام، ولهذا كانت لهم القيادة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا السابقين الذين شربوا مع الدعوة، وشربوا من رحيقها حتى امتزج الإسلام بدمائهم وأرواحهم. إننا كلما حاولنا أن نسير غور النفوس التي بايعت على الإسلام ستكشف لنا قضايا لا يمكن فهمها إلا لذوي الأبواب. فهؤلاء القوم

حين بايعوا على الإسلام تركوا الغالي والنفيس، وقاتلوا أقرب الناس إليهم. وكأنما غسل الإسلام من نفوسهم كل نخوة الجاهلية وتفانها بالآباء، فصار ولاؤهم لكلمة الحق، فخلقوا خلقاً جديداً حين ماتت حمية الجاهلية في نفوسهم، وحلت محلها حمية الإسلام. "نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً، عليه إهاب كيش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه، لقد رأيت بين أبي بن يظن أنه أطيب الطعام والشراب، لقد رأيت عليه حلة اشترت بمائتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون" (٦)..
وحيث استشهد مصعب رضي الله عنه في معركة أحد: "لم يجد له شيء يكفن فيه إلا نمره، كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعلوها مما يلي رأسه واجعلوها على رجليه من الأذخر" (٧).. لم يعد الإسلام هؤلاء الرجال بأي مكتسبات دنيوية، بل كان يأمرهم بالزهد، والإخلاص، والشهادة في سبيل الإسلام. فأى عوامل نفسية أثرت كل هذا التأثير في رجال آثروا جنة لا يعرفون عنها شيئاً ملموساً على دنيا تدعوهم لمتعتها وترفها ولهوها، وغالبية هؤلاء الرجال الأوائل الذين أسلموا كانوا من الأغنياء. كما أن حياتهم في مكة وبما ينعمون به من الحرية والأخلاق المحافظة في جاهليتهم لا تدعوهم إلى الثورة على مجتمعهم أو التمرد عليه، كما يحدث لدى الشعوب المضطهدة في الدول المستبدة. فكل الظروف المحيطة بهذا المجتمع كانت لا تدعو إلى التغيير، بل إلى الرضا والتعغم بهذه الحياة الوثنية التي لا تحرم إلا ما ينزل برجولة الرجل بين أقرانه. وقد أقر الإسلام نفسه بعض قيم الجاهلية وأخلاقها. فكانت الشجاعة والوفاء والصدق والنجدة من بعض قيم الإسلام، كما كانت من أعراف الجاهلية التي تهبط بالرجل أو ترفعه على قدر التزامه بهذه الأخلاق. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إن فقهوا" (٨).. فقد كان الانقلاب الأساسي الذي جاء به الإسلام هو عبادة الله الواحد بدلاً من عبادة الأوثان مع ترسيخ فضائل الجاهلية بجعلها جزءاً من العبادات. ولهذا حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبايع بعض النساء على الإسلام وكانت هند زوج أبي سفيان بينهن، وذكر من شروط الإسلام: "وأن لا تزنين".. قالت هند مستغربة: "وهل تزني الحرة يا رسول الله"... كلما تأملنا في حقيقة الدوافع النفسية التي دفعت بالثائرين العرب إلى تأييد الدين الجديد قبل أن يشهدوا معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، سنجد بأن بعض هذه الأسباب يكمن في تطور العرب العقلي، إذ كانت عبادة الأوثان تتناقض مع الحقائق العقلية. كما أن بعض هذه الأسباب يكمن في حاجات العرب

الروحية في مجتمع بلغ فيه الحس الجمالي بروعة الكلمة وتأثيرها وحكمتها مبلغاً دفعهم إلى إحداث مسابقات للشعر، واختيار أروع القصائد لكتابتها بماء الذهب وتعليقها في أقدس أماكن العبادة الكعبة، لتكون على هذا المستوى من القدسية. وكان الاتفاق على قدسية الكلمة يتناقض مع بعض العادات القبلية التي تقضي بنصر ابن العشيرة ظالماً أو مظلوماً. فبينما كانت الروح تتصاعد مع الكلمة بغض النظر عن قائلها، كانت الأرواح تتصدع على صخور الانتماء القبلي لتحول دون بلوغ الكلمة سماءها التي وصلت إليها بالنظر إلى أصل الناطق بها وعشيرته. وكان التسابق على الفخر بحق وبدون حق قد أنهك الأرواح التي كانت تتسابق على استقبال الضيف بدون أن تسأله من أنت، وهي سعيدة بضيفها وكرمها ورحمتها التي كانت تقدر كل صورة إنسانية. ولهذا كانت الأرواح تتوق إلى إعطاء الأخوة الإنسانية مداها، بتجسير كل هذا التراث الذي يحول بين المرء وأخيه الإنسان في تحالف القبيلة، وتوسيع حدوده ليشمل الإنسانية. لهذا جاء الإسلام ليعيد إلى العقل مكانته التي كانت تنمرد على عبادة الأوثان، وليطلق روح الكلمة من عقالها ويخرجها من أخوة العشيرة إلى سماء الإنسانية. ولهذا رضوا بالجوع والموت بعد أن شبعوا بالكلمة وتغذوا بها، فلم يعد الأنصار أنصاراً والمهاجرون مهاجرين بل أخوة تحلق في حقيقة انتمائها الواحد لأدم، وما يستوجب هذا الانتماء من العدل والإنصاف والمساواة. هذه هي المبادئ التي ألهمت النفوس وفجرت الطاقات. ولكن كل ثورة، وكل ثوار لا يمكن أن يستمدوا من الكلمات وحدها قوة الدفع لبناء مجتمعهم الجديد. لا بد لهم أن ينظروا إلى قيادتهم المتمثلة بالرسول صلى الله عليه وسلم والمقربين منه، للتأكد بأن الكلمة التي تطير في السماء تحيا على الأرض بالمقارنة بين الأقوال والأفعال. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعيش بينهم ويجتمع بهم خمس مرات في اليوم على الأقل في صلواتهم. وكان كل محقق ينحني أمام أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم كما إنحني أمام أقواله. فقد كانت آثار الرسالة ظاهرة في بساطة حياته وحياته أزواجه. وحياته ابنته فاطمة رضي الله عنها الوحيدة التي بقيت طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم على قيد الحياة من بين أولاده. كانت عواطف الأبوة وعواطف الحنو على الأسرة، لا بد أن تقود الأب والزوج إلى تخصيصهم بشيء من المكتسبات الدنيوية، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم المتمرفع عن متع الدنيا أحب لابنته وأسرته ما أحب لنفسه فاختار لهم هذا الزهد، وإيثار الآخرين بما يملك، فعلمهم القناعة والبساطة في الحياة، والنظر إلى رب الكون. في مناسبة من المناسبات جاء علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما إلى الرسول صلى الله عليه

وسلم ليسألاه خادماً، وكانا قد علما أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه بعض الخدم. فقال له علي رضي الله عنه يشكو إليه مما تعانیه فاطمة: "جرت بالرحى حتى أثر في يدها، وحملت بالقربية حتى أثرت في نحرها، فلما جاءك الخادم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ماهي فيه. قال: اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعلمي عمل أهلك، وإن أخذت مضجعتك فسبحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبري أربعاً وثلاثين، فتلك مائة فهي خير لك من خادم. فقالت: رضيت عن الله وعن رسوله". (٩). كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (١٠)، فمن فهم بأن الخير في الدنيا أعطى لأهله منها، ومن عرف أن الخير في الآخرة حرم الدنيا عليهم، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرأف بالمسلمين كرفقته بابنته آخذاً بيدهم إلى الآخرة على قدر همتهم. وإن اشتكوا كما اشتكى الأنصار غداة توزيع غنائم حنين للمؤلفة قلوبهم. كان كل محقق يخرج من تحقيقه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد خذله عقله وفكره وكرمه وإيثاره وزهده عن اللحاق به فهو الشمس التي لا يسبر غورها، ولا تدرك أنوارها، والكل من حوله أفلاك تدور حوله، وتستمد منه، فأين المقارنة وأين المعاينة. لهذا كان الصحابة يتقيؤون ظله ويتكلمون بأنفاسه ليقطعوا المسافات التي تفصلهم عنه. ومع ذلك لم يصل الصحابة إلى حكمته أو رحمته أو سخائه أو شجاعته، فكان في كل مواقف الخير هو الأول. حتى في صبره على الجوع وشطف العيش والرضى بالقليل رغم الكثير الذي كان بين يديه، كان هو الأول. لهذا خضعت النفوس لأمره على قدر قربها منه ومعرفتها به. ولكن لو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بأمر، لو نصحهم بالزهد في الدنيا، وسوغ لنفسه الاستمتاع بطيبات الدنيا التي أقبلت عليه هل سيطيعه الناس كما أطاعوه. ولو وجد أي خلاف بين أقواله وأفعاله، بين تحذيره من الحساب في الآخرة، وتمتعه بخيرات الدنيا وملذاتها، لو سامح نفسه أو أسرته أو المقربين منه في مخالفة أبسط الأوامر الشرعية. لو تبين أنه احتفظ لنفسه ببعض الأموال من الخمس، أو من أي مصدر كان. هل ستستقيم أمور المسلمين، وهل ستظهر الشكوك في حقيقة الحساب في الآخرة أم لا..؟! ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجهل حقيقة الدنيا كطريق إلى الآخرة، ويجهل حقيقة الحساب ما الذي سيمنعه من الاستمتاع بالدنيا، بعد أن وصل المسلمون إلى حد التسابق على أخذ ماء وضوئه، أو شعره كما شاهد عروة بن مسعود الثقفي حين جاء رسولاً لأهل مكة ليفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم قبل صلح الحديبية، فعاد إليهم وقال: "يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقبصر في

ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه" ... (١١) .. هذه هي شهادة مشرك، فمن أين وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه المكانة بين أصحابه، وهل يمكن فرض هذه المحبة بالقوة في ظروفه وفي مجتمع قبلي قوام حياته مبني على الفخر وعزة النفس؟... إننا مهما بحثنا عن أسباب هذا التأثير فإننا يمكن أن نختصره بسبب واحد، هو التطابق بين أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله. وإذا أردنا أن نبحث في أسباب سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم فسوف نجد مختصراً بقوله: "أنا أعرفكم بالله وأخشاكم له"...

من يعرف الله يخاف: "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله" (١٢) ..

لهذا تواضعت النفوس المؤمنة لعلمها وخوفها من الله..

ربما لا تكفي هذه الروايات لفهم حقيقة الرسول والرسالة. ولهذا سنلقي الضوء على حياة أقرب الناس إليه الصحابة الأربعة الذين كانوا الخلفاء من بعده، وكلهم كانت تربطه بالرسول صلى الله عليه وسلم رابطة القرابة والمصاهرة، وهؤلاء من المهم تأمل حياتهم لأنهم وصلوا إلى أعلى مواقع المسؤولية. وكان موقعهم وصحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وقرابتهم تسمح لهم أن يغيروا وأن يخففوا من العبادة، وأن يستندوا إلى أحاديث وأعدار لتبرير سلوكهم كما فعل الخلفاء من بعدهم..

الخلفاء الأربعة والاختداء

إن تتبع حياة الخلفاء الأربعة: (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي) رضي الله عنهم تهمنا لعلاقتها بمسألة الإيمان أو اليقين. فهؤلاء الخلفاء كانوا أقرب الناس للرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت تربطهم معه علاقات قريبي تسمح لهم بأن يعرفوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفاته الخاصة إضافة لمعرفةهم بحياته العامة.

فالخلفاء الأربعة كانوا من أول الناس إسلاماً، وكان أبو بكر قد زوج ابنته عائشة للرسول صلى الله عليه وسلم، كما كان عمر بن الخطاب قد زوج ابنته حفصة للرسول صلى الله عليه وسلم، أما عثمان بن عفان فقد تزوج ابنتي الرسول

صلى الله عليه وسلم تبعاً رقية وأم كلثوم. بينما نشأ علي بن أبي طالب في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم منذ الطفولة عندما أخذه من أبي طالب للتخفيف عنه، فعاش مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، وكان من نصيبه أن يتزوج أحب بنات الرسول صلى الله عليه وسلم إليه والوحيدة التي بقيت على قيد الحياة إلى وقت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء الخلفاء الأربعة سيتيح لهم هذا القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلعوا على تفاصيل حياته الخاصة، وهذا الاطلاع سيؤثر في سلوكهم وفي أحوالهم النفسية، وسينعكس هذا التأثير على قيادتهم عندما سيصبحون خلفاء الأمة وقادتها. فلو أنهم وجدوا أي تصرف للرسول صلى الله عليه وسلم في حياته الخاصة يتناقض عما هو عليه في حياته العامة لابد أن يؤثر عليهم هذا التصرف. فلو عرف أي خليفة منهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأكل من طيبات الطعام في بيته، أو يتنعم بالأموال التي تأتي إليه، أو يدخر من هذه الأموال شيئاً لنفسه أو أسرته، فإنهم لابد أن يعرفوا بهذه الأمور، ولا بد لنسائه أو بناته أن تتكلم لتبرير التوسع على أنفسهن، وخاصة أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما قد عاصرتا خلافة أبيهما. ولهذا ركزنا في هذه الدراسة على حياة الخلفاء الأربعة لدراسة الجانب النفسي في حياتهم على ضوء سلوكهم، لأن هذا السلوك إضافة لكونه تعبيراً عن شخصياتهم، فإنه في جانب كبير منه سيعبر عن معرفتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان قوتهم، وعن فهمهم للشريعة. ويجب أن نقدر بأن أي اختلاف في وجهات النظر بينهم أو في السلوك مستمد من حرصهم على دعم الإسلام ونصرتهم، وعلى ضوء شرعية الاختلاف لمصلحة الإسلام. وربما إن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أخطر قضية واجهها المسلمون وهي قضية الخلافة، يكشف عن طبيعة خلافات الصحابة، كما يكشف عن الفرق بين من أخذ هذه الخلافات للدس على المسلمين والإيقاع بينهم، وبين من فهم مشروعية هذا الاختلاف في حدوده الصحيحة. فقد جاء أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب بعد أن بويع لأبي بكر الصديق بالخلافة، فقال: "يا علي بايعوا رجلاً أذل قريش قبيلة، والله لئن شئت لنصد عنها عليه أقطارها ولأملأنها عليه خيلاً ورجلاً". فقال له علي: "يا أبا سفيان إن المؤمنين وإن بعدت ديارهم وأبدانهم قوم نصحة لبعضهم لبعض، وإن المنافقين وإن قربت ديارهم وأبدانهم قوم غششة بعضهم لبعض، وإننا قد بايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلاً".¹ فالاختلاف حق ولكن التآمر والسعي بالفتنة ليس بحق.

¹كنز العمال، رقم ١٤١٤٤ / ج ٥.

وقد رأينا من اختلاف وجهات النظر بين المسلمين الشيء الكثير. ونذكر بأن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى معركة أحد كان ذكر المؤرخون تلبية لرغبة المسلمين حتى "ندم الناس" كما ذكر ابن هشام: "وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من الصحابة" (٢). كما رأينا وجهتي نظر أبي بكر وعمر في قضية أسرى بدر وميل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رأي أبي بكر والأخذ به. لهذا يجب أن نفهم الاختلاف لا الخلاف كحقيقة مشروعة بين المسلمين في ظل الأمر الإلهي بالشورى، لكي لا يأتي من يلغي هذا الحق لأي مبرر كان. وقد كشف الله في هذه الآية كل مبررات الشورى وضرورتها، فقال: **[فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين]** (٣). كأن الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: (أعف عنهم واستغفر لهم)، قبل أن يقولوا رأيهم وبعد أن يقولوه، ولا يكن بنفسك ضيق مما يقولون. كما جاء في سورة الشورى وصف للمؤمنين الذين يغفرون للناس في الرضا والغضب، ولا يضيقون برأي من حولهم، لأن من صفاتهم الاستجابة لأمر الله وإقامة الصلاة والتشاور فيما بينهم والإنفاق. وهذه صفات متكاملة لا تتحقق للمؤمن بدون الأخذ بها كلها. فهؤلاء **[الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون]** (٤). وشورى كل إنسان في حدود خلافته على من استخلف. فالإسلام أباح شورى الحق والنصح. وحرم شورى الغدر والمكر والفتنة والكذب التي تظهر شيئاً وتريد شيئاً آخر. ولهذا كان قادة المسلمين يتشاورون ويختلفون، وهذا الاختلاف يجب أن لا يأخذ بنا بعيداً كما يفعل أصحاب الأغراض أو الجاهلون بطبيعة الاختلاف وشرعيته. ويجب أن لا نغفل عن حقائق التاريخ وطبائع النفوس حتى فيما يتعلق بالخلافة. فقد رغب الأنصار أن يكون الخليفة منهم وهذا حقهم. كما رغب المهاجرون في ذلك. وهذا الاختلاف والحوار لا يجوز أن ينقص من قدر الأنصار أو المهاجرين إلا بالقياس إلى النوايا لا الظنون التي يخترعها بعض المغرضين لاتهام المختلفين. إذ المهم في هذا الموضوع هو أعمال من استخلفوا

للحكم عليهم وليس ما قيل عنهم قبل أن يستخلفوا. وإن الخلافة بطبيعتها تستوجب الاختلاف، ولا تحتاج إلى الإجماع لتسوية شرعيتها، كما لا تنزل بمكانة المعارضين ولا ترفع مكانة الموالين لهذا الخليفة أو ذاك. فكما أن الشورى حق، فالاختلاف حق تفرضه الشورى، وقد ذهب بعض المسلمين لأبي بكر حين علموا نيته في استخلاف عمر قبل وفاته فقالوا له: "تستخلف علينا عمر فظاً غليظاً، فلو قد ولينا كان أفظ وأغلظ. فما تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمراً؟ فقال أبو بكر: أبري تخوفوني. أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك" (٥). وسوف نشاهد مثل هذا الاختلاف حين اختار عمر بن الخطاب قبل وفاته ستة لاختيار خليفة من بينهم، فرجحت الأصوات المؤيدة لعثمان بن عفان على الآخرين. وهذه مسائل تقتضي من الباحث المنصف أن يفهمها فهماً صحيحاً في إطار حرية الرأي والاجتهاد، وشرعية هذا الحق بنص القرآن، دون إساءة أو اتهام لمن اختلفوا أو اجتهدوا، ودون تخيل تفسيرات ومؤامرات لا وجود لها لخلفاء لا يحق لنا أن نحكم عليهم إلا من أعمالهم كما سنراها. وبما أننا لا نؤرخ في هذا البحث لسيرتهم، ولا نريد أن نستعرض أعمالهم، وإن كل ما يهمنا هو فهم الدلالات النفسية لتصرفاتهم، لذلك فإننا سنبحث عما يساعدنا على الوصول إلى هذه الدلالات. وسنبدأ بأبي بكر الصديق أول الخلفاء.

خلافة أبي بكر الصديق من (١١-١٣هـ)

لقد واجه أبو بكر في بداية خلافته مشكلة ردة بعض قبائل العرب عن الإسلام واحتمال تجمعهم للهجوم على المدينة. كما كانت أمامه مشكلة إرسال جيش أسامة إلى مؤتة وحدود فلسطين لقتال الروم مع عرب تلك المناطق الذين كانوا يكيّدون للإسلام. وكان زيد والد أسامة قد استشهد في معركة مؤتة الأولى. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى قبل وفاته بإرسال جيش أسامة، ولكن أمام الظروف المستجدة، كان على أبي بكر أن يختار بين تأجيل إرسال جيش أسامة لمواجهة خطر الارتداد أو إرسال هذا الجيش. وكانت هناك مشكلة ثالثة وهي رغبة بعض المسلمين بتعيين قائد للجيش بدلاً من أسامة. وقد سمع أبو بكر كل هذه الاقتراحات، وكانت حسابات العقل تتوافق مع مقترحات بعض الصحابة، ولكن حسابات النبوة التي عرفها أبو بكر، كان لها ميزان أكثر اتساعاً وشمولاً وحكمة. ولهذا قال أبو بكر للصحابة: "أنا أحبس جيشاً بعثه رسول الله

صلى الله عليه وسلم لقد اجترأت على أمر عظيم. فو الذي نفسي بيده لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشاً بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به، ثم اغز حيث أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة، فإن الله سيكفي ما تركت، ولكن إن رأيت أن تأذن لعمر بن الخطاب فاستشيره وأستعين به، فإنه ذو رأي ومناصح للإسلام فافعل" .. وأوضح أبو بكر للصحابة سبب موقفه فقال: "إنكم قد علمتم أنه قد كان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم في المشورة فيما لم يمض من نبيكم فيه سنة ولم ينزل عليكم به كتاب" (١).

هل يمكن لأبي بكر أن يرسل جيش أسامة لو كان يظن مجرد ظن بالخطر على الإسلام والمدينة، كما ظن بعض الصحابة.. طبعاً لا يمكن. فأبو بكر كان يحرص على الإسلام أكثر من نفسه. ولكنه رأى أموراً كان يعرفها عن النبوة، وغيره لم يعرف ما عرفه أبو بكر، ولهذا تكلم عن الحسابات السياسية والتوازنات القائمة. وقد ذهب أسامة وعاد بجيشه وقد تحقق للإسلام بعض المكتسبات. منها خوف الأعداء من الإسلام بعد أن شاهدوا هذا الجيش يذهب إلى حدود الروم فكان مثل قوة استعراضية أدت إلى ردع بعض الذين يريدون بالإسلام شراً. ولكن بعض المرتدين والمنافقين كانوا ما زالوا يخططون لمهاجمة المسلمين، وكان على أبي بكر أن يختار بين قتالهم لتأدية الزكاة، وبين تركهم على اعتبار أنهم ما زالوا يعلنون تمسكهم بالإسلام. وكانت الفتنة التي أحدثها هؤلاء أخطر من كل الفتن. فهؤلاء كانوا لا يرفضون الإسلام في ظروف الإسلام العصبية ولكنهم يرفضون أداء الزكاة مما أدى إلى خلاف بين الصحابة في الحكم عليهم، وظهور اجتهادات تقول بعدم شرعية قتالهم بناء على أحاديث فهموها من الرسول صلى الله عليه وسلم تقول: "بأن من قال لا إله إلا الله لا يجوز قتاله" .. كما أن اتساع رقعة الارتداد مسألة كان لها تأثيرها في قرار المسلمين، إضافة لظهور مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادعيا النبوة. لقد لجأ أبو بكر إلى المسلمين ليستشيرهم، وكان الوضع كما جاء في حديث عن ابن عمر: "لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اشرب النفاق بالمدينة، وارتدت العرب، وارتدت العجم وأبرقت وتواعدوا نهاوند، وقالوا: قد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تتصر به. فجمع أبو بكر المهاجرين والأنصار، وقال: إن هذه العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم، وإن هذه العجم قد تواعدوا نهاوند ليجمعوا لقتالكم وزعموا أن هذا الرجل الذي كنتم تتصرون به قد مات.. فأشيروا عليّ فما أنا إلا رجلٌ منكم، وإني أثقلكم حملاً لهذه البلية. فأطرقوا طويلاً. ثم تكلم عمر بن الخطاب، فقال:

أرى والله يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقبل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة فإنهم حديثو عهد بجاهلية لم يقدمهم الإسلام. فإما أن يردهم الله إلى خير، وإما أن يعز الله الإسلام فتقوى على قتالهم، فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قاطبة. فالتفت إلى عثمان فقال مثل ذلك. وقال علي مثل ذلك، وتابعهم المهاجرون ثم إلى الأنصار فتابعوهم. فلما رأى ذلك سعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم والحق قلٌّ شريداً، والإسلام غريب طريد قد رث حبله وقلأ أهله. فجمعهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم وجعلهم الأمة الباقية الوسطى، والله لا أبرح أقوم بأمر الله، وأجاهد في سبيل الله حتى ينجز الله لنا وعده ويفي لنا عهده، فيقتل من قتل منا شهيداً في الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه ووارث عبادة الحق. فإن الله تعالى قال لنا ليس لقوله خلف (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم).. والله لو منعوني عقلاً مما كانوا يعطون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل معهم الشجر والمدر والجن والإنس لجاهدتهم حتى تلحق روعي بالله. إن الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة، فجمعهما، فكبر عمر، وقال: والله قد علمت حين عزم الله لأبي بكر على قتالهم أنه الحق" (٢). وهذا موقف يتعلق بفهم أبي بكر للإسلام، ويقينه بما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين به من الفتوحات. فقد عرف أبو بكر أن الإسلام سيظل بارتقاع وإن مرت فتن وزلازل، حتى تتحقق تلك الوعود، ولهذا لم تخفه أخبار الارتداد، وقد أتىح لأبي بكر أن يعلم من علوم النبوة ما لم يحط به غيره، يقدمه في الإسلام وصحبته للرسول صلى الله عليه وسلم، وقربه منه ويقينه فيه. وقد حقق أبو بكر في خلافته القصيرة القضاء على المرتدين، كما نجح في مجابهة الفرس والاستيلاء على الحيرة والأنبار والسيطرة على المناطق التي تقيم فيها القبائل العربية جنوبي نهر الفرات. ثم بعث خالد بن الوليد من هناك لقتال الروم، حيث نجح خالد في حصار الروم في دمشق وتم فتحها في بداية خلافة عمر. وقد كانت الانتصارات التي تحققت لأبي بكر كفيلة بتبرير الكثير من الأمور التي تصيب القادة من أهل الدنيا عندما ينجحون، مثل التوسع في المعيشة، أو الإنفاق على الأهل والأولاد والأقارب. ولكن الخليفة لم يتغير في معيشته وإنفاقه. بل إنه ساوى في توزيعه للأموال التي كانت تأتيه بين المسلمين. وحين قيل له: "لو فضلت المهاجرين والأنصار لسابقتهم ولمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أجر أولئك على الله، إن هذا المعاش للأسوة فيه خير من الأثرة، فعمل بهذا ولايته" (٣).. حتى توفي في السنة الثالثة عشر في

جمادى الآخرة، فلم يفضل نفسه أو أصحابه بهذا المال، وعانى من الجوع أحياناً، وقد أتاه . مملوك . ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟.. قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني، قال: أف لك. كدت أن تهلكني، فأدخل بيده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج. فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء. فدعا بعس . كأس . من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له: يرحمك الله. كل هذا من أجل هذه اللقمة. قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة" (٤). هذا هو أبو بكر الخليفة الذي كان يخاف الله من لقمة فيها شبهة الحرام ويجوع، بينما كانت تخافه امپراطوريتا الروم والفرس، لأنه كان يخاف أن تمسه النار. لقد ترفع أبو بكر بنفسه عن حقه في العيش ببسر من مال المسلمين حتى أتعب نفسه وأسرته وأتعب من بعده. فقد وجدوا بيت المال خالياً حين توفي لإنفاقه على المسلمين. وكان قد أنفق على أسرته من بيت مال المسلمين خلال خلافته ثمانية آلاف درهم فأمر بردها إلى بيت المال. وقال: "قد كنت قلت لعمر: إنني أخاف أن لا يسعني أن أكل من هذا المال شيئاً فغلبني. فإذا أنا مت خذوا من مالي ثمانية آلاف درهم وردوها في بيت المال، فلما أتى بها عمر قال: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعباً شديداً" (٥).. وترفع عن الغضب لنفسه، وتسامح حتى وصل بتسامحه إلى حد لا تطيقه القلوب، ولا تتحملة العقول. "فقد رُمي عبد الله بن أبي بكر بسهم يوم الطائف فانتفض به بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين ليلة فمات فلم يزل ذلك السهم عند أبي بكر، فقدم عليه وفد تقيف فأخرج إليهم، فقال: هل يعرف هذا السهم منكم أحد؟ فقال سعد بن عبيد أخو بني العجلان هذا سهم أنا بريته ورشته وعقبته وأنا رميت به، فقال أبو بكر: إن هذا السهم الذي قتل عبد الله بن أبي بكر فالحمد لله الذي أكرمه بيدك ولم يهنك بيده فإنه واسع لكما" (٦)..

لقد حمد الله على أن الرجل الذي قتل ابنه قد هداه الله إلى الإسلام. فأى حلم وأي إيمان يستطيع أن يمنع رجلاً من الغضب، أو الكلام لقاتل ابنه. وهذا الخليفة سيقول لرجل من عامة المسلمين دخل عليه دون إذن فضربه ثم اعتذر إليه وقال له: "إستقد" وكان عمر حاضراً في الموقف وقد رأى أن الرجل دخل عليهم وهم يتدارسون توزيع إبل من الصدقات على المسلمين رغم تنبيه الخليفة للناس بعدم

الدخول إليه. فقال عمر: "والله لا يستعيد. لا تجعلها سنة. فقال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟.. قال عمر: أرضه. فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقטיפه وخمسة دنانير فأرضاه بها" (٧) هذا الرجل الذي خاف الله إلى هذا الحد هل يستطيع أن يظلم أحداً، أو أن يسكت على ظلم أحد من رعيته؟.. لقد أثار من يرغب بالإثارة والتهويل قضية مطالبة السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بإرثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثل هذه المطالبة ربما تكون قد حدثت. وربما ردَّ عليها أبو بكر بما يعلم عن أرض فدك أو غيرها. وهي من الأموال العامة التي كان يتصرف بها الرسول صلى الله عليه وسلم بما تمليه عليه مصالح المسلمين، فلم يحتفظ بشيء من الأموال أو العقارات لنفسه. لقد عرفنا عن إيثار الرسول صلى الله عليه وسلم الشيء الكثير وعن بكاء عمر وهو يشاهده على حصر قد أثر في جنبه مع كثرة الأموال التي كانت تأتيه فكان لا ينفق إلا القليل على نفسه وأسرته، ولم يرض أن يعطي لابنته خادماً، وقال لها: "اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعلمي عمل أهلك" (٨).. رحمة بها وحباً لها، لكي تكون غنيمتها في الآخرة لا في الدنيا. فهل يعقل أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك إرثاً وهو الذي أعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وتوفي ودرعه مرهونة بثلاثين صاع من الشعير؟.. وهل يستطيع أبو بكر الذي خاف من لقمة الحرام، ومن ضرب مسلم، أن يظلم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك إرثاً يورث أليس من بين الوارثين أمهات المؤمنين ومن بينهن عائشة ابنة أبي بكر، وحفصة ابنة عمر، فهل نالاً شيئاً من هذا الإرث. لهذا لا نظن إلا أنها مبالغت تكلم بها من تكلم عن نية حسنة أو سيئة، كما تكلموا في عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم دون حق، وحتى في هذا الإطار إذا كانت السيدة فاطمة، قد سألت عن إرثها من الرسول فهذا من حقها. وإذا كان أبو بكر قد أجابها كما ورد: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نورث، ما تركناه صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال يعني مال الله، ليس لهم أن يزيدوا على المأكل، وإنني لا أغير صدقات النبي صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كانت عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولأعملن فيها بما عمل النبي صلى الله عليه وسلم فيها فعمل... فوجدت فاطمة على أبي بكر من ذلك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لقراية رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي. فأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الصدقات، فإنني لا آلو فيها عن الحق، وإنني لم أكن لأترك فيها أمراً رأيت رسول الله يصنعه فيها، إلا صنعتة" (٩). وإن هذا الحديث رغم ما قد يكون أدخل عليه من الصور،

فإن كان أبو بكر قاله فقد قاله صادقاً ((لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي)). وإن هذا الموقف يكشف عن مستوى العدالة التي ارتفع إليها أبو بكر وهو يطبق شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته بموجب أمره وسنته. كما أن سؤال فاطمة رضي الله عنها عن حق من حقوقها معذورة فيه. وقد ورد حديث آخر حول هذا الموضوع نوره لأنه أقرب لأخلاق أبي بكر وأخلاق فاطمة. فقد ورد أن فاطمة رضي الله عنها طالبت أبا بكر بإرثها من الرسول صلى الله عليه وسلم فدك وخيبر وصدقاته بالمدينة، فقال أبو بكر: ((أبوك والله خير مني وأنت خير من بناتي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نورث ما تركناه صدقة يعني هذه الأموال القائمة، فتعلمين أن أباك أعطاكها، فوالله لئن قلت نعم لأقبلن قولك، ولأصدقنك. قالت: جاءتني أم أيمن فأخبرتني أنه أعطاني فدك. قال عمر: فسمعتة يقول: هي لك، فإذا قلت قد سمعتة فهي لك، فأنا أصدقك فأقبل قولك، قالت: قد أخبرتك بما عندي)) (١٠). لو استأثر أبو بكر بشيء من المال لنفسه، أو خص أحداً من أقاربه، أو غير من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ربما كان يحق لنا أن نظن، وأن نتهم، أما وأبو بكر الذي اقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم حتى بإفناذ جيش أسامة تنفيذاً لوصيته، وبعض المسلمين يقترحون عليه تأجيل إرساله، أو تغيير قائده، فقال لهم مستغرباً أقوالهم: ((أنا أحبب جيشاً بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد اجترأت على أمر عظيم)). هذا الرجل هل يستطيع أن يجترأ على ظلم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!..

هذا الخليفة نفسه سيعطي لمن قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده بشيء من المال فأعطاه، فقد جاء مال من البحرين لأبي بكر فقال: ((من كانت له عدة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت وهو جابر بن عبد الله قد وعدني إذا جاء مال البحرين أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا. قال: خذ. فأخذت أول مرة فكانت خمس مائة ثم أخذ الثنتين)) (١١). هذا هو أبو بكر الذي اقتدى في كل أعماله برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى أن يغير خالد بن الوليد من القيادة حين اقترح عليه عمر بن الخطاب تغييره لأنه قتل مالك بن نويرة المتهم بالردة وتزوج امرأته. بينما شهد بعض المسلمين بإعلان إسلامه. فقال أبو بكر لعمر: ((ما كنت لأشيم سيفاً سله الله عليهم أبداً وإنه تأول فأخطأ)) (١٢). وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن خالد: ((إنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين)). فكيف سيرفع أبو بكر هذا السيف.

ومن الواجب أن نذكر بحقيقة هامة حول مسألة: "فدك وخيبر". وهي أن علياً رضي الله عنه حين تولى خلافة المسلمين لم يأخذ شيئاً من "فدك وخيبر" لنفسه، وإنما تركها للمسلمين ملكاً عاماً، كما فعل الصديق رضي الله عنهما.. ولقد كان من أخلاق أبي بكر الاقتداء بكل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأينا. فلو أنه وصل إليه علم بتهاون الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر من الأمور، أو توسعه في دنياه، ما الذي سيمنعه من الاقتداء به، وهو العارف بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة.. لقد بلغ أبو بكر في إيمانه مستوى لا يصل إليه إلا خواص الخواص حتى إنه حين مرض ((دخل على أبي بكر ناس يعودونه في مرضه فقالوا: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم! ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك. فقال: قد نظر إلي. قالوا: فماذا قال لك؟ قال: قال إني فعال لما أريد)) (١٣). هذا هو أبو بكر في حياته وفي إيمانه وفي توكله على الله. فهل سار الخليفة على طريق غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة حقيقة المرسل والرسول؟.. ربما كان أبو بكر الوحيد من بين الخلفاء الذي يستحق لقب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لقبه المسلمون، لأنه أكثر الخلفاء الذين فهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار على نهجه واقتفى آثار خطاه. فأدى به هذا الاقتداء إلى الفقر والجوع إيثاراً لنفسه ولأهله في آخرة خالدة، على دنيا فانية. ولهذا أتعب أبو بكر من بعده، كما قال عمر رضي الله عنهما.

خلافة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م)

لقد تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق بوصية منه في العام (١٣هـ . ٦٣٤م). وظل خليفة عشر سنوات حيث توفي عام (٢٣هـ . ٦٤٤م). وإذا كان طول مدة الحكم من النعم التي يحظى بها طلاب الدنيا، فإنها بالنسبة للأتقياء بلاء يضطرون إليه اضطراراً لأداء أمانة كلفوا بها. ولهذا لا يترك الحق لهم من صديق إلا أهل الحق، وما هم في الناس إلا قلة، وعمر منهم كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "ما ترك الحق صاحباً لعمر". فعمر العادل كما وصفه أعداؤه في التاريخ ضاق بعدله أصدقائه وأقرب الناس إليه. فقد اخشوشن في خلافته وفي مأكله حتى خاف عليه أهله.

فجاءت حفصة ابنته تكلمه لمكانتها عنده، فقالت: "لو لبيت ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك. فقد وسع الله من الرزق، وأكثر

من الخير، فقال: إني سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي من شدة العيش؟... فما زال يكررها حتى أبكاها. فقال: لها: والله إن قلت ذلك، إني والله إن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرضي" (١). أي في الآخرة لقد كان قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لعله يلحق بهما، فما الذي سيثنيه عن شطف العيش، بل ما الذي سيقربه للدنيا وقد قطع ما بينه وبينها، وقد رآها طريقاً للآخرة، فلم يجعلها همًا، ولا غاية، وإنما هي وسيلة للقرب. وما أكثر الوسائل التي تقرب بها عمر بن الخطاب لإرضاء ربه واللاحق بصاحبيه، قبل خلافته وبعدها، حتى إن امرأة هي أم أبان بنت عتبة بن ربيعة رفضت زواجه وهو خليفة المسلمين ورضيت بطلحة بن عبيد الله. ولما سئلت عن السبب قالت عن عمر هذا رجل: "إن دخل دخل ببأس، وإن خرج خرج ببأس، قد داخله أمر أذهله عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه" (٢). هذا وصف فيه الكثير من الطرافة والدقة فماذا تصنع امرأة بزواجها من رجل. مذهول عن أمر دنياه، وكأنه ينظر إلى ربه بعيني رأسه. لقد أصاب عدل عمر المقربين إليه بالضرر في الدنيا حتى نفسه وأولاده وأسرته، فقد جاع عام الرمادة حتى قال أصحابه: "لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًا بأمر المسلمين" (٣). كما "حرم على نفسه اللحم عام الرمادة حتى يأكله الناس" (٤). وفي أعوام الرخاء كان طعامه لا يقبله إلا فقراء المسلمين. فقد حضر حفص بن أبي العاص طعام عمر "وكان لا يأكل. فقال له عمر: ما يمنعك من طعامنا؟ قال: طعامك جشب غليظ وإني راجع إلى طعام لين قد صنع لي فأصيب منه، قال: أتراني أعجز أن أمر بشاة فيلقى عنها شعرها وأمر بدقيق فينخل في خرقة ثم أمر به فيخبز خبزاً رقيقاً، وأمر بصاع من زبيب فيقذف في سُنْغٍ. قربة. ثم يصب عليه الماء فيصبح كأنه دم غزال؟ فقال حفص: إني لأراك عالماً بطيب العيش. فقال عمر: أجل، والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لشاركنكم في لين عيشكم" (٥).. ودخل على ابنته حفصة: "فقدمت إليه مرقاً بارداً وخبزاً وصبت في المرق زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد لا أدوقه حتى ألقى الله" (٦).

لقد أشفق عمر على أصحابه وهم يرون شدته على نفسه، فأرادوا له أن يوسع على نفسه باللباس والطعام ليستعين بقوته على قضاء حوائج المسلمين. وربما وجدوا في لباسه المرقع إضعافاً لهيبة الدولة بعد أن اتسعت رقعتها وتشابكت علاقاتها مع الدول المجاورة التي كان يأتي رسلها للخليفة. فقال أحدهم لمن حوله وقد جمعته الصدفة: "ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل

وإلى حليته؟... لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفي المشرق والمغرب، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتي عشرة رقعة فلو سألتهم معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار أن يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغدى عليه جفنة من الطعام، ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار. فقال القوم بأجمعهم: ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته، أو ابنته حفصة فإنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجب لها لموضعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكلموا علياً فقال: لست بفاعل ذلك، ولكن عليكم بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه. قال الأحنف بن قيس: فسألوا عائشة وحفصة وكانتا مجتمعتين، فقالت عائشة: إني سألت أمير المؤمنين ذلك. وقالت حفصة: ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك. فدخلت على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما. فقالت عائشة: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أكلمك؟.. قال: تكلمي يا أم المؤمنين. قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده. وكذلك مضى أبو بكر على أثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل الكذابين وأدحض حجة المبطلين بعد عدله في الرعية وقسمه بالسوية وأرضى رب البرية، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه ببنيه صلى الله عليه وسلم بالرقيق الأعلى، لم يرد الدنيا ولم ترده. وقد فتح الله على يدك كنوز كسرى وقيصر وديارهما، وحول إليك أموالهما، ودانت لك طرفا المشرق والمغرب. ونرجو من الله المزيد وفي الإسلام التأييد. ورسلك العجم يأتونك، ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة قد رقعها اثنتي عشرة رقعة، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظره، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار. فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديداً، ثم قال: سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خُبزٍ بُرِّ عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة، أو جمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله؟.. فقالت: لا.... هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض؟ كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض، ويأمر بالمائدة فترفع. قالت: اللهم نعم.. فقال لهما: أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ولكما على المؤمنين حق وعلي خاصة. ولكن أتيتماني وترغباني في الدنيا وإني لأعلم أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف وربما رق جلده من خشونتها. أتعلمان ذلك؟ قالتا: اللهم نعم.. قال: فهل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة، وكان مسحاً. ثوب غليظ من الشعر. في بيتك يا عائشة يكون بالنهار بساطاً، وبالليل فراشاً فندخل عليه فنرى أثر الحصر على جنبه. ألا يا حفصة: أنت حدثيني أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد عليه فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال لك: يا حفصة ماذا صنعت؟.. أثنيت لي المهاد ليلتي حتى ذهب بي النوم إلى الصباح؟.. مالي وللدنيا وما للدنيا ومالي. شغلتموني بلين الفراش. يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ أمسى جائعاً ورقد ساجداً ولم يزل راکعاً وساجداً وباكياً ومتضرعاً في آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله إلى رحمته ورضوانه. لا أكل عمر طيباً ولا لبس ليناً فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين الأدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر حتى ينقضي ما انقضى من القوم... فلم يزل كذلك حتى لحق بالله" (٧)..

لم يعتر عمر بأنه من العشرة المبشرين بالجنة، فالجنة جنات، وكان يريد أن تكون جنته مع صاحبيه، فحاول أن يعيش كما رأهما يعيشان، فانعكست شدته على نفسه في شدته على أولاده ليجنبهم الهوان في الآخرة، فقاضاهما بما لم يقاض به بقية المسلمين. اشترى عبد الله ابنه إبلاً وسمنها في الحمى المخصص لإبل الصدقة، كما يفعل عامة المسلمين الذين كانوا يربون إبلهم فيها بأجر محدد. وعندما سمنت أتى بها إلى السوق ليبيعهها، فراها عمر، فسأل عنها. فقيل له إنها لابنه، فقال عمر: "بخ! بخ! ابن أمير المؤمنين! فجننت أسعى فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟.. قال: ما هذه الإبل؟ قلت: إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين. يا عبد الله بن عمر: أغد على رأس مالك، واجعل الفضل في بيت مال المسلمين" (٨)، وضاع ربح عبد الله. وكان عمر كان يضحك ويسخر ويتعجب.. أفي زمن عمر يربح ابن عمر؟ وكان عبد الله أشد استغراباً. ولكنه كان ابن الفاروق فسكت عن حقه طاعة لوالده...

ويتذكر عمرو بن العاص قصته مع ابن الخليفة يوم علم أن "عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر. قدما. غازيين. فقلت للذي أخبرني: أين نزلا؟.. فقال: في موضع كذا، لأقصى مصر، وقد كتب إلي عمر: إياك أن يقدم عليك أحد من أهل بيتي فتحبوه بأمر لا تصنعه بغيره فأفعل بك ما أنت أهله.. فأنا لا أستطيع

أن أهدي لهما ولا آتيهما في منزلهما خوفاً من أبيهما. فو الله إنني لعلى ما أنا عليه، إلى أن قال قائل: هذا عبد الرحمن بن عمر وأبو سرورة على الباب يستأذنان، فقلت: يدخلان فدخلوا وهما منكسران وقالوا: أقم علينا حد الله فإننا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. فزيرتهما وطردهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه، فحضرني رأي وعلمت أنني إن لم أقم عليهما الحد غضب عليَّ عمر في ذلك وعزلني... فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه على صدر مجلسي فأبى عليَّ وقال: إن أبي نهاني أن أدخل عليك إلا أن لا أجد بداً، وإنني لم أجد بداً من الدخول عليك. إن أخي لا يخلق على رؤوس الناس أبداً، فأما الضرب فاصنع ما بدا لك. قال: وكانوا يطلقون مع الحد. قال: فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل ابن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبي سرورة. فوالله ما كتبت إلى عمر بحرف مما كان حتى إذا تحينت كتابي فإذا هو يطم فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي. عجبت لك يا ابن العاصي ولجراتك عليَّ وخلاف عهدي. أما إنني قد خالفت فيك أصحاب بدر ممن هو خير منك، واخترتك لجراتك عني وإنفاذ عهدي فأراك تلوثت بما قد تلوثت، فما أراني إلا عازلك ومنشي عرك. تضرب عبد الرحمن بن عمر في بيتك وتحلق رأسه في بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفني. إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين. ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هواده لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قَتَبٍ حتى يعرف سوء ما صنع. فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه. وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه وأخبره أنني ضربته في صحن داري. وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إنني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه. فدخل عليه، وعليه عباءة، ولا يستطيع المشي من مركبه.. فكلمه عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة فما عليه أن تقيمه ثانية. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزيره. فجعل عبد الرحمن يصيح: إنني مريض وأنت قاتلي. فضربه الثانية الحسد وحيسه، ثم مرض فمات" (٩). لقد توفي عبد الرحمن بعد شهر تقريباً. ومن الطبيعي أن تسري الشائعات بأن عمر قتل ابنه. ولكن حتى لو مات عبد الرحمن لهذا السبب أليس هذا هو العدل؟... وهذا هو الاقتداء.. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها" ..

فالعدل لا يلتوي ولا ينحني أمام قرابة المقربين، أو بعد البعيدين. لقد قال عمرو بن العاص وهو يتذكر الحادثة: "ما رأيت أحداً بعد نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر أخوف لله من عمر. لا يبالي على من وقع الحق على ولد أو والد" ... ولعل عمراً كان يتذكر قصة ابنه مع المصري الذي اشتكى على ابن عمرو لأنه ضربه بالسوط بسبب السباق. فأمر عمراً بالحضور وإحضار ابنه معه وقال للمصري: "خذ السوط فاضرب . فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين" .. ثم قال لعمرو كلمته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" (١٠).

كان عمر مزيجاً من الرحمة والشجاعة والعدل والقيادة والحذر والحزم والحكمة، فكان في كل موضع يبرز منه جانب أو دواء لداء بقدر حاجة مجتمعه وعصره لهذا الدواء، فخاف من لا رادع له من إيمانه من رده، وأحبه من أحب العدل والإيمان ورأى فيه باباً لحماية المسلمين من شر قادم يعصف بهم بعد اتساع رقعة الفتوحات وإقبال الدنيا عليهم. فكان يخاف عليهم ويخاف من انصرافهم إلى الدنيا التي أقبلت بأموالها وثرواتها تتزخرف لهم. وكانت رحمة عمر في قلبه يكتبها لئلا يطمع فيه الطامعون. لقد بكى عمر حين رأى أطفال المرأة الجياح وهي تعلقهم بقدر فارغة لتوهمهم أن فيها طعاماً حتى يناموا. فذهب إلى دار الصدقة وملاً كيساً من الطعام وحمله على ظهره. فقال له خادمه: أسلم: "أنا أحمله. فأجابه عمر: أنا أحمله لأنني أنا المسؤول عنهم في الآخرة" .. وجلس فطهى لهم الطعام فأكلوا ولعبوا ضحكوا ثم قام عمر مودعاً. وقال لأسلم وقد طابت نفسه: "رأيتهم يبكون فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون" (١١) .. وشاهد يوماً رجلاً ضريراً يستجدي الناس وعرف أنه يهودي، فسأله: "ما ألجأك إلى ما أرى؟" .. قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه. وأرسل إلى خازن بيت المال. يقول: انظر هذا وضرباه فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (١٢)، وأمر بوضع الجزية عنه وعن أمثاله. وذات مرة: استعمل رجلاً من بني أسد على عمل. فجاء يأخذ عهده. فأتي عمر ببعض ولده فقبله. فقال الأسدي أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ ... والله ما قبلت ولداً قط .. قال عمر: فأنت والله أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً .. فرد عهده" (١٣) ...

هذا هو عمر الذي كان ينظر إلى ولاته بكل الموازين ويراقب تصرفاتهم ليأمن على الشعب من الظلم أو القسوة، وهم يشكّون في رحمته، ولكنهم لا يشكّون في عدله. لو أردنا أن نعدد قصص عمر بن الخطاب ونوادير حياته سنحتاج إلى صفحات طويلة للتأريخ لحياة حافلة بقوانين وتشريعات ذاتية تصلح لأرقى ما ابتكرته الدول الديمقراطية لحفظ حقوق الدولة. ولكن الفرق أن عمر ابتكر القوانين وطبقها على نفسه. روي أن امرأته اشترت عطراً بدينار ووضعت في قوارير وأرسلته مع البريد إلى زوج ملك الروم. فأعيدت لها القوارير مملأً بالجواهر: "فأخذ عمر الجواهر فباعها ودفع إلى امرأته ديناراً، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين" (١٤).. فقد رأى بفهمه للعدل وحقوق الدولة بأن الهدية أرسلت للخلافة وليس للخليفة. فأعطى للدولة حقوقها ولزوجته حقها. وبعث مرة ليستدين من عبد الرحمن بن عوف أربعة آلاف درهم، "فقال للرسول: قل له يأخذها من بيت المال ثم يردّها. فلما جاءه الرسول فأخبره بما قال شق عليه، فلقبه عمر فقال: أنت القائل: ليأخذها من بيت المال فإن مت قبل أن تجيء قلت: أخذها أمير المؤمنين دعوها له، وأخذ بها يوم القيامة. لا، ولكن أردت أن أخذها من رجل حريص شحيح مثلك فإن مت أخذها من ميراثي" (١٥). إنه قانون سنه عمر بعدم جواز استخدام أموال الدولة في الأغراض الخاصة.

هذه صور من عدل عمر التي اجتهد فيها لكي يرضي الله، فابتكر الدواوين وسجل كل مولود في ديار الإسلام لكي يؤدي ما عليه أو يعطيه ماله من حقوق في بيت المال. واجتهد في نظام العطاء، وقال: "إن أبا بكر رأى في هذا المال رأياً ولي فيه رأي آخر. لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ففرض للمهاجرين والأنصار ومن شهد بداراً خمسة آلاف، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ولم يشهد بداراً أربعة آلاف. وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألفاً إلا صافية وجويرية ففرض لهما ستة آلاف فأبتأ أن تقبلا فقال: إنما فرضت لهما للهجرة. فقالتا: إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان لنا مثله. فعرف ذلك عمر. ففرض لهما اثني عشر ألفاً. وفرض للعباس اثني عشر ألفاً. وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف. وفرض لعبد الله ابنه ثلاثة آلاف. فقال له: يا أبت لم زدته عليّ ألفاً. ما كان لأبيه من الفضل مالم يكن لأبي، وما كان له مالم يكن لي. فقال: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله من أبيك. وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك. وفرض لحسن وحسين خمسة آلاف لمكانهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار

ألفين" (١٦).. وأثنى عليه بعض الناس يوماً وهو يوزع عليهم المال فقال لهم: "ما أحققكم! لو كان هذا لي ما أعطيتكم منه درهماً واحداً" (١٧). كان يتكلم بصدق وكان يتكلم عن عزة النفس لئلا يغتروا بعبء من أعطى. فهي أموالهم ترد إليهم. كم أراد عمر أن يزرع في النفوس من القيم التي أثمرت في أرض النبوة، وجاء أوران حصادها، بالسمو والبطولة وحب الخير لكل الناس، ونشر السلام بخضوع الأمة كلها لقانون واحد لا تمييز فيه مع احترام حرية المعتقد والدين والرأي بالحق. لقد حارب عمر كل وثنية في العقول كما حارب وثنية الدنيا وعبادة نعمها، فأمر بقطع الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان لأنه سمع أن بعض الناس يذهبون إليها اعتقاداً بفائدتها. وكان يريد للمسلمين أن يتسابقوا على الأعمال الصالحة وليس على ظنونهم بفائدة ما لا يفيد. وقد قال: "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول ارزقني. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض" (١٨).. وقال: "لا يعجبكم من الرجل طنطنته... ولكن... من أدى الأمانة إلى من ائتمنه وسلم الناس من يده ولسانه" (١٩). لقد فهم الإسلام أخلاقاً وصدقاً في كل موقف، في العبادة كما في العمل. ولهذا قال لرجل متخشع: "ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه، فإنما يظهر للناس نفاقاً إلى نفاق" (٢٠).. لقد تجلت عظمة عمر ليس في إتباعه للإسلام وحرصه عليه، بل في فهمه وتطبيقه للإسلام في دولة حديثة الظهور. وما يهمننا في هذا البحث هو التربية والعوامل النفسية التي جعلت من عمر بن الخطاب أميراً للمسلمين بهذا المستوى من الإيمان والحرص على العدل في الرعية حتى قال: "لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعاً بشاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنه" (٢١). وكتب إلى أبي موسى الأشعري: "إياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب، فلم يكن لها هم إلا التسمن، وإنما حنقها في السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من شقيت به رعيته" (٢٢)

لقد وهب عمر كما رأينا حياته لبناء دولة الإسلام وحين أصيب بخنجر أبي لؤلؤة وعرف أن أجله قد اقترب قال لابنه عبد الله وكان عنده عبد الرحمن بن عوف: "إذا مت فدفنتني فلا تغسل رأسك حتى تتبع من رباح آل عمر ثمانين ألفاً فتضعها في بيت مال المسلمين. فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين!... وما قدر هذه الثمانين ألفاً قد أضرتت بعيالك. قال: إليك عني يا ابن عوف. فنظر إلى عبد الله، فقال: يا بني واثنين وثلاثين ألفاً أنفقتها في اثنتي

عشر حجة حجبتها في ولايتي ونوائب كانت تتوطني في الرسل تأتيني من قبل الأمصار. فقال له عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين أبشر وأحسن الظن بالله، فإنه ليس أحد منا من المهاجرين والأنصار إلا وقد قبض مثل الذي أخذت من الفيء الذي جعله الله لنا، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض. وقد كانت لك معه سوابق. فقال: يا ابن عوف ود عمر أنه لو خرج منها كما دخل فيها. إني أود أن ألقى الله فلا تطالبوني بقليل ولا كثير.."(٢٣).

ما الذي جعل عمر: "كأنه ينظر إلى ربه بعينه".. كما قالت أم أيان، غير شهودة لحقائق النبوة، وإيمانه بما في الآخرة من جزاء. ولو شاهد عمر أي تسامح من الرسول الله صلى الله عليه وسلم مع نفسه في أمر من الأمور وهو العارف بالرسول صلى الله عليه وسلم في حياته العامة والخاصة لاقتدى به عمر، ويرر لنفسه طيب العيش. ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم مصلحاً كما يفهم البعض لما اختار حياة التقشف والزهد في دنيا أقبلت عليه، ورفعته فوق كل رجال عصره. فالعقل لا يخدع نفسه إذا استطاع أن يخدع الناس، ولا يستطيع أن يخدع كل الناس وإن استطاع أن يخدع بعضهم، وكان المسلمون يسألون ويراقبون ويدققون. وكان المنافقون والمعادون للرسول صلى الله عليه وسلم بالمرصاد لإثارة الشكوك والبلبلية. لقد استغل المنافقون ضياع ناقة للرسول صلى الله عليه وسلم للتشكيك بنبوته.

من هذا الميزان ننظر إلى حياة الصحابة المقربين، وهو واحد من الموازين الكثيرة لمعرفة النبوة، والتأكد منها. أما لو كانت ثورة للإصلاح لتحسين أوضاع الناس، أو القيام بفتوحات عسكرية فما الذي سيمنع المصلحين بعد نجاحهم من الاستمتاع ببعض غنائم الإصلاح وثرواته القادمة عليهم. وكم من المسلمين زهدوا في الدنيا رغبة في الآخرة: "أرسل عمر بن الخطاب إلى سعيد بن عامر الجمحي، فقال: إنا مستعملوك على هؤلاء لتسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم. فقال: يا عمر لا تقتني. فقال عمر: والله لا أدعكم جعلتموها في عنقي، ثم تخلصتم عني"(٢٤). هؤلاء وأمثالهم جاهدوا للجهاد. وحين اطمأنوا إلى نجاح الإسلام سكنوا في بيوتهم يعبدون الله، ويعلمون الناس ما تعلموه، وهم يتحدثون عن صحبتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم باعتزاز لا يرقى إليه أي مجد أو عز. وكان هاجسهم للحاق به ورؤيته والاجتماع به في آخرة لا تحتاج إلى إصلاح المصلحين، ولا زرع الزارعين. بعد أن زرع كل إنسان جنته في الدنيا بأعماله إن كان من أهلها، فالإصلاح كان طاعة في دنيا يعرفون أنها تسير للخراب.

خلافة عثمان بن عفان

لقد اختير عثمان بن عفان رضي الله عنه لخلافة المسلمين من بين الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب قبل وفاته بعد أن اعتذر عن تعيين الخليفة بعده.

لقد بقي عثمان في الخلافة من عام ٢٣ إلى ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م. وكان عثمان قد ولد بعد عام الفيل بست سنين، وكان من أوائل الناس إسلاماً وهجرة، حيث هاجر إلى الحبشة ومعه رقية زوجته ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد اشتهر عثمان بحياته وكرمه وكثرة إنفاقه في ظروف المسلمين الصعبة خاصة، وكثرة عبادته وحلمه وحسن سياسته مع الناس، مما جعله قريباً لقلوبهم. إلا أن هذا الحلم والحياء دفع بعضهم للجرأة عليه وهو خليفة مما أدى للفتنة التي أودت بحياته. وقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالحياء في أكثر من مناسبة. فقال: "إن أشد هذه الأمة حياءً بعد نبيها عثمان" (١). وقال لزوجته عائشة وقد رآته يستر قدميه عندما جاء عثمان كما لم يفعل في حضور أبي بكر وعمر فسألته عن سبب ذلك فقال: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟ والذي نفس محمد بيده إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله" (٢)..

وقال عن كرمه: "السقاء شجرة في الجنة وعثمان بن عفان غصن من أغصانها" (٣). وقد بكى عثمان بعد وفاة زوجته رقية لانقطاع مصاهرته للرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد رغم كثرة النساء اللواتي يرغبن في زواجه. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تبك، والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء. هذا جبريل أخبرني أن الله عز وجل أمرني أن أزوجك أختها" (٤). فزوجه أم كلثوم، وقد ورد في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن أخلاق عثمان أنه: "كان لا يوقظ نائماً من أهل بيته إلا أن يجده يقظان فيناوله وضوءه" (٥). وهذا ما يدل عليه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن أخلاق عثمان في بيته. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لقد جاورني عثمان بن عفان في طبق أربعين صباحاً وأربعين ليلة فما سمعت له حصة ما، فنعم الجار عثمان" (٦). وهذه الأخلاق الخاصة مع أهله لا بد أن تكون من أخلاق الرجل في مجتمعه. وإن زواج عثمان من نائلة بنت الفرافصة على صغر سنها وإخلاصها له في حياته وبعد استشهاده يكشف عن أخلاق عثمان. فقد سمع عثمان وهو خليفة عنها بعد أن تزوج سعيد بن العاص والي الكوفة أختها، وكانت أديبة شاعرة فخطبها، وحين زفت إليه في المدينة ورآها

على ما بينهما من فارق السن قال لها: "لعلك تكرهين ما ترين من شيبتي؟.. فقالت: والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن الكهول. فقال لها: أنا قد جرت الكهول وأنا شيخ، ولن تجدي عندنا إلا خيراً" (٧).. وقد عاشت معه ما بقي من حياته القصيرة حتى استشهد، فأبت أن تتزوج أحداً بعده رغم صغر سنها وكثرة خطابها. حتى أنها عمدت إلى حجر فكسرت به ثناياها حتى لا يخطبها الرجال. وكان من خطابها معاوية بن أبي سفيان. ولا يمكن لامرأة صغيرة السن أن تخلص كل هذا الإخلاص لرجل كهل لولا تأثير هذا الرجل بحسن المعاملة والمعاشرة، وخلق فيها جبل على الوفاء، مع أنها لم تكن الزوج الوحيدة. فقد تزوج عثمان تسع نساء وتوفي عن أربع منهن هن (نائلة وفاخته ورملة وأم البنين). وقيل أنه طلق الأخيرة أثناء حصاره. وقد ورد في سيرته إضافة إلى أعمال البر الكثيرة التي صنعها في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أعمال بر جديدة في حياة الخلفاء الراشدين، تكشف عن عمق إيمانه ورحمته وسماحته. قال ابن عباس: "قحط الناس في زمن أبي بكر، فقال أبو بكر: لا تمشون حتى يفرج الله عنكم، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال: لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برأ وطعاماً، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه. فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برأ وطعاماً. بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة. فقال لهم عثمان: ادخلوا، فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب في الدار. فقال لهم: كم تريحوني على شرائي من الشام؟.. قالوا: العشرة خمسة عشر. قال: قد زادوني. قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادوني بكل درهم عشرة. هل عندكم زيادة؟.. قالوا: لا.. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة" (٨)..

لقد قدمنا صوراً عن رحمة عثمان وأخلاقه لتتخيل كيف سيحكم مثل هذا الرجل الناس في خلافته. فعثمان الحيي يتناقض مع عثمان السلطان. وهذه أول مشكلة سيواجهها عثمان في خلافته بتجراً الناس على مقام الخلافة مما سيشجع الغوغاء فيما بعد إلى إشعال الفتنة لأسباب إذا نظرنا إليها بعين المدقق لن نرى لها ما يبررها كلها، وما هو مبرر منها، فإنه لا يمكن أن يؤدي إلى شرعية قتل الخليفة. ولكن الظروف كانت في طريقها إلى التغير في أواخر عهد عمر بن الخطاب، بسبب اتساع رقعة الدولة، وانتشار التجارة وكثرة المال. وقد ذكر محمد بن سيرين أنه: "كثر المال في زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها، وفسر بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم" (٩). ومما ذكر أن عبد الرحمن بن عوف تصدق في يوم واحد بمائة وخمسين ألف دينار، وأنه: "خلف ذهباً كان يقطع بالفؤوس.. وترك

ألف بغير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس، وقسم ميراثه على ستة عشر سهماً فبلغ السهم ثمانين ألف درهم" وإن ميراث الزبير بن العوام خمسون ألف ألف ومائتا ألف". "وكان طلحة يغل بالعراق مابين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف... وأنه باع لعثمان أرضاً بسبعمائة ألف فحملها إليه. فلما جاء بها، قال: إن رجلاً تبيت هذه عنده في بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله... فبات ورسله تختلف في سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم" (١٠).

وكان عمر في آخر أيام خلافته يقول: "اللهم كبرت سني وضعفت قوتي، وانتشرت رعتي فاقبضني غير مضيع ولا مفرط" (١١). وقال حين أتاه خبر فتح القادسية: "أعوذ بالله أن يعقبنني الله بين أظهركم حتى يدركني أولادكم من هؤلاء. قالوا: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما ظنكم بمكر العربي ودهاء العجمي إذا اجتمعوا في رجل" .. (١٢) .. ولكن عثمان تعرض لكل ما كان يحذر منه عمر. وحين استشهد عمر وبويع لعثمان بالخلافة، طمعت الدولة التي حاربها الإسلام فعملت على إشعال الثورات والفتن في بلاد المسلمين فتمرد من قبائل الفرس والترک والروم، من كان قد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة. ونقضت دولة الروم صلحها، فأغارت على الإسكندرية براً وبحراً، وأرسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين، وأطلقت في الميادين خفية من بيث فيها الوعد والوعيد ويغري المطيع بالعصيان. وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتفاض، فقال بعضهم أنها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل، وسرعان ما تسابرت الأنباء بهذه الزخوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب الآسيوية. فهبوا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا للطاعة والمسالمة. لقد كانت محنة كمحنة الردة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها" (١٣). كان على عثمان أن يواجه كل هذه الفتن التي اشتعلت في بداية عهده. وكان المسلمون لا يعرفون ركوب البحر بسبب خوف عمر على أرواح المسلمين. فكتب إلى معاوية لتجهيز أسطول بحري لمواجهة الغزوات البحرية بشرط أن يتم اختيار القوة البحرية تطوعاً بدون إكراه، وهذه ملاحظة تدل على بعد نظره، فتشكلت أول قوة بحرية في تاريخ دولة الإسلام، وقامت بحماية الشواطئ الإسلامية وتحدي المغيرين في عقر دارهم. كما اختار القادة الأكفاء لمواجهة الفتن والثورات. ودفع بقواته إلى حدود الهند والصين، وإلى ما وراء بحر الخزر. كما اندفعت القوات الإسلامية إلى أبواب القسطنطينية، كما استطاعت القوات أن توسع رقعة الدولة في شمال أفريقية وأن تسير جنوباً إلى

حدود الحبشة. وهذه النجاحات التي تحققت في عهد عثمان لا يمكن أن تتحقق على يدي رجل ضعيف كما كان يتم تصوير عثمان غالباً. ولكن مشاكل عثمان في سنته الأخيرة نجمت عن مجموعة من العوامل والأمور، منها ما ظهر قبل خلافته، ومنها نشأ بعد خلافته دون أن تكون له يد فيها من فساد أو إفساد. فقد كان غنى عثمان وتقواه لا تحيجه إلى استخدام أموال المسلمين في مصالحه الشخصية. وكل الوثائق التاريخية تؤكد أن عثمان حين توفي كانت ثروته أقل مما كانت عليه حين استلم الخلافة، إلا ما كان من أسباب التضخم الطارئ بسبب كثرة المال الذي أدى إلى رفع سعر الأرض وإلى بيع نخلة بألف درهم، كما أشار ابن سيرين. ولكن مشكلة عثمان كانت تكمن أولاً في استخلافه بعد خليفته: "أتعبنا من بعدهما" .. بعدلها وبساطة عيشهما بسبب قرار اتخاذها لم يحيدا عنه وهو الزهد في حياتهما. بينما عاش عثمان لغناه الذي ورثه عن أبيه وعمله بالتجارة في بحبوحة لا تتناقض مع الإيمان، بل كان لهذه السعة في الرزق دورها في دعم الإسلام والمسلمين في عدة مناسبات، منها شراء بئر للمسلمين في المدينة بخمسة وثلاثين ألف درهم ليشربوا منها، واشترى أرضاً لتوسيع المسجد بعشرين ألف درهم، وتجهيزه لجيش العسرة بمائتي بغير وكثير من المال، حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يضر عثمان ما عمل بعد اليوم" (١٤) .. وهذا ثابت من مصادر عديدة، والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فهو أعرف بعثمان بتعريف الله له. ولكن عند المقارنة بين حياة عثمان وحياة عمر لا بد أن يظهر طاعنون لهم مبرراتهم إذا كرهوا عثمان. ولكن المنصف لا يتهم عثمان إذا أسرف وتنعم من ماله. وهذه الفروق نسوق المثال لفهمها وهو مثال حين يروى للراغبين في الفتنة يشكل لهم سلاحاً يساعدهم في الإثارة، مع أن المتأمل في حقيقته ومعناه لا يعدو عن الابتسام فقد روي أنه: "دخل زياد على عثمان في خلافته بما بقي عنده لبيت المال، فجاء ابن عثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به، فبكى زياد... قال عثمان: ما يبكيك؟ قال أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ فلم أر أحداً قال له شيئاً. فقال عثمان: إن عمر كان يمنع أهله وقربته ابتغاء الله، وإني أعطي أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله. ولن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر" .. وكان عثمان يقول في كثير من المناسبات: "يرحم الله عمر، من ذا يطيق ما كان يطيقه" (١٥). لو أخذنا طبيعة المناسبة في هذه الرواية وطبيعة الرجلين فسوف يتضح لنا بأن سبب سكوت عثمان على فعلة ابنه لا يتعلق برغبته في استغلال بيت مال المسلمين.

فما هو المبلغ الذي سيأخذه طفل صغير . إن هذا المال بالنسبة لثروة عثمان لا يعادل شيئاً ولهذا رأى أن المبلغ لا يعادل دمة من بكاء طفل، ولا يعادل شيئاً من صدقات عثمان وإنفاقه، وأخلاق عثمان وورعه وتقواه لا تسمح له حتى بأن يسمح نفسه بإدخال حفنة من الدراهم على ثروته، التي تعد بمئات الألوف إن لم تكن الملايين. إننا بهذا المنظار العادل يمكن أن نفهم مبررات عثمان وسبب سكوته على ابنه. "فعثمان ليس كعمر". وقد ورد أن عمر كان ينفق كل يوم درهمن له ولعياله وإنه: "أنفق في حجته ثمانين ومائة درهم. وقال: قد أسرفنا في هذا المال" (١٦). بينما كان عثمان قد أنفق ألوف الدراهم في الصدقات. ودعي مرة عمر بن أمية الضمري إلى طعام. فقال الضمري: "هذا أطيب ما أكلت قط". وتذكر طعاماً أكله عند عمر بن الخطاب فذكر خشونته فقال عثمان: "صدقت إن عمر رضي الله عنه أتعب والله من تبع أثره، وإنه كان يطلب بثنيه . أي منعه . عن هذه الأمور ظلفاً أي غلظاً في المعيشة، ثم قال: أما والله ما أكله من المسلمين ولكن أكله من مالي، وأنت تعلم أنني كنت أكثر قريش مالاً، وأجدهم في التجارة، ولم أزل أكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سنأ، فأحب الطعام إلي ألبينه، ولا أعلم لأحد علي في ذلك تبعة" (١٧). وكلام عثمان صحيح، فتبرعاته تدل على ثروته. ولكن الطاعنين على الخلافة لأغراض مختلفة كانوا يستطيعون أن يقولوا: إن عثمان ليس كعمر، بعد أن انتشر الفقه والاجتهاد وأصبح لكل مجتهد رأيه في أمور دولة حديثة العهد مترامية الأطراف تقر لكل المسلمين بحرية الرأي بدون معرفة بنوايا هذا المسلم أو ذاك. ولكن هذه الكلمة كانت لا تقال لفهم الفروق بين الخلفاء دائماً بنوايا حسنة، وإنما استغلت من المنافقين لإثارة الفتنة، بعضهم لمصالح شخصية لم يحققها لهم عثمان، وبعضهم لأغراض تدمير الدولة الإسلامية بزعزعة الاستقرار فيها باستخدام رداء الإسلام ولغته كما يحدث في تاريخنا المعاصر. وهذه أمور لا غرابة فيها، بل الغريب أن لا تحدث في دولة كان عليها أن تواجه حضارات أمم وثقافات مهزومة، في أقل من عقدين من الزمان، وإذا كان سلاح هذه الثقافات قد انهيار بانهايار دولها، فلم يبق أمامها إلا دخول الإسلام والتستر به لمقاومته. وإذا كنا لا نعمم هذه الحالة، فإن الجيل الأول من الشعوب التي دخلت في دولة الإسلام لا بد أن تظهر فيها بعض أشكال المقاومة، كما أن الدول المجاورة ماكانت غافلة عن التحريض على دولة الإسلام. وقد أتاح طول عهد عثمان وحيأؤه من الناس وليس ضعفه، الثورة عليه، وإن كانت الثورة تقتصر إلى كل أسباب الشرعية. وقد ورد عن أسباب هذه الفتنة أن ثوار مصر عندما جاؤوا إلى المدينة سعد عثمان المنبر وقال يخاطب أهل

المدينة: "أذعتم السيئة وكتتمت الحسنة وأغريرتم بي غوغاء الناس، أيكم يأتي هؤلاء القوم فيسألهم ما الذي نقموا؟... وما الذي يريدون . ثلاث مرات . فلم يجبه أحد . فقام علي فقال: أنا.. فقال عثمان: أنت أقربهم رحماً وأحقهم بذلك . فأتاهم فرحبوا به.. وقالوا: ما كان يأتينا أحب إلينا منك . فقال: ما الذي نقمتم؟.. قالوا: نقمنا أنه محا كتاب الله، وحمى الحمى، واستعمل أقباءه، وأعطى لمروان مائتي ألف . وتناول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . فرد عليهم عثمان: أما القرآن فمن عند الله، إنما نهيتكم لأنني خفت عليكم الاختلاف فأقرؤوا على أي حرف شئتم، وأما الحمى فو الله ما حميته لإبلي ولا غنمي وإنما حميته لإبل الصدقة لتسمن وتصلح وتكون أكثر ثمناً للمساكين، وأما قولكم: تناول أصحاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم، فإنما أنا بشر أغضب وأرضى، فمن ادعى قبلي حقاً أو مظلمة فهذا أنا، إن شاء قود . قصاص . وإن شاء عفو، وإن شاء أرضي . فرضي الناس واصطلحوا" (١٨) . وإذا قارنا هذا المبلغ الذي قيل إن عثمان منحه لمروان بأسعار تلك الأيام فإنه يعادل ثمن فرسين . كما إن ما قيل عن جمع القرآن، وحماية الحمى فهي أعمال لصالحه وليست عليه، وإن إثارة الشغب بسبب جمعه للقرآن وتوسيع الحمى لرعاية إبل الصدقة تدل على مستوى هؤلاء الثوار الذين استندوا إلى اجتهادات ضالة لإثارة الفتنة إما عن جهل أو خبث، وذلك بمحاولتهم منع جمع القرآن لإيصال المسلمين إلى الاختلاف . وإن بقية الاتهامات التي وردت سنعمتد في تنفيذها على الأستاذ عباس محمود العقاد الذي قام بدراسة متكاملة عن حياة عثمان بن عفان . فقد ذكر أن من أسباب الفتنة: "نبشهم عن سيئات عبد الله بن أبي السرح الذي ارتد في عهد الدعوة ثم تاب وولاه عمر بعض ولاياته في مصر . فإنهم زعموا أن عثمان وقد ولاه القيادة لأنه أخوه في الرضاع، والصحيح أن عبد الله بن أبي السرح كان أكفى الكفاة في قيادته، وأنه انتصر حيث قاد جيشاً في البر أو في البحر، ومع الروم أو مع أهل أفريقية . وزعموا أن عثمان نفل مروان بن الحكم بخمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من الذهب أفريقية، وهو غير صحيح وإنما الصحيح أن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح أفريقية، والناس على وجل من أخبار الغارات عليها . وكقصة ابن أبي السرح قصة الحكم بن العاص الذي رخص له عثمان في العودة إلى المدينة بعد أن نفاه النبي صلى الله عليه وسلم عنها، فإنما أبى النبي أن يساكنه في المدينة، ثم وعد عثمان أن يعفو عنه... ومنها أنه ولي الوليد بن

عقبة لقرابته ثم اتهم بشرب الخمر... فأما أنه هو الذي ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله، ولا يطلب من الإمام أكثر من ذلك. ولأموه لأنه لم يقتص من عبد الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهم بالتآمر على قتل أبيه. وأياً كان وجه العدل في هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبد الله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثر من عاذريه.. وذكروا أنه أبعد أناساً من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم، ولم يذكروا أنهم أغلظوا له في القول ولم يوقروه، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص لأنه لم يقف له في مجلس الخلافة، وقال له: "إنك أردت أن تقول أنك لا تهاب الخلافة، فالخلافة تقول أنها لا تهابك".. ولم يعرف عن إنسان أنه اعتذر لصحابي من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته، وهو غاية ما يستطيع... وأعجب العجب في هؤلاء قصته مع محمد بن أبي حذيفة بن عتبة قريب عثمان وربيبه في داره. فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه، وهذا واحد من أقرب الأقربين إليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شرباً، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأبأها عليه وقال له: لو كنت أهلاً لذلك لوليتك.. فكان هذا زعيم الثائرين عليه في مصر ومعه نفرٌ من ذوي قرياه.. ومنهم من عزله كعمرو بن العاص، فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه، ولكنه كان يدعو جهرة إلى التوبة وهي دعوة أشبه ماتكون بالاتهام الصريح... ومنهم من كان يزجره ولاية عثمان لأنه كان يهذر في الدين بما لا يعلم، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويضممر من ورائه سوء النية، كعبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، فقد أخرجه الولاية من بلد إلى بلد لأنه كان يقول برجعة النبي إلى الدنيا وحلول روح الله في علي، وقد كان علي رضي الله عنه أشد على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته" (١٩). وقد يكون عثمان أخطأ بنفي أبي ذر إلى الريدة، ولكن لا أحد يقول بعصمة الخليفة، أو وجوب هذه العصمة. وقد كانت أخلاق عثمان تدفعه إلى التسامح وقبول المراجعة. وقد يكون الخطأ في عرف بعض المجتهدين صواباً عند الآخرين، ومع ذلك فقد: "كتب عثمان إلى أهل الكوفة في شيء عاتبوه فيه، إني لست بميزان لا أعول" (٢٠). ولكن الثائرين الذين جمعتهم مآرب شتى ما كانوا يريدون أن ينظروا إلى عثمان كبشر يصيب ويخطئ، وماكانوا يريدون أن يحاكموه على ضوء ماضيه، أو على ضوء إنجازاته السابقة واللاحقة، وماكانوا يريدون أن يحاكموه على ضوء تغير الظروف التاريخية، وتطور الحوادث وانتشار الغنى والترف إضافة إلى الفقر، وهذا ليس ذنبه.. بل كانوا قد حكموا عليه بالقتل، وبعض الحاكمين من وراء الستار أرادوا الحكم على دولة الإسلام كما أراد أبو

لؤلؤة الحكم عليها باغتياله لعمر بن الخطاب، كما سيكون الشأن مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. لقد صبر عثمان على ظلم الظالمين مع أنه كان يستطيع مواجهة الثوار بطلب الإمداد من معاوية أو غيره من ولاة الأمصار. ولكن عثمان أبى أن يستخدم سيوف الموالين في رقاب المسلمين المضللين. ليس عن جبن، ولكن لخوف من الله وخوف من إراقة دماء المسلمين دفاعاً عن نفسه. وكان من شجاعته رفضه للتنازل عن الخلافة، رغم تأكده من نواياهم، وقد جاء عن أبي سهلة مولى عثمان أنه قال له أثناء حصاره: "قاتل يا أمير المؤمنين، قال لا والله لا أقاتل، وقد وعدني رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فأنا صابر عليه" (٢١)، وقد كان عثمان يعرف أن قدره الشهادة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عثمان يذكر الصحابة بهذا الحديث أحياناً كلما طال به العمر، ويقول: "أتعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم سعد أحداً وأبو بكر وعمر وأنا فارتج أحد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان" (٢٢). لقد كان من مصائب المسلمين في ذلك العصر قيام العامة بالاجتهاد في أمور الدين والدنيا، وإطلاق الأحكام دون وعي أو دراية، ودون فهم للعوامل الشخصية والظروف التاريخية المحيطة، بكل خليفة. فكانت النتيجة أن ظلمت الخلافة وتلهل مركزها حين ظلم الخليفة. فكان لابد للخلافة أن تصبح ملكاً لضبط أمور الغوغاء ومنعها من القيل والقال وإطلاق الأحكام، أو تدمير الدولة الإسلامية، لأن ما يصلح لزمان لا يصلح لزمان آخر. لقد وصل أمر العوام إلى حد إطلاق الأحكام على من يدخل الجنة والنار حتى إن رجلاً من هؤلاء قال لعلي يعلمه بحكم الله على عثمان: "إن عثمان في النار.. وفي الحقيقة أنه ما قال، ولكنه نصب نفسه على ميزان الحق. فقال علي وقد فاجأه هذا الكلام. "ومن أين علمت؟.. قال: لأنه أحدث أحداثاً. فقال له علي: أترك لو كانت لك بنت أكنت تزوجها حتى تستشير؟.. قال: لا... قال: أفراي هو خير من رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنتيه؟... وأخبرني عن النبي صلى الله عليه وسلم أكان إذا أراد أمراً يستخير الله أو لا يستخيره؟... قال: لا.. بل كان يستخيره. قال: أفكان الله يخير له أم لا..؟ قال: بل يخير له. قال فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار الله له في تزويجه عثمان أم لم يختار له؟ ثم قال له: لقد تجردت لك لأضرب عنقك فأبى الله ذلك، أما والله لو قلت غير ذلك ضربت عنقك" (٢٣).

وكان عثمان كما كان علي في أحوالهما وأخلاقهما عرضة لظروف لم يستعدا لها، ولا يتقنان الدوران معها مع أنهما لا تتقصهما الحكمة ولا السياسة.

ولكن هل يستطيع عثمان أو علي أن يواجه عمرو بن العاص بأخلاقهما. وكان الزمن والعصر والناس يتهيؤون لنجاح ابن العاص. ولهذا ستخفق شجاعة علي وعدله وحكمته، كما فشل حياء عثمان وكرمه وتقواه. لأن التاريخ كان يتهيأ ويهيأ للملك بعد أن استنزفت الخلافة طاقاتها في عجزها عن مجابهة شورى الشوارع والمدن والقبائل. أي شورى فوضى الاجتهاد وفوضى التأويل وفوضى الأحكام. وكانت الخلافة وهيبة الدولة كلها ممثلة في شخص واحد، وعليه مجابهة كل هذه الفوضى بوسائل إعلام وإقناع لا يملكها وجيوش لا يبيح لنفسه استعمالها في مجابهة الثائرين والحكم عليهم. وكان من الأخطاء التي أدت إلى ما وصل إليه الحال، هو عدم الانتباه لإيجاد مؤسسات للشورى ثابتة في كل ولاية من الولايات من زعماء الأمصار المشهود لهم بالفضل والخلق الحسن، إضافة إلى مؤسسة في العاصمة لتدارك أي خلل واقتراح الحلول المناسبة لكل مشكلة قبل استفحالها بدلاً من تحميل الخليفة ما لا يطيق من المسؤولية. وسوف يتضح لكل دارس لحياة عثمان وسيرته، أنه كان ضحية لشائعات عن أخطاء لم يرتكبها. ولهذا سيخفق علي بن أبي طالب أيضاً رغم زهده وتقشفه لأن أخلاق الخلفاء لا تستطيع أن تفعل مايفعله الملوك. وكان على الخلفاء أن يتحملوا مسؤولية الشاة الضالة في كل أنحاء المملكة، وهذا ما لايقدرن عليه ولا يطيقونه. ولهذا ستخفق الأخلاق التي عملوا بها في ضبط الناس، بينما ستجح شرطة معاوية ودهاء ابن العاص لأن الزمن كان يتطلب نوعاً آخر من الحكام لا تصلح له أخلاق الخلفاء..

بقي أن نقول: إن عثمان الشهيد ذهب وبقي من مآثره مصحف عثمان الذي يتلوه كل مسلم الآن. فكان جمعه للقرآن شهادة له بل إنها أعظم شهادة، فقد أراد عثمان ببعد نظره أن يوحد المسلمين، وقد نجح في تأسيس هذه الوحدة، بينما كان خصومه يريدون أن يفرقوا وأن يمزقوا هذه الوحدة بالجهل أو سوء النوايا، وهما أمران يكشفان عن مفاهيم العدالة التي استند إليها هؤلاء الذين دخلوا على رجل في السبعين من عمره وقتلوه مع أنهم كانوا يعرفون بأنه لو أراد أن يقتلهم بالموالين له وبالشرعية التي يستند إليها لقتلهم. وأسوأ من ذلك أنهم قطعوا عنه الماء، وهو يقول: لا أقاتل رحمة بهم. ولا أتنازل حرصاً على موقع الخلافة من العبث، بشجاعة لا يطيقها إلا قلب مؤمن لم تكن الدنيا همه ولا غايته. ولو كان عثمان من رجال الدنيا الحريصين عليها وعلى الملك كان سيتنازل أو يقاتل حباً بالحياة ورغبة في الملك.ولكنه لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء. بل كان من الذين قتلهم خوفهم من الله أولاً، ومن الذين قتلهم حياءهم من الله ثانياً، وهذه شهادات له وليست عليه، ولهذا رضي بإهراق دمه ولم يرض بإهراق دم مسلم في سبيله أو بسببه.

خلافة علي بن أبي طالب

(٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م).

لقد تولي علي رضي الله عنه الخلافة في عام (٣٥ هـ / ٦٥٦ م)، بعد مقتل عثمان رضي الله عنه. وإن الكلام عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليس مثل أي كلام. فعلي لم يكن في التاريخ مثل عظماء الرجال الذين أنجبهم الإسلام ، يمكن أن تقرأ عنه لتبصره وتبصر مزاياه، بل لأبد للتعرف عليه من خوض بحر الإحسان لإدراك ما ميزه به الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "أنا مدينة العلم وعلي بابها" (١).. فهذا علم العارفين الذي لا ينكشف إلا لمن كان حبه لله، وكانت أحكامه منه وإليه، عن يقين ومعرفة. وقد عرفه الخلفاء فيما قضاه واختلف عليه من التشريع فكان الحجة والمرجع وصاحب القول الفصل. حتى قال عمر بن الخطاب: "قضية ولا أبا حسن لها" .. "ولولا علي لهلك عمر" .. وإذا ذكر الشجعان فقد كان علي من أشجع الشجعان، ومن أحسنهم أخلاقاً ورأفة بخصومه. وقد كان علي غالباً مفتاح معارك الرسول صلى الله عليه وسلم، ورمز البطولة وبشارة النصر في المواقف الحاسمة والمبارزات الحامية. وإذا ذكر إسلام الذكور فقد كان أول الذكور إسلاماً وأصغرهم سنناً فقضى في كنف الإسلام كل حياته. كما استمد من تربية الرسول صلى الله عليه وسلم وعنايته به منذ الطفولة ما لم ينله سواه.

وإذا ذكرت الأنساب فعلى أقرب الصحابة نسباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الكاملة رضي الله عنهما، ولهذا خرج علي من ميدان المنافسات التي يتبارز بها الأتراب والأمثال لأنه لا منافس له ولا ند من ناحيتين. فقد نال بالولادة الطبيعية أقصى ما يتيح الأنساب من المجد، كما نال بالاكنتساب والتعلم كل ما يتيح العلم من السمو فكان سباقاً. فجمع بين المجدين مجد الاكنتساب ومجد الانتساب. ولهذا كان لا يغار من أحد، وإن كان موضعاً لغيره الغيورين، وهدفاً لسباقهم. لهذا فإن الكلام عن علي لا يغنيه مدح المادحين وإن أسرفوا في الثناء. وليس لنا ولغيرنا إلا تتبع أعماله، والغوص في أسرار الإلهام التي كان مركزها والمحيط بأخبارها، واتباع آثاره لشهود حقائق التوحيد التي وصل إليها ونبه عليها.

لقد كان علي فريداً بين الصحابة بشفافيته التي تفوقت في كل ميدان. فكان صورة الإيمان وعلمه وحقيقته، ولهذا مثل علي الإيمان كله في مجابهة الكفر كله

طوال حياته، ورفض أوساط الحلول ودهاء السياسة وإن كان لا ينقصه علم الدهاء، وهل يجهل الدهاء من أتقن العلم لو أراد أن يستخدمه في نجاح حكم أو تنفيذ سياسة؟؟ وربما كان لعلي مبررات كثيرة لو استخدم ترياق الدهاء والحيلة في مواجهة خصومه. ولكنه كان لأسباب كثيرة لا يستطيع أن يواجه خصومه بأساليب السياسات الملتوية. منها ما يعود لشجاعته المستمدة من الحق، ومنها بسبب أخلاقه التي شربت صفاء الإيمان فأشرقت بالصدق وأثمرت بالتعفف عن الصغائر ونوايا الغدر والخبث، وبسبب إيمانه الذي جعل حياته في خدمة الإسلام ولم يجعل الإسلام في خدمته. لقد ترفع علي في كل المواقف عن المساومة عما كان يراه حقاً لبعض الوقت في سبيل النجاح، لأن حساباته كانت تذهب إلى الغايات، وحسابات غيره تبحث في الوسائل، وكانت أدوات علي شريفة مثل غاياته ولهذا حير أصدقاءه وأعداءه.

جاء إليه المغيرة وبايعه بالخلافة، وقال: "إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحرز به مافي غد، وإن الضياع اليوم تضيع به مافي غد. أقرر معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت..." فأبى وقال: "لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنيا في أمري.." قال المغيرة: فإن كنت أبيت علي فأنزع من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُستمتع له ولك حجة في إثباته. إذ كان عمر قد ولاه الشام. فقال علي: لا والله لا أستعمل معاوية يومين. ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له لما علم برأي المغيرة: إنه نصحك.. قال علي: ولم نصحني؟... قال: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شوري وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينتفض عليك أهل الشام وأهل العراق" (٢). كانوا يتكلمون بمنطق السياسي. ولكن لسان الحق لا يجامل ولا يداهن، ولهذا أمر علي بعزل معاوية، وكان ماكان من الحرب بينهما. وكان ماكان من الحروب بينه وبين آخرين. وعلي لا يميل ولا يتزعزع عن قيم الإسلام الصارمة. ولكن الزمن كان قد تغير. والناس تغيروا. وكان علي كأنما يصرخ في هذا المحيط من الانحراف لوحده مع قلة من المخلصين الذين كانوا يأملون بأن يعيدوا للإسلام إشعاع الزهد ونور الإيمان. فكانت معارك علي معارك قيم وأخلاق بينما كانت معارك خصومه، معارك مصالح أو جهل. ولهذا قال لمن ظن أن معركته مع معاوية معركة دهاء: "والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس" (٣)... وكان فجور خصومه قد تجلى في كثير من

المواقف، منها رفع المصاحف يوم كانت الغلبة لقوات علي على معاوية، ومنها خداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري في قضية التحكيم، ومنها يوم استشهاد عمار بن ياسر. كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لعمار بن ياسر: "تقتلك الفئة الباغية، وآخر زادك من الدنيا ضيغ من لبن" (٤). وكان هذا الحديث يعرفه عامة المسلمين. فلما قتل عمار على يد جند معاوية قال المفسرون من فرقة معاوية لقد قتله من جاء به إلى الحرب، مع أن جنود علي وعمار منهم جاؤوا بمحض إرادتهم. ولكن إغماض العيون عن الحقائق وتزييفها كان سمة من سمات المرحلة التي تشابكت فيها دنيا بعض الناس مع آخرتهم فكانوا يريدون أن يجمعوا بينهما بالباطل فقبلوا التفسير وقبلوا التزييف، وراحوا يرددونه كاللبغاوات في مرحلة اختلطت فيها المعاني والأحلام والآمال. وكان علي يتعذب وهو يمسك بإيمانه فلا يريد أن يغدر أو يفجر، ولا يريد أن يستبيح الدماء في سبيل خلافة ألزم بها إلزاماً، ولا يستطيع أن يرد مسؤولية وضعها المسلمون في عنقه. وكان عذابه بسبب ضميره، وبسبب الناس الذين بايعوه لأهواء شتى. فقال: وهو يصف هذا الحال الذي آل إليه أمر المسلمين: "لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدوني لأنفسكم" (٥).

ما أصدق هذه الكلمة التي شكلت مسيرة حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فقد كان يريد أن يكون جهاد الناس معه لله، ولكن الثروات الكثيرة كانت قد علمت الناس على حب الحياة والاستمتاع بها. فأين سيد علي كرم الله وجهه هذه النفوس التي ستقاتل معه لوجه الله، كما كانت تفعل في أيام البؤس والفقر. ولهذا كان الذين معه بالقلب والروح قلة رغم كثرة المؤيدين والأنصار. لقد قاتل علي من أجل إسلام المساواة، وإسلام العدل، وعالمية الإسلام. بينما قاتل غيره من أجل سيادة العشيرة، واسترداد ما أخذه الإسلام من سيادة بعض الأسر. ولهذا بنى معاوية دولة أموية، بينما صار علي بن أبي طالب روح عالمية الإسلام وأمميته وعدله، فسقط الدهاء وبقي علي علماً مضيئاً في تاريخ الإسلام لا يسبر غوره، ولا يغني الحزن عما أصابه في رتق هذه الثغرة المؤلمة في تاريخ العرب خاصة والإسلام عامة. ولكن بعض الأقدار سابقة على الاختيار فقد وقف علي رضي الله عنه يخطب فقال: "اللهم إني سئمتهم وسئمتوني ومللتهم وملوني فأرحني منهم وأرحهم مني، ما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم ووضعه يده على لحيته" (٦). كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لعلي ذات يوم: "من أشقى الأولين؟ قلت: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا علم لي يا رسول الله. قال: الذي يضربك على هذه، وأشار بيده إلى يافوخه" (٧)..

كان علي ينتظر هذه اللحظة التي سيضربه فيها قاتله كما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحين جاءت وغدر به ابن ملجم قال لهم: "أطعموه واسقوه وأحسنوا إيساره، فإن عشت فأنا ولي دمي، أعفوا إن شئت، وإن شئت استقدت، وإن مت فقتلتموه فلا تمثلوا" (٨).. هذه أخلاق علي في خلافته، عاش للعدل حتى آخر لحظة في حياته، وأبى أن يولى عليهم خليفة من بعده، عندما قالوا له: "يا أمير المؤمنين استخلف علينا، قال: أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٩).. كان علي ينظر إلى الآخرة والدنيا تقبل عليه كما أقبلت على غيره بثرواتها وملذاتها، وهو يرتدي الثوب المرقع، ويقول لمن اقترح عليه سلامة الثوب وجودته: "يقتدي به المؤمن ويخشع به القلب" (١٠). كلمات وجيزة تعبر عن حال من قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر سعد: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي ثلاث خصال لأن يكون لي واحدة منها أحب إلي من الدنيا، وما فيها، سمعته يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وسمعته يقول: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار. وسمعته يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه" (١١). لقد كانت خصال علي التي شهد الرسول صلى الله عليه وسلم له بها هي ثوبه الذي يفخر به، ولن يضيف إليها الثوب الأنيق أو المرقع شيئاً لقد كان الزهد خلقاً يلتزمه المؤمنون اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان في علي طبيعة من سجايه، لأن الفروسية وجمع المال نادراً ما يلتقيان. ولهذا حرم علي رضي الله عنه على نفسه الاستمتاع بالدنيا، حتى أشفق خادمه عليه، فجاء إليه يوماً وقال له: "يا أمير المؤمنين: إنك رجل لا تليق شيئاً. أي لا تمسكه. وإن لأهل بيتك في هذا المال نصيباً، وقد خبأت لك خبيئة. قال: وماهي؟ قال: انطلق فانظر ماهي؟... فأدخله بيتاً فيه باسنة مملوءة أنية ذهب وفضة مموهة بالذهب، فلما رآها علي. قال: تكلتك أمك. لقد أردت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة. ثم جعل يزنها ويعطي كل عريف بحصته، ثم قال هذا جنائي وخياره فيه، وكل جان يده إلى فيه، ولا تغريني وغري غيري" (١٢). وكان "يكنس بيت المال ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين" (١٣). وكان يتذكر كيف بدأ حياته مع ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم على الزهد مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستطيع أن يعطي ابنته لتعيش حياة المترفين لو أراد، ولكنه أثر لها حياة الزهد كما أثرها لنفسه، فكان علي، يقول: "تحت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا فراش إلا فروة كبش فإذا كان الليل بتنا عليها وإذا أصبجنا فقلبنا وعلفنا عليها الناضح" (١٤).

لقد وصل علي رضي الله عنه قرابته التي قربته من الرسول صلى الله عليه وسلم بأعماله وأفعاله حتى نهاية حياته، حتى وصل في هذا القرب إلى مستوى لا تطيقه النفوس إلا نادراً. فكانت أحكامه في ميدان العدل لا تصدر إلا عن رجل فرق بين نفسه وبين عواطفه، فكان يحكم على نفسه كما يحكم على رجل غريب، وإن كانت عواطفه تذهب مذهباً آخر، كما هو شأن العواطف الجياشة في رجل شجاع مقدام لا يخاف في الله لومة لائم. بل ربما كان يجور على نفسه في الحكم ليستقيم بالنسبة إليه ميزان العدل الممزوج بأخلاق الكرام وسماحة الشجعان، حتى اتهمه الخوارج بما اتهموه به، وكانوا من أنصاره، لكثرة ما شاهدوا من سماحته ورأفته بخصوصه رغبة في حقن دماء المسلمين.

وكان جهلهم بسمو نفسه قد حكم عليهم، وأدى بهم إلى الحكم عليه بالقتل. وكيف سيفهم علياً رضي الله عنه كل مسلم، وهو يقول عن أصحاب الجمل الذين قاتلوه حين سئل عن رأيه فيهم: "أمشركون هم؟.. قال: من الشرك فروا.. قيل: أمناقفون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فمن هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا" (١٥).

جاء جعدة بن هبيرة إليه وقال مستغرباً: "يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلي أحدهما من نفسه، أو قال من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلهزه علي. وقال: هذا شيء، لو كان لي فعلت ولكن إنما ذا شيء لله" (١٦). وكان من عدله أنه ذهب بنفسه إلى قاضيه . شريح . ليشكو ذمياً سرق له درعه ورآها معه، فأبى أن يحكم عليه وهو الخليفة. وقال لشريح: "إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ماتقول فيما يقوله أمير المؤمنين؟... قال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتقت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح. مالي بينة! فقاضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه... إلا أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد، يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه!.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند في قتال الخوارج" (١٧).

ولكن شأن علي وشأن أولاده من بعده رضي الله عنهم، وما صدر بحقهم من بعض المسلمين كان يدعو إلى العجب، بل إلى أعجب العجب، فقد جاء رجل إلى

عبد الله بن عمر "فسأله عن دم البعوض. فقال له ابن عمر: ممن أنت؟! فقال: رجل من أهل العراق. فقال ابن عمر: ها أنظروا! هذا يسألني عن دم البعوض وهم قتلوا ابن رسول الله! وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هما ريحانتاي من الدنيا" (١٨).. وكان عبد الله يقصد خوارج العراق الذين كانت أسئلتهم وأعمالهم كما وصف. وما أكثر العجائب التي ارتكبت باسم الإسلام ضد علي وآل بيته رضي الله عنهم. وعلي يعفو ويوصي بالإحسان لقاتله. ويعلم من أحب أن يقتدي به وأن يسمو بأخلاقه فيقول: "إني لأستحي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يوارئها ستري، أو خلة لا يسدها جودي" (١٩).. كان علي رضي الله عنه يستحي من الله ويقول وقد ارتفع بإيمانه فوق ما يسعده أو يسوؤه كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".. وكان من رحمته بالرعية أن بعضهم تجرأ عليه بغير حق فتحمل جرأتهم وقال: "كنت أرى أن الوالي يظلم الرعية فإذا الرعية تظلم الوالي" (٢٠).

هذا كان حاله مع رعيته التي أفسدتها المغالاة سواء في حب بعض من أحبوه، أو في كرهه من كرهوه، حتى قال: "يحبني قوم حتى يدخلهم حبي النار، ويغضني قوم حتى يدخلهم بغضي النار" (٢١). وقال: "يهلك في رجلان: محب مفرط، ومبغض مفرط".. (٢٢). وقال: "يهلك فينا أهل البيت فريقان: محب مفرط وباهت مفرط"^٢. (٢٣) وكان علي لمعرفته بالله ينصب ميزان الشرع على هؤلاء وهؤلاء حتى اضطر إلى إحراق بعض الروافض الذين وصفوه بصفات الإله وعبدوه، فكان مما زعموه وهو ينكل بهم أن قالوا له: إن الإله هو الذي يحرق بالنار. وربما اشتد علي رضي الله عنه في عقاب هؤلاء لأنه كان المستهدف في هذه العبادة الخارجة عن الشريعة الإسلامية، فحارب هذه المعتقدات بقوة حتى لا يبقى أي تأويل لهؤلاء وغيرهم فيما يتعلق بشخصه كعبد من عباد الله. لقد ابتلي علي رضي الله عنه بأشياء كثيرة، وتعرض لكثير من المحن فكان في كل موقف يكشف عن الإيمان والصدق فيما يقول، وعن بعد نظر فيما يتصرف أو يفعل، فعندما جاءه أبو سفيان وقال له بعد أن بويح لأبي بكر بالخلافة "يا علي بايعوا رجلاً أذل قريش قبيلة، والله لئن شئت لنصد عنها عليه أقطارها ولأملأنها عليه خيلاً ورجلاً. فقال له علي: يا أبا سفيان إن المؤمنين وإن بعدت ديارهم وأبدانهم قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين وإن قربت ديارهم وأبدانهم قوم غششة

^٢ كنز العمال، رقم ٣١٦٤١/ج ١١.

بعضهم لبعض، وأنا قد بايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلاً" (٢٤).. وكان من مظاهر حبه للخلفاء الذين تولوا خلافة المسلمين أن سمى ثلاثة من أولاده بأسمائهم وهم أبو بكر وعمر وعثمان. وزوج ابنته أم كلثوم لعمر بن الخطاب، واحتضن ابن أبي بكر محمداً ورشحه لولاية مصر فغلب فيها واستشهد. وقال عنه وهو يقيم أسباب إخفاقه: "بلا ذم لمحمد بن أبي بكر، فلقد كان إلي حبيباً وكان لي ربيباً" (٢٥).. ودافع عن عثمان قبل الحصار بنصحه وإبداء رأيه فيما كان يراه خطأ، وفي دفاعه عنه يوم حصره الثوار، ورأى أنهم يريدون به شراً لا يستحقه، فدخل عليه علي ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر ونفر من المهاجرين والأنصار، وقال له: "لا أرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنقاتل"... فقال عثمان: "أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر أن لي عليه حقاً أن يهريق في سببي ملاء محجة من دم أو يهريق دمه في" (٢٦)، فترك ابنه الحسن والحسين على بابه مع نفر من أبناء الصحابة المعروفين مما جعل الثوار يتخرجون من الإقدام على قتل هؤلاء للوصول إلى الخليفة وفيهم الحسن والحسين، حتى قام عثمان وفتح بابه ليمنع القتال حوله وقال لحراسه: "أنتم في حل من نصرتي"... هذه مواقف علي رضي الله عنه في الأزمات التي تعرض لها المسلمون وإن كان له رأي في الخلافة أو في استحقاقه لها. فقد كان يفرق بين حقوق الخلافة ورأيه في الخليفة، فكان الجندي المطيع بين أيدي الخلفاء والناصح الشفيق عليهم. ولهذا أراد أن يبذل دمه في نصرته لعثمان عندما تجاوز الثائرون حدود الحق إلى الباطل، رغم أنه كان لا يكف عن نصحه له أمامه إذا سئل. لهذا كان موقفه من عثمان غريباً على من لا يفهمون مواقف الرجال الشجعان في الدفاع عن الحق. فكانوا يذهبون مع عواطفهم كل مذهب، إما كراهية لا شفاء معها ولا إنصاف، أو حباً لا بصيرة معه ولا عقل، بينما كان علي رضي الله عنه يحب لله ويكره لله، ويقاوم الله لا لنفسه، ولهذا كان يصبر على من آذاه، ومن خدعه، لأنه كان يدافع عن دين لا عن دنيا. عن الإيمان الذي ملأ عقله معرفة، وقلبه رحمة، وليس عن هوى لنفس أو سلطة، أو كسب. فقد كان علي لا يستطيع أن يهرق قطرة من دم إلا في سبيل الله. من نظر إلى طعامه وإلى لباسه يعرف ذلك..

ما فائدة السلطة والخلافة والقتال والتعرض للأخطار والشدائد في سبيل ملك يقود صاحبه إلى التبليغ بلقيمات من طعام متواضع وارتداء لباس خشن؟ لم يطلب علي رضي الله عنه الخلافة لدنيا، بل الخلافة طلبته والعدل طلبه، والتاريخ طلبه لينصف الظالم من المظلوم، بعد أن اتسعت رقعة الدولة وكثر المال، وانتشر الفساد، فكان علي مطلوباً ليقوم اعوجاجاً وليتابع مسيرة أو مرحلة من مراحل

التاريخ.

كان الإيمان، والفساد والضلال والجهل وسوء الفهم، يتصارعان، فاختر أهل الإيمان علياً للسير بهم على هدي النبوة، واجتمع في صف آخر أصحاب الأهواء من الطامعين بالخلافة أو الذين سيتضررون من العدل، أو الذين حركتهم مشاعر العصبية ضده لبلائه في الإسلام وجهاده ضد أهل الشرك. وكان أكثر المتضررين من خلافة علي ربما معاوية بن أبي سفيان. فإضافة لقرار علي بعزله فقد كان علي قد قتل في معركة بدر عتبة بن ربيعة جد معاوية والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه، إضافة إلى ما قتله من مشركي قريش في الحروب الأخرى. ولهذا كان معاوية لا يستطيع أن ينسى كل هذه النكبات التي تعرضت لها أسرته بسيف علي، وربما نكأ قرار علي بعزله كل هذه الجراح، وربما لأن معاوية كان يعرف كما يعرف غيره بأن عدل علي لا يتسع لأي ظلم، لهذا تألبوا عليه وقتلوه. وقد عرف علي أن غالبية قريش لا تريده لهذه الأسباب فاضطر إلى نقل عاصمته للكوفة وقال قولته مالي ولقريش: "أما والله إن كنت لفي ساقنتها حتى تولت بحدافيرها ما ضعفت ولا جينت وإن مسيرتي هذا لمثلها، فلأنقبتن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه، مالي ولقريش، والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين" (٢٧). ولكن علياً كان أرحم بخصومه مما كانوا يتصورون. وقد وسعهم عدله وسماحته في أحلك الظروف وأشد الأوقات: "فصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء. وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه والمؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء. وظفر بعمر بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته إتقاء لضربته... وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: "ولا قطرة حتى تموت عطشاً... فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده. وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئاً، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك؟ إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟ وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة، ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع، وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن

بالعمائم وقلدهن السيوف. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت، وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي... فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن، وقلن لها: إنما نحن نسوة" (٢٨)...

وكان من كلامه في خطبة له بعد وقعة الجمل، رحمة بمن قاتلوه، باحثاً عن أعدار لهم، استند إليها لكي يمنع الناس من الغلو والإسراف في الاتهام أو الشتمية، مترفعاً بسماحته التي اهتدى إليها بنور النبوة وحكمة الشريعة عن الحقد، فكان القاضي العادل على من اصطدم به وأذاه فرد الأمر كما كان يعلم إلى نور العقل. فقال: "إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول. فأما نقصان إيمانهن فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن. وأما نقصان حظوظهن فمواريثهن على النصف من مواريث الرجال، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد. فانتقوا شرار النساء. وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر" (٢٩). وكان من أخلاقه أنه حين سمع نقرأ من أصحابه يسبون أهل الشام فقال لهم: "إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به" (٣٠). ومثل هذا الكلام لا يقوله إلا عالم بأمر الله ناظر إليه في مشيئته وهدايته.

وباب علي إلى العلم الإلهي باب عميق لا يدخله إلا مهتد ولا يصل إليه إلا متحقق. وتكفي إجابته لمن سأله: "يا أمير المؤمنين متى كان الله، لإدراك عمق معرفته بربه. فقد اختصر في إجابته فلسفة المتفلسفين، وأتى بمعرفة الموحدين فقال: "إنما يقال متى كان لمن لم يكن ثم كان. فأما من . لم . يزل بلا كيف يكون كان بلا كينونة، كائن لم يزل قبل قبل وبعد البعد لا يزال بلا كيف ولا غاية ولا منتهى، إليه انقطعت دونه الغايات فهو غاية كل غاية" (٣١).. وقال: "أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة" (٣٢).. وأجمعت فرق التصوف على الاستمداد من علمه في التوحيد فكان بابها إلى بحر الحقيقة، وطريقها لدخول مدينة المعرفة النبوية. كما كان مؤسس علم النحو العربي. "وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلي شكاه إليه شيوخ اللحن على

السنة العرب، فقال له: اكتب ما أمني عليك، ثم أملى أصولاً منها: إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل... وإن الأشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر.. يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة. ثم قال لأبي الأسود: انح هذا النحو يا أبا الأسود. فعرف العلم باسم النحو من يومها"(٣٣)..

ولقد شهدت لعلي رضي الله عنه أعماله وأفعاله فكان عند ميزان الحق دائماً، وكيف يتجاوز إمام أهل المعرفة هذا الميزان، وهو الذي تربي في كنف النبوة وشرب من علومها. ولكن حظوظ علي رضي الله عنه في زمنه كانت أقل من مؤهلاته وقدراته، ولم يفاجأ علي بما تعرض له أو بما سيتعرض له. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبره باستشهاده عناية به من الله. وأخبر الزبير بن العوام بما سيصدر عنه نحوه فقال له: "أتحبه؟.. أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت له ظالم"(٣٤)..

وكان علي رضي الله عنه مشاهداً ينتظر وقوع ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معذوراً وهو يحاول أن يرد الناس إلى إسلام الإنسانية، الإسلام الذي لا فرق فيه بين عربي وأعجمي أو أبيض أو أسود إلا بالتقوى، بينما أراد بعض زعماء قريش أن يجعلوه مطية لدولة وملك. وإذا قرأنا دعاء عمر بن الخطاب في آخر خلافته وهو بالحج سنهم أي ظروف قد طرأت، وأي أمراض وعلل قد نشأت بعد الفتنة التي أودت بحياة عثمان. لقد قال عمر وهو يشاهد حجم التبدل الذي أحدثته الفتوحات "اللهم كبر سني، وضعف قوتي، وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط"(٣٥). وقد تحقق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاء بعض الصحابة يشكون إليه الفقر فقال لهم: "ستفتح عليكم الدنيا حتى تتجدوا بيوتكم كما تتجد الكعبة، فأنتم اليوم خير من يومئذ"(٣٦).. وقد كثرت الأموال التي أفسدت الضمائر وظهرت الفتن. وقد كان بعض الصحابة من أهل الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة يتطلعون إلى الخلافة عن اعتقاد بحقهم وكفاءتهم. وقد رأينا طول المداومات التي دارت بينهم حتى اتفقوا على خلافة عثمان فلما اغتيل عثمان، كان الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله يتطلعون إلى الخلافة في جو من الفوضى لم يسمح بانتقال السلطة إلى الخليفة الجديد علي بن أبي طالب بأسلوب يرضيهم.

وربما رأى معاوية أن هذه الفوضى ستقود البلاد إلى الكارثة واعتقد أنه الأكفأ

لقيادة الدولة من بين الجميع، إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها والتي جعلته لا يقبل بخلافة علي. وقد رأى علي حيرة المسلمين في هذا الأمر الذي دخلوا فيه، ولهذا كان علي يترحم على قتلى الفريقين يوم صفين. جاء "عن المسيب بن نجبة: قال: كان علي أخذاً بيدي يوم صفين فوقف على قتلى أصحاب معاوية، فقال: يرحمكم الله، ثم مال إلى قتلى أصحابه فترحم عليهم بمثل ما ترحم على أصحاب معاوية. فقلت: يا أمير المؤمنين استحللت دماءهم ثم تترحم عليهم؟.. قال: إن الله تعالى جعل قتلنا إياهم كفارةً لذنوبهم" (٣٧).. والأصح أنه قال كما ذكر: "من كان يريد وجه الله منا ومنهم نجاً.. فوكلهم إلى نياتهم، وهذا هو الأقرب إلى علم الإمامة وأخلاقه. وقد قيل لأُم المؤمنين عائشة بعد وقعة الجمل: "من كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. قالت: علي بن أبي طالب. قلت: أي شيء كان سبب خروجك عليه؟.. قالت: لم تزوج أبوك أمك؟.. قلت: ذلك من قدر الله. قالت: وكان ذلك من قدر الله". (٣٩).. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لنسائه: "أيتكن التي تتبجها كلاب الحوآب. إياك يا حميراء. فلما مرت عائشة ببعض مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب عليها فسألت عنه فقيل لها: هذا ماء الحوآب، فوقفت وقالت: ما أظنني إلا راجعة، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: كيف بإحداكن تتبج عليها كلاب الحوآب. قيل لها: يا أم المؤمنين! .. إنما تصلحين بين الناس" (٤٠)..

كان علي ينظر بعين الخبير إلى الفتن التي تتابعت عليه، وبعين المشفق على قتلى المسلمين، وبعين المسؤول عن الرعية التي سلمت إليه قيادتها، وكل عين تدعوه إلى أمر لا يستطيع أن يرضاه، فكانت خلافته صراعاً مع شرور لا بد منها، وجهاداً في بحر من الفوضى، فكان كأنما يضرب بسيفه في الماء، والماء لا يريد أن ينحسر إلا بعد إغراق دولة الخلافة، وظهور دولة الملك. وكان هذا البحر هو بحر الناس الذين تواطؤوا على دولة الخلافة حتى قُضي عليها، فهل جاء الملك وذُهب العدل إلا بما كسبت أيدي الناس؟.. وهل كان علي يستطيع أن يخلص الناس من الشر القادم إذا كانوا قد آثروا سلطان الظلم، على سلطان العدل، وإذا كانوا قد اختاروا ما يجهلون على ما يعرفون على فرض أنهم لا يعرفون سياسة السلطان القادم، فهل كان علي مجهولاً ليعرف لهم؟.. هذه هي المأساة التي جعلت علياً يتساءل: "متى تخضب هذه من هذه"، أي لحيته من رأسه كما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ضاق بإنكار من أنكر عليه حقه في الخلافة بعد أن اختاره المسلمون، وحقه في التأييد بعد أن ثار عليه

من ثار . فضاع الحق وضاعت الشورى، وضاعت الخلافة، وفتح باب الفتن على المسلمين. فسلط السيف الذي احتكموا إليه على رقابهم، عندما حملوه بدلاً من الحوار، وعندما اختاروا الهوى بدلاً من العقل. هوى الأفكار، أو الجيوب، على كتاب الله ووصايا رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان كتاب الله يأمر بالشورى، وكانت الشورى قد اختارت علياً للخلافة. كما كانت وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤيد هذا الاختيار لمصلحة الإسلام والمسلمين، فكان علي لا يقارن بغيره من المطالبين بالخلافة بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بعض المسلمين آثروا العمل بمصالحهم على الوحي، وبعضهم اختار مصالحه ودنياه على آخرته، فقال من قال: "الصلاة مع علي أقوم، والطعام عند معاوية أدمم" .. فاختار شريعة النفاق الذي أدى إلى الإضرار بالمسلمين. فما فائدة صلاة لا يجاهد صاحبها مع الحق..؟

فهل أخطأ علي رضي الله عنه وهو يجاهد في هذا البحر الصاخب؟... وهل كان عليه أن يستعين بالدهاء والدهاء، لكي يكسب الخلافة وينجح حيث أخفق؟... إن كل مؤمن وكل محب للعدل، كان يتمنى نجاح علي، وإن اختلفت الآراء في تقييم الظروف التي أحاطت به، وتقييم سياسته رغبة في نجاحه. وقد قرأنا ما اقترحه عليه المغيرة بن شعبة، وما قاله ابن عباس، ولكن لو أن علياً قبل مثل هذه المقترحات هل سيكون هو علياً الذي نعرفه، علي الذي كان يقول للدنيا: "غري غيري" .. وإن نجح؟...

هذه هي المسألة التي واجهها علي في خلافته، أن يكون هو بإيمانه أو لا يكون. ولهذا كان عليه أن يختار بين مبادئه وبين نجاحه... فاختار المبادئ التي أمر بها الله على نجاح دنيوي لا يغير المؤمنين..

وهذا هو كنز المعرفة التي قاتل علي من أجلها ودعا إليها. وهذا هو مقياس نجاحه ونجاته من دنيا مضت بالخلفاء والملوك. ومن قاس سياسته بهذا المقياس سيشهد لعلي رضي الله عنه بالفوز فيما يظن أنه أخفق فيه. ومن قاس سياسته بمقياس إخفاقه، في الانتصار على خصومه في ساحات الحرب ومكائد السياسة، فإنه سيلوم وينتقد بدون حق. وبدون معرفة للإمام الذي لم يعتقد بأنه سيكسب من الخلافة شيئاً كان سيخسر دونها، بل رآها مسؤولية لا بد له من القيام بها للنجاة بنفسه والمسلمين في دنيا الامتحان والفتنة. فدار علي مع القرآن، وقاتل مع الإيمان، فكان كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم : "علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" (٤١) .. لهذا لا يستطيع علي أن

يكون غير ما كان لأنه وهب حياته للحق المطلق الذي كان يتعالى في شرعيته على حسابات الفوز والخسران. ومع ذلك ولكي لا ننظر إلى علي نظرنا إلى مثل أعلى كان همه الاستشهاد لا النصر، فإننا نقول بأن علياً أعد كل العدة اللازمة لتحقيق النصر على خصومه، ولكن جبهة علي كانت في مواجهة جبهات كثيرة كل واحدة منها ساهمت في خدمة خصمه معاوية بشكل غير مباشر، الذي نأى بنفسه وولايته عن التعرض للجبهات الأخرى. إضافة إلى هذه المشكلة فقد كانت جبهة علي تتابها الخلافات وظهرت فيها الخيانات، بينما كانت جبهة معاوية متماسكة.

وقد حذر علي مما رآه فقال في خطبة له بعد أن أخبر بنجاح جند معاوية بالسيطرة على اليمن، فقال: "إني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم" (٤٢)..

لقد خذل علي أنصاره الذين لم يكونوا على مستوى القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها. وهذا ما يمكن أن نحده من اضطرار علي لإرسال أبي موسى الأشعري للتفاوض مع عمرو بن العاص، الذي وافق على خلع الخليفة الشرعي من الخلافة، بينما سعى عمرو إلى الدفاع عن خلافة معاوية غير الشرعية. ومهما كانت الأسباب التي دفعت علي إلى الموافقة على أبي موسى الأشعري كمفاوض له، فإن ما جرى بينه وبين ابن العاص يدل على ضعف الجبهة التي كان علي يعتمد عليها مما دفعه إلى هذا التصريح المحزن في خطبته. فهل كان أنصار علي قلة؟.. لا إنهم لم يكونوا قلة. ولكن رأى غالبيتهم كما قال: "ليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدوني لأنفسكم". وهنا كانت مأساة علي رضي الله عنه التي تضاف إلى مآسيه، وربما إنها أكبر المآسي التي ساهمت في نجاح معاوية. جاء عن المدائني أن علياً: "نظر إلى قوم ببابه، فقال لقنبر: يا قنبر من هؤلاء؟ قال: هؤلاء شيعةك، قال: ومالي لا أرى فيهم سيما الشيعة؟.. قال: وما سيما الشيعة؟.. قال: خصم البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظمأ، عمش العيون من البكاء" (٤٣)..

فأل محمد كل تقي نقي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من خداع الأسماء والأنساب، فقال عن مسلمين يحسنون القول ولا يحسنون العمل: "سيكون في أمتي اختلاف، وفرقة يحسنون

القول ويسيتئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد السهم على فوقه، هم شر الخلق والخلقة... فقول: يا رسول الله!.. صفهم لنا نعرفهم. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا... سيماهم التحليق" (٤٤).. إنهم يعيشون على الكذب والضلال، وقد كان منهم الخوارج الذين سأل أحدهم عبد الله بن عمر عن جواز الصلاة بثوب عليه أثر من دم البعوض حتى تظن بمن يسأل هذا السؤال بأنه لا يقوى على قتل ذبابة خوفاً من الله، ثم يبيحون لأنفسهم قتل من قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" (٤٥). وهؤلاء كانوا في صفه ثم انقلبوا عليه..

كان علي يواجه سيلاً من الأعداء والعداوات. هذا السيل بدأ بأصحاب الجمل، ثم معاوية، ثم الخوارج، ثم أنصاره الذين ضاق بعضهم بعدله، وضاق بعضهم بسياسته حتى ظنوا أنه لا يعرف السياسة، وضاق بعضهم بتوزيعه للأموال بالإنصاف، وضاق الغالبية منهم عن فهمهم للإمام حتى أصبح الكثيرون منهم عبئاً عليه لا عوناً، لأنه كان يريد أن يرضي الله في تصرفاته، وكانوا يريدون أن يرضيهم. وكان قد فشا أمر العامة واجتهادات المجتهدين، فانقسمت الرعية، شيعاً، لا يجمعها أمر واحد، ولا يرضيها عقل راشد. وكان علي لا يستطيع أن يسوسها كملك مخالفاً أمر الله بالشورى، ولا يستطيع أن يجمعها بالشورى التي فهموا منها ما يبرر لهم المخالفة والمجادلة فيما أمر به الخليفة. فكان حظه من الخلافة ختامها، وما بقي من عصر بين عصرين، عصر أرادته الإمام استمراراً لعصر النبوة، وعصر كانت كل الظواهر والظروف تعده للملك، لقيادة الرعية بعصا غير عصا الشورى التي حطمتها الأهواء. فكان علي كرم الله وجهه مسك الختام لعصر النبوة وأخلاقها. فلم تغيره الدنيا بإقبالها عليه وبهزجتها، ولم تحيره الفتن بشدتها، فأعطى لكل موقف حقه من الأحكام، وبحث حقائق علم النبوة، فذاق من شرب من رحيق علمه العسل مصفى قبل نضوج الثمار، فكان قبلة العارفين، وسفينة الموحدين السائرة في بحر الكمال المحمدي. فقد السفينة في بحر المعرفة إلى شواطئ الحق والخير من أجل كمال الإنسانية. لقد أبحر بمن معه إلى الهدف، ولا يضر المؤمن أن يموت ببعض الطريق، ولكن ما يضره أن يضل الطريق، وأن يفسده الطريق. لم يكن الذين انتصروا عليه أكثر دهاءً، وأكثر خبرة بالناس، ولكن علياً أراد شياً وهم أرادوا شياً.

[قل كل يعمل على شاكلته] (٤٦) .. إذا رأى الفقير كنزاً ورده إلى أصحابه، فهو في عرف اللصوص غبي، وقد يقول فقهاؤهم إن الله أراد لك الغنى فأبیت إلا الفقر. وفقهاء عصر علي كثيرون مثل فقهاء أزماننا، كانوا يستخرجون من عدل الإسلام ظلم الرعية، ومن استقامة علي وأمثاله عدم أهليتهم للقيادة، وكان علي رضي الله عنه أن يتخلى عن شجاعته وعن إيمانه. كان عليه أن ينحرف عن طريق الحق، وأن يسمى انحرافه سياسة، وبعد نظر، أو أن يسموها له. وكان ما لا تزكيه الأعمال، تزكيه الأسماء والمسميات. أرادوا شيئاً وأراد أن يعمل لله. فكان مثلاً وقدوة فريح الإسلام والإيمان، وربحه الإسلام والإيمان، وما ربحه الإسلام والإيمان من علي كرم الله وجهه في كل العصور كان أكبر مما سيربحه من نجاح سلطة مؤقتة تراوغ وتداهن. وكان علي وهو العارف بأمر النبوة وشدة الحساب قد أراد أن يربح نفسه قبل أن يربح العالم. فعاش في الدنيا كغريب، وهو بانتظار لقاء الحبيب، ولهذا قال للدنيا "غري غيري" .. ولم يفرح بإقبالها ولم يحزن بإدبارها. لقد قالت فاطمة رضي الله عنها حين دخلت على أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مرض وفاته: "واكرياه" .. فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا كرب على أبيك بعد اليوم" .. وجاء إلى علي من يحذره من القتل، فقال: "لا أبالي إن وقع عليّ أو وقعت عليه" .. هذه هي النفوس المؤمنة، دنياها امتحان وبلاء، وخلاصها من الدنيا سعادة. ذكر أن فاطمة رضي الله عنها بكت ثم ضحكت وهي تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه فسئلت عن السبب فقاللت: "أكببت عليه فأخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أكببت عليه الثانية فأخبرني أنني أول أهله لحوقاً به... فضحكت" ... (٤٧) .. وقد توفيت رضي الله عنها بعد ستة أشهر. المؤمن يضحك إذا عرف أن أجله قريب.

ما أصعب فهم العالم على الجاهل، وما أصعب إصلاح الحريص المسرف في أمر دنياه والمهمل لآخرته، ومن يريد طاعة الله لا يطيع حتى نفسه التي بين جنبيه فكيف سيطيع غيره في معصية أو مخالفة. قال لرجاله وهو يشاهد ترددهم في نصرته: "إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات. وإنني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي" (٤٨) ..
لم يتسع لهم عدل المساواة فضاخوا به، وخذلوهم...

لهذا كان من الصعب على الكثيرين أن يفهموا أسباب خسارته أمام خصومه، وهم يشهدون قدراته العقلية مقارنة بقدراتهم، فيتحيرون من تفوقه العقلي

وعجزه السياسي، كما تحيروا من شجاعته وخسارته حتى طرقت سمعه اتهامات قريش. فقال في خطبة له وهو يتألم مما وصل إليه حال رعيته: "قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قبحاً، وشحنتم صدري غيظاً. وجرعتموني نغب التهمام (أي الهم)، أنفاساً. وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرّفت على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع" (٤٩).. ربما إن الذين اختلفوا فيه وجهلوه معذورون لأنهم لم يشاهدوا ما شهد به بعينيه، ولم يفهموا سر كلامه وإن حفظوه. فقد كان رضي الله عنه كما قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حصار خيبر "لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله".. فكان رضي الله عنه من ثمار هذا الحب الذي تاه في معرفته التائهون، ولهذا ترك من تسابقوا على طريق الدنيا ليسبقوه لأنه ما كان يريد أن يغرس فيها غير الحق. قال لابنه الحسن: "يا بني لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا، فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته، وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك" (٥٠)..

وقال: "من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها" (٥١).. دخل عليه ابن عباس فرآه وهو يخصف نعله، فقال له: "ما قيمة هذا النعل. فقلت لا قيمة لها.. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إلي من إمرتك إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً" (٥٢).. هذه هي الإمارة يفرح بها الظالم ليظلم، ويخاف منها العادل فيخسر الدنيا لتربح رعيته. فما هي الدنيا عنده، وما هي الخلافة إذا لم تكن تحقيقاً لهدف سام، وهو الذي يعرف الله، والحساب. وقد قال: "موتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة" (٥٣).. لقد كان علي رضي الله عنه أعرف بنفسه وشدته في الحق، وكان قد عرف الناس وخبرهم ورأى تنازعهم واختلافهم على الدنيا، ورأى الفتنة التي أودت بحياة الخليفة، فأراد أن ينأى بنفسه عما كانوا يتنازعون عليه، ولكنهم اجتمعوا عليه وأصروا على خلافته وهو يعتذر إليهم لأن عدله لن يرضيهم فقال لهم: "دعوني والتمسوا غيري... واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً" (٥٤).. ولكنهم أصروا على مبايعته، وهو غير راغب بها ولا ساع إلى مكابدة أفعالها، ولكنها الأمانة وقد وضعت في عنقه فاضطر إلى حملها رحمة

بالأمة، على أمل أن يقودها إلى الطريق السليم. فذاق من الخلافة شقاءها، وهو يحاول أن يعالج الأمراض التي ألمت بها حتى أعياه العلاج، فكان يسأل من حوله من الناس: "أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم.. ما بالكم..؟ ما دواؤكم؟.. ما طبيكم؟..."، كان عالماً بالجواب على أسئلته، فقال والحزن يملأ قلبه: "المغرور والله من غررتموه" (٥٥)... فكان كرم الله وجهه مسك الختام في خلافة النبوة بعد أن استعصى الداء وأخفق الدواء. فأقبل الملك بعصاه ليأخذ من الخلافة أجمل وأعظم ما فيها الشورى، بعد أن بسط "يعسوب المنافقين"، يده على القلوب فتسمت بالركون إليه والاعتماد عليه، كما قال علي رضي الله عنه وهو ينظر إلى ذهب وضع بين يديه فقال: "أنا يعسوب المؤمنين وهذا يعسوب المنافقين... بي يلوذ المؤمنون وبهذا يلوذ المنافقون" (٥٦).. وكل لائذ يلوذ بمولاه.. [أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً].. (٥٧).. ولا حول ولا قوة إلا بالله... من سيلوذ بعلي إذا مالت القلوب إلى المال.. فكيف بها إذا آثرته، وشغفت به، وتقاتلت عليه. فأى دولة لله ستقوم، وأي دولة للخلافة ستكون؟ وهل ستكون الدولة في كل العصور إلا صورة للراجح مما تكنه أخلاق الناس، وتستهويه القلوب والعقول. فما فائدة إيمان نوح لقومه في عصر الطوفان إذا كان الشريف مغلول اليدين بصدق الإيمان والظالم مطلق اليدين واللسان...؟؟...

■ ■

■ مراجع الإشراف بالإيمان

مراجع "المعرفة والموت"

- ١- الغزالي، رسائل الغزالي، ص ١٧٦،
- ٢- سورة الجمعة، الآية، ٥،
- ٣- د. عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص ٧٠،
- ٤- سورة التحريم، الآية، ١١،
- ٥- كنز العمال، رقم ٥٣١١/ج ٣،
- ٦- كنز العمال، رقم ٨٤٢٢/ج ٣،
- ٧- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٧، ص ٣٥٠،
- ٨- سورة إبراهيم، الآية، ٧،
- ٩- صفى الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٤٤٦،
- ١٠- صفى الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٤٤٦.

مراجع "مهمة التبليغ والكفاح الدامي"

- ١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٣٨،
- ٢- المرجع السابق، ص ٢٣٨.
- ٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١،
- ٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١،
- ٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١،
- ٦- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١.
- ٧- صفى الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٧٧،
- ٨- كنز العمال، رقم ١٨٦٣٧/ج ٧.
- ٩- كنز العمال، رقم ١٨٦٣١/ج ٧.
- ١٠- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٣١،
- ١١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٣١،

- ١٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص١٣١
١٣- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٢٩٣
١٤- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٢٩٥
١٥- سورة الزلزلة، الآية ٧-٨
١٦- كنز العمال، رقم ٣/٧٣٧٥
١٧- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٤٧
١٨- سورة العنكبوت، الآية ٢
١٩- سورة آل عمران، الآية ١٤٢
٢٠- كنز العمال، رقم ١١/٣١٩٨١
٢١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٢-٢٣
٢٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٢٠٤
٢٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٢-٢٣
٢٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٤

مراجع "رسول الحج"

- ١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص٩٦
٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص٩٨
٣- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٤٧١. وقد ورد في سيرة ابن هشام أن هذا الكلام
لزيد بن الدثنة.
٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص٩٨
٥- سورة الأنفال، الآية ٦٣
٦- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٣٢٧
٧- كنز العمال، رقم ٣/٣١٣ ج١
٨- سورة الأحزاب، الآية ٣٦
٩- سورة الأحزاب، الآية ٣٧
١٠- سورة الأحزاب، الآية ٤٠
١١- صحيح مسلم، رقم ٣/١٧٧
١٢- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص٣٢٩
١٣- كنز العمال، رقم ٣/٢٦٤ ج١٠
١٤- كنز العمال، رقم ١٤٠٥٦ ج٥. وجاء برقم ٣/٣٦٧٩٣ ج١٣

- ١٥- كنز العمال، رقم ١٣٨٦/ج ١ .
١٦- كنز العمال، رقم ٣٧٤٢٣/ج ١٣،
١٧- كنز العمال، رقم ٣٧٤١٨/ج ١٣،
١٨- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ١١٦،
١٩- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ١٩٨،
٢٠- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٧٨،
٢١- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٢٠١،
٢٢- سورة المنافقين، الآية ٨،
٢٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٨٥،
٢٤- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٣١٥،
٢٥- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٣٢٣،
٢٦- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٢٥،
٢٧- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٤٢٣،
٢٨- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٤٤،
٢٩- سورة آل عمران، الآية ١٥٩،
٣٠- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧،
٣١- كنز العمال، رقم ٧٧٤٣/ج ٣،
٣٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٣٥،
٣٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٨٥،
٣٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٠،
٣٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٣،
٣٦- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٦،
٣٧- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٣٦،
٣٨- كنز العمال، رقم ٣٢١١٤/ج ١١،
٣٩- كنز العمال، رقم ٣٢٧٠٣/ج ١١،
٤٠- كنز العمال، رقم ٣٢٤٥١/ج ١١،
٤١- صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٤٦٣ .

مراجع "الرسول الشاهد"

- ١- كنز العمال، رقم ٣٠٢٤٨/ج ١٠ .
٢- كنز العمال، رقم ٣٥٧٩٠/ج ١٢ .

- ٣- كنز العمال، رقم ٣١٧٦١/ج، ١١
- ٤- كنز العمال، رقم ٣١٩٧١/ج، ١١.
- ٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣
- ٦- كنز العمال، رقم ٣٢٠٦٨/ج، ١١.
- ٧- كنز العمال، رقم ٣٧٩١٣/ج، ١٤
- ٨- كنز العمال - رقم ٢٨٦٧٧/ج، ١٠
- ٩- ابن منظور، لسان العرب، حرف آ، ص ١٦٢
- ١٠- كنز العمال، رقم ٣٥٨٥٠/ج، ١٢
- ١١- كنز العمال، رقم ٣٠١٨٢/ج، ١٠
- ١٢- كنز العمال، رقم ٣٠١٧٣/ج، ١٠
- ١٣- ابن هشام، ج ٢-ص ٢١٦
- ١٤- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص ٤٠٩
- ١٥- سورة الأنعام، الآية ٥٠
- ١٦- سورة الأعراف، الآية ١٨٨
- ١٧- سورة هود، الآية ١٢٣
- ١٨- سورة فصلت، الآية ٦
- ١٩- سورة الحشر، الآية ٧
- ٢٠- سورة البقرة، الآية ٢٥٣
- ٢١- سورة الإسراء، الآية ٥٥
- ٢٢- سورة البقرة، الآية ٢٨٥
- ٢٣- كنز العمال، رقم ٤٣٧٥٧/ج، ١٦
- ٢٤- سورة البقرة، الآية ٢٥٥
- ٢٥- كنز العمال، رقم ٢٩٠٤٣/ج، ١٠
- ٢٦- كنز العمال، رقم ٢٩٠٩١/ج، ١٠
- ٢٧- سورة التكويد، الآية ١٩-٢١
- ٢٨- سورة آل عمران، الآية ١٢٨
- ٢٩- سورة الرحمن، الآية ١٩-٢٠
- ٣٠- سورة المائدة، الآية ٣
- ٣١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢-ص ٩٣
- ٣٢- كنز العمال، رقم ٣١٩٦١/ج، ١١

- ٣٣- كنز العمال، رقم ٣١٩٦٢ / ج ١١
٣٤- سورة النجم، الآية ٣-٤
٣٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢-ص ٢٤٩
٣٦- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢-ص ٢٥٠
٣٧- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول - ص ٧٧٢
٣٨- كنز العمال، رقم ٤٣٥٩٠ / ج ١٥
٣٩- سورة يونس، الآية ٤٤
٤٠- كنز العمال، رقم ٦١٣٢ / ج ٣
٤١- كنز العمال، رقم ١٨٦٠٢ / ج ٧

مراجع الرسول الطيبين

- ١- سورة المائدة، الآية ١١٢، -١١٣
٢- كنز العمال، رقم ٣٥٣٩٦ / ج ١٢
٣- كنز العمال، رقم ٣٥٤٦٨ / ج ١٢
٤- د. محمود النسيمي - الطب النبوي والعلم الحديث، ج ٢- ص ٢٧٧
٥- د. محمود النسيمي - الطب النبوي والعلم الحديث، ج ٢- ص ٢٧٧
٦- المرجع السابق
٧- سورة الأنعام، الآية ١٤٥
٨- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ٥- ص ٢٤٢ م.
٩- سورة الضحى، الآية ١٠
١٠- كنز العمال، رقم ١٥٩٣٩ - ج ١
١١- كنز العمال، رقم ١٧٦٦٠ / ج ٦
١٢- كنز العمال، رقم ٢٨٠٧٧ / ج ١٠
١٣- كنز العمال، رقم ٢٨٠٧٣ / ج ١٠
١٤- سورة الإسراء، الآية ٨٢
١٥- كنز العمال، رقم ٨٦٣٩ / ج ٣
١٦- سورة الحديد، الآية ٢٢
١٧- رياض الصالحين - الحديث رقم ١٧٩١
١٨- سورة الطارق الآية ٥-١٠ .
١٩- سورة الحج، الآية ٥

- ٢٠- سورة الزمر، الآية ٦
٢١- سورة المؤمنون، الآية ١٢-١٦
٢٢- سورة نوح، الآية ١٣-١٤
٢٣- سورة النجم، الآية ٤٤-٤٧.
٢٤- سورة الإنسان، الآية ١-٣
٢٥- سورة القيامة، الآية ٣٦-٤٠
٢٦- محمود نسيمي، الطب النبوي، ج٣-ص٣٢٦
٢٧- صحيح مسلم، رقم ٢٦٤٤/ج١٦
٢٨- صحيح مسلم، رقم ٢٦٤٣/ج١٦
٢٩- كنز العمال، رقم ٤٤٥٥٧/ج١٦
٣٠- كنز العمال، رقم ٤٤٥٥٩/ج١٦
٣١- عن محاضرة للدكتور هشام حوراني ألقيت في القاهرة، في مؤتمر عن أمراض الأطفال.
٣٢- سورة النساء - الآية ٢٣
٣٣- كنز العمال رقم ١٥٦٦٣/ج٦
٣٤- كنز العمال، رقم ١٥٦٥٦/ج٦
٣٥- كنز العمال، رقم ١٥٦٦١/ج٦
٣٦- كنز العمال، رقم ٤٥٥٦٣/ج١٦
٣٧- كنز العمال رقم ٣٢٤٦٩/ج١١
٣٨- كنز العمال، رقم ٣٢٤٥٥/ج١١
٣٩- كنز العمال، رقم ٣٢٤٥٧/ج١١
٤٠- كنز العمال، رقم ٣٢٥٠٠/ج١١.

مراجع الفتوحات الإسلامية

- ١- كنز العمال، رقم ٣٨٢١٨/ج١٤
٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٣٢
٣- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٢٩
٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٣٤
٥- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٣٤
٦- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٣٥
٧- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٢٤
٨- ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣ ص١٢٤

- ٩- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ ص ٣٨
١٠- كنز العمال، رقم ٣٢٠١٩-ج ١١
١١- كنز العمال، رقم ٣١٨٩٥-ج ١١
١٢- كنز العمال رقم ٣١٨٩٥/ج ١١
١٣- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧
١٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١-ص ٥٤
١٥- كنز العمال، رقم ٣١٨٠٢-ج ١١
١٦- د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج ١-ص ٢١٨
١٧- سورة البقرة، الآية ٢٥٥
١٨- كنز العمال، رقم ٣٢٦٣٣/ج ١١
١٩- كنز العمال، رقم ٣٥٦١١/ج ١٢
٢٠- النووي، رياض الصالحين، رقم ١٤٣
٢١- كنز العمال، رقم ٢١٥٥١/ج ٧
٢٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣-ص ٢٠٣
٢٣- صفى الرحمن، الرحيق المختوم، ص ٦٩
٢٤- سورة الضحى الآيات ١٦-٥
٢٥- سورة الفرقان، الآية ٧
٢٦- سورة الأنعام، الآية ٩
٢٧- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص ٢٩٤
٢٨- كنز العمال، رقم ٣٤٠٢٢/ج ١٢
٢٩- كنز العمال، رقم ٣٤٠٢٣/ج ١٢
٣٠- خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، ص ٢٧٠
٣١- سورة المدثر، الآية ٢٤

مراجع "النبوة والدليل النفسي".

- (١). ول ديورانت ، قصة الحضارة، ص ٢٣٤/ج ١٤.
(٢). المرجع السابق، ص ٢٤٥/ج ١٤.
(٣). ول ديورانت ، قصة الحضارة، ج ١٤، ص ٢٤٧.
(٤). ول ديورانت ، قصة الحضارة، ج ١٤، ص ٢٤٦.
(٥). ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ص ٢٥٣.

- (٦). كنز العمال، رقم ٣٧٤٩٤/ج١٣.
- (٧). كنز العمال، رقم ٣٧٤٩٥/ج١٣.
- (٨). كنز العمال، رقم ٣٧٤٢١/ج١٣.
- (٩). كنز العمال، رقم ٤١٩٨٥/ج١٥.
- (١٠). كنز العمال، رقم ٤٤٩٤١/ج١٦.
- (١١). ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص ٢٠١.
- (١٢). كنز العمال، رقم ٢٩٨٢٩/ج١٠.

. مراجع "الخطباء الأربعة والاقتداء".

- (١). كنز العمال، رقم ١٤١٤٤/ج٥.
- (٢). ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص ١٧.
- (٣). سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
- (٤). سورة الشورى، الآية ٣٧-٣٨.
- (٥). كنز العمال رقم ١٤١٧٨/ج٥.

. مراجع "خلافة أبي بكر الصديق"...

- (١). كنز العمال، رقم ٣٠٢٦٩/ج١٠.
- (٢). كنز العمال، رقم ١٤١٦٤/ج٥.
- (٣). كنز العمال، رقم ١٤٠٥٦/ج٥.
- (٤). كنز العمال، رقم ٣٥٦٩٥/ج١٢.
- (٥). كنز العمال، رقم ١٤٠٦٢/ج٥.
- (٦). كنز العمال، رقم ٣٠٢٣٥/ج١٠.
- (٧). كنز العمال، رقم ١٤٠٥٨/ج٥.
- (٨). كنز العمال، رقم ٤١٩٨٥/ج١٥.
- (٩). كنز العمال، رقم ١٤٠٦٩/ج٥.
- (١٠). كنز العمال، رقم ١٤٠٩٧/ج٥.
- (١١). كنز العمال، رقم ١٤١٠٣/ج٥.
- (١٢). كنز العمال، رقم ١٤٠٩١/ج٥.
- (١٣). كنز العمال، رقم ٣٥٧١٤/ج١٢.

مراجع "خلافة عمر بن الخطاب".

- (١). كنز العمال، رقم ٣٥٧٤٩/ج١٢.
- (٢). كنز العمال، رقم ٣٦٥٩٢/ج١٣.
- (٣). كنز العمال، رقم ٣٥٨٩٥/ج١٢.
- (٤). كنز العمال، رقم ٣٥٨٩٤/ج١٢.
- (٥). كنز العمال، رقم ٣٥٩٢٤/ج١٢.
- (٦). كنز العمال، رقم ٣٥٩٣٢/ج١٢.
- (٧). كنز العمال، رقم ٣٥٩٥٩/ج١٢.
- (٨). كنز العمال، رقم ٣٦٠٠٦/ج١٢.
- (٩). كنز العمال، رقم ٣٦٠١٣/ج١٢.
- (١٠). كنز العمال، رقم ٣٦٠١٠/ج١٢.
- (١١). كنز العمال، رقم ٣٥٩٧٨/ج١٢.
- (١٢). عباس العقاد . العبقريات الإسلامية، ص ٣٨٦.
- (١٣). كنز العمال، رقم ١٤٣٢٦/ج٥.
- (١٤). كنز العمال، رقم ٣٦٠١٥/ج١٢.
- (١٥). كنز العمال، رقم ٣٦٠٠٠/ج١٢.
- (١٦). كنز العمال، رقم ١٤٠٥٦/ج٥.
- (١٧). عباس العقاد . العبقريات الإسلامية، ص ٤٢٤.
- (١٨). المرجع السابق، ص ٤٢٤.
- (١٩). المرجع السابق، ص ٤٢٤.
- (٢٠). المرجع السابق، ص ٤٢٤.
- (٢١). كنز العمال، رقم ١٤٢٩٤/ج٥.
- (٢٢). كنز العمال، رقم ١٤٢٠٩/ج٥.
- (٢٣). كنز العمال، رقم ٣٦٠٧٧/ج١٢.
- (٢٤). كنز العمال، رقم ١٤٢٠٣/ج٥.

مراجع "خلافة عثمان بن عفان" ..

- (١). كنز العمال، رقم ٣٢٧٩٤/ج١١.
- (٢). كنز العمال، رقم ٣٢٨٣٨/ج١١.

- (٣). كنز العمال، رقم ٣٢٨٥٢/ج ١١.
- (٤). كنز العمال، رقم ٣٢٨١٤/ج ١١.
- (٥). د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢٥٢.
- (٦). كنز العمال، رقم ٣٢٨٣٧/ج ١١.
- (٧). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٥٩٥.
- (٨). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٥٧٢.
- (٩). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٠٢.
- (١٠). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٠٠.
- (١١). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٥٥٨.
- (١٢). كنز العمال، رقم ١٤٢١٢/ج ٥.
- (١٣). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٢٦.
- (١٤). كنز العمال، رقم ٣٦١٨٨/ج ١٣ ..
- (١٥). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٥٧٠.
- (١٦). كنز العمال، رقم ٣٥٧٨٣/ج ١٢.
- (١٧). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٥٧٠.
- (١٨). كنز العمال، رقم ٣٦٢٩٣/ج ١٣.
- (١٩). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٤٨.
- (٢٠). كنز العمال، رقم ١٤٢٧٧/ج ٥.
- (٢١). كنز العمال، رقم ٣٦٢٧٦/ج ١٣.
- (٢٢). كنز العمال، رقم ٣٦١٧٩/ج ١٣.
- (٢٣). كنز العمال، رقم ٣٦٢٤٧/ج ١٣.

مراجع: "خلافة علي بن أبي طالب" ..

- (١). كنز العمال، رقم ٣٢٩٧٨/ج ١١.
- (٢). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٧١٥.
- (٣). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٧٢٣.
- (٤). كنز العمال، رقم ٣٣٥٥١/ج ١١.
- (٥). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٧٢٤.
- (٦). كنز العمال، رقم ٣٦٥٧٠/ج ١٣.
- (٧). كنز العمال، رقم ٣٦٥٦٣/ج ١٣.
- (٨). كنز العمال، رقم ٣٦٥٨٨/ج ١٣.
- (٩). كنز العمال، رقم ٣٦٥٦٢/ج ١٣.

- (١٠). كنز العمال، رقم ٣٦٥٤٢/ج١٣.
- (١١). كنز العمال، رقم ٣٦٤٩٥/ج١٣.
- (١٢). كنز العمال، رقم ٣٦٥٤٤/ج١٣.
- (١٣). كنز العمال، رقم ٣٦٥٤٦/ج١٣.
- (١٤). كنز العمال، رقم ٣٦٥٣٦/ج١٣.
- (١٥). كنز العمال، رقم ٣١٦٧٣/ج١١.
- (١٦). كنز العمال، رقم ١٤٣٥٠/ج٥.
- (١٧). عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٧٦.
- (١٨). كنز العمال، رقم ٣٧٧١٩/ج١٣.
- (١٩). كنز العمال، رقم ٣٦٣٦٤/ج١٣.
- (٢٠). كنز العمال، رقم ٣٦٥٤١/ج١٣.
- (٢١). كنز العمال، رقم ٣١٦٤٢/ج١١.
- (٢٢). كنز العمال، رقم ٣١٦٤٤/ج١١.
- (٢٣). كنز العمال، رقم ٣١٦٤١/ج١١.
- (٢٤). كنز العمال، رقم ١٤١٤٤/ج٥.
- (٢٥). نهج البلاغة، ج ١، ص ١١٧.
- (٢٦). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٩٠.
- (٢٧). علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج ١، ص ٨١.
- (٢٨). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٦٥.
- (٢٩). علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج ١، ص ١٢٩.
- (٣٠). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٦٧٣.
- (٣١). كنز العمال، رقم ١٧٣٦/ج١.
- (٣٢). علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج ١، ص ١٤.
- (٣٣). عباس العقاد، العبقريات الإسلامية، ص ٧٥٤.
- (٣٤). كنز العمال، رقم ٣١٢٠٢/ج١١.
- (٣٥). كنز العمال، رقم ١٣٥٢٣/ج٥.
- (٣٦). كنز العمال، رقم ٣١٧٧٧/ج١١.
- (٣٧). كنز العمال، رقم ٣١٧١٥/ج١١.
- (٣٨). كنز العمال، رقم ٣١٧٠٧/ج١١.
- (٣٩). كنز العمال، رقم ٣١٦٧٠/ج١١.
- (٤٠). كنز العمال، رقم ٣١٦٦٨/ج١١.
- (٤١). كنز العمال، رقم ٣٢٩١٢/ج١١.

- (٤٢) . علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج ١، ص ٦٥ .
(٤٣) . كنز العمال، رقم ٣١٦٤٠ ج ١١ .
(٤٤) . كنز العمال، رقم ٣١٥٩٩ ج ١٢ .
(٤٥) . كنز العمال، رقم ٣٢٩٣٧ ج ١١ .
(٤٦) . سورة الإسراء، الآية ٨٤ .
(٤٧) . كنز العمال، رقم ٣٧٧٣٠ ج ١٣ .
(٤٨) . علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ج ١، ص ١١٧ .
(٤٩) . نهج البلاغة . ج ١، ص ٧٠ .
(٥٠) . نهج البلاغة . ج ١، ص ٨٧٠ .
(٥١) . نهج البلاغة . ج ٤، ص ٩٢ .
(٥٢) . نهج البلاغة . ج ١، ص ٨٠ .
(٥٣) . نهج البلاغة . ج ١، ص ١٠٣ .
(٥٤) . نهج البلاغة . ج ١، ص ١٨١ .
(٥٥) . نهج البلاغة . ج ١، ص ٧٥ .
(٥٦) . كنز العمال، رقم ٣٦٣٨٢ ج ١٣ .
(٥٧) . سورة الفرقان . الآية ٤٣ .

■ ■ ■



الفصل الثالث:

خلافة الإنسان في الأرض



حدود الخلافة الإنسانية

لقد عرضنا في هذه الدراسة صوراً من الإعجاز الإلهي الذي ظهر في القرآن أو أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أو الصحابة والتابعين ورأينا أن بعض مظاهر الإعجاز المستمد من الحقيقة المحمدية باق في التابعين إلى قيام الساعة. وإننا سنحاول في هذا الفصل تحليل مظاهر الإعجاز الساري في الصالحين من ذرية آدم على ضوء أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وتصرفاته في بعض المواقف لنفهم بعض أسرار الإعجاز ومظاهره ومناسباته، وذلك لكي نفهم سر ولاية الأولياء وحدود تصرفهم بدون أي أوهم أو مغالاة. وبما أن الرسول صلى الله عليه وسلم في الموقع الأرفع من هذا العلم، لأن الإعجاز كما قلنا يتعلق بعلم لا يعلمه إلا قلة، وإن كان متاحاً لكل الناس. فإننا لهذا سنتوقف عند أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم لمقارنة أعماله بما نراه من كرامات للأولياء في كل زمان، ويحدود هذه الكرامات. لقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بداية الدعوة الإسلامية وقد تعرض للإيذاء والحصار والجوع مع أصحابه. واضطر لهجر الوطن والحرب واستشهاد من استشده من آل بيته وأصحابه. وتعرضت المدينة كما رأينا للحصار حتى شك بعض المسلمين في نجاح الإسلام ونجاته. ومع ذلك فقد نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في المحصلة بفتح مكة وتثبيت الإسلام فيها وإكمال الرسالة كما أَرادها الله بقوله **[اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً]** (١). ثم تحقق بعد ذلك انتشار الإسلام ونجاحه، كما يشر الرسول صلى الله عليه وسلم ففتحت مملكتنا الروم والفرس ومصر، ووصل المسلمون إلى الصين. وما زالت آيات القرآن تتوالى لتكشف لنا عن معجزات لا حصر لها ولا يعلم أسرارها إلا الله الذي أرسل الكتاب بالهداية والإعجاز للتعريف بالرسالة والرسول الذي لا يملك العلوم التي أشار إليها القرآن إلا بتعريف خالق الأكوان. وذلك للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن إلى أي مدى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يؤثر في الحوادث، وأن يتصرف فيها؟. إننا نطرح هذا السؤال لتفسير ادعاءات من يدعي لنفسه أو لغيره القدرة على التصرف في الحوادث استناداً إلى بعض النجاحات أو استناداً لأوهام تخالج

عقول المدعين. لقد رأينا الرسول وقد جاع والمسلمون مع بني هاشم عندما حوصروا في أحد شعاب مكة فأكلوا من ورق الشجر وأعشاب الأرض حين نفذ طعامهم. ورأينا عمر الخطاب وقد بكى وهو يشاهد أثر الحصار في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له "كسرى في الخز والقز والحريير والديباج وقيصر مثل ذلك وأنت حبيب الله وخيرته كما أرى. قال: لا تبك يا عمر. فلو أشاء أن تسير الجبال ذهباً لسارت. ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح نباب ما أعطى كافر منها شيئاً" (٢). ورأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن ضاقوا من أكل التمر الذي كان يرسله إليهم لأنه لا يملك سواه: "والله لو وجدت اللحم والخبز لأطعمتكموه ولكن لعلكم أن تدرکوا أو أدرك منكم زمانا تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى عليكم ويراح بالجفان. أنتم خير منكم يومئذ، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض" (٣). ورأيناه عندما ضاقت أحوال المسلمين في حصار الخندق كيف أطعم أهل الخندق من شاة واحدة، وسقاهاهم في مناسبات عديدة من قليل من الماء، وكيف دعا فنزل المطر ورأيناه في غزوة حنين إذ أعجبت المسلمين كثرتهم فهزموا في أول الأمر. فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم عن ظهر دابته إلى الأرض، وقبض على حفنة من تراب ورمى بها في وجوه المشركين، وهو يقول شأهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا وقد أصيب في عينيه فانقلب نصرهم إلى هزيمة منكرة بعد ساعات، كما أسر منهم ستة آلاف. بينما تعرض المسلمون لمواقف خطيرة يوم غزوة أحد حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أصيب بجروح، وسقط في حفرة حفرها المشركون. كما حوصر المسلمون في غزوة الخندق مما دفع الرسول صلى الله عليه وسلم للتفاوض مع إحدى القبائل المتحالفة مع المشركين على الانسحاب مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، لو لا معارضة زعماء الأنصار الذين عبروا عن استعدادهم لقتال المشركين حتى النهاية. ولهذا لم يكمل الرسول صلى الله عليه وسلم عقد الاتفاق. إننا أمام مواقف محيرة. فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استطاع في غزوة الخندق أن يطعم عدداً كبيراً من الناس من شاة واحدة، وأن يسقي جيشاً افتقر إلى الماء من ركوة بيده التي كان ينبع منها الماء فلماذا اعتذر عن إطعام الجائعين باللحم بدلاً من التمر؟. والروايات تجمع بأن المسلمين عاشوا في فاقة وفقر شديدين. حتى أن حمزة وهو المعروف بمكانته عند الرسول صلى الله عليه وسلم لشجاعته وقربته، حين استشهد في غزوة أحد كما روى خباب فقال: "لقد رأيت حمزة، وما وجدنا له ثوباً نكفنه غير بردة إذا غطينا بها رجليه خرج رأسه، وإذا غطينا رأسه خرجتا رجلاه. فغطينا رأسه ووضعنا على رجليه من الإنخر" (٤). كما إن كثيراً من المسلمين الذين استشهدوا لم يجدوا له كفنأ كافياً يغطيه. منهم مصعب بن عمير فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم "غطوا رأسه

واجعلوا على رجله الانذر" (٥). وفي موقف من المواقف سيقول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله من الصحابة "كيف إذا شبعتم من ألوان الطعام؟. قالوا: أو يكون ذلك؟. قال. نعم" ثم سألهم وهم مندهشون "كيف إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى؟... .. كيف أنتم إذا سترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟" وهم يسألون "أو يكون ذلك" والرسول صلى الله عليه وسلم "يؤكد لهم أنه سيكون... كأنكم قد أدركتموه" (٦). وجاء في خبر عن ابن عمر. قال "ما شبعنا حتى فتحنا خيبر" (٧). وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها أنهم شبعوا من التمر وليس من أنواع الطعام. فقد جاء عن عائشة أنها قالت "لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر" (٨). ومع ذلك فقد ظل المسلمون يعانون من الفقر بعد فتح مكة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من المسلمين التبرع لقضاء حاجات المسلمين أو للجهاد. ومما يدل على معاناة المسلمين أنهم في غزوة تبوك "كان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بغيراً واحداً، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم. واضطروا إلى ذبح البعير مع قتلها ليشربوا ما في كرشه من الماء. ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة" (٩). لسوء أحواله المادية رغم التبرعات التي تبرعها عثمان بن عفان، والتي بلغت مائتي بغير إضافة إلى المال، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عنه "ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم" (١٠). كما جاء أبو بكر بماله كله وجاء عمر بنصف ماله وكان يريد أن يسبق أبا بكر بهذه المناسبة لتأمين جيش العسرة بالموارد المادية، الذي توجه لحرب الروم بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في رجب، السنة التاسعة للهجرة. وإذا نظرنا بالمقابل إلى السخاء والكرم الذي تميز به الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الجاهل بأمر النبوة سيصاب بالدهشة. فقد شاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم بين الناس "إن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر" وقد ازدحم عليه الناس بعد غزوة حنين في العام الثامن للهجرة يقولون "اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى أوجؤوه إلى شجرة، فاختمت عنه رداؤه. فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله أنه لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثم قام إلى جنب بغير، فأخذ وبرة من سنامه، فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها، ثم قال: أيها الناس والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم" (١١). لم يدخر الرسول صلى الله عليه وسلم كما رأينا إلا العمل الصالح والرحمة بالناس. كان ينفق ما يأتيه، ويطلب من أصحابه العون إذا احتاج إلى عونهم. وكانت أعمالها كلها تقود المتأمل عن بعد إلى الحيرة. وتقود المنتهم عن قرب إلى الإيمان والعلم. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بشراً، ولكن ما كان يحدث على يديه من معجزات لا ينتمي إلى أعمال البشر. فأين السر في الأمر؟ هل كان

الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف بتفويض دائم من الله أم إن التفويض كان محدداً بحدود لا يتاح للرسول صلى الله عليه وسلم تجاوزها. إن كل الوقائع والمعجزات تدل بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتصرف على ضوء إلهامات الوحي وبأمره. وكان الوحي يأتيه بأشكال مختلفة ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم منها: ١- الرؤيا الصادقة وكانت في بداية الوحي وقد استمرت بعد نزول الوحي كما اتضح من الأحاديث المتواترة عن رؤاه صلى الله عليه وسلم.

٢- الوحي بواسطة الملك عن شهود. وكان أول ما بدأ به الوحي عندما ظهر له جبريل في غار حراء وقال "اقرأ". وقد تعددت أشكال ظهور جبريل عليه السلام. فقد ظهر له بصورته عندما رأى له ستمائة جناح. وظهر له على شكل الصحابي دحية الكلبي. ورآه بعض الصحابة أحياناً دون أن يعرفوه إلا بإخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم كما مر في حديث الإسلام والإيمان والإحسان وغيره من المناسبات.

٣- الوحي من غير واسطة أو مشاهدة. فكان يسمع خطاباً ولا يرى المخاطب له. وهذا النوع من الوحي كان حظ سيدنا موسى عليه السلام. وكان لهذا الخطاب مستويات فأحياناً يأتيه بسهولة ويسر. وأحياناً كان يأتيه كما ورد مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه حتى إن جبينه ليتصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكباً لها. وورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستلقي على الأرض أحياناً من تأثير الوحي كما ذكرت عائشة رضي الله عنها عندما جاء الرسول لزيارتهم بعد حديث الإفك وعائشة عند أهلها. فقالت: "فو الله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه ووضعت له وسادة من آدم تحت رأسه.. ثم سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس، وإنه لينحدر منه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك" (١٢). وفي هذا المستوى من الوحي كما يفهم من الحديث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم في حالة غياب عما حوله لقوة التجلي الإلهي عليه. وهذا ما يفسره حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان مع جبريل ليلة الإسراء فقال "لما أسري بي كنت أنا في شجرة وجبريل في شجرة: فغشينا من أمر الله ما غشينا، فخر جبريل مغشياً عليه وثبت على أمري، فعرفت فضل إيمان جبريل على إيماني" (١٣). وقوله "إذا تجلى الله لشيء من خلقه خضع له". وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الكلام بسبب وقوع كسوف في الشمس بعد وفاة

ابنه إبراهيم، وانتشار الشائعات بأن الشمس كسفت لموته. فخطب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال "إن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد، ولكنهما خلقان من خلق الله تعالى، ويحدث الله في خلقه ما شاء. ثم إن الله تبارك وتعالى إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له، فأيهما انكسفتا فصلوا حتى تتجلي أو يحدث الله أمراً" (١٤). والتجلي غير الرؤية لأن رؤية الله غير ممكنة، وإنما هي تجليات يراها الناس وعلى قدر علمهم بما يشاهدون يكون تأثرهم. وقد ذكر بعض المفسرين - تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف - وإذا كان المقصود من دون حجاب المشاهدة المادية لا المعنوية فهذا لا يوصل إليه، فالله نور وحجابه النور. ومن النور عقل الإنسان فأثار العقل تشهد، إلا أن العقل لا يشهد، والعقل الإنساني فيض من النور الإلهي. ولهذا قلنا بخطأ من يظن إمكانية رؤية الله حتى في الآخرة، فهي تجليات. وتجلي الله عن التصور والإحاطة والمشاهدة. فنحن نراه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الآخرة "كالقمر ليلة البدر، أو الشمس ليس دونها سحاب" (١٥). لأن "حجابه النور" - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (١٦): وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين سأله "هل رأيت ربك. قال: نور أنى أراه" (١٧). وإن أفضل بيان جاء على لسان عائشة رضي الله عنها في توضيح هذه المسألة. فقالت للسائل: "ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت ما هن. قالت: من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئاً فجلست. فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني. ألم يقل الله عز وجل ولقد رآه بالأفق المبين. ولقد رآه نزلة أخرى. فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتيه.. منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض. وقالت لي: أو لم تسمع أن الله يقول لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. أو لم تسمع أن الله يقول: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم. قالت: ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية. والله يقول: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته. قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية. والله يقول: قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله.. قالت: ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية، تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه

أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه." (١٨). وقد رأينا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسان الواصل إلى درجة الإحسان حيث قال "أن تعبد الله كأنك تراه" (١٩). وهذه المشاهدة في الدنيا، مشاهدة معرفية بنور العقل. وهي ممكنة من حيث المعنى، بل إنها هي الحقيقة الوحيدة الممكنة في الدنيا والآخرة. والعارف الذي يعرف حدود المعرفة وسقفها لا يشقى بطلب المزيد أو المستحيل. ولهذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أخذ من علمه رأى الله كما يمكن أن يشاهد فرأه نوراً، وليس كما يظن بعض الناس. ورأى أنه الدهر فقال "لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر" (٢٠). فالمشاهدة تتعلق بالمشاهد وليس بالمشهود الله "الأول والآخر والظاهر والباطن". فهو لا يُشهد وإن شهد إلا في التجليات الوجودية التي يخشع لها القلب، ويهيم بها العقل، فيقول كما قال الصديق "العجز عن درك الإدراك إدراك" (٢١). وكما قال الشيخ محيي الدين بن عربي "لو علمته لم يكن هو، ولو جهلك لم تكن أنت. فبعلمه أوجدك، وبعجزك عبدته" (٢٣) وكل هذه الأحاديث تدل على طبيعة المشاهدة الممكنة لله، وتتفي تقيد الله في الزمان أو المكان أو الصورة، وإن كان الله في كل حقيقة نسبة من الظهور بأسمائه الحسنى. هذه هي مستويات الوحي كما عرفناها من الأخبار المتواترة. وعند هذه المستويات والتجليات يظهر الفرق بين الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من أمته. وبين الإسراء بالجسم والروح كما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالروح كما يحدث للخلفاء من ذرية آدم. ويمكن أن نضيف مستوى من الوحي كان يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه ويعمل به دون علم الأصحاب أو بعلمهم. ومن هذا الباب كانت مشاورة الرسول لأصحابه فيما لم ينزل فيه الوحي. وكمثال نقدم قصة الأذان. فقد وردت عدة أحاديث عن طريقة اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للأذان، تدل على إقراره لما رآه عبد الله بن زيد في نومه ليكون وسيلة لدعوة المسلمين إلى الصلاة. وهذا الحديث الذي نقله ثابت بمعناه من عدة روايات. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر بطريقة لدعوة المسلمين إلى الصلاة. وكان قد شاور أصحابه فاقترح بعضهم الناقوس، أو البوق. وقبل أن يتوصلوا إلى رأي "رأى عبد الله بن زيد النداء، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مربي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده. فقلت له: يا عبد الله، أتتبع هذا الناقوس؟. قال: وما تصنع به؟. قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك. قال: قلت: وما هو؟. قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا

إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة، حي على الفلاح. حي على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته. فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه، وهو يقول يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى" (٢٣). وقيل إن بلالاً "زاد في نداء صلاة الفجر، الصلاة خير من النوم فأقرها النبي" (٢٤). من هذا الباب يجب أن نفهم سر مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ومعرفته بمن صار الحق على قلبه ولسانه في أحوال خاصة مما جعله يأخذ برأيهم في هذه الأحوال. ومن هذه الأحوال التي أخذ بها جلوس ناقته عند بيت أبي أيوب الأنصاري، عندما حاول كل مسلم من الأنصار أن يحظى بضيافة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو يقول لهم "خلوا سبيلها فإنها مأمورة" فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت. "فلما بركت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل، وتبّت فسارت غير بعيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به. ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها. فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسأله عن المرید لمن هو. فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي. وسأرضيهما منه، فاتخذة مسجداً" (٢٥) وفي حادثة ثانية عندما توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة يريد العمرة في العام السادس للهجرة بركت ناقته القصواء بثنية المرار عند الحديبية ولم تقم. فصار الناس يقولون "خلأت القصواء. خلأت القصواء" فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم "ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة" ثم قال وقد فهم عن الله الإشارة "لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها" (٢٦). وبعد هذا العهد، أمر المسلمين بالإقامة في المكان الذي وصلوا إليه وسعى للتفاوض مع قريش حتى توصل معهم إلى الاتفاق المعروف بصلح الحديبية. وكان من إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف أنه قال لأصحابه حين أرسلت قريش سهيل بن عمرو للتفاوض "قد سهل لكم أمركم" (٢٧). وكان من الإشارات الإلهية لأبرهة الحبشي في عام الفيل امتناع فيله عن التوجه نحو مكة، ولكنه لم يفهم المغزى. فحوادث الكون

كلها إشارات إلهية لمن يعي هذه الإشارات. ومن الإشارات الإلهية التي نزل بها الوحي عتاب الله للرسول صلى الله عليه وسلم على قبول الفدية من أسرى بدر قبل نزول الوحي في هذا الموضوع. فقد شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في موضوع الأسرى فسمع منهم وجهتي نظر. رأي قال به أبو بكر الصديق وهو فداء الأسرى رحمة بهم. ورأي قال به عمر بن الخطاب وهو قتلهم. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر. فلما كان الغد حسب رواية ابن الجوزي عن عمر قال "غدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وهما يبكيان. فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء فقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة- "(٢٨). وأنزل الله تعالى [ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم] (٢٩) وجاء في تفسير ابن هشام "لولا أنه سبق من أني لا أعذب إلا بعد النهي ولم يك نهاهم لعذبتكم فيما صنعتم. ثم أحلها له ولهم رحمة منه بقوله "فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم" (٣٠). ربما جاء التحذير لأن الرسول صلى الله عليه وسلم تصرف قبل أن ينزل الوحي بالتشريع المناسب في قضية الأسرى. وعن غزوة حنين قال الله للرسول صلى الله عليه وسلم [وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى] (٣١). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ حفنة حصياء ورماها باتجاه المشركين وهو يقول "شاهت الوجوه" وقد نسب الله الرمي إلى ذاته وإن كان الرامي الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت يد الرسول صلى الله عليه وسلم هي يد الله من حيث القدرة والتأييد. بينما قال الله للرسول يوم أحد بعد أن كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم، وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعو إلى ربهم؟ فأنزل الله عز وجل في ذلك "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون" (٣٢). إننا أمام مواقف مختلفة، وكل هذه المواقف تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له أي خيار في التصرف. فكان عبداً لله، لا يتصرف إلا بوحيه، وإنه عندما تصرف في مناسبات برأيه بدون انتظار أمر الوحي كان يأتيه العتاب أو التذكير. وهذا الوضع الذي نلمسه في بعض الحوادث مثل قصة زينب وابن أم مكتوم، وفي حديث تأبير النخل حيث قال

"إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإلي" (٣٣) إن كل هذه الوقائع تدل دلالة واضحة على طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم كإنسان وإن كان في موقع السيادة لبني الإنسان بسبب عبوديته ومعرفته بربه. وقد رأينا تعليق السيدة عائشة رضي الله عنها على موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في قصة زينب وقولها النابع من معرفتها بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والوحي، وطبيعة عبودية الرسول صلى الله عليه وسلم وامتناله للأمر الإلهي، رغم أن النفس قد يكون لها نظر إلى حظوظها "ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل إليه لكتم هذه الآية". وقد أظهر الله ما أظهر لحكمة. لكي نتوكل عليه ونوكل الأمر إليه بعد تنفيذ ما أمرنا به بدون مخالفة أو اجتهاد فيما لا نعلم. وقد جعل الأنبياء قدوة لنا في التعلم، في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. وفي تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد برأيه قبل معرفة حكم الله. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم ملزماً بالتصرف بأمر الوحي بدون أي تطلع أو تأثر بأحواله النفسية أو أمانيه الشخصية. ولهذا حينما قال "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم" متأثراً بمحاولة قتله من المشركين وهو يدعوهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة جاءه الوحي بالبيان الواضح "ليس لك من الأمر شيء" تعليماً له ولنا، برد الأمور كلها لله. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول "إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم" (٣٤). مما يدل على أنه كان يتعلم بشكل دائم. وهو يتعلم لأن الكمال لله، وليس لابن الإنسان الطامح للكمال إلا حظ العبودية الكاملة لله. وهذا لا يقدح في عصمة الأنبياء، لأن العصمة تتعلق بعدم مخالفة الشريعة. أما حظوظ النفس وأمانيتها فهي من صفات البشر اللازمة لكمال وظهور إنسانيتهم. وقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند استشهاد عمه حمزة، وبكى حين توفي ابنه إبراهيم. وحين قيل له في نهيه عن البكاء. قال "إنما أنا بشر، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب. والله يا إبراهيم: إنا بك لمحزونون" (٣٥). وقال "إن أبكي فإنما هي رحمة" (٣٦) "وإنما يرحم الله من عباده الرحماء" (٣٧) وقال وهو يناجي ربه يطلب منه النصر يوم غزوة بدر: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم، إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً" (٣٨). والصديق إلى جواره يقول له "يا نبي الله: بعض مناشدتك ربك. فإن الله منجز لك ما وعدك" (٣٩). وهذا الكلام من الأحوال لأن الله لا يحتاج لتأييدنا نحن بالذات لكي يعبد، وإن كان لأبد من عابد ليعبد والرسول صلى الله عليه وسلم يعرف هذه الحقائق. ولكنها الأحوال والحرص على نصرة المسلمين. والرسول صلى الله عليه وسلم يتضرع إلى الله تضرع

الخائف الضعيف أمام قوى الشرك الكثيرة العدد والعدة، حتى سقط رداؤه عن كتفيه. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر المسلمين وهو يتجول في ساحة المعركة قبل وقوعها بمصارع القوم. وقال لهم وهو "يشير بيده: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله. وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله" (٤٠). لكنه كان يريد أن يطمئن، أن يشهد بعينيه ما وعده الله من النصر. لأن ابن الإنسان الكامل لا يستطيع إلا أن يرضى ويغضب ويفرح ويحزن، وإن كان يعلم بأن الأمر لله. وإن جميع الخلق مفتقرون إليه وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضى كما يرضى البشر فمن لعنته من أحد من أمتي فاجعلها له زكاة ورحمة" (٤١). كان المسلمون بعد الهجرة يحرسون الرسول صلى الله عليه وسلم ليلاً في بيته بالمدينة، مع أنه خرج أمام أعين المشركين الذين اجتمعوا على باب داره ليقتلوه قبل الهجرة، ولم يشاهدوه. فلماذا كانت هذه الحراسة التي استمرت عليه حتى جاء الأمر الإلهي بعصمته من الناس حسب رواية عائشة رضي الله عنها. قالت "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلاً، حتى نزل "والله يعصمك من الناس" فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس. انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل" (٤٢). ذلك لأن الأمر الإلهي لم يكن قد أتى بالعصمة، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحيط نفسه بالحراس تحسباً لغدر الغادرين. هذا هو الإنسان في ضعفه وإن بلغ ما بلغ من الطاعة. فهو يستمد من العناية الإلهية العون والإمداد، وليس له من الأمر شيء. ويعرف ذلك معرفة يقينية. وإن قال ما قال، فهو إنما يقول من موقعه واستخلافه إن أعطي الخلافة بأمر من ربه لا من نفسه. فإن تضرع وبكى إلى الله لقضاء حاجة من حوائجه لنفسه أو لغيره، فذلك لكي نتأكد بأن العبودية للحق شاملة للخلق وإن نطقوا بالحق وباسمه فهم رسل وخلفاء ونواب. والنائب ليس له حظ في الربوبية إلا بما تفوضه إليه، و"إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب" لمن نزع منه الملك. فأين الواصلون الذين يدعون الوصول قبل أن يذوقوا طعم العبودية الكاملة لله. كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الصادق في كل ما قاله قد خرج إلى الطائف يدعوهم عشرة أيام إلى الإسلام فلم يستجيبوا له. فطلب منهم أن يكتموا خبر زيارته لهم حتى لا يطمع به كفار مكة. إلا أنهم أرسلوا سفهاءهم وعبيدهم وراءه "وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقبيه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف. وهناك تضرع إلى

الله "اللهم: إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك" (٤٢) مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً إلى مكة حزينا متألماً، كما روى لعائشة رضي الله عنها عندما سألته "هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد" فروى لها ما حدث معه بالطائف. فقال "لم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب- وهو المسمى بقرن المنازل- فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم: فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين- أي لفعلت، والأخشبان: هما جبال مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان- قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلا بهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً" (٤٤).

ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ماشياً ومعه زيد وقد قطع ستين ميلاً بين الطائف ومكة بعد عشر سنوات من النبوة. إذ كانت زيارته للطائف في شوال، وأواخر أيار أو أوائل حزيران سنة ٦١٩م. وكان قد تجاوز الخمسين من العمر. وحين اقترب من مكة سأله زيد بن حارثة "كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك يعني قريشاً، فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه" (٤٥). وحين وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حراء "بعث رجلاً من خزاعة إلى الأحنس بن شريق ليجيئه فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: إلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمداً. ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن أدخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش: إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم. وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته" (٤٦). في نفس العام، السنة العاشرة للنبوة عندما بدأ موسم الحج راح

الرسول يدعو القبائل إلى الله والإيمان بما جاء به. فزار قبائل كلب وحنيفة وكندة فلم يقبلوا منه الإسلام. وفي هذه الظروف الشائكة والمعاناة جاء إلى بني عامر بن صعصعة ودعاهم إلى الإسلام. فقال رجل منهم يدعى فراس بن عبد الله: "والله، لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب. ثم قال: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيقون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. قال: فقال له: أفتهدف نحورنا العرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك" (٤٧).

لو كان الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم، يورثه لمن يشاء، ربما كان سيرضى ماداموا سينصرونه ويدخلون في دينه. ولكنه كان يعرف أن الأمر لله وليس له. ولهذا أجابهم بصدق. وربما كانوا يظنون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يتصرف وأن يورثهم سلطته من بعده. ولهذا أبوا عليه حين لم يعدهم بشيء.

ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف بمنطق الحسابات السياسية. فقد كان ضعفه ووضع سيملي عليه أن يغتنم هذه الفرصة، وأن يقبل التحالف مع أول قبيلة عرضت عليه الدعم والتأييد مقابل أن يكون لها الأمر من بعده. وكان بإمكانه كما يفعل السياسيون في كل الأزمان أن يتنكر لهذا التحالف، إذا كانت الظروف مواتية، وأن يورث أمره لمن يريد. فقد كانت الظروف مواتية للخروج بنفسه من تألب زعماء مكة عليه. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان رسولاً ولم يك زعيماً سياسياً. وكان يقول الصدق ويأمر به. ولم يورث شيئاً من سلطته لأحد، ولا من له لأقرب الناس وأحبهم إليه ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها. فقال "النبي لا يورث" (٤٨). لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخر شيئاً من المال أو الثروة لتوريثه. ولو كان لديه ثروة لأصابت منها زوجته كما أصابت منها ابنته. وقد عرفنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعطي الناس كل ما يأتيه ولم يدخر أبداً.

لم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ما يعلم. ولم يعلم إلا بإعلام الله وتعليمه الذي كان يأتيه عبر الوحي دون إرادة منه صلى الله عليه وسلم، وإنما تبعاً لحكمة الله وتقديره. لقد استمر حديث الإفك يثرثر به الضالون والمنافقون في المدينة أكثر من شهر والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعرف ما هو الحق من الباطل في هذا الحديث، حتى جاءه الوحي ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها. وفي موقف آخر أرسلت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى

أخبار يهود المدينة ليسألوهم عن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم فقدموا المدينة وسألوا أخبارها فأجابوهم "سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نيؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟. فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي" (٤٩). ولما عاد الرسولان ومعهما أسئلة الأخبار. أرسل زعماء قريش رسلاً بالأسئلة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع أسئلتهم "أخبركم بما سألتكم عنه غداً، ولم يستثن -لم يقل إن شاء الله- فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أوجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح" (٥٠). وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه "لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً، فقال له جبريل: وما تنتزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً" (٥١).

لو كان أمر الإجابة بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحريص على إجابتهم وإقناعهم لما تركهم إلى اليوم التالي ينتظرون. وحين جاء الموعد المحدد لم يكن لديه الجواب فماذا يفعل؟. أليس من الطبيعي أن يسيء الظن بنفسه، وأن يصيبه القلق وأن يظن بأن ما تراءى له قد انقطع عنه. أين الحقيقة في ظل العجز الإنساني وتحدي الشرك وسخريته. لقد خاف موسى عليه السلام حين ألقى السحرة حبالهم في امتحان فرعون له. مع أنه ذهب بأمر الله. وقبل التحدي مع السحرة بأمره. ولكنه القلق الإنساني لمن لا يملك من أمره شيئاً. ولهذا خاف موسى حين رأى ما رأى من فعل السحرة [فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى] (٥٢).

لم يطمئن إلا حين ألقى بعصاه وسقط السحر عن أعين الناس واتضح الحق من السحر. هذا هو شأن الأنبياء فهم لا يملكون إلا طاعة رب الكون. ولو أن

موسى عليه السلام كان يملك علم السحر ما خاف. فالعالم يجادل العالم. لهذا من الطبيعي أن يقلق الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسئلة التي أقيمت عليه لا يعرف لها جواباً. ولأنه قال غداً بدون أن يدري بأن هذا الغد سيطول خمسة عشر يوماً. وكان المشركون إذا لقوا أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يستهزئون بهم بعد أن علموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه "ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه" كما مر معنا في الحديث الشريف. وربما سمعوا من بعض الصحابة بأن مملكتي الروم والفرس ستفتحان لهم فأخذ المشركون هذا الكلام بالسخرية. وكان بعضهم إذا رأى الصحابة تغامزوا عليهم وقالوا لهم "قد جاءكم ملوك الأرض، الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون" (٥٣). لقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الساخرين والمنافقين من الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر في المدينة كما في مكة. وكان المنافقون ينتظرون أي فرصة للتشكيك بالإسلام والرسول والوحي. ولكن خيبتهم كانت في ازدياد، وكيدهم للإسلام يأكل قلوبهم، لأن الإسلام كان في تصاعد، ومكرهم وخبتهم تعبر عنه أعمالهم وأقوالهم فيعود عليهم بالهوان والازدراء. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يصبر عليهم، ويعاملهم بالحسنى لعلهم يعودون إلى رشدهم، فيؤمنون بما كانوا يشاهدون من المعجزات. كان زيد بن اللصيت أحد أحبار اليهود الذين أظهروا الإسلام ليغدروا بالمسلمين. وحدث أن ضلت ناقدة الرسول صلى الله عليه وسلم وراح الصحابة يبحثون عنها بدون جدوى. فأراد هذا المنافق أن يجعل من هذه القصة سبباً للتشكيك بالإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم فقال "أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته" (٥٤). وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بإعلام الله له بقول هذا المنافق، وعلم مكان ناقته. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم متجنباً ذكر اسم المنافق "إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله.

وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاؤوا بها" (٥٥). هذه هي حقيقة الوحي كما عرفها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أعلم إلا ما علمني الله" وقد رأينا أن حقيقة هذا العلم لا يتعلق بإرادة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا برغبته، فالوحي كان يأتيه على فترات بأمر الله "وما ننتزل إلا بأمر ربك". والأخبار كانت تأتيه تبعاً

للظروف. وآيات الإعجاز وأسراره لا تظهر إلا بالمناسبات. والحكم الشامل [ليس لك من الأمر شيء] (٥٦). فأين الذين يزعمون الوصول والخلول والاتحاد، وهم في واد والمعرفة في واد. من استطاع من البشر أن يغني عن نفسه في الدنيا شيئاً بدون تأييد الله. ورسول الله صلى الله عليه وسلم "سيد ولد آدم ولا فخر" لأن الفخر للصانع وليس للمصنوع "وخاتم النبيين" و"رحمة للعالمين" كما وصفه الله. إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يغن عن نفسه شيئاً وتعرض لما تعرض له، فمن يستطيع أن يدعي لنفسه الوصول أكثر من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال "ما أعلم إلا ما علمني الله". ومن يستطيع أن يعلم أكثر من الصحابة الخلفاء الأربعة الذين بشروا بالجنة وعجزوا عن حماية أنفسهم من الغدر فاغتيل عمر في صلاة الصبح غدرًا. مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عنه "قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب" (٥٧). وقال "لو كان بعدي نبي لكان عمر" (٥٨). وقتل عثمان وهو يقرأ القرآن. وقتل علي وهو ماض إلى صلاة الصبح. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه "أنا مدينة العلم وعلي بابها" (٥٩). وهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، لو كانوا يعلمون بما سيتعرضون له من الغدر لتجنبوه، بل كان من واجبهم تجنبه. وهؤلاء كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بشرهم بالشهادة كما مر معنا. ولكن متى وكيف فإنه لم يخبرهم. وإنما نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تأثر من الشاة المسمومة التي أهدتها له زينب بنت الحارث اليهودية. وعندما تذوق اللقمة الأولى لفظها وقال "إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم" (٦٠). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في مرض وفاته "ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخبير فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم" (٦١).

إنها مشيئة الله. كأنما لكي يكون لليهود مساهمة في إيذاء كل نبي أو قتله. ولكي نعلم إن إرادة الله فوق كل إرادة، فهو الذي لا يحاط بعلمه، وهو الذي إن شاء يحيطون "بشيء من علمه". فقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم بتسميم الشاة بعد أن مضغ اللقمة الأولى ولم يعلم قبلها. لو تأملنا كل هذه الحوادث التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقييم القرآن لها. سنعرف بأن الإنسان المدعي لا يمكن أن ينسب لنفسه بعض ما نسبه الله للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعاتبه. ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبحث عن الزعامة السياسية، كان من مصلحته أن يشاع بأن كسوف الشمس إنما حدث لموت ابنه إبراهيم، ما دامت مثل هذه الإشاعات سنقوي زعامته السياسية، ولكنه نفى هذه الشائعات. وفي مناسبة ثانية غضب من محلم بن جثامة لأنه قتل رجلاً في غزوة لشيء كان بينهما فأدى الرسول

صلى الله عليه وسلم الدية لأهل القتل. وقال حين وقف أمامه محم "اللهم لا تغفر لمحم بن جثامة ثلاثاً" (٦٢). ثم توفي محم بعد سبعة أيام. وعندما دفنوه لفظته الأرض "فلما غُلب قومه عمدوا إلى صدين فسطحوه بينهما، ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه. فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه، فقال والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم بما أراكم منه" (٦٣). لقد أبى الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينسب لدعائه مثل هذا التأثير. فقال بكل تواضع "إن الأرض لتطابق على من هو شر منه". هذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم في كل موقفه، لم ينطق إلا بالصدق، ولم ينسب لنفسه ما لم ينسبه إليه الله، ولم يخف من أمر الوحي ما لا يرضاه. فنال ما نال بكمال عبوديته لله. وبمثل هذه العبودية نال الخلفاء من أبناء آدم ما نالوه من حظوظ الخلافة الإنسانية.

الرسول وعالم الغيب

كل ما غاب عن إدراك الإنسان ومعرفته هو من عالم الغيب حتى يعرف ويصبح معروفاً فلا يعود غيباً. وقد أشار القرآن إلى خمسة أمور اعتبرت من عالم الغيب [إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير] (١). وهذه علوم لا يحاط بها وإن أحيط ببعض العلامات الدالة عليها. ومع ذلك فقد أشار القرآن كما ذكرنا في سورة البقرة إلى إمكانيات معرفية ليس لها حدود فقال الله [ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء]. وجاء في سورة يونس "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (٢).

ومثل هذا الظن لا يمكن أن يحدث إلا عند ظهور قدرات خارقة للإنسان تقوده إلى الاعتقاد بقدرته في السيطرة على مصيره أو مصير الأرض. وهذه الحالة ظهرت في فلسفات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما سيطرت النزعة العقلية التي مجدت العقل بأكثر مما يستحقه ونسبت إليه أكثر مما يستطيعه. وكان من ثمار هذه النزعة الإلحاد الذي شق طريقه ليصبح المعتقد الرسمي لبعض النظم السياسية. ولكن عصر تمجيد العقل تحطم بفعل بعض العقول التي دعت إلى دور أكثر تواضعاً للإنسان، وبفعل المسائل المعقدة التي

بدأت تظهر أمام العقل والتي أملت عليه أن يتواضع رغم التقدم المذهل الذي حققه العقل في عصرنا الحاضر. ومع ذلك فإن كل العلوم ستظل عاجزة عن التنبؤ بالقضايا المستقبلية التي تحدث عنها الرسل. وستظل هذه العلوم محكومة بحدود المشيئة الإلهية. وقد زدنا الرسول صلى الله عليه وسلم بعدد كبير منها سنذكر بعضها كدليل على إعجاز النبوة أمام كل تطور توصلت إليه العلوم أو ستتوصل إليه، وكإشارة إلى طبيعة العصر الذي نحن فيه، وما يحمل في طياته من العلامات والمفاجآت التي قد تكون بمثابة إنذار يجب علينا أن نستعد له. وإن العاقل لا يهمله من أين يأتيه الحق أو العلم لأن كل ما يهمله هو صحة هذا العلم. ونحن ننطلق في بحثنا من بديهية وهي أن الصادق الذي أخبرنا بعدة أخبار ثبتت صحتها لا بد أن تكون بقية أخباره صحيحة. وبما إن كل مسلم يؤمن بصحة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى قد رفع لي الدنيا فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفي هذه جليان من الله جلالة نبيه كما جلالة للنبيين من قبله" (٣). فإننا سنطلب من المنكر أو الطاعن في صحة الحديث، أن يتتبع نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم، للتحقق من صحة ما لا يمكن التحقق منه إلا بالبرهان، الذي شهدت به الحوادث. مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتحدث بكل ما رآه كما صرح بذلك. كما أن وصول الصحابة والتابعين إلى بعض أسرار هذا العلم تدل على صحته، وسيظل هذا العلم في صدور العارفين إلى قيام الساعة، كما أشارت الأحاديث النبوية إلى هذه الحقيقة وأكدتها. وأكدها أيضاً الواقع بظهور الأولياء والكرامات في كل العصور. وإذا كنا نجد العذر للمنكر فإننا نقول له بأن هذا العلم كامن فيه وإن كان ينكره ولا يعرف عنه شيئاً. وما عليه إلا أن يسلك طريق الشريعة لمعرفة حقيقة هذا العلم وهذا سيعطى له من عدل الله عندما يقتدي الإنسان بالرسول ويسلك سلوك الطائعين، لأن ميزان العدل الإلهي المنصوب لا يهضم متقال ذرة من الخير.

لهذا نقول بأن التنبؤ والوصول إلى هذه العلوم وإن كان مرتبطاً بإرادة الله ومشيئته، فإن تقنتنا بعدل الله يتيح لنا أن نقول ونحن مطمئنون، إن أعمال الإنسان هي المفتاح لفتح هذا الباب المغلق من العلوم في وجه أغلب الناس. فالمفتاح في يد الإنسان، وما عليه إلا أن يعرف الطريق ويسير عليه ليفتح له. وقد جاء في القرآن [واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم] (٤).

فمن أراد أن ينهل من علم الله، عليه أن يعلم ما هي التقوى، وأن يعمل بها،

وعندها سيعلمه الله كما وعد. فكنوز المعرفة الغيبية كامنة في الإنسان من جهة الاستعداد للتلقي، وهي بيد الله من جهة الإلقاء. والإلقاء سار في الوجود، ولكن المتلقي الإنسان لا يدرك الأمر الإلهي إلا عندما تتوفر فيه مزايا خاصة للاطلاع على هذا الأمر. وقد تبين لنا الآن على ضوء الملاحظة أن بعض الحيوانات تهرب من المناطق التي ستعرض للزلازل قبل وقوعها، وإن الكلاب لها حواس للشم تفوق القدرات الإنسانية في هذا المجال مع أن الكلاب لا تأنف من أكل اللحوم المنتنة رغم نفاذ حاسة الشم لديها، والإنسان يأنف من ذلك. وعجائب قدرات المخلوقات لا يحاط بها، مع إن الإنسان هو أكمل هذه المخلوقات لأنه بمجموع القوى التي يملكها بلغ الكمال الذي لم يصل إليه أي مخلوق آخر، ولكن قدراتنا الإنسانية مطوية بداخلنا مثل صفحات كتاب إذا لم نفتحها لنقرأ ما فيه لن نعرف ما بداخل هذا الكتاب. والكون هو كتاب مسطور للقارئ، وكتاب مجهول لغير القارئ. والعقل هو النور الذي يمكن أن نقرأ به ما نراه. وقد رأينا بعض كنوز المعرفة الإلهية، وقد فتحت لشاب من الأنصار. ففي رواية "عن أنس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارث؟ قال أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله. عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وكأنني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها. قال: أبصرت فالزم، عبد نور الله الإيمان في قلبه، فقال: يا رسول الله: ادع لي بالشهادة. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد" (٥). لقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما رأينا لحارثة مؤيداً بصحة إسرائه الروحي بقوله "عبد نور الله الإيمان في قلبه" فكانت رؤيته لأهل الجنة. وأهل النار بهذا النور.

ورغم أن هذا الحديث قد ضعفه الرواة، فإن لنا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أويس القرني دليل آخر. فقد أخبر عنه دون أن يلقاه وقال لأصحابه اسألوه الدعاء. وقد وردت عدة أحاديث بنفس المعنى عن أويس. قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع إمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بر. لو أقسم على الله لأبره. فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل" (٦) وجاء في حديث عن عمر بن الخطاب قال: "أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيكون في التابعين رجل من قرن يقال له أويس بن عامر، يخرج به وضح فيدعو

الله أن يذهبه فيقول: اللهم: دع لي في جسدي منه ما أذكر به نعمتك علي، فيدع له في جسده ما يذكر به نعمته عليه، فمن أدرك منكم فاستطاع أن يستغفر له فليستغفر له" (٧)

وقد أتيج لعمر أن يلقاه بعد طول انتظار وبحث عنه في كل مواسم الحج، فقد ورد "عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: مكث عمر يسأل عن أويس القرني عشر سنين فذكر أنه قال: يا أهل اليمن. من كان من مراد فليقم، فقام من كان من مراد وقعد آخرون. فقال: أفياكم أويس؟. فقال رجل: يا أمير المؤمنين لا نعرف أويساً ولكن ابن أخ لي يقال له أويس هو أضعف وأمهن من أن يسأل مثلك عن مثله. قال له: أبحرنا هو؟ قال: نعم، هو بالأراك بعرفة يرعى إبل القوم؟ فركب عمر وعلي رضي الله عنهما حمارين ثم انطلقا حتى أتيا الأراك. فإذا هو قائم يصلي يضرب ببصره نحو مسجده وقد دخل بعضه في بعض فلما رأياه قال أحدهما لصاحبه: إن يك أحد الذي نطلبه فهذا هو، فلما سمع حسهما خفف وانصرف. فسلما عليه فرد عليهما: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته. فقالا له: ما اسمك رحمك الله؟. قال: أنا راعي هذه الإبل، قالوا: أخبرنا باسمك. قال: أنا أجير القوم، قالوا: ما اسمك؟. قال أنا عبد الله. فقال له علي: قد علمنا أن من في السموات والأرض عبد الله فأنتدك برب هذه الكعبة ما اسمك الذي سمتك به أمك؟. قال: وما تريدان من ذلك؟. أنا أويس بن عامر، فقال له: اكشف عن شقك الأيسر. فكشف لهما، فإذا لمعة بيضاء قدر الدرهم من غير سوء، فابتدرا يقبلان الموضوع. ثم قالوا له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نقرئك السلام وأن نسألك أن تدعو لنا. فقال إن دعائي في شرق الأرض وغربها لجميع المؤمنين والمؤمنات؟. فقالوا: أدع لنا. فدعا لهما وللمؤمنين والمؤمنات. فقال له عمر: أعطيك شيئاً من رزقي أو من عطائي تستعين به. فقال: ثوباي جديدان ونعلاي مخصوفتان، ومعني أربعة دراهم ولي فضلة عند القوم، فمتى أفني هذه! إنه من أمل جمعة أمل شهراً، ومن أمل شهراً أمل سنة، ثم رد على القوم إبلهم ثم فارقهم فلم ير بعد ذلك" (٨). وفي شأن أويس وأمثاله من المؤمنين قال الرسول صلى الله عليه وسلم "رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك. فلما كان يوم تستر انكشف الناس فقالوا: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسم عليك أي رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك صلى الله عليه وسلم فاستشهد" (٩). وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث بأن الأرض لن تخلو من أولياء الله، وعندما يموت هؤلاء الأولياء بالريح الطيبة التي سيرسلها الله لقبض أرواح المؤمنين تقوم الساعة.

جاء في الحديث الشريف "لن تخلوا الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون، وبهم تتصرفون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر" (١٠). وجاء في حديث آخر عن أنس. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "البدلاء أربعون رجلاً: اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق، كلما مات واحد أبدل الله مكانه، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة" (١١). وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بعض علاماتهم فقال "إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن دخلوها برحمة الله، وسلامة الصدور، وسخاوة الأنفس، والرحمة لجميع المسلمين" (١٢) وهؤلاء الأولياء أو الابدال قد يكونون من الرجال والنساء، وعلمهم لا يقتصر على الأمور الظاهرة في عالمنا إذ لهم اطلاع على عالم الغيب بما شاء الله لهم. وإن قصة الراهب بحيرى المشهورة تدل على حقيقة انتشارهم في الأرض قبل الإسلام وبعده إلى قيام الساعة. فقد عرف الراهب بحيرى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يعرف نفسه، وقبل ظهور نبوته وهو ابن تسع سنين عندما كان في رحلة تجارية إلى الشام مع عمه أبي طالب. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن الراهب بحيرى عندما مرت به قافلة المكيين التجارية دعاهم إلى طعام صنعه لهم. وطلب منهم أن لا يتخلف أحد منهم. وحين رأى بحيرى الرسول صلى الله عليه وسلم "جعل يسأله عن أشياء من حاله، من نومه وهيئته وأموره. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند البحيرى من صفته ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده... فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده" (١٣). وإن خاتم النبوة الذي رآه الراهب بحيرى، هو علامة لا يعرفها إلا أولياء الله. ولهذا عرفها بحيرى بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وعمه لا يعرفون عن المستقبل المنتظر شيئاً. كما إن ورقة بن نوفل، وكان قد اعتنق النصرانية، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنبأ للرسول صلى الله عليه وسلم بإخراجه من مكة بعد أن ذهبت إليه لتسأله عن تفسير ما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين جاءه الوحي لأول مرة. وقال بن نوفل للرسول صلى الله عليه وسلم حين لقيه وهو يطوف بالكعبة "يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبه، ولتؤذينه، ولتخرجه، ولتقاتله، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقيل يا فوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله" (١٤). كما أن موقف النجاشي من المسلمين حين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة. وقوله لوفد قريش الذين طلبوا منه أن يردهم، بعد أن سمع آيات من القرآن تليت عليه "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون" (١٥). إن هذا القول. والهجرة الثابتة تاريخياً، والتي لا يمكن إنكارها، كما قد ينكر البعض خبر الراهب بحيرى وورقة ابن نوفل، تدلان على الاعتقاد المسيحي السائد في ذلك العهد عن ظهور رسول في جزيرة العرب. ولو كان النجاشي وبطاركته لا يعتقدون بظهور نبي بعد المسيح عليه السلام، لما وافقوا على حماية المسلمين. وقد ورد في إنجيل القديس يوحنا إشارة واضحة إلى نبي سيأتي بعد غياب المسيح عليه السلام سماه "المحامي الإلهي" أو "روح الحق". فقد قال المسيح عليه السلام وهو يخبر تلاميذه بعودته إلى من أرسله "أما الآن فإنني منطلق إلى من أرسلني.. إن في انطلاقي لخيراً لكم، فإن لم أنطلق لا يأتكم المحامي، وأما إذا انطلقت فإنني أرسله إليكم. ومتى جاء فإنه يفحم العالم بشأن الخطيئة والبر والدينونة.. وعندى أشياء كثيرة أقولها لكم، غير أنكم لا تطيقون الآن حملها. ولكن، متى جاء، هو، روح الحق، فإنه يرشدكم إلى الحقيقة كلها لأنه لن يتكلم من عند نفسه، بل يتكلم بما يكون قد سمع، ويخبركم بما يأتي. إنه سيمجدي لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (١٦). إن هذه الإشارة رغم التفسيرات الكثيرة الممكنة لها، إلا أننا إذا أخذناها بمعناها الحرفي، تدل دلالة لا لبس فيها إلى الرجل القادم الذي سيكون "روح الحق" والذي سيقوم بإرشاد العالم والمسيحيين منهم إلى "الحقيقة كلها" والذي سيكون من صفاته تمجيد المسيح عليه السلام "إنه سيمجدي". وإذا نظرنا إلى حقائق التاريخ فإنه لم يظهر أي رسول أو إنسان أتيح له أن يدعو إلى دين جديد، وأن يقول عنه إنه الدين الكامل، وإنه خاتم الأديان، وأن يجعل في صلب عقيدته تمجيد المسيح عليه السلام وجميع الرسل والأنبياء غير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. بل إن كل من جاء وادعى النبوة بعد ذلك كان مصيره التكذيب والإنكار في كل أنحاء العالم. فلم يظهر أي دين جديد بعد الرسالة الإسلامية التي كانت ختام الرسالات السماوية وكما لها والجامع لها. وهذا لم يحدث نتيجة لمصادفات، إذ إن الراغبين بالزعامة وإدعاء النبوة، لم يخل منهم التاريخ. فكيف سقطت كل ادعاءات المدعين، وتم التمكين للرسالات

السموية المعروفة بالانتشار، خلافاً لكل منطق حاول سبرغور التاريخ وتفسير ظهور الرسل بمنطق تبريري منفصل عن رؤية الإرادة الإلهية المهيمنة على كل إرادة. ولو إننا أردنا أن نقرأ الإسلام بعقل منفتح لوجدناه الجامع لكل شرائع الرسل، إضافة إلى كونه الدستور الصالح لبناء المجتمع الإنساني بناء سليماً، تصان فيه حرية الفرد وحرية المجتمع بحيث لا تضر إحداهما بالأخرى كما يحدث في المجتمعات الغربية. وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم موقعه في مسيرة تاريخ النبوة بكل تواضع لا يعدو الحقيقة فقال "مثلي في النبيين كمثلي رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة" (١٧). ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تقاضوا بين أنبياء الله" (١٨). وقال "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد" (١٩). وقال "خير هذه الأمة أولها وآخرها، أولهم فيهم رسول الله، وآخرهم فيهم عيسى بن مريم، وبين ذلك نهج أعوج ليسوا منك ولست منهم" (٢٠). نحن نعرف إن الكمال لا يصدر إلا عن الكاملين. وكمال الرسالات وختامها يقتضي كمال الحامل للرسالة. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر" (٢١). لأن الفخر للصانع، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التفضيل بين الأنبياء. وقال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" (٢٢). فنسب كماله وعلمه ومكانته لله. إنه كما جاء في الإنجيل عن الرسول القادم "روح الحق" وهو "يرشدكم إلى الحقيقة كلها لأنه لن يتكلم من عند نفسه، بل يتكلم بما يكون قد سمع، ويخبركم بما يأتي. إنه سيمجدي". لقد أخبرنا الرسول بالحقيقة، حقيقة الإنسان ومصيره ومستقبله. وقال عنه الله [وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى]. (٢٣). وجعل القرآن من صلب عقيدة المؤمن عدم التفريق بين رسل الله. فقال الله عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير] (٢٤) وقد أنبأنا الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض ما سيحدث إلى قيام الساعة. وقد رأينا صدق نبوءاته ودقتها، ونحن بانتظار الباقي منها. كما رأينا تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم للمسيح بنص القرآن والآحاديث، مع تصحيح

الإسلام لحقيقة المسيح الإنسانية التي تتنافى مع الاعتقاد السائد بقدرته الناس على إيذاء من قيل عنه إنه "ابن الله". فلو كان "ابناً لله" هل سيسمح الله لليهود أو غيرهم بإيذائه. ولهذا جاء التصحيح القرآني بالقول لأهل الكتاب [يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه - أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكبيراً] (٢٥). وإذا رجعنا إلى الأناجيل المعترف بها رسمياً سنقرأ عبارة "أبانا" أو "أباكم" عن الله بمعنى أبوة الله لجميع البشر، ورحمته بهم كرحمة الأب بأبنائه. وهذا هو المقصود من استخدام المسيح عليه السلام لهذه العبارة كما هو واضح، مما ينفي بنوة التخصيص التي فهمها بعض المسيحيين بحرفيتها لا بمعناها. وإنما تقدم هذه العبارات من الأناجيل المعترف بها رسمياً للدلالة على استخدام المسيح عليه السلام لكلمة أب بالمعنى المجازي. لقد جاء في إنجيل متى "طوبى لفاعلي السلام، فإنهم يدعون أبناء الله" (٢٦). وجاء "هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" (٢٧). وعن الصلاة قال "صلوا هكذا، أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك" (٢٨). وجاء في إنجيل القديس لوقا "فكونوا رحماء كما أن أباكم رحيم" (٢٩) و"لا تطلبوا، أنتم أيضاً، ما تأكلون وما تشربون، ولا تعلقوا. فإن جميع هذه الأشياء تطلبها أمم العالم، وأبوكم يعلم أنكم في حاجة إليها. فاطلبوا بالحري ملكوته" (٣٠).

وجاء في إنجيل القديس يوحنا تعبير واضح عن معنى الأبوة الذي قصده السيد المسيح عليه السلام وهو يقارن بين أبناء الله وأبناء الشيطان. فقال "لو كان الله أباكم، لكنتم تحبونني، لأنني من الله خرجت، وأتيت، فأنا لم آت من نفسي، بل هو أرسلني. لم لا تفهمون كلامي؟.. لأنكم لا تستطيعون أن تسمعوا أقوالي. إن أباكم أنتم، هو إبليس، وريجات أبيكم تبتغون أن تحققوا" (٣١). وجاء في إنجيل مرقس "إذا قمتم للصلاة فاغفروا، إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضاً، أبوكم الذي في السماوات، زلاتكم" (٣٢) فأبوة الله حسب منطق الأناجيل شملت كل الجنس البشري بالولادة والوراثة، ولكن الأبوة الإلهية الخاصة هي من نصيب المؤمنين بطاعتهم لأوامره، بينما أبوة الأشرار لإبليس. وهذا الكلام على فرض أن المسيح هو القائل به لا تخفى رمزيته. فالمسيح عليه السلام ابن الله بالأعمال والأقوال لا بالنسب، كما أن الأشرار أبناء إبليس. فالأنبياء "أبناء لعلات

ولكن دينهم واحد" وحوادث التاريخ ظاهرة لهم. وقد بشر المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم بنص من القرآن [وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين] (٣٣). وللعلم فإن معرفة الرسل لا تقتصر على العلم بخبر الرسول القادم، بل إنهم يعرفونه بالاسم والمشاهدة، ولكنهم لا يصرحون بكل ما يعرفون إلا بأمر الله، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" (٣٤).

وقد مر معنا الحديث الذي وصف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مشاهدة الرسل للدنيا "فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة كأنما أنظر إلى كفي هذه. جليان من الله جلالة لنبيه كما جلالة للنبیین من قبله". ومن هذا العلم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف من أراد به سوءاً كما مر معنا. وعرف المسيح عليه السلام من سيخونه من تلاميذه كما جاء في روايات الأناجيل: ("ولما كان المساء اتكأ مع التلاميذ الأثني عشر. وفيما هم يأكلون قال: "الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني"... إن ابن البشر ماض بحسب ما هو مكتوب عنه، ولكن، ويل لذلك الرجل الذي يسلم ابن البشر، فلقد كان خيراً لذلك الرجل أن لا يولد" فأجاب يهوذا الذي كان مزماً أن يسلمه، وقال: "لعلي أنا، رابي؟" فقال له: "أنت قلت") (٣٥).

وإذا قرأنا بعض ما ورد في إنجيل برنابا عن تبشير المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم فإننا سنفاجأ بوضوح العبارة وتصحيح بعض الأخبار التي وردت في التوراة، مع إن هذا الإنجيل غير معترف به من الكنيسة. وقد حكم عليه بالاستبعاد مع مئة إنجيل تقريباً حين قامت الكنيسة باختيار الأناجيل الأربعة المعروفة، وحكمت على الباقي منها بالتزوير. وقد قال موريس بوكاي مفسراً لما حدث "لقد قادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة في مرحلة انتظامها إلى إجراء استبعاد لكثير من المؤلفات. وربما كان ما حذف مائة إنجيل! لقد احتفظ فقط بأربعة من الأناجيل لتدخل في قائمة رسمية من كتابات العهد الجديد والتي تشكل ما يسمى بالكتب المعترف بها كنسياً" (٣٦). وكان مما استبعد كما يذكر الكاتب "الأناجيل المزورة. ولقد بقي من هذه النصوص مؤلفات يحتفظ بها جيداً لأنها "كانت تتمتع بالتقدير العام"، على ما نقول لنا الترجمة المسكونية، ومن هذه رسالة برنابا" (٣٧).

ورغم الإشكالات التي يثيرها إنجيل برنابا الذي لم يعرف إلا في عام ١٧٨٤ عندما اكتشفه الدكتور منكهوس أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد فقام بترجمته من الإسبانية إلى الإنكليزية. فإن مترجم الإنجيل المذكور إلى اللغة العربية الأستاذ خليل سعادة قال في مقدمة الترجمة "ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها وفي عدادها كتاب يسمى "إنجيل برنابا" فإذا صح ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور نبي المسلمين بزمن طويل" (٣٨) ولكن بعض المستشرقين اتهموا المسلمين بكتابة هذا الإنجيل وقالوا إنه منقول إلى الإيطالية من العربية وقد فند الأستاذ سعادة هذه الأقوال فقال "إن الدكتور هويت... يقول في سنة ١٧٨٤ "أن الأصل العربي لا يزال موجوداً في الشرق" ولكنك إذا عملت البصيرة وجدت أن كلام الدكتور هويت مبني على كتابات المستشرق سايل.. وقوله هذا مبني على السماع لأنه لم يعثر على نسخة عربية للإنجيل المذكور قط. ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في كتابات مشاهير الكتاب المسلمين سواء في العصر القديمة أو الحديثة حتى ولا في مؤلفات من انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم في مثل تلك المناقشات وليس ذلك فقط بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعراب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة" (٣٩). ومع ذلك فالأستاذ سعادة لا يخفي ميله للاعتقاد بالأصل العربي لهذا الإنجيل. والسبب إنما يعود بالحقيقة إلى تبشير هذا الإنجيل بشكل غير مألوف بظهور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل صريح. وقد كان من واجب المسيح عليه السلام أن يبشر بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كما بشر موسى بالمسيح عليهما السلام. وكما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول عيسى عليه السلام قبيل قيام الساعة "عند المنارة البيضاء شرقي دمشق" وذلك، قبل أن تفتح مدينة دمشق للمسلمين، وتبنى فيها المساجد. بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفه وهو نازل وصف مشاهد فقال "ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربع إلى الحمره والبياض، ينزل بين مصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون" (٤٠). إن كل عاقل يلجأ إلى عقله الذي لا يشاهد به أكثر مما تكشف له عيناه، سينكر صحة هذا الحديث، لأن مقياسه هو ذاته المحدودة التي

لا تعرف حقيقة علوم الرسل صلوات الله عليهم، أو علوم أولياء الله من أتباعهم، ولهذا فهو سينكر ما ورد عن بشارات المسيح عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكأن المسيح عليه السلام سيخفي ما يعلم، أو يخبر بما لا يعلم، وهو الصادق المطيع لله، والعارف بالأمر، والناصح للناس. ولهذا فإن طبيعة الرسالة وحقيقتها تقتضي معرفة متميزة عن البشر العاديين لتصح نسبة الرسول إلى الله، كما إن الولاية تقتضي خرق المألوف لتصح الدعوى لمالكها. ولهذا فإن العارف والمصدق برسالة المسيح عليه السلام لا يستغرب نبوءات المسيح وبشارته بقدم المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل سيكون من غير الطبيعي أن لا يبشر به، وهو العارف بأن رسالته ليست ختام الرسالات السماوية، بدليل يؤيده الواقع الذي نعيشه من ظهور الإسلام وانتشاره، في أوضاع تاريخية لا تسمح للعرب بالطموح إلى "قتال الروم ذات القرون"، لولا إرادة الله في نصرته المسلمين. بل إن انتشار المسيحية بعد غياب صاحب الرسالة تدعو العاقل للتأمل في السر الذي ألف الله به القلوب على محبة المسيح عليه السلام خلافاً لكل ثائر، وما أكثرهم في الممالك الرومانية ولهذا فإن معرفة المسيح عليه السلام بالرسول القادم مسألة لا تثير استغراب العارف بأمر النبوة. وإذا كانت العبرة بالدليل، فقد قدمنا الدليل من إنجيل يوحنا المعترف به، كما نقدم الدليل من إنجيل برنابا غير المعترف بصحته لتأمل ما ورد فيه لكل من يبحث عن الحقيقة الخالصة بدون أن يجرفه الهوى للوقوف في صف أعداء الحقيقة، وإنما يجب أن نضع في الاعتبار بأن كاتب هذا الإنجيل إذا كان مسلماً، وكان يريد من خلاله دعوة المسيحيين إلى الإسلام، فإن عليه أن ينشره بين الناس، وأن يدعي مثلاً أنه وجده في مكان ما. ولكن هذا لم يحدث. والذين اكتشفوه هم مسيحيون، ولم يتوفر منه سوى نسختين "أول من عثر على النسخة الإيطالية.. هو كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا.. سنة ١٧٠٩... ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨.. إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هناك، بيد أنه وجد في أوائل القرن الثامن عشر نسخة أخرى أسبانية... وكان قد أقرضها الدكتور هلم من هدلي.. المستشرق الشهير سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد فنقلها إلى الإنكليزية.. سنة ١٧٨٤" (٤١) وقد مر معنا قول الأستاذ سعادة بأنه لم يرد أي ذكر لإنجيل برنابا في "فهارس الكتب العربية أو الأجنبية". فلو كان كاتبه مسلماً هل سيكتفي بكتابة نسخة واحدة له، وسينتظر حتى يترجم ويعلم به الناس بعد مئات السنوات، مع أن أمر البابا الصادر بتحريمه كان في سنة ١٤٩٢م. أي قبل ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم بقرن تقريباً. كما أن ظهور أربعة أناجيل عن

التلاميذ الأحد عشر تدل على اختفاء سبع روايات من تلاميذ المسيح عليه السلام، لأسباب منها ضيق أفق البشر، وجهلهم. ومع ذلك فإن العلماء الأتقياء الذين يبحثون عن الحقيقة لا يخيفهم إلا الجهل، ولهذا فإن من خلقهم البحث عن الحقيقة إذا لم يصلوا إليها. وهؤلاء هم الذين كشفوا عن إنجيل برنابا وقدموه للعالم رغم ما فيه من عبارات تتعارض مع عقيدتهم. لقد جاء في الإنجيل على لسان المسيح أنه قال "الحق أقول لكم إن كل نبي متى جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله. ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه. ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده. فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه. وسيأتي بقوة على الظالمين. وبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان. لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: "أنظر فاني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً هكذا سيفعل نسلك".

أجاب يعقوب: "يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد؟. فإن اليهود يقولون "باسحق". والاسماعيليون يقولون "باسماعيل" وأجاب المسيح قائلاً "صدقوني لأنني أقول لكم الحق أن العهد صنع بإسماعيل لا باسحق" حينئذ قال التلاميذ "يا معلم هكذا كتب في كتاب موسى أن العهد صنع باسحق". أجاب يسوع متأوهاً: "هذا هو المكتوب. ولكن موسى لم يكتبه ولا يسوع. بل أحبارنا الذين لا يخافون الله. الحق أقول لكم إنكم إذا أعلمتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهاننا لأن الملاك قال: "يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله. حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله. أجاب إبراهيم "ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله". فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: "خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة. فكيف يكون اسحق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين" (٤٢).

وكل من ذاق طعم الأبوة يعرف قيمة ابنه البكر. ولهذا كان الامتحان في الولد الأعلى على قلب إبراهيم عليه السلام. سيعود المسيح لتذكير تلاميذه بالرسول القادم قبل فراقه لهم قائلاً "لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا. لأنني لست أنا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم. أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهية الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم. ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي. حينئذ قال أندراوس: "يا معلم انكر لنا علامة لنعرفه". أجاب يسوع "إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي

بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً. في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم. وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم. وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي" (٤٣). إن برنابا لن يكون هو الشاهد الوحيد المبشر بقدم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سيحطم الأصنام. إذ لنا في قصة إسلام سلمان الفارسي دليل على معرفة أولياء الله بما سيحدث عن كشف محقق لا يعتوره أي شك. وهذه القصة في رحلة سلمان للبحث عن الحقيقة هي التي دفعته إلى أرفع درجات الإيمان، بعد أن عرضته للعبودية، حتى قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم "سلمان منا أهل البيت" (٤٤) وإننا في قصة إسلام سلمان سنكتشف هذا التلاقي بين مقاله المسيح، وبين ماسيقوله الراهب لسلمان عن توقيت ظهور الرسول. فقد قال المسيح "إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً" وسوف يقول راهب عمورية لسلمان ما يشبه هذا الكلام عندما سأله النصح للالتحاق برجل صالح. فقال له: "أي بني والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك به أن تأتيه. ولكنه قد أظل زمان نبي... ونصحه بالالتحاق به. جاء في سيرة ابن هشام عن "عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني سلمان الفارسي من فيه قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها: جى، وكان أبي دهقان قريبته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها - وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتنني عن كل شيء من أمري. قال: فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم، أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم، أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم أتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته

قال: أي بني أين كنت؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت؟. قال: قلت له يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا. قال: فخافني ووضع في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

سلمان يهرب إلى الشام: قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم فقلت لهم: إذا قضاوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم، فأذنوني بهم: قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم، أخبروني بهم: فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة.

سلمان مع أسقف النصارى السبي: قال: فجننته، فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك، قال: ادخل فدخلت معه. وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جاء إليه شيء منها اكتنزته لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع قلالاً من ذهب وورق قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيت أنه يصنع ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنه فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورق. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. فصليوه ورجموه بالحجارة وجاؤوا برجل آخر، فجعلوه مكانه.

سلمان مع أسقف النصارى الصالح: قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، أرى أنه كان أفضل منه، وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه. قال فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله مثله قال: فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني قد كنت معك، وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرتك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه فقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو على ما كنت عليه فالحق به".

سلمان يلحق بأسقف الموصل: سافر سلمان إلى صاحب الموصل، ومكث

عنده إلى حين وفاته. فأوصاه باللاحق برجل صالح في نصيبين. ولكن الرجل الصالح ما لبث أن توفي بعد التحاقه به. فأوصاه باللاحق برجل صالح في عمورية. فذهب إليه وأقام عنده إلى حين وفاته.

فسأله النصح للالتحاق برجل صالح. فقال له، "أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبني، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام. يخرج بأرض العرب. مهاجرة إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى. يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات وغيب. ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث. ثم مر بي نفر من كلب تجار. فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيتكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه، قالوا: نعم. فأعطيتموها. وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي. ولم يحق في نفسي.

سلمان يذهب إلى المدينة: فبينما أنا عنده. إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه. فاحتملني إلى المدينة فولله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتني بصفة صاحبي فأقمت بها، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة.

سلمان يسمع بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة: فولله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له، حتى وقف عليه، فقال: يا فلان قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن، محمود بن لبيد، عن عبد الله بن عباس، قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء. قال ابن هشام: العرواء الرعدة من البرد والانتقاض، فإن كان مع ذلك عرق فهي الرخصاء، وكلاهما ممدود- حتى ظننت أنني سأسقط على سيدي، فنزلت على النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكنني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عمك، قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال.

سلمان يستوثق من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم: قال: وقد كان عندي

شيء قد جمعته. فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فدخلت عليه، فقلت له: إنه بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غريباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة. فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا، وأمسك يده. فلم يأكل. قال: فقلت في نفسي هذه واحدة قال: ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئته به، فقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وأمر أصحابه، فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، قال: ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه علي شملتان لي، وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي، فألقى رداءه على ظهره. فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكبت عليه أقبله، وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد.

سلمان يفتك نفسه من الرق بأمر رسول الله ومساعدته صلى الله عليه وسلم: قال سلمان. ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان. فكاتببت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحبيها له بالتفكير - بالزرع-، وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أعينوا أخاكم. فأعانوني بالنخل. الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فأنتي، أكن أضعها بيدي. قال ففقرت، وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها، فجعلنا نقرب إليه الودي، ويضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، حتى فرغنا، فو الذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة.

قال: فأديت النخل. وبقي علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، من بعض المعادن، فقال ما فعل الفارسي المكاتب؟ قال: فدعيت له، فقال: خذ هذه، فأدها مما عليك يا سلمان. قال: قلت:

وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟. فقال خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك. فأخذتها، فوزعت لهم منها. والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية. فأوفيتهم حقهم منها، وعتق سلمان، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حراً، ثم لم يفتني معه مشهد" (٤٥)، وإن قصة ابن الهيبان اليهودي الذي جاء إلى المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها تدل على اطلاع بعض أولياء الله على وقت ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد ذكر أن ابن الهيبان كان رجلاً صالحاً هاجر من الشام إلى المدينة. وشاهدوا من كراماته هطول المطر بدعائه. وعندما حضرته الوفاة، قال لمن حوله "يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟. قالوا: إنك أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعث. فأتبعه، وقد أظلم زمانه. فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه" وللعلم، فإن الإسلام لم يأمر بمثل هذه الأعمال، ولكننا ننقل ما وصلنا من الأخبار.

"فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية وهم ثعلبة وأسيد ابني سعية وأسد بن عبيد وهم من بني قريظة، وكانوا شباباً أحياناً، يا بني قريظة، والله إنه النبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان. قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود". (٤٦)

إننا بعرضنا لكل هذه الأخبار التي قد لا يخلو بعضها من المبالغة، إلا أنها لا تخلو أيضاً من الصدق، فإننا نستدل على معرفة بعض العابدين لزمان الرسول صلى الله عليه وسلم، والتبشير به قبل ظهوره. وهؤلاء ليسوا من الأنبياء، بل من عباد الله الأطهار الذين حلقت أرواحهم في ملكوت الله، فكانوا يسمعون بسمع الله، ويبصرون بإبصار الله، وينطقون بلسان الله. كما جاء في الحديث الشريف "إن الله تعالى يقول: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالعداوة. ابن آدم لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به. فإذا دعاني أجبتة، وإذا سأني أعطيته، وإذا استنصرني نصرته. وأحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي" (٤٧). وإن في قصة موسى مع الخضر عليهما

السلام. غنية للبرهان على حقيقة الولاية الإنسانية، لمن لا تقنعه الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة في هذا المجال. فقد مضى موسى مع الخضر فرأى منه أموراً لا يقرها منطق العقل، ولا قانون الشريعة [فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقتها قال أخرجتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ] ثم [فانطلقا حتى إذا لقياً غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً] ثم [فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً]. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً] (٤٨) هذا تعليم خاص لموسى عليه السلام بأمر الله لحكمة أرادها. وموسى عليه السلام صاحب الشريعة الإلهية كان عليه أن يحكم وفقاً لشريعته، ولهذا كان يعترض على أعمال الرجل الصالح الذي وجد له العذر قبل أن يرافقه [قال إنك لن تستطيع معي صبراً]. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً] (٤٩). ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "رحمة الله علينا وعلى موسى. لو صبر لرأى من صاحبه العجب" (٥٠). ومن هذا الباب كان علم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه "لو كنت على شاطئ نهر وقد مددت يدي لأغترف فحدثتكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل" (٥١). وكان عمر بن الخطاب يسأل حذيفة عن المناققين لعلمه بما في قلوبهم مما علمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قال "إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكانت أسأله عن الشر. فقيل له: وما حملك على ذلك. فقال: إنه من عرف الشر، وقع في الخير" (٥٢). وكان من أخلاقه وتقواه أنه حين أرسله عمر بن الخطاب والياً على المدائن "فخرج على حمار مؤكف وعلى الحمار زاده.. فقرأ عهده عليهم، فقالوا: سلنا ما شئت؟ قال: أسألکم طعاماً أكله، وعلف حماري هذا ما دمت فيکم، فأقام فيهم ما شاء الله. ثم كتب إليه عمر: أن أقدم. فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق في مكان لا يراه. فلما رآه عمر على الحال الذي خرج من عنده عليه أتاه فالتزمه وقال: أنت أخي وأنا أخوك" (٥٣). وقد رأينا قصة عمر حين نادى قائد جيشه في العراق "يا سارية الجبل" فسمعه واكتشف محاولة الجيش المعادي للانتفاف على قواته، فسارع إلى مواجهته وانتصر عليه. ومع ذلك فإن هؤلاء الصحابة لم يركنوا في سلوكهم إلى مكانتهم وجهادهم، وحتى تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة. فكان عمر يقول "لو هلك حمل من ولد الضأن ضياعاً

على شاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنه" (٥٤). وليس كما يفعل اليوم بعض من يدعي الصلاح مبرراً تصرفاته وإهماله للشريعة بادعاء معرفة تبرر له كل ما يريد. وهي بالواقع حقيقته، وليست حقيقة الشريعة المطهرة من كل غموض. فعلم الولاية هو من كمال العلم بالشريعة والالتزام بها، بل إنها مرحلة مشاهدة ثمار الشريعة وقطافها بالسجود الدائم لله اقتداء بسيد المرسلين الذي قال عندما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد رأته وهو يطيل سجوده ويصلي حتى تتورم قدماه "أما غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر" فقال بتواضع من يعرف فضل عطاء المعطي "أفلا أكون عبداً شكوراً". هذه هي حقيقة الولاية التي تستمد من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم كما لها وقطاف ثمارها بعد العبادة الصادقة، من كنوز علم الحق بما شاء وأعطى. فحواس الإنسان أدوات للمعرفة أو شهود بين يدي العقل. وهذه الأدوات كما تتغذى بالعلوم، لتثمر في العقل، فكذلك تصقل بالعبادة وتصبح قابلة للتلقي بالوحي الخاص، أو بالحدس والإشراق الروحاني. والحدس هو طريق العلماء للاكتشاف، والإشراق هو طريق الأولياء، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله" (٥٥). وهذا العلم لا يوجد أي باب للوصول إليه إلا بالإيمان و"لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير" (٥٦). و"لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان" (٥٧). والإيمان يجب أن يسبقه الإسلام، ومع كل مرحلة في طريق العبادة يبدأ الترقى ويتصاعد للوصول إلى الثمرة المقصودة من خلق الإنسان وهي المعرفة، معرفة نفسه وربيه للقيام بواجب الخلافة الإنسانية في الأرض. وكل دين غير الإسلام هو تمهيد للإسلام، وتمهيد للوصول إلى حقيقة الخلافة. ولهذا أباح الإسلام حرية العبادة للأديان. لأن الواصلين عند الوصول إلى حقيقة المعرفة لن تختلف معارفهم الجوهرية المتعلقة بالإيمان والرسول، وإن اختلفت الأذواق والأحوال. فحقائق العلم الجوهرية واحدة، لأن حقيقة الله واحدة، وحقيقة الإنسان واحدة. ولهذا لا يوجد أي اختلاف في الحقائق الإلهية بين الواصلين، كما لا يختلف العلماء في حقائق تركيب ذرة الماء، وإن كان اكتشافهم في مخابر متنوعة ولغات مختلفة لأن حقيقة الماء واحدة.

ولهذا فإن كل اختلاف يدل على مستوى من العلم أقل أو أكثر، إلا أن لكل معرفة حداً لا يمكن تجاوزه في كل موضوع. وحدود المعرفة الإلهية وسقفها هي معرفة الرسل، فمن وصل إليها فمن مشكاتهم يأخذ وبأنوار علومهم ينظر. والكل من نور الله يستمد. وقد اكتملت هذه المعرفة بالرسول صلى الله عليه وسلم

صاحب الشريعة الكاملة، وسيد ولد آدم باستحقاقه لهذه الشريعة الكاملة، والخلافة الكاملة. ولو نظرنا إلى الأديان في كمالها لما وجدنا أي شريعة جمعت بين القوانين الكاملة لبناء المجتمع الإنساني الصالح، وبين معرفة الله، مثل الشريعة الإسلامية. فكانت بحق دين الدنيا، ودين الآخرة. لقد طرقت الشريعة الإسلامية كل أبواب الدنيا، ولم تهمل لا النبات ولا الحيوان. وفصلت كل شيء حتى الطريقة الصحيحة لنوم الإنسان على جنبه الأيمن، ورسمت الطريق الموصل إلى معرفة الله معرفة يقينية، فأعطت لكل عبد شريعته التي تناسبه وميزانه الذي ينفعه وينفع المجتمع. فكانت بحق الرسالة الكاملة. حتى لو أنك أردت أن تشرب كأساً من الماء لرأيت تشريعاً للشرب، وتشريعاً للأكل، وتشريعاً للنوم، وتشريعاً لحق الطبيعة، وحقوق الحيوان، مما لم تلحظه أي شريعة أو دستور في عالمنا القديم أو المعاصر. ومن يتأمل هذه الشريعة بعقل بعيد عن الهوى والمغالاة سيعرف سر كمالها، بتربيتها المتدرجة للإنسان من نظافة الجسم والثوب والقلب إلى نظافة الروح، وتأهيلها للطيران في عالم المعرفة وصولاً إلى الله. فالإسلام باب الترقى الكامل للكاملين، وباب الرحمة الواسع للمقصرين. وصدق الله العظيم الذي قال في وصفه للرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف رسالته **[وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين]** (٥٨). فشريعته هي الرحمة المهداة للخلق من الله، للوصول إلى الخلافة الكاملة للإنسان بالمعرفة والعمل، والرحمة بالخلق، والارتقاء بالعقل، شعلة الإنسان المقدسة التي تميز بها عن المخلوقات، واستحق بسببها الخلافة. وليس بغرائز التي تتفوق فيها كثير من الحيوانات على الإنسان، ولو كانت الخلافة بقوة الغرائز لما استحق الإنسان الخلافة بل الحيوان. ولهذا كان السباق الذي فرضه الله هو سباق بالعقل والإيمان الذي سطع بأنوار الرسالات السماوية، وأشرق في كمالها المحمدي كاملاً في أكمل الأزمان، وأكمل الأصحاب.

الطريق إلى الخلافة

إن خلافة الإنسان في الأرض ثابتة بكلام الله **[وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة]** (١). وقال **[هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر عليه كفره]** (٢) فشملت الخلافة النوع الإنساني كله لكي لا يُظن أنها تخص آدم عليه السلام فقط. ولا يعقل أن يعطي الله الخلافة إلا لمستحق. والاستحقاق لا يكون إلا عن أمرين طاعة ومعرفة. وقد سبق الأمر بالطاعة، لأن

الطاعة لابد أن تقود إلى المعرفة. والطاعة تقتضي امتثال الأوامر الإلهية التي وردت على السنة الرسل منذ أبينا آدم إلى خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام. ومن جملة الأوامر الإلهية في شريعتنا الإسلامية العلم. فكانت أول سورة أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم **[اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم]** (٣) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ساعة من عالم متكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً" (٤). وقال.. "ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من الفقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه" (٥).

ولا نريد الآن أن نخوض في مكانة العلم في الإسلام. وقد رأينا أن جميع الرسل كانوا في الصف الأول من علوم زمانهم، وإن كان مصدر علمهم الوحي. بينما كان مصدر علم الآخرين الاكتساب بالتعلم. وقد جاء في القرآن **[واتقوا الله ويعلمكم الله]** (٦) فهذا عهد من الله بتعليم المتقين. والمتقون، هم الذين يطيعون الله في كل ما أمرهم به. فالطاعة تقود إلى العلم وإلى صدور الخير من المطيع، وإلى معرفة الخالق بدليل المخلوقات "أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون.. أفلا يبصرون". وقد يحدث الترقى إلى مستوى "أن تعبد الله كأنك تراه" كما جاء في الحديث الشريف، في مقام الإحسان. وهذا المقام كما رأيناه لم يخص لواحد من المسلمين، وإنما وردت الأحاديث عن طريقة الوصول إليه، للبيان والتوضيح وتشجيع الناس على التسابق للوصول إليه. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن علوم الرسل متاحة بالاكْتساب والاتباع لمن يريد أن يترقى إلى مستوى معرفة الله وعبادته عبادة المشاهد له بالدليل. وقد أراد الله منا أن نتعلم لنعرفه ونعبده كما يستحق العبادة، ولم يخف على عباده شيئاً من أسرار هذه العبادة. فقد اكتملت شريعة العبادة والمعرفة بقول الله **[اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً]** (٧). ولهذا لا بد من الشريعة والافتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم للوصول إلى الكمال الخاص بكل مقتد، وإن كان الكاملون لا يمكن أن يغيبوا عن الأرض قبل الإسلام أو بعده، لأن الله لا يمكن أن يترك الأرض خالية من الخلفاء إلى قيام الساعة. وقد ورد في الحديث "لا تقوم الساعة على أحد يقول: لا إله إلا الله" (٨). و"لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً" (٩). و"لا تقوم الساعة إلا على حثالة الناس" (١٠). و"لا تقوم الساعة حتى لا يبقى

على وجه الأرض أحد لله فيه حاجة، وحتى توجد المرأة نهراً جهاراً تنكح وسط الطريق لا ينكر ذلك أحد ولا يغيره، فيكون أمثلهم يومئذ الذي يقول: ..لو نحيتها عن الطريق قليلاً. فذاك فيهم مثل أبي بكر وعمر فيكم" (١١). ولكن، وبما أن الأرض لا يمكن أن تخلو من مؤمن يوحد الله. لهذا ورحمة من الله بالمؤمنين فإنه لا يشهدهم ويلاات الساعة.

ولهذا فإن الله سيرسل ريحاً طيبة قبل الساعة تأخذ أرواح المؤمنين كما ورد في الحديث "يبعث ريحاً غيراء قبل يوم القيامة فتقبض روح كل مؤمن" (١٢). فلو غاب الموحدون من الأرض لقامت القيامة. فالخلافة الإنسانية في ذرية آدم لا تنقطع، والخلفاء لا يغيبون، وإن كان الجمع بين الخلافة والسلطة لم يحدث إلا نادراً، ولا نعرف عنه شيئاً إلا في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه كانت فترة تأسيس للدولة الإسلامية. ولا نريد أن نتهم بالمغالاة في التأكيد على حقيقة استمرار الخلافة في ذرية آدم إلى ما قبل قيام الساعة. فهذا الموضوع تدل عليه حقائق العقل، وإشارات الشريعة، والغاية الإلهية من خلق الإنسان. فالدليل العقلي والنقلي يقودنا إلى القول بأن الوجود الإنساني إذا كان قد خلق للعبادة بنص القرآن، فإن هذا الخلق إذا لم يعد أهلاً لهذه الغاية فإن من الطبيعي قيام القيامة. ولهذا لا بد لاستمرار الوجود الإنساني من موحدين ظاهرين أو باطنين. وهؤلاء عباد في منتهى العبودية لله لا يتصرفون إلا بأمره وشرعه. وقد رأينا الحدود التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف من خلالها. مما يدل بأن التفويض الإلهي المطلق للعبد لا وجود له. ولو حدث مثل هذا التفويض لأي إنسان لن يرضى بالصبر على الإيذاء والمعاناة. وحتى العبادة لا يصبح لها أي مبرر لإنسان لا تقيده العبادة في شيء. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن سبب عبادته حتى تورمت قدماه مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. "أفلا أكون عبداً شكوراً". كان كلامه لمعرفته بمكانة العبادة في حياة العابدين في الدنيا والآخرة. أي للزيادة في المعرفة الإلهية. فالمعلوم هو الدليل على المجهول، والمعجزات تدل على صاحب الإعجاز. ولهذا لما كان الله لا يعرف إلا بالخلق، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الزيادة من المشاهدات. فهذه هي هدايا الله للمؤمن بعد أن يطمئن إلى الغفران والرضا من الله في الدنيا والآخرة. شهود الآيات الإلهية. شهود الجمال، شهود الإبداع الإلهي، لأن المبدع لا يدرك ولا يعرف. وإن كان العبد يتوق لرؤية الصانع، إلا أن هذه المشاهدة كما قلنا لا يمكن الوصول إليها. ولهذا فإن المشاهد لعظمة ربه بتهديب نفسه في الدنيا يظل في عبادة مع الأنفاس، وإن ظهر منه أنه يسعى لتأمين نفسه

أو أسرته. وقد مر معنا أن هذا السعي هو من العبادة. ولكن الوصول لا يعني الفناء ولا يعني الحلول ولا يعني الاتحاد، ولا يعني التفويض، لأن العبودية والافتقار هي من صفات الإنسان التي لا تفارقه. وقد جاء في الحديث الشريف "إن الله تعالى يقول: إن العز إزراي، والكبرياء ردائي، من نازعني فيهما عذبتة" (١٣) فالمعرفة هي كمال، ومن جملة معرفة الإنسان بنفسه وربه وإدراك الحدود التي لا يستطيع أن يتجاوزها مهما ادعى. فالدين كله حكمة ورحمة بالإنسان. فالحياة تكشف لنا في كل لحظة عن عجز الإنسان وضعفه، والحكمة تقود الحكيم إلى الاعتراف والصدق لما يملك ولما لا يملك. بينما يدعي الأحمق ملكية ما لا يملك، فيظهر كاذباً أمام الناس، فيخسر ثقة الناس به. بينما يعترف الطامحون للكمال من الحكماء بنقصهم وعجزهم، ولهذا فإنهم يتواضعون ويقضون حياتهم في تعلم ما يجهلون. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أنا عبد أجلس جلسة العبد، وأكل أكل العبد" (١٤). لأن الإنسان ليس له إلا العبودية. وقال "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" (١٥). لأن أهل المعرفة يشاهدون المنعم مع النعم ولهذا لا يدعون. فهم أموات في الدنيا، بالعبودية والفناء في المالك لأنهم شهود حق لله يعرفون مالهم وما عليهم. ولهذا يشهدون حقائق الأعمال قبل الموت، بينما غيرهم لا يشهد حقيقة الحساب إلا بعد الموت، حين يكشف النقاب عن العيون يوم الحساب **[لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد]** (١٦). ولكن العارف مشاهد وبصره حديد في الدنيا، والمؤمن متيقن والمسلم يعبد الله على حسن الظن بالله والخوف. وقد اختلفت الأعمال باختلاف المشاهدات والمشاهدين. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً.. ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله" (١٧). ولكن هل يعني الزهد في الدنيا تعذيب الجسد وجرمانه من حقوقه، بقتل الرغبات المشروعة للنفس. إذا أردنا أن نتحدث عن شهوات النفس، فلا شك أن كل نفس تتمنى الأمانى وتطلب الدنيا وما فيها من المتع. فالنفس في جوهرها لا تتنطق إلا بحاجات الجسم، ولا يهتمها معرفة مصدر هذه الحاجات، إن كانت حلالاً أو حراماً، فالمهم أن تقضي حاجاتها. ولكن الله وضع العقل في مواجهة النفس. فالعقل هو بالنتيجة الذي يحكم على النفس فيؤدي إليها ما يشاء. والنفس في تأثيرها وجبروتها لا تكف عن الطلب والإلحاح والمكر للتأثير على العقل وإقناعه بتلبية ما حرماها منه. لننظر إلى النفس في هذا الحوار الخبيث مع العقل. حتى يبدو الإنسان وكأنه يتألف من شخصيتين. فالنفس تقول له أعطني حقي من متع الدنيا. والعقل يقاوم إن قاوم بالحق، ويخضع إن خضع

إلى مستوى البهيمية. بل إلى ما هو أسوأ من البهيمية، لأن العقل إذا خضع للنفس وتعاون معها، فإن الإنسان يبتكر من الشرور ما لا تفعله الحيوانات. وأسوأ ما تفعله الحيوانات أنها تقتل عند الجوع ولكنها لا تدخر للغد. إذ ليس لديها بنوك لتخفي فيها ما حصده من لحوم الضحايا. وليس لديها برادات لتخفي ما بحوزتها من الطعام. وليس لديها من فنون إثارة الغرائز وطيشها ما لدى الإنسان مما يعده البعض من ثمار الحضارة ونعمها. فأين الحيوانات في فطرتها من الإنسان، الذي رضي أن يجعل عقله في خدمة نفسه، فراح يتقن في طرق افتراس الناس وأكلهم والغدر بهم لزيادة رصيده في البنوك غير عابئ بدم الضحايا، وهو مع ذلك يدعي الصلاح والإحسان إليهم. هل في الوجود من يمكر مثل هذا المكر غير الإنسان. وهل هناك من يتقن في فسق الفاسقين وجنونهم غير الإنسان. لهذا كان بعض الناس - كالأنعام بل أضل سبيلاً - لأن الأنعام لا تقترف ما يقترفه الضالون من ذرية آدم. وليس من المعقول أن يكون لمن شغله هوى غرائزه عن معرفة نفسه أي اكتشاف أو التفات لقوى العقل. ومثل هذا الإنسان الذي لا يتعلم غير أساليب المكر للإيقاع بالضحايا لا يصلح لشيء، بل إنه يصبح عبئاً ثقيلاً على المجتمع. لهذا كان لابد للعقل أن يأخذ دوره في إخضاع النفس، لمن يريد أن يعقل، ويتميز عن الحيوان، وليس العكس. لأن العقل أكثر سمواً في الإنسان لما يحتوي عليه من العلوم، ومن العدل. فالعقل يحكم على الظالم بظلمه وإن أطاع هوى نفسه. والعقل إذا نظرنا إليه بتأن وتأمل، سنجد فيه كل أحكام الخير والشر التي صار بها الإنسان إنساناً وحتى العلوم كلها. وهذا هو علم آدم الذي أعطي له من الله عن جدارة واستحقاق [وعلم آدم الأسماء كلها] (١٨). لكي يكون خليفة في الأرض. وقد رأينا واقعياً أن الإنسان سيتأثر ببيئته، مع أنه في الأصل يولد على الفطرة. "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عن لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (١٩).

ولهذا فإن البيئة تساعد الإنسان على الارتفاع أو تنزل به على قدر اكتشاف أحكام عقله الكامنة فيه بالأصل. والأصل هو حق كل الناس في الخلافة ووراثتهم للأرض بتوريث الله قبل أن تقام الحدود بينهم، وذلك بالارتفاع إلى مستوى العقل، واستشراق ما فيه للعمل بنوره المكنون. ولكن كما رأينا جاء الهوى ومال العقل بمن مال عندما صار المال يجتني ويحتاط به الناس. فمال بالعقل عن الصواب، وسمى من سمي المال مالاً من الميلان عن الطريق المستقيم. ولهذا كان لابد للعودة إلى الفطرة السليمة، من جبر الميلان بالإنفاق، وعدم الانشغال بجمع المال

والركض وراء الشهوات لأنهما أكبر قاطع لطريق العلم والمعرفة.

لهذا كان الأنبياء قدوة البشرية في السخاء، بالعودة إلى فطرتهم الأصلية وبالاتكال على الله، وتعويد النفس على الصبر والرضا، حتى أصبحت نفوسهم طوعاً لإرادتهم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشيطان. قالوا وأنت يا رسول الله. قال نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم" (٢٠). ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدخر. وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وقد تعرض مع أهل بيته للجوع ليس لأن الطعام كان ينقصه أو المال، بل لأنه كان ينفق كل ما يأتيه. وحين أعطى لبعض أزواجه المؤونة لمدة عام كما ذكر. فذلك إشفافاً منه عليهن، لأن أحواله ليست كأحوالهن.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستطيع لو أراد أن يشبع مما يشتهي مع أسرته. فقد كان ما غنمه المسلمون بعد معركة حنين "الإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة" (٢١). وكانت كل هذه الثروة بتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان حقه فيها الخمس. ولكنه وزع هذه الثروة على الناس وأعطى المؤلفة قلوبهم بالمئات حتى تأثر بعض الأنصار فجمعهم في موقف ينبئ عن حقيقة الإسلام، وحقيقة المال. فكان من بعض ما قاله لهم "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لعاعة من الدنيا فألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟. فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فيكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً" (٢٢). المؤمن لا يرضى بغير رسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً وقدوة ومثالاً. لأنه الحق ما هو للدنيا ولا الدنيا له. لقد وقعت غزوة حنين في شوال في السنة الثامنة للهجرة. ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بغزوة تبوك في رجب في السنة التاسعة للهجرة، عندما علم أن عرب غسان مع الروم، يتهيؤون للهجوم على المسلمين. وفي هذه الظروف لم يكن لدى الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينفقه لتجهيز الجيش بالمعدات. فطلب من الأغنياء التبرع لتهيئة الجيش. وقد سمي هذا الجيش، بجيش العسرة بسبب الظروف، حيث كان ثمانية عشر رجلاً يعتقبون بغيراً واحداً. وكان بعضهم يأكل ورق الشجر لعدم توفر الطعام. وبين إنفاق الرسول صلى الله عليه وسلم لغنائم حنين وغزوة تبوك أقل من سنة: هذا هو الرسول

صلى الله عليه وسلم في اتكاله على الله في كل أموره وليس على تجميع الأموال وادخارها. ولهذا كان يقول في دعائه "اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا قوتاً" (٢٣) وقالت عائشة رضي الله عنها "مكث آل محمد صلى الله عليه وسلم أربعة أيام ما طعموا شيئاً.. فأتانا عثمان. فقال: يا أماه: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: يا بني: ما طعم آل محمد منذ أربعة أيام شيئاً..."

فبكى عثمان ثم قال: مقتاً للدنيا يا أم المؤمنين. ما كنت بحقيقة أن ينزل بك هذا ثم لا تذكره لي ولعبد الرحمن بن عوف ولثابت بن قيس ونظراننا من مكاتير المسلمين. ثم خرج فبعث إلينا بأحمال من الدقيق وأحمال من الحنطة وأحمال من التمر وبمسلوخ "شاة" وبثلاثمائة درهم في صرة.. وخبز وشواء كثير فقال: كلوا أنتم هذا وضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يجيء. ثم أقسم علي أن لا يكون مثل هذا إلا أعلمته إياه" (٢٤). كان المسلمون يحبون الرسول أكثر من أنفسهم، ولا يتورعون عن فدائه بأرواحهم. فكيف سيضنون بالمال عليه. وهذا مثال لما كان يأتيه من المال، لو شعروا أنه في ضيق. وكان مثل هذا المال يكفي أسرته لسنوات. ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينفق كل ما يأتيه. لهذا لم يشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام ثلاثة أيام متتالية حتى وفاته. وهذه بعض شهادات من الذين عاصروه.

قالت عائشة رضي الله عنها "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٢٥) وقالت "إنا كنا لنمكث أربعين صباحاً لا نوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ناراً مصباحاً ولا غيره. قلت: بأي شيء كنتم تعيشون؟. قالت: بالأسودين التمر والماء إذا وجدنا" (٢٦) وبعثت امرأة أنصارية بفراش للرسول صلى الله عليه وسلم محشو بالصوف بعد أن رأت فراشه المؤلف من عباءة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة" (٢٧) وبكى عمر بن الخطاب حين دخل على الرسول صلى الله عليه وسلم "فراه على حصير قد أثر بجنبه... فقال ما يبكيك يا عمر؟. قال أنت نبي الله وكسرى وقيصر على أسرة الذهب. قال: يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة" (٢٨). وحين عرض الله عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً قال "لا يارب أشبع يوماً فأحمدك، وأجوع يوماً فأسألك" (٢٩) وروى أبو هريرة أنه دخل على النبي فرآه يصلي جالساً فسأله ما أصابك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "الجوع يا أبا هريرة. فبكيت. فقال لا تبك، فإن شدة الحساب يوم القيامة، لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار

الدنيا" (٣٠). وقال عبد الرحمن بن عوف "هلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير فلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا" (٣١). وقال بلال الذي كان يشرف على نفقات الرسول صلى الله عليه وسلم "ما كان له شيء كنت أنا الذي ألي ذلك منه منذ بعثه الله عزوجل حتى توفي" ومما رواه أنه كان على الرسول صلى الله عليه وسلم دين، فأنته أربع جمال بحمولتهن، فأخذهم بلال وباعهم وسدد الديون. وبقي أوقيتان. فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بهما. فقال له "انظر أن تريحني منها، فإنني لست داخلاً على أحد من أهلي حتى تريحني منه" فجاء راكبان في اليوم الثاني فأطعمهما وكساهما ودخل على الرسول صلى الله عليه وسلم وقال "قد أراحك الله منه يا رسول الله. فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك" (٣٢). وذات مرة جاء رجل فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعطيه فقال له: "ما عندي شيء، ولكن استقرض حتى يأتينا شيء فنعطيك، فقال عمر: يا رسول الله هذا أعطيته فما كلفك ما لا تقدر عليه. فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول عمر حتى عرف في وجهه. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف البشر في وجهه بقول الأنصاري. ثم قال: بهذا أمرت" (٣٣). هذه هي أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا" (٣٤). وكان الطالبون كثيرين. كانوا يطلبون منه حتى ثيابه للبركة أو الحاجة فكان يعطيها. "حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة أنمار صوف سوداء فلبسها.. فقال أعرابي بأبي أنت وأمي يا رسول الله هبها لي. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئاً أبداً فيقول: لا. فقال نعم. فأعطاه الحبة ودعا بمعوزين له فلبسهما وأمر بمثلها فحيكت له، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة" (٣٥). هذا هو زاده من الدنيا، زاد المسافر بعد قليل. المستحي من لقاء ربه في كل لحظة وعنده شيء من زادها أو رزقها. هذه هي أخلاق النبوة ووصاياها. مما وصلنا من وصايا موسى عليه السلام في التوراة "أنا الرب إلهك... لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي... لا تلفظ اسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ الذي يلفظ اسمه باطلاً. اذكر يوم السبت لتقدسه... أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك إياها. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا خادمه ولا خادمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك" (٣٦). لو فهمنا كلمة قريبك بمعنى أخيك في الإنسانية سنرى شريعة الله الواحدة وإن تعددت الكلمات وتنوعت لأن المعنى

سيجمعها. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة" (٣٧). وجاء في التوراة "والنزير فلا تظلمه ولا تضايقه، فإنكم كنتم نزلاء في أرض مصر. ولا تسيء إلى أرملة أويتميم، فإن أسأت إليهما إساءة وصرخ إلي صراخاً، فإنني أصغي إلى صراخه، فيحتد غضبي وأقتلكم بالسيف. فتصير نساؤكم أرامل وبنوكم يتامى" (٣٨). وجاء في إنجيل لوقا "ما من خادم يستطيع أن يخدم سيدين. فإما يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلزم الواحد ويرذل الآخر. لا يمكنكم أن تعبدوا الله والمال" (٣٩). إن نور الحق لا يخفى أينما كان. ومن يطلب الحق يجده في عقله سارياً كما تسري روح الحياة في بذرة القمح اليابسة. ولكنها لا تنمو حتى يفنى جسدها في التربة الصالحة، وتسقى بماء الحياة، لتنتب سنابل القمح المباركة. لا بد من موت النفس بظهور سلطان العقل، حتى يشع نور الجسد المستهلك في عبودية معرفة الحق. وموت النفس لا يضاويه إشراق نور العقل. ولكن بين هذا وذاك ظلمات لا يقطعها إلا العاشقون المتيمنون بحب الخير للناس حتى يحين موعدهم مع حبههم، ويكشف لهم عن حب لم يعرفوه، وشوق لم يتذوقوه. فينطلق لسانهم بالصلاة التي لا يعرفها إلا المقربون. فيكسرون عصا التدبير والاختيار، ويربطون أيديهم في قيد العبودية، ليشهدوا ربهم في الأكوان. والنفس في ملكها الجديد تطرد الشيطان، وتقول للدنيا تباً للأوثان. لأنها بعد الأهوال ستذوق طعم الإحسان، وتدخل إلى جنة عرضها السموات والأرض متلألئة بالأنوار. وأما من حرم من طعم الإحسان فإنه يسأل عن جنات العنب والتين الناضجة بالثمار. والمحسن يقول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين آذاه قومه "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (٤٠). اللهم اسقهم من رحيقك المكنون المعطر بنور وجهك الكريم. وقد جاء في إنجيل لوقا أن المسيح قال عندما صلبوه، وإن كان من هو روح لا تحيط به الجدران، ولا تمسه المسامير والصلبان، وإن ظهر لهم أنهم قتلوه. فقد ظهر جبريل على شكل دحية الكلبي فما عرفوه. ولكن العبرة في النوايا. فقد أراد الله من القتلة أن ينظروا إلى ما فعلوه. والمسيح ينادي ربه تقرباً "أبتاه اغفر لهم، فإنهم لا يدرون ما يعملون" (٤١).. قال أبتاه لسريان روح المحبة والحنان على أبناء الإنسان. وقد جاء في الإنجيل "لا تدعوا أحداً على الأرض أباً، فإن أباكم واحد، وهو الذي في السماوات" (٤٢). فأبوة الرحمة شملت الجميع، لا أبوة النسب لمن يفهم معنى الكلام. وهل يستطيع أن يقول غير ما قال من تلالأت روحه بالأنوار. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم

واحد" (٤٣). ولكن أين الذين لا يصلبون الناموس، ولا يعبدون إلهين وقد قال الله: **[ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه]** (٤٤). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل قرون. الناطق من مدينة النبوة بالعرفان "لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب، فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر" (٤٥). فأين الطهارة الآن؟ وهل يمكن الوصول بشهوات النفس إلى سر كنز العقل المكنون. لقد جاء في الحديث "لا رهبانية في الإسلام". فليس المطلوب من الإنسان قتل الجسد الذي يحمل عقله، وإنما المطلوب إقامة التوازن بين حاجات العقل وحاجات الجسد للكشف عن سر الإنسان المكنون. فالعقل وإن كان من معدن آخر لا ينطق إذا قطع اللسان، أو مات الإنسان. فلا بد للإنسان في الدنيا من إنصاف الجسم لتحريك اللسان بما في العقل من آيات الإحسان. إن الطريق إلى الخلافة الإنسانية لا يتحقق كما رأينا إلا باتباع طريق الرسل وسلوكهم للوصول إلى حقيقة معرفة الإنسان بنفسه وربّه. وقد رأينا كما سيرى كل من يدقق في جوهر الأديان بأنها تنطق بحقيقة واحدة. رغم أن ما وصلنا من كلام موسى أو المسيح عليهما السلام قد تعرضا لكثير من النسيان أو الإهمال أو سوء الفهم وسوء النقل، كما تعرضت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لنفس المشكلة. هذا إذا أحسنا الظن بكل الناقلين والرواة، مع أن الكاذبين والمنافقين وأصحاب المصالح لم يخل منهم دين ولا عقيدة، ومنهم من ساهم في القبض على المسيح عليه السلام لقتله، مع أنه أحد الحواريين وهو يهوذا الاسخريوطي. فأى غرابة في تزوير كلام الأنبياء عن تعمد؟ وأي غرابة في سوء الفهم والنسيان وهما من طبيعة الإنسان؟ ولكن ورغم كل الغبار الذي يحيط بنور الشمس، فإن نورها لا يحتجب إلا عن العميان. وإن احتجب فإن دفاها لا بد أن يصلهم.. ولهذا قلنا إن نور الرسالات السماوية لا يخفى وإن خفي على العميان. وقد عرضنا لقليل مما ورد في التوراة والأنجيل للتأكيد على حقيقة ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء: "الأنبياء أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد". ألا تدل الوصايا العشر المأمور بها في كل الأديان وحتى في البوذية والهندوسية على دين الله الواحد وإن تعددت صور عبادة العابدين كما فهمها النجاشي حين تلي عليه القرآن فقال "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة" (٤٦). كل هذه الأمور لا تغيب عن عقل العارفين بأمر الله، ولا تدفعه كما يفعل بعض المستشرقين إلى الزعم بأن هذا الرسول أو ذلك قد نقل عن غيره بدليل تشابه كلام الرسل وشرائعهم. وكان الأحرى بهم أن يفهموا حين يجدون هذا التشابه، حقيقة أمر الله الواحد لأن الرسل كلهم رحمة مهداة للبشرية بأمر واحد وهدي واحد، وإن اختلفت

طرق العبادة. فالمسلم له عبادته، وكل دين له عبادات، ولكننا حينما ننظر إلى ما وراء العبادات ونفهم الهدف منها لن يخفى علينا الجوهر الحقيقي لكل عبادة. ولا أقصد بالعبادات الطقوس فقط فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر" (٤٧).

فالأعمال تتعلق بالنوايا، وأعظم النوايا تتعلق بالإنسان، لأنه غاية الله من الخلق، وهو على صورة الرحمن. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في إشارة واضحة إلى مكانة الإنسان المؤمن عند الله، في مقارنة بينه وبين الكعبة "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، يعني الكعبة، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً" (٤٨). فحرم الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سوء الظن بالمؤمن بدون دليل. فالكعبة إنما وضعت في الأرض من أجل الإنسان، وكل ما في المجموعة الشمسية، وكل ما تنتجها الأرض سخر لأجل الإنسان. ومن حكمة الله أن يسخر الأدنى منزلة للأعلى، وليس العكس. ونظام التسخير مشهود لكل ذي عينين. وفي إشارة ثانية إلى مكانة الإنسان وحقوقه. قال "من أذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة" (٤٩) وقال "من قتل نفساً بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها" (٥٠). وقال "من أمن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً" (٥١)

فالغاية من الشريعة هي الارتقاء بالإنسان، بتحقيق الحرية والعدل والصعود بقوى العقل لتكون سيدة على النفوس، لتفجير ينابيع الروح، ورؤية الحق وعبادته في كل مظاهر الوجود وصوره، حتى لا نعتدي على نملة بالإيذاء بدون ذنب. لأن السمو الإنساني إنما يظهر بالرحمة بكل مخلوق وإنصافه. لهذا قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم المشركين في مكة لأنهم منعوهم من الدعوة إلى الله، إلى العدل الإنساني والمعرفة، إلى الرحمة، وتحرير الإنسان من عبودية الناس، والتوجه إلى عبودية الله. بل إنهم أجبروا كل مؤمن على الهجرة، عندما رفضوا لغة الحوار، واستخدموا لغة التعذيب والتهديد والقتل وكذلك فعلت الإمبراطوريات التي قاتلها المسلمون. ولهذا أباح الإسلام حرية العبادة في كل مكان وصل إليه.

جاء في إنجيل متى "لا تظنوا أنني جئت لألقي على الأرض السلام، لا، ما جئت لألقي على الأرض السلام بل السيف، أجل جئت لأفرق الإنسان عن أبيه، والابنة عن أمها، والكنة عن حماتها، فأعداء الإنسان أهل بيته الخاص. فمن أحب أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا

يستحقني. من وجد نفسه أضعافها. ومن أضعاف نفسه من أجلي وجدها" (٥٢).
الصليب الذي أمر به المسيح هو صلب النفس لمن أحب المثل العليا التي يدعو إليها، وليس الصليب الذي يعلقه الصالح والطالح "من أضعاف نفسه من أجلي وجدها" أي من تخلص عن شهوات النفس، وعمل بالمثل العليا والأخلاق والقيم والوصايا العشر التي تتمثل برحمة الخلق. ولهذا سيقول الله للأشرار. لمن يكنزون الذهب والفضة "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية، التي أعدت لإبليس وملائكته، فقد جعلت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، وكنت غريباً فلم تؤوني، وعرياناً فلم تكسوني، وكنت مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. فيجيبونه هم أيضاً ويقولون، يا سيد، متى رأيناك جائعاً أو عطشان، غريباً أو عرياناً، مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك؟. حينئذ يجيبهم، قائلاً، الحق أقول لكم، إن كل ما لم تصنعوه إلى أحد هؤلاء الصغار، فإلي أيضاً لم تصنعوه. ويذهب هؤلاء إلى عذاب أبدي، والصديقون إلى حياة خالدة" (٥٣). فما هي فائدة الصليب لمن لا يعمل بالأمر الإلهي وكان من الملائعين. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني؟. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين!

قال: أما علمت أن عبيد فلاناً مرض فلم تعده! أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني؟. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين! قال: أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني؟. قال: يا رب! كيف أسقيك وأنت رب العالمين! قال: استسقاك عبيد فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي" (٥٤).

هذه هي الغاية الإلهية من الأديان. "أسلم المسلمين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٥٥). والمؤمن "لا يؤمن عبد حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير" (٥٦). فهل هناك أي غموض في شرائع الله، وفي الغاية من هذه الشرائع.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم "اللهم اهد قومي" وهم كفرون، فأحب لهم ما أحب لنفسه. كما قال المسيح عليه السلام "أبتاه اغفر لهم" وهم قاتلون. مما يدل على الجوهر الواحد للشرائع السماوية وهي معرفة الله بإطلاق قوى العقل والروح وتحريرها من تأثير النفس لحدوث الإشراق الإنساني. ولو أننا دققنا فيما وصل إلينا من الشرائع السماوية سنتحقق من شريعة الله الواحدة من حيث الغايات.

ولكن البلبلة التي سيلاحظها أي قارئ للتوراة أو الأناجيل إنما تعود لأخطاء بشرية في النقل، مما ساهم في طمس بعض معالم الشريعة الإلهية. لهذا قلنا إن الإسلام أصح الطرق لصحة الناقلين، وختام النبوة بالأمر الشامل بعد أن ترقت سلالة الطين، وصار الإنسان قابلاً لعلم رسالة النبوة الشامل. لهذا كان الإسلام جامعاً لكل الشرائع السماوية. وقد حُفظ القرآن من التحريف والزيادة والنقصان بمشيئة الله وعهده، ليعرف طريق الحق الواحد. ويعرف أيضاً أسلوب الوصول إليه. ومن أحب الحق سعى إليه ليعرفه بطرق المعرفة اليقينية لا الظنية. وقد أشرنا إلى جوهر الطريق وغايته وأسلوب السير فيه للوصول بشكل عام، والعام لا يلغي طرق الخواص من عباد الله. وإن كنا على يقين بأن كل الطرق الفرعية ستوصل العارف في النهاية إلى طريق الله الواحد الجامع وهو طريق الإسلام، وإن كبا فرسان الحق أو تاهوا لبعض الوقت. لقد جاء في سيرة ابن هشام أن "مخيريقي، كان حبراً عالمياً وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته، وما يجد في علمه. وغلب عليه إلف دينه. فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم سبت. قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني - يقول: مخيريقي خير يهود. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها" (٥٧). هذا هو الحبر الذي عرف الحق بعد طول تأمل فأصغى له، وأعطاه المال والروح. لقد سئل المسيح عليه السلام "لما يفعلون في السبت ما لا يحل؟". فأجاب أحبار السبت "السبت جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت" (٥٨). وحين سئل المسيح عليه السلام "ما أعظم الوصايا في الناموس؟". فقال له: أحب الرب إلهك بكل قلبك، وكل نفسك، وكل ذهنك، هذه هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية تشبهها. أحب قريبك كنفسك. بهذه الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء" (٥٩). لأن الإنسان كما أوضح جامع الشرائع المصطفى صلى الله عليه وسلم ليكون اللبنة الأخيرة في قصر المعرفة الإلهية "لا تقبخوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورته. وفي لفظ على صورة الرحمن" (٦٠).

لهذا جاءت الشرائع لخدمة الإنسان. فمن فهم عن الله أدى الحقوق، وأعطى مما يملك للمحتاج. وهذا هو سر الخلافة، الخليفة والربيع صنوان، والإيمان

والسقاء لا يفترقان. لتظهر حقيقة الإحسان، كما شهدها حارثة بعد أن قام وصام، فرأى أهل الجنة، وأهل النار. ولهذا قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الشرك ليعبد الله الواحد. لأنه لا يوجد إلا الله وتركهم إلى نياتهم. وإن كان يعلم أن الشرك الخفي يدغدغ النفوس ويقاوم الإيمان. فقد كان عليه أن يمهد الطريق، ولهذا قال له الله وهو يلح على عمه أبي طالب **[إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء]** (٦١) لأن الهداية كنز من كنوز الحق لا يوصل إليه بأي شرك. ومن الشرك جعل النفس شريكاً للعقل. لأن مقام الإنسان لا يظهر إلا بالعقل. ولهذا فإن الإيمان لا يوصل إليه إلا بأداء الحقوق لأصحابها. ومن جملة الحقوق سيادة العقل على العاقلين، وإتباع الغافلين للعقلاء. ومظاهر العقلاء لا تظهر إلا في سلوك طريق المسافرين عن الدنيا، فلا تغتر بصيام من صام وقيام من قام، وهو يحشد لغده الكنوز من حقوق الناس. والمشكلة وإن كانت ليست كلها في الثراء، فإن مشكلة المشاكل هي من أين وإلى أين. فالضمان تشع للظالم وغير الظالم، والعبرة في إتباعها. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون" (٦٢). فلا يخدعك تبرير النفس إذا صاح القلب هذا حرام، فالشديد من يملك نفسه عند الغضب، فلا يسمح لها بالاعتداء والعدوان. والشديد الشديد، المحب لنفسه بردعها عن الظلم الذي تدعوه إليه. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قيل: كيف أنصره ظالماً؟. قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره" (٦٣). العقل والنفس أخوان فأعط لكل ذي حق حقه. وارحم جهل النفس وضعفها بردعها عما تحبه وتهواه من أمور الدنيا، لأنك إذا انقدت إلى جهلها ستخوض بك في ظلم الخلق، وستتقودك إلى هلاك العقل، وعندئذ ستهلك بهلاك إنسانيتك. ما أوضح طريق المعرفة وما أصعبه. والنفس تنادي بكل قوى الجسد أريد ملك الدنيا. والعقل يتغذى من معاني الوجود بالكلمة الطيبة.

فأين هذا الغذاء من ذلك. وهل في الوجود من تغذيه الكلمة غير الإنسان لهذا انقسم طريق الخلافة العامة في الدنيا إلى طريقين. خلافة في الآخرة. وخلافة في الدنيا. خلافة الله، وخلافة الشيطان. خلافة العقل، وخلافة النفس. وكل خلافة ستقود صاحبها إلى طريق. فخلافة الآخرة تقود الإنسان إلى العمل للآخرة بإرشاد العقل المؤمن، وهو طريق السمو الإنساني والخلافة الإلهية. وخلافة الدنيا تقود الإنسان إلى العمل لامتلاك الدنيا والانشغال بها، وإتباع الأساليب والوسائل التي تحقق له النجاح فيها، والاستمتاع بنعمها، فتصبح الماديات وامتع الحواس الزائلة

كل همه، فيتحطم العقل بتوظيفه في خدمة الحواس. وعند ذلك سيعجز العقل عن الطيران والروح عن التحليق، و نار الغضب ستحيط بالإنسان كلما ضعفت هذه الحواس عن الاستمتاع وأصيبت بالمرض، وانحسرت القدرة عن الملذات الحسية. فما الذي سيبقى غير نار غضبه التي ستأكله قبل أن تأكله نار الحساب، بالندم الذي لا يفيد، وبالأمنيات التي لا تعود، وبالأيام التي أكلت الشباب؟. فهل سيبقى غير الانحدار إلى التراب والبكاء على دنيا لا تدوم، وملك حطمه نار الشهوات؟. ولهذا بما أن الخلافة هي قدر الإنسان لا بد له أن يسعى إلى مكانته في هذه الخلافة بأعماله. وأعماله هي مركبه الذي يسير به، إما إلى أسفل للاتصاق بتراب الأرض والامتزاج بالماديات التي تتعرض للزيادة والنقصان والعلل والعاهات. وإما إلى السمو والعلو إلى جنة الروح التي لا تحدها الحدود، ولا يعذبها الندم، ولا تصيبها أمراض الطبيعة بالعاهات، بعد أن أدركت بالعقل، فتخلصت من التركيب وصارت نوراً خالصاً يسبح في عالم الأحلام ليشهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب البشر. إن طمأنينة العامل بأمر الله في الدنيا وحتى أحلامه تدل على حصاده في الآخرة بسمو روحه وسعادته ورضاه. بينما تكشف حياة العامل بأمر هواه عن شقائه وانحداره وعذابه في الحياة قبل الآخرة. لهذا كانت الخلافة حق الإنسان المعطى له بالعقل الذي هو تاج الملك الموضوع على رأسه ظاهراً وباطناً. وكان كل عمل مخالف لمنطق العقل المستمد من النور الإلهي سيقود الإنسان إلى خلع نفسه من الخلافة. فإذا خلع التاج، فإنه يكون قد خلع نفسه من الخلافة المعطاة له أولاً من الله. ومن لا يعمل بعقله، بل بغرائزه هل هو أكثر من حيوان وإن نطق وتكلم. فكيف به إذا استخدم هذا التاج -العقل- في ابتكار شرور لا تعرفها الحيوانات. فهل هو كالأنعام، أم إنه أضل سبيلاً؟ وصدق الله العظيم الذي وهب الإنسان تاجه ليطوف به في مملكته طواف الملوك، لا طواف الصعاليك، فأظهره بصورته، وألبسه ثوب عظمته وأمره بالرحمة في رعيته. وقال عن نفسه في عالم أزله وأبداه "سبقتم رحمتي غضبي" (٦٤). وقال "كتب ربكم على نفسه الرحمة" (٦٥). فمن أخذ ثوب العز من هذا الباب، وصار قلبه قاب قوسين أو أدنى بخدمة العباد، لا بد له من السجود على التراب، ولا بد له من البكاء من لوعة الفراق، حتى يعود إلى ذات الخليفة بالأمر، ويخلع عنه النيابة بالفعل. فيرتدي لباس العبودية من سيده، ويقول أنا الأمي، لأنني عند الأمر والنهي. أنا الخادم عند السيد المطاع. أنا ابن أبي المشتاق. وهل تصلح الخلافة دون رعاية الآباء للأبناء، والملوك للأجراء. لولا احتياج العبد، وإعطاء الرب، ما ظهرت المملكة، ولا ظهرت السيادة والعبودية. فأين المشتاقون إلى السيادة بالعباء

من ملك الرب. وكيف ستكون خلافة بدون حب الآباء للأبناء ودون العطاء. لهذا كانت النبوة مدينة الخيرات. وهذا هو ميراثهم الذي تركوه لكل الخلق، فما أثروا أنفسهم بشيء، فكيف سيؤثرون غيرهم بثروة أو ملك. ما تركوه صدقة للصادقين، وهبة للمستحقين وغير المستحقين. لأن مهمهم كان تأليف قلوب الفقراء. أما الأغنياء بالكمال فقد حرمهم الرسول صلى الله عليه وسلم من المال، فافهم مغزى قوله للأنصار "ذهب الناس بالشاة والبعير". فالمحب لا يطلب إلا حب من أحب، ولهذا بكى الأنصار عندما عرفوا أنهم سيعودون برسول الله، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم عاملهم كنفسه بتخليه عن المال لمن يحبه، لأن قلب الخليفة لا يتسع إلا لله. وقد جاء في الحديث عن الله "ما وسعتني أرضي ولا سمائي ووسعتني قلب عبدي المؤمن" (٦٦). وفي حديث "أن الله تعالى أنية من أهل الأرض. وأنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها" (٦٧). فانظر إلى قلبك من يتجلى فيه لتعرف أي رب تعبد. فإن رأيت الله فأنت خليفته، وإن رأيت نفسك أو هواك، أو اختلط أمرك فأنت خليفة لما رأيت ومن رأيت. فلا تغتر بخلافة الأزل، وسجود الملائكة للإنسان.

فقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر، وقال "الجنة قيعان" فازرعوها بالأعمال. وقال "لا أعلم ما يصنع بي ولا بكم غداً" ما دام القلب يتقلب فالإنسان بين أصابع الرحمن. فاحذر من السجود على التراب الطهور بدون إطفاء نيران النفس، وخوض بحر الأزل بمراكب النور. احذر من إسقاط الأعمال لأن المتنازل عن تدبير أمر مملكته ستعزله رعيته، وإن كانت الخلافة قد أعطيت للإنسان في عالم الأزل، فهي للإنسان الكامل، بالأعمال، وليست لكل إنسان. فالإنسان مملكة الرحمن، والعقل تاج مملكة الإنسان، والشريعة دستور وطريق للوصول إلى الرحمن، لنيل الخلافة بالبرهان. وهذا هو السباق الذي لا بد منه في الدنيا. فمن طهر نفسه من نار الشهوات في الدنيا نجا وعاد إلى حقيقته في عالم النور. ومن عجز عن تطهير نفسه في بحر الحياة، فإنه على قدر إسرافه في طاعة حواسه ستحيط نار التطهير به لتغسله من خبث الشهوات. حتى يدخل مملكته الموعودة، ويعود إلى أصله. وبما أن دوران الأيام في الآخرة ليس كدورانها في الدنيا لحقيقة تتعلق بطبيعة كل فلك بالمشيئة الإلهية. حيث جاء [وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون] (٦٨) فإن أيام العذاب أو تطهير الإنسان في الآخرة ستطول تبعاً لطول مخالفاته، ولهذا ستكون أيام العذاب من أيام الرب، إضافة إلى طول وقت الحساب عند انتظار الحكم الإلهي. حيث سيكون مقدار هذا اليوم الذي

[تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة] (٦٩). وقد فسر الشيخ محي الدين بن عربي "المعارج" بأنها "مراتب الترقى من مقام الطبائع إلى مقام المعادن بالاعتدال. ثم إلى مقام النباتات. ثم الحيوان. ثم إلى الإنسان في مدارج الانتقالات المترتبة بعضها فوق بعض. ثم في منازل السلوك" (٧٠). وربط في تفسيره سبب دخول أهل الشهوات إلى النار للمناسبة بين الطبيعة المادية للشهوات والنار. ففي عالم إشراق الروح في الآخرة سيشفى أصحاب الشهوات لأن المكان لا يتناسب مع شهواتهم حيث سيبعث كل إنسان على صورته الدنيوية. ولهذا "فإن لظى نار الطبيعة السفلية ما استدعت إلا المدبر عن الحق، المعرض عن جناب القدس وعالم النور، المقبل بوجهه إلى معدن الظلمة، المؤثر بمحبته الجواهر الفاسقة السفلية المظلمة، فانجذب بطبعه إلى مواد النيران الطبيعية، واستدعته وجذبتة إلى نفسها للجنسية، فاحترق بنارها الروحانية المستولية على الأفتدة. فكيف يمكن الانجاء منها وقد طلبها بداعي الطبع، ودعاها بلسان الاستعداد" (٧١). وقد ذهب الفخر الرازي في تفسيره إلى أن طول وقت الحساب "إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا. والدليل عليه الآية والخير. أما الآية فقولته تعالى **[أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً]** واتفقوا على أن ذلك "المقيل والمستقر" هو الجنة. وأما الخبر فما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال. قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما طول هذا اليوم؟ فقال "والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا" (٧٢).

وإذا عدنا إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "المرء مع من أحب، وله ما اكتسب" (٧٣).

وإذا عرفنا أن الحب المقصود، هو حب اتباع واقتداء ليصح للمحب الوصول إلى مقام المحبوب سندرك لماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله" (٧٤). لأن عجز المقتدين عن اللحاق بأعمال الرسل صلوات الله عليهم، قد يصلحه حسن النوايا التي هي منبع كل الأعمال وغايتها. ولهذا جاء الأمر بالعلم لمعرفة الشريعة، وشهود الآيات الإلهية في الوجود. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم "اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٧٥). والقسم الثاني من الحديث متفق عليه بإجماع الناقلين. فالعلم مفروض على المسلم للوصول إلى الخلافة. والجاهل لا يعذر لجهله، لأن جهله قاطع لطريق الوصول، فكما أن غير

دارس الطب لا يصبح طبيباً، كذلك الجاهل بحقائق المعرفة الإلهية لا يصبح عارفاً. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "قلب ليس فيه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالاً، فإن الله لا يعذر على الجهل" (٧٦). لأن تحقق الإنسان من خلافته في الأرض هو غاية الغايات من الخلق، ومن كل خلق. لأن الإنسان الكامل هو الثمرة المقصودة، والغاية الإلهية المطلوبة للوصول إلى كمال العبودية الإنسانية، وظهور حقيقة الربوبية. وما بين الإسلام والعبودية دروب لا يوصل إليها بالقتال أو الحروب. إنها علوم و"إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله" (٧٧). وهو علم القلوب والمكاشفات والسكون بين يدي الله. لهذا لا بد للوصول إلى العلم المكنون في القلب من طي صفحات الجهل لرؤية عرش الرب. ولهذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكمال فقال "أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامس فتهلك" (٧٨). ولأنه القدوة، ولكي لا يظن إنسان أنه وصل إلى كمال العلم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم" (٧٩). لأن الإنسان الكامل يعيش على الإمداد الإلهي بعد قطع شواطئ التدبير والاختيار. فهو أُمِّي من هذا الميزان. وهو عبد في هذا المقام. وهو خليفة لأنه لا ينطق عن الهوى. فهو الأُمِّي العبد الخليفة بحسب موقعه في كل ميزان. بل هو من عطاء الأسماء الحسنی في شأن من تجلي الرحمن بعد أن صار قلبه بيتاً لله الذي لم تسعه السماء والأرض ووسعه قلب الإنسان العبد. فالخليفة كنز الزمان وصاحب السر المكنون، والظهور الرحماني في صورة الإنسان..

العقل والإيمان

إننا كلما تأملنا في الحقيقة الإنسانية سيتبين لنا أن الإنسان صار إنساناً وخليفة بالعقل الموهوب له من الله. والعقل هو الجوهر النفيس الذي تميز به

الإنسان عن باقي المخلوقات. لأن جميع الكائنات الحية إذا نظرنا إليها من حيث تشابهها مع الإنسان فإنها لا تختلف في تركيبها وحواسها وقدراتها وتوالدها وعنايتها بأبنائها عن الإنسان. بل إن بعض الكائنات الحية لها قدرات في حواسها تفوق قدرات الإنسان. إلا أنها جميعاً لا تملك أي قدرات عقلية أو معرفة لتطوير حياتها، كما إنها لا تسير إلى هدف أو غاية في حياتها. فهي تأكل وتتوالد وتتعلم بشكل غريزي ولا تضيف أي جديد يذكر إلى معارفها مما يدل بأنها لا تختلف في حقيقتها عن النبات إلا في قدرتها على الحركة للبحث عما يلبي غرائزها، ضمن برنامج محدد يتوارثه الأبناء عن الآباء.

ولا مجال للمقارنة بين عقل الإنسان وما تملكه أرقى الحيوانات من العقل. ولهذا كان الإنسان هو الأرفع بين المخلوقات، وكان على الصورة الإلهية من حيث الجوهر، لا من حيث الصورة المادية. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته وفي لفظ على صورة الرحمن" (١). وجاء في القرآن **[لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم]** (٢). وإن جمال صورة الإنسان واعتدال قواه ليس له مثيل. ولكن جمال الصور الإنسانية لا يرفعها أو يحفظها إلا العقل. ولهذا كان العقل هو الأمر الناهي في مملكة الإنسان، وبه حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان **[إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً]** (٣). وذلك بتضييعه للأمانة لمن أضعها. والأمانة هي طاعة الله ومعرفته بالعقل، بما أعطي الإنسان من حرية الاختيار ليسلك طريق الخير أو الشر، طريق المعرفة، أو الجهل. وقد مر معنا تفسير ابن عباس لكلمة "يعبدون" في آية **[وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون]** فقال ليعرفون. لأن عظمة الصانع المبدع لا تظهر إلا للعالم المتقهم لدقة صنع المخلوقات، كما إن الجمال لا يظهر إلا لمتذوق الجمال. ولما كان الله لا يعرف إلا بالمخلوقات كدليل على عظمة صنعه وكماله، لهذا فإن الناس يتفاوتون في معرفتهم وعبادتهم لله بكمال معرفتهم لخلقه. لهذا كانت أول كلمة بدأ بها الوحي "اقرأ" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "ويل لمن لا يعلم، وويل لمن علم ثم لا يعمل" (٤). والعلم هو الجوهر المكنون الذي أعطي أزلاً للإنسان ليحمل الأمانة بقول الله **[وعلم آدم الأسماء كلها]** (٥). ولا يعقل أن يعطي الله الأمانة لمخلوق لا يقدر على حملها. إن الإنسان لا يفعل هذا. فالمهندس لا يكلف إلا مهندساً لينوب عنه في غيابه. فكيف سيوكل الله الأمانة لمخلوق لا يقدر على حملها؟. **[ألا يعلم من خلق وهو اللطيف**

الخبير [٦]. فالإمكانية موجودة في الإنسان، ولكن الأمانة الموهوبة للإنسان يتفاوت الناس في حملها تبعاً لأحوالهم وظروفهم. لهذا كان الثواب والعقاب، وكانت الموازين الكثيرة ليوم الحساب تبعاً لظروف الناس وأعمالهم **[ونضع الموازين القسط ليوم القيامة]** [٧] فالعطاء الإلهي المعرفي المعطى للإنسان لكي يعرف الله، ويعرف الحق، معطى لهذه الغاية، لشهود الكمال والجمال بالعقل الحاكم في مملكة الإنسان. ولهذا تفاوت الناس في استخراج كنزهم المكنون في العقول، وتفاوتت مكانتهم في الدنيا والآخرة لهذا السبب. لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أعد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبباً ولا تكن الخامس فتهلك" [٨]. وقال "دين المرء عقله، ومن لا عقل له لا دين له" [٩]. وقال "ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى" [١٠]. والعقل كطاقة في الإنسان من مزاياها أنه لا يشبع من العلوم ولا تحده الحدود، لهذا كان العقل هو الرسول بين الإنسان والخالق. فهو القادر على الطواف في مملكة الوجود، وسماع ما لا تسمعه الأذن، ورؤية ما لا تراه العيون لشهود عظمة الرحمن. لهذا يتعرض العقل للعذاب كلما زاع الإنسان عن الطريق المستقيم في الدنيا بلوم اللائمين وغضبهم، وفي الآخرة بالقصاص العادل لما عمله الإنسان. وإن الإنسان في الدنيا لا يشعر بهول العذاب أو ضيق السجن لو فقد عقله. والعقل المخدر لا يشعر بألم سكاكين الأطباء التي تعمل في الجسد. وعند التخدير الموضعي لا تشعر المنطقة المخدرة التي انقطع اتصالها بالدماغ بمباضع الجراحين. وقد جاء في الحديث "عندما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل. ثم قال له: أدير فأدير. ثم قال له: أقعد فقعد. ثم قال له: أنطق فنطق. ثم قال له: أصمت فصمت. فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، ولا أكرم، بك أعرف، وبك أحمد، وبك أطاع، وبك آخذ، وبك أعطي، وإياك أعاتب، ولك الثواب، عليك العقاب، وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر" [١١].

فالعقل هو تاج الإنسان الذي يرتقي به في درجات المعرفة ليعرف نفسه وربّه. فإذا ارتقى إلى هذه المعرفة بمجاهدة النفس، والتنزه عن هموم البهائم التي لا تشغلها إلا غرائزها، فإن العقل عند ذلك سيكون قد وصل إلى أعلى درجات الحكمة وهذه حدوده التي لا يستطيع أن يتجاوزها في معرفة حقائق الوجود وحقيقة الله. فالعقل في هذه المرحلة سيكون قد شهد بالأدلة العقلية على وجود المبدع وراء كل إبداع، وبهذه المعرفة لا شك بأنه سيتوق لمعرفة المبدع. ولكن مثل هذا الطلب لا يمكن الوصول إليه إلا بطول الأمل، واليقين والانشغال بالمبدع عن الإبداع. وفي هذه المرحلة من التأمل والحب لا يملك

الإنسان القدرة على فتح باب معرفة المبدع إلا بإرادة الله. ولكن الله وعدنا بهذه المعرفة فقال: **[والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا]** (١٢). وقال **[واتقوا الله ويعلمكم الله]** (١٣). وهذا وعد من الله. فالمشغول بالله بعد أن حيرته حقائق الوجود وصوره، والطامح إلى رب الكون بعد أن هز جمال التكوين فؤاده، سيذوب في عشقه، ويصرخ في ليله ونهاره طالباً رؤية معبوده. وعند ذلك يتجلى الله له في أنوار الوجود السابحة من وراء كل موجود فيعرف الله حق المعرفة بالعلم اللدني الطائر من أشواق القلوب وحرقتها إلى نور مظهر الوجود **[الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم]** (١٤). من هم الذين سيهديهم الله إلى نوره؟ جاء الجواب في الآية التي تليها "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال. رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار" (١٥). أي إنهم في كل أحوالهم يذكرون الله ويتفكرون وإن كانوا يقومون بأعمالهم. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون" (١٦). وقد قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة لأنه كان يمكث أياماً في غار حراء ليعبد ربه "محمد عشق ربه" وقد وصف القرآن المؤمنين فقال **[والذين آمنوا أشد حبا لله]** (١٧). وبهذا الحب والعشق نال ما نال. وعلى هذا الطريق يسير الأولياء وبه يصلون. وقد جاء في الحديث "يقول الله عز وجل: إذا كان الغالب على العبد الاشتغال بي جعلت بغيته ولذته في ذكري، فإذا جعلت بغيته ولذته في ذكري عشقني وعشقتني، فإذا عشقني وعشقتني رفعت الحجاب فيما بيني وبينه، وصيرت ذلك غالباً عليه، لا يسهو إذا سها الناس. أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً، ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم" (١٨).

فالإنسان هو بالحقيقة الوحيد الذي أعطي الإمكانية لمعرفة الله، وكان الحامل لجميع الأسماء الإلهية لكي يعرف الله كما يمكن أن يعرف، وأعطي إمكانية الطاعة والعصيان لكي يعبد الله عبادة الأحرار، ويتميز بين بني الإنسان بما قدم لآخرته من الأعمال. لهذا لا يضل أهل المعرفة الذين يعلمون أن الله ينظر إليهم

من وراء كل حجاب بنوره الذي يشرق في السماوات والأرض.

ولهذا يعيش العارفون في حياء من الله أشد من حياء الإنسان من ضيفه، لأنهم يعرفون أنه معهم في كل مكان لا يفارقهم. وهم يستمدون من حقيقة حق اليقين سلوكهم. لأنهم عندما تجردوا عن المعرفة بحواسهم بارتقائهم من رؤية المفعول به إلى الفاعل، من رؤية عين اليقين إلى الحق الذي وراء كل سمع وكل بصر، وتجردوا بعقولهم عن المشاهدات بالحواس إلى مستوى إدراك العقل النافذ في حجب الأنوار برؤية العقل للفكرة بعد تجريدها من المظاهر المادية بالبرهان الكامن في العقول، بعد الاستغراق في بحر الأنوار والتسليم بالعبودية لواهب العقول، سيأتي الإمداد من الله، وعندها يصبح العارف صورة من صور الرحمن، مقيدة بأمر المحبوب. والصورة الإنسانية، في سعادة العبودية تصبح فوق الخير والشر، ناظرة إلى العطاء إن كان خيراً أو شراً، وهي تتأدي "اللهم إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي". نداء المصطفى صلى الله عليه وسلم في ظلام الليل وهو يكابد الجحود والكفر. فالعبادة طريق للوصول إلى الله في الدنيا والآخرة، وليست كما يظن الكثيرون لا تظهر نتائجها إلا في الآخرة. ولكن ثمار العبادة في الدنيا لا يشاهدها إلا الخواص، وهي في الآخرة لكل الناس للمؤمن والكافر حيث لا يبقى أي مجال للكران. ولو أيقن كل الناس بهذه الثمار فإنهم سيقطفون منها في الدنيا على قدر أعمالهم، فمنهم من يشاهد جزاء الإحسان بالإحسان، ومنهم من يشاهد رب الأكنوان. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه" (١٩) وقال موسى عليه السلام يسأل ربه "يا رب أقرب أنت فأنا جيك؟ أم بعيد فأنا ديك، فإني أحس حس صوتك ولا أراك فأين أنت؟ فقال الله: أنا خلفك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك، يا موسى أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني" (٢٠). الإنسان يسير بين موقعين من جهة الاتصال والتلقي فهو يتلقى من عقله ويستمد منه كل أفعاله وهذا العقل ينهل من علم الأسماء المحدود بالطاقات الإنسانية الموهوبة من الله أزلاً. ولكن الإنسان مؤهل أيضاً للتلقي من الله. وهذا التلقي لا يحدث إلا بعد الالتزام بالشريعة وتطهير الجسد من الذنوب، والنفس من الآثام، والنظر إلى الله طلباً للإمداد بالعبودية المطلقة له بتحليل ما أحل وتحريم ما حرم، والقيام بالنوافل التي عمل بها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد مر الحديث "كلما تقرب عبدي إلي بالنوافل تقربت إليه". والنوافل هي السنن وقيام الليل والصدقات والرحمة بجميع المخلوقات. عندها تشرق الأنوار في الحواس، ويزهو العقل بنور ربه على الدوام، وإن غفل أوسها في بعض الأحيان. فالإنسان في حقيقة الأمر كنز معرفة الله، ومرآة

الوجود، والشاهد في مملكة العطاء والجود. وهو الذي يهزه الإبداع والطرب، فينادي من الذهول يا رب الوجود في لحظات الشوق. فيقول له الله، لبيك عبدي وسعديك. والمخلوقات مجبورة ليس لها اختيار، ولهذا فهي بمنزلة الشمس والقمر كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم، قيل يا رسول الله: ولا الملائكة؟ قال: ولا الملائكة، لأن الملائكة هم مجبورون بمنزلة الشمس والقمر" (٢١). وجاء في الحديث "إن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويركبون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقتهم بيدي كمن قلت له: كن فكان" (٢٢).

فسبحان من سخر السموات والأرض للإنسان، وسخر الجسم للعقل ليدرك من هو نور السموات والأرض، بنور الإنسان، وسبحان مدبر الوجود بالتسخير والرحمة ليظهر فضل السماء والأرض. قال الرسول صلى الله عليه وسلم "تحفظوا من الأرض، فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به" (٢٣). ولهذا أمرنا بالسجود عليها لتشهد لنا بالوفاء، فهي الأم التي تمنحنا الغذاء والجسم. والشمس والقمر دائران لإنضاج الثمار فهما بمنزلة الآباء بجريهم لتدبير معيشة الأبناء. فسبحان من اختفى في حجب الأسباب، فلم يعرف إلا بأنوار العقول. والناس كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله قبل كل شيء، فما كان قبل الله، فإن قالوا لكم ذلك، فقولوا: هو الأول قبل كل شيء. وهو الآخر فليس بعده شيء. وهو الظاهر فوق كل شيء. وهو بكل شيء عليم" (٢٤). فسبحان من لا يعرف إلا بأنوار العقول، وإن كان في كل صورة له ظهور. فهو في الماء صورة الحياة، وفي السماء جمال يدعو إلى الذهول. فهي أسماء وعروش والله بكل شيء محيط، وهي ألواح للكتابة، والقلم يكتب ما كان وما سيكون بإمداد حبر النون الذي يجري بين شواطئ الأزل والأبد بأمر من يكون. والإنسان ماض شاء أو أبى من حال إلى حال، من أرض الامتحان إلى أنوار الجمال، أو نار الجلال. **[يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه]** (٢٥). وعلى الإنسان أن يختار فيما أعطي من حرية للاختيار. فالحرية نعمة للإنسان ومسئولية ليصح عليه الامتحان، وهو بلاء لمن لم يهتد بعقله إلى الإسلام والإيمان.

الأقدار وحرية الاختيار

أردنا أن نضيف إلى بحثنا بعض الملاحظات حول هذه المسألة الشائكة من المسائل التي اختلف حولها الفقهاء وهي مسألة القدر. لقد انقسم الفقهاء في هذه المسألة إلى ثلاث فرق. فريق قالوا بالقدر السابق المطلق على الإنسان مما يلغي حرية الإنسان. وفريق قالوا بحرية الإنسان المطلقة. وفريق ثالث أعطى للأقدار دورها، وللإنسان دوره. وكل فريق استند إلى براهين وأدلة من القرآن والحديث، ترجح ما ذهب إليه وما فهمه من الشريعة، مما أدى إلى وضع كل مسلم في مجابهة مشكلة لا يطمئن إلى تفسيرها أو الإجابة عنها إجابة صحيحة. وإن هذه المشكلة وإن كانت تستحق بحثاً مستقلاً لتوضيح آراء الفقهاء بشكل مفصل، إلا أننا آثرنا تجنباً للإطالة أن نعلق بشكل مختصر على هذه المشكلة لخطورتها في حياة المسلمين. وقد رأينا أن جميع الفرقاء قد أصابوا إلى هذا الحد أو ذاك، إلا أننا بحاجة لتأمل أكثر عمقاً لفهم مسألة القدر بخيره وشره. وقد ورد في صحيح الحديث "إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل" (١). وجاء في حديث آخر "لما خلق الله آدم ضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر، ثم ضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي" (٢).

وهذه الأحاديث لا تتعارض مع حقيقة الحرية المعطاة للإنسان من الله. فالنور الإلهي ألقى على الجميع ليهتدوا، ومن لم يصبه ذلك النور بسبب عدم قابليته كان من أصحاب الشمال. وهذا شبيه بما ورد في الآية [من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً] (٣). فسر البذرة المكنون حكم في عالم الظهور، وسر البذرة مرتبط بالأسباب وطهارة الأصلاب. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه "ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي. فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً" (٤). وقال "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (٥). وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به" (٦). لهذا حينما أخذ الحسين وهو طفل صغير ثمرة من تمر الصدقة أخرجها الرسول صلى الله عليه وسلم من فمه مع أنه كان بإمكانه أن يؤدي بدلاً منها. إلا أنه لعلمه بتأثير لقمة لا تحل لآل بيته أبي

أن يسمح لابن ابنته الذي يقول عنه وعن الحسن "هما ریحانتای من الدنیا" (٧).
أبی أن یسمح له بمضغ هذه اللقمة حباً بالحسین وشفقة علیه لمعرفته بضرر هذه
التمرة. فالأقدار لها أسباب. وعالم الأصلاب یؤثر فی الإنسان كما نشاهد آثاره فی
عالم النبات والحووان. ولهذا فإن كل وارث سیرث من أبویه إضافة لتركتهما ما
نبت منه الجسم، وتأثر به العقل. لهذا كما أن الآباء إذا كانوا فقراء یورثون فقرهم
لأبنائهم، كذلك فإن الأفكار والمعتقدات تنتقل إلى الولید بحكم المجالسة
والمعايشة، كما یساهم الغذاء إن كل حلالاً أو حراماً فی بنية الابن. ولهذا حرم
الإسلام من الرضاع ما حرمه النسب، لأن حلیب الأم المرضع ینسبهم فی بناء
جسم الطفل الرضيع. لهذا قال الرسول صلی الله علیه وسلم "تزوجوا فی الحجز
(أي الأصل) الصالح، فإن العرق دساس" (٨).

وقال "تخیروا لنطفکم فإن النساء یلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن" (٩). وقال
"یاکم وخضرء الدمن! قیل یا نبی الله! وما خضرء الدمن؟. قال: المرأة الحسناء
فی المنبت السوء" (١٠). ولكن هل ینتفع الإنسان أن یتزوج مثلاً امرأة لیس له
فی زواجها نصیب؟. هنا یجب أن نتأمل طبیعة علم الله. فعلم الله هو علم سابق
لما سیفعله الإنسان. وهذا لا یتعارض مع ما کتب القلم بما سیکون وما هو کائن
على الإنسان لأنه علم مستمد من علم الله المسبق بالإنسان. **[ألا یعلم من خلق
وهو اللطیف الخبیر]** (١١). فهذا من علم الخبیر ولیس من علم التقدير. وعلم
الخبیر هو علم بحقیقة الوجود بما هو علیه، وبما فیهِ، أما علم التقدير فهو علم
سابق على الخلق، علم الفکر بما ستکون علیه الأشياء قبل أن تكون وهو من
القدرة ومن علم التقدير **[وزینا السماء الدنیا بمصابیح وحفظاً ذلك تقدير
العزیز العلیم]** (١٢). ومنه **[هو الـذی جعل
الشمس ضیاء والقمر نوراً وقدره منازل]** (١٣). ومنه **[وخلق کل شیء فقدره
تقدیراً]** (١٤). ومن هذا العلم ما جاء عن الغذاء المقدر فی الأرض للمخلوقات
[وقدر فیها أقواتها فی أربعة أيام سواء للسائلین] (١٥). وهذا علم لله. أما
علم الخبرة فقد تحدث فیهِ المشاركة. ومن هذا العلم علمت الملائكة بما سیقترفه
الإنسان على الأرض فقالت **[واذ قال ربك للملائكة إني جاعل فی الأرض
خلیفة قالوا أتجعل فیها من یفسد فیها ویسفک الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك]** (١٦). ومن أسماء الله الحسنی الخبیر والقادر فعلم الخبرة علم،
نعرف بواسطته أن الغیوم تبشر بالمطر، والشتاء سیتبعه الربیع من تسلسل
الفصول وهو علم خبرة عن اختبار وتجربة ومعرفة بطبیعة وحقیقة الشیء بعد أن

يكون، وإن كان من طبيعة القدرة وحقيقتها المعرفة بحقيقة المصنوع وماهيته والغاية منه قبل أن يصنع. فالحقائق بالنسبة للقادر متجلية كلها في وقت واحد، وللعاقل غير القادر تتجلى بالتجربة والبرهان بعد الوجود. والقدرة تحدث بأسبابها، وإن كانت قدرة الله لا تتوقف على المسببات التي نعرفها. ولكن الأزمان جارية لحدوث الأقدار بمسبباتها القادرة على إحداثها سواء بكلمة "كن" أو ما تقتضيه لحصول المطلوب. وقد جاء في الحديث "إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم" (١٧). فالإنسان العاقل العارف بخطورة أمر لا يخطئ بارتكاب ما يناقض علمه ومعرفته. ولكن إذا أراد الله وقوع المقدر، أوقع النسيان أو الإهمال لوقوع القضاء بالأسباب. فالنظام شامل للكون، والأقدار تحدث عند وقوع أسبابها.

لهذا حذر الإسلام من التواكل. وأمر بالعمل والجهاد وقال الله محذراً الإنسان من تبرير ما يقترفه من الشر **[أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون]** (١٨). والآيات التي تحذر الإنسان من تبرير ما يقترفه من الشر بإزادته، برد أخطائه إلى القضاء أو القدر السابق على حياة الإنسان كثيرة، مع أن الحكم لم يصدر على الإنسان فيما هو حرفيه إلا من أعماله. وقد رأينا كيف أعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن بعض ما سيقع إلى قيام الساعة. وقد جاء في القرآن في معرض رد الله على اليهود الذين كانوا ينسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصيبهم من البلاء **[وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عن الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً]** (). ثم أجاب الله على كلامهم في الآية التالية مبيناً سبب البلاء الذي كان يصيبهم بذنوبهم فقال **[ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً]** (١٩). فالله ليس عنده إلا الخير للإنسان. ولكن الميزان الحاكم على الأعمال في الدنيا والآخرة اقتضى الثواب والعقاب بحسب الأعمال. فأقدار الإنسان هي بيده إلا ما شاء الله. وإذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب. ولهذا أعفى الفقير من الزكاة، والمريض من الصوم. ومن يقول بأن جميع الأعمال مقدره أزلماً من الله وحاكمة على الإنسان، فعليه أن يلغي الثواب والعقاب والجنة والنار، لأن المؤمن سيكون قد خلق مؤمناً بمشيئة الله، والكافر خلق كافراً بقضاء الله.

وقد جاء في الحديث الشريف "يقول الله تعالى: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل

نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبعضمتي وتوفيقني وعونني وعافيتي أدبت إلي فرائضي، فأنا أولى بإحسانك منك، وأنت أولى بذنبك مني، فالخير مني إليك بدأً، والشر مني إليك بما جنيت جرى، ورضيت منك لنفسي ما رضيت لنفسك مني" (٢٠). لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل بيته "ألا إن أوليائي منكم ليسوا بني فلان، ولكن أوليائي منكم المتقون، من كانوا وحيث كانوا" (٢١). وقال لابن عمر بن الخطاب "يا ابن عمر لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل، فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم. يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ. خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين قالوا" (٢٢). ولهذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم الإنسان من الطمع في حلم الله. فقال "النادم ينتظر الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، وكل عامل سيقدم على ما أسلف عند موته، فإن ملاك الأعمال بخواتيمها، والليل والنهار مطيتان فاركبوهما بلاغاً إلى الآخرة، وإياكم والتسوية بالتوبة والغرة بحلم الله. واعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (٢٣). وقد قال الله في آيات كثيرة [إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر] (٢٤). وقال [ويريد الله أن يحقق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين] (٢٥). وقال [إن الله لا يحب كل خوان كفور] (٢٦). والآيات التي تدل على كراهية الله للكافرين وإنذارهم بأنواع العذاب كثيرة. وهذا يضعنا أمام مسائل لا جدال فيها. فإما إن الله لا يقدر على هداية الكافرين، وهذا مناف لقدرة الله. وهو الذي قال [قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين] (٢٧). أو إن الله ترك الناس لاختيارهم ليصح الحكم عليهم بما قدموا مع علمه المسبق بأعمالهم. فقال الله [ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين. وهديناه النجدين] (٢٨). عينين لينظر بهما إلى خلق الله، وينطق بالحق، وأعطيناه معرفة طريق الخير والشر. وقال: [إننا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] (٢٩). ليختار بين الإيمان والكفر وقال عن قوم ثمود وقد أحب الله لهم الهداية كما أحبها لكل خلقه [وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى] (٣٠). وقال عن بني إسرائيل ودعوة موسى عليه السلام إلى الإيمان [وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين] (٣١).

والأسباب لغضب الله عليهم "فلما زاغوا".

فالإنسان الذي يملك العقل هو الحاكم على نفسه، بمشيئته المستمدة من مشيئة الله بحرية الطاعة والعصيان، والشكر والكفر، وهي التي ستقرر اختياره وأعماله. فالاختيار معطى للإنسان أولاً من الله لكي يصح الحكم العادل عليه بالثواب أو العقاب. وقد أوضح الله أنه خلق الشياطين لتضليل الناس، وأرسل الرسل للهداية. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" (٣٢). فهو في جسم الإنسان وفي غرائزه التي تدعوه إلى الفسق والفجور. وفي هذا الصراع الدائر بين العقل والغرائز سيقدر الإنسان مصيره ومآله. فإذا حكم الأستاذ على طالب بأنه سيرسب في الامتحان قبل وقوع الامتحان بسبب تقصيره وإهماله لدروسه، فهذا حكم خبرة عن اختبار، لا حكم قضاء وقدر. والقدر جاء في هذه الحالة من التقدير الذي صدر عنه القضاء بما يوافق أعمال المحكوم. ولكن قراءة نصوص القرآن أو الأحاديث تحتاج إلى تأمل أعمق بكثير مما يفعله بعض الفقهاء. فالناظر إلى الأمر الإلهي من حيث شموله للكون بما شاء فإنه لا يرى غير الله. ولذلك عند هذا النظر لا نرى غير الله كمسبب للأسباب وهذه مسألة دقيقة لا يفتن إليها كل إنسان. فالأصل هو الله. ولكن الله بمشيئته أعطى الحرية للإنسان فصار الإنسان حراً. فحرية الإنسان أيضاً من مشيئة الله. ولو أراد لم يعط الحرية للكافر فأمن. عند هذا النظر نكون قد خالفنا منطق العقل ونص القرآن. فالله لا يحب لعباده الكفر، ولكنهم كفروا بالحرية التي أعطيت لهم. فهي حرية وليست رغبة في الكفر. وقد ضرب الله مثلاً لمن يكفر وينسب كفره لله. فقال عن الذين عبدوا الملائكة وقالوا عنهم إنهم بنات الله: **[وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون]** () ثم ختم الله القول بعد أن ضرب الأمثال بأحكام الضالين وضلالهم **[فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين]** (٣٣). إن مثل الضالين يشبه من ارتكب جريمة، فلما أودع السجن وسأله القاضي لماذا ارتكبت الجريمة أجابه. أنتم المسؤولون لأنكم أعطيتموني الحرية، ولو أنكم وضعتوني في السجن قبل أن ارتكب الجريمة لما ارتكبتها. وهذا منطق صحيح ومغلوط في نفس الوقت. فهو ينسب إلى من أعطاه الحرية الذنب وليس إلى نفسه وضلاله. فهو منطق تبرير كما لو قال آخر. لو كنت بدون معدة لما احتجت إلى السرقة. ولهذا فإن من خلق لي المعدة فهو المسؤول. وقس ذرائع الضالين على هذا المقياس. نعم إن الحرية من أسباب الضلال وليست مبرراً للضلال. وإذا كانت البذرة

محكومة بعوامل كثيرة لا تحصى، فإن الإنسان العاقل يستطيع أن يتخلص من بعض عوامل الوراثة التي انتقلت إليه من الأبوين. فغير المسلم يستطيع أن يصبح مسلماً. ويستطيع دون أن يصبح مسلماً، أن يعمل بالرحمة بالخلق ليكون من المرحومين، فالراحمون يرحمهم الله. ويستطيع من ورث ما لاً حراماً أن ينفقه في سبيل الله حتى ينال رضا الله. كما يستطيع المولود من أبوين فقيرين أن يكافح ليكون من الأغنياء. فالوارث لا يرث من أبويه المال فقط بل العلم، والخبرة والتقاليد والعادات والدين والحلال والحرام. وكل هذه التركة ستحكم على الوارث بما يحكم فيها.

وهذه بعض ثمار الوراثة، وحتى جسمه قد يكون شب من لقمة الحرام دون إرادته فأورده أبواه موارد الهلاك. وكلما كان الإرث ثقيلاً سيكون على الوارث أن يكافح أكثر ليتخلص مما نقله إليه أبواه من الأمراض. ومن كان أبواه صالحين فإن إرثه سيساعده إن شاء على الصلاح، رغم أنه قد يضل حينما يخالف عهدهما فتحكم عليه ذنوبه في الدنيا والآخرة كما حكمت على ابن نوح عليه السلام بالغرق عندما رفض دعوة أبيه للصعود معه إلى السفينة لينجو من الطوفان. ولكي لا يفهم من كلامنا أننا نقول بحرية الإنسان المطلقة، وهذا ما لا يقول به عاقل، لأن الإنسان لا يولد ولا يموت باختياره، كما إنه لا يختار أبويه بمشيئته. والأشياء التي لا تحكم له فيها كثيرة. فإننا لا نتحدث عما لا حكم للإنسان في أمره، ولكننا قصدنا حرية الاختيار للإنسان فيما يملك أن يختار فيه. فهذه مسؤوليته التي سيحاسب عليها بعدل الله، لا برضاه، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر كما مر معنا، ولا يرضى لعباده العذاب، وهو أرحم الراحمين، ولكنه سيحكم عليهم بعد له، ولهذا وضع الموازين القسط ليوم القيامة، فهي موازين. فليس السارق إن كان وزيراً كالفقير. وليس غير المسلم الذي اهتدى كالمسلم الذي نشأ في بيت صالح ثم ضل. وليس الحكم على الجاهل كالحكم على العالم. وكل إنسان ستكون جنته من علمه، وناره من علمه، فنحن مسؤولون فيما نستطيع التصرف فيه، بما نلناه من الحرية المحدودة في عالمنا الواسع. ونحن غير مسؤولين فيما لا حكم لنا عليه أو فيه. ولهذا قال العلماء الحكماء "إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" (٣٤). وقال الله [لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت] (٣٥). فالمسؤولية تتناسب مع القدرة والاستطاعة ومعرفة الحلال والحرام.

والله لا يعذر الإنسان على الجهل لأن من واجبه أن يعرف الحلال والحرام ما دام قد أوتي العقل، ولا يترك معرفة ما أباحه الله لعباده وما حرمه إلا مستهتر بالحلال والحرام، لا يهمله من أين أصاب النجاح في الدنيا. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "قلب ليس فيه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعلموا وعلموا وتفقهاوا ولا تموتوا جهالاً، فإن الله لا يعذر على الجهل" (٣٦). وجاء في الحديث عن أبي ذر "قال الله تعالى: يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا... يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه". (٣٧). العاقل لا يفعل إلا الخير بعقله المعطى له من الله. والمؤمن يفعل الخير ويشكر الله على نعمة العقل لأنه على يقين بأنه لولا فضل معطي العقول، ومرسل الرسول لما اهتدى، ولهذا فهو لا ينسب لنفسه شيئاً من أعمال الخير، بل ينسبها إلى الله أدباً معه، وإن أخطأ فهو ينسب الخطأ إلى نفسه ويسأل الله العفو والمغفرة. أما الضال فإنه يتذرع بالحجج الواهية لتبرير فساده وضلاله، وربما يجادل بكتاب الله والأحاديث لتبرير هذا الضلال. وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس في آخر الزمان التي تمشي في الطرق فقال " لا تقوم الساعة حتى يمشي إبليس في الطرق والأسواق يتشبه بالعلماء يقول: حدثني فلان بن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا" (٣٨). وقال "انظروا من تجالسون وعمن تأخذون دينكم فإن الشياطين يتصورون في آخر الزمان في صور الرجال فيقولون حدثنا وأخبرنا" (٣٩).

وقد جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فذكرنا الدجال فاستيقظ محمراً وجهه. فقال: غير الدجال أخوف عندي عليكم من الدجال، أئمة مضلون" (٤٠). فإذا كان الدجال سيفعل ما لا تفعله الشياطين، فكم سيفعل الأئمة المضلون بالناس، فهل سيبقى من دور للشياطين إذا هجرت الأخلاق والقيم، وصارت المعدة شعاراً، والعورة كنزاً للبيع، والمال إلهاً يعبد.

إننا للتأمل والمقارنة بين ما يجري في زماننا، وبين أخلاق المسلمين نسوق هاتين القصتين.

لقد كان أبو العاص بن الربيع قد تزوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام وعندما ظهر الإسلام آمنت زينب رضي الله عنها وبقي أبو العاص على كفره ففرق الإسلام بينهما وهاجرت زينب رضي الله عنها إلى

المدينة. وذات مرة ذهب أبو العاص بتجارة إلى الشام بأمواله وأموال لقريش. وأثناء عودته صادفته سرية للمسلمين فهاجمته واستولت على أمواله، بينما فر أبو العاص حتى وصل إلى بيت زينب رضي الله عنها في المدينة، فدخل عليها مستجيراً بها لإعادة أمواله فأجارته. وصرخت وكان الوقت عند صلاة الصبح "إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! هل سمعتم ما سمعت؟. قالوا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت. إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته، فقال: أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له.. ثم.. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به. فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه.. ثم احتمله إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله،... ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟. قالوا: لا. فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيماً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وإن محمداً عبده ورسوله.

والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفي أن تظنوا أنني أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم... فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب على النكاح الأول لم يحدث شيئاً بعد ست سنين... "(٤١) وقد ذكر أنه قيل لأبي العاص "هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين؟. فقال: بنس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي" (٤٢). هذه أخلاق رجل قبل أن يعلن إسلامه أباي أن يخون الناس فيما اتتمنوه عليه. وأبى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفرض على المسلمين أن يردوا عليه أمواله إلا بطيب نفس منهم، لأن ما أحله الله أو حرمه لا يبيحه أي إنسان ولو كان الرسول، وقد كان القرآن قد أحل للمسلمين أموال مشركي مكة بالغزو لا بالخيانة والغدر.

القصة الثانية: إن الأسود الراعي كان إجيراً لرجل من اليهود، وكان يرعى له الغنم، وقد أتى للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء حصاره لحصن من حصون خيبر ومعه غنم اليهودي فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله أعرض علي الإسلام. فعرضه عليه، فأسلم. فلما أسلم قال: يا رسول الله إني كنت أجيراً

لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟. قال: اضرب في وجوهها، فإنها سترجع إلى ربها... فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فو الله لا أصحبك أبداً، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن. ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله" (٤٣). وهذه القصة تدلنا على سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحاصر أصحاب الحصن، فقد أبى أن يصادر هذه الأغنام. وأمر الراعي برد الأمانة الموكلة إليه لأصحابها. فكيف بمن يخون الناس الذين انتمنوه، ويسعى إلى أكل أموالهم بالباطل، وقد لا يتورع عن استخدام الدين لخداع الناس، بارتداء ثياب التقوى، والظهور بمظاهر الشيوخ. وقد جاء في الحديث "علم الله تعالى آدم ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذريتك. إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف، ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً. ويل لمن طلب الدنيا بالدين. ويل له" (٤٤).

ماذا نقول إذا كثرت الفتن، وكثرت الكتب.. والتفسيرات، فهل يخرج المسلمون مما هم فيه إلا بالعودة لما أمر الله.. أفلا يعقلون.. أفلا يسمعون.. أفلا ينظرون...

[كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون] (البقرة- الآية ٢٤٢) **[كذلك** **نفسل الآيات نقوم يعقلون]** (الروم- الآية ٢٨) **[إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون]** (الأنفال- الآية ٢٢) **[أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون]** (البقرة- ٤٤) **[ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون]** (يونس- الآية ١٠٠) **[أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون]** (يونس- الآية ٤٢) **وصدق الله العظيم. الذي خلق ما شاء، وكرم أبناء آدم بما شاء، وقضى بمشيئته حرية الإنسان وقال "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان".**

لقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً لأصحابه موضحاً "أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك والآخر يصدقك ولا يخونك، أيهما أحب إليك؟. فكذاك أنتم عند ربكم" (٤٥).

طاعة الله والعمل بشريعته واجبة بما أعطانا من الملك. [وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون] (٤٦). **ولكن الضالين [فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء]** (٤٧). **وإذا صارت الغرائز والأهواء**

هي التي تقود الإنسان فما يفيد السمع والبصر المطيعان بالاستماع والنظر إلى الحلال والحرام **[فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور]** (٤٨). وقلب الشيء حقيقته. وحقيقة الإنسان عقله. فهو السلطان، والجسم رعاياه تابعة له، وقائمة بأمره. فإذا فسد السلطان، وضعف وصارت رعاياه هي الحكام، فهل سيكون مصير المملكة المشغولة بالبحث عن المتع في الطعام والشراب، واللهو مع النساء، غير الخراب؟. لينظر الإنسان إلى ترتيب قواه، ففي هذا الترتيب آية من الآيات. وليتبع هذا الترتيب في الحكم ليكون من الخلافة بمكان. فالعقل هو التاج وهو في الرأس موضع الميزان. ثم يتلوه في المكانة والمكان السمع لأنه موضع استقبال العلوم. ثم يتلوه البصر لشهود آيات الإبداع في الأكوان. وبعد البصر حاسة الشم لتمييز الطيبات من الخبائث وتزويد الجسم بنبض الحياة، ثم يتلوه الفم وهو الناطق بأحكام العقل وترجمان الحواس، والخبير بطيبات الشراب والطعام. ثم تتلوه حاسة اللمس المجسدة في اليدين، وإن كانت آثارها بالجسم في كل مكان. ثم تتلو ذلك قوى الهبوط في الإنسان، فالمعدة مكان الغذاء وبيت الداء. ومن انشغل بها وجعلها السلطان في مملكته صار من صنف الدواب. وبعدها تأتي العورة في الطغيان بسحرها القوي كالشيطان. ومن شغلته عن مملكته صار تاجه بين رجليه، وخسر الدنيا بارتكاب أفعال لا تفعلها الدواب. **[أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً]** (٤٩)

لهذا "كن عالماً" لتكون الحاكم الصالح في رعيته لتصح لك الخلافة بالعقل. "أو متعلماً" لتعد نفسك للخلافة بالترقي من مقام السمع والنظر إلى مقام العقل، أو "محباً" للعقلاء فتستفيد من مجالستهم بالنصح لك والاستمداد من مقام العقل، "ولا تكن الخامس فتهلك" بتخليك عن تاجك والانشغال بهواك، بالوقوف إلى جانب الصعاليك من قواك، فتخسر إنسانيتك وخلافتك وتصبح "كالأنعام" إن كان همك معدتك، و "بل أضل سبيلاً" إن أصغيت إلى طلبات العورة ورغباتها التي ستوردك موارد الانحطاط والهلاك. لهذا أمرنا الله بالعدل في الرعية بإعطاء كل ذي حق حقه بتقدير الخليفة "العقل" للعقلاء، أو إتباع العقلاء للحكماء، إذا كانت عقولنا لم تصل إلى مستوى الخلفاء. والخلفاء هم الرسل، وفي غيابهم، شريعتهم، ومن سار على نهجهم. فهذه خلافة الله للإنسان. وأما خلافة الشيطان فإنها تسير بطريق عكسي، حيث تبدأ من الغرائز، ويصبح التاج للأبدان. ويصبح العقل الكريم خادماً في إمارة الصبيان، فالخلافة حق بالاختيار والأعمال، بتتويج العقل في مملكة الإنسان. وهي

كفاح في لجة الأقدار، بتزكية النفوس، وتطهير الأبدان، والنظر إلى المعطي بثوب الجلال والإكرام، حتى يأتي العطاء، ويظهر الأنس، فتسجد النفس عن رضى واختيار، بعد طرد شيطان الغواية في ظلال نور الأنوار وتقول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا أتى علي يوم لا ازداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم" (٥٠). والعقول لا تشبع مثل الأبدان من شهود آيات الأنس والجمال ولهذا تطلب المزيد، وهي تسبح في أنوار السماوات والأرض. فتتسى النساء والطعام، وتعيش في ذكر الملك الرحمن، حتى تصير في مواقع القرب، فتشهد بالسمع والبصر ما لا أذن سمعت، ولا عين رأيت، ولا خطر على قلب. فينطق اللسان بالذكر والشكر عن شهود وتحقيق، فإذا كان العبد عبداً، والرب رباً فمن أين الخلافة للعبد بدون رضى الرب. و "من عرف نفسه عرف ربه". من عرف نفسه بالعبودية صار قلبه إناء للخلافة. والخلافة أنوار لشهود الجمال في السماء والأرض، وقلب الخليفة ينظر إلى الإبداع في الأكوان. ويقول. إنها الدنيا وهذا الجمال. وأنت تطارد المستحيل. تظماً إن شربت، وتشرب إن ظمأت، وتظل في يدك خيال. والعقل لا تحده الحدود فكيف سيعرف عقل الإنسان عقل الوجود، وهو فرع منه وتابع له؟. سئل الرسول صلى الله عليه وسلم "قيم العمل؟. قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له" (٥١). فانظر إلى نفسك وأعمالك لتعرف من أي فريق أنت. وإذا كنا لا نعرف سر الأقدار، ولا نعرف ما كتبه القلم علينا، فهل يصح أن ندعي بأننا نضل بسبب أحكام سابقة خطها القضاء مع أننا لا نشاهد مانعاً يمنعنا من إتباع طريق الصلاح والخير؟.. أن يعرف الله حقيقة الإنسان فهذا حق، ولكن أن ندعي بأننا نعرف علم الله فينا وما خطه القدر السابق علينا فهذا هو الباطل الذي يجادل به كل ضال في فهمه لحقيقة القضاء والقدر لتبرير أخطائه. ولو شاء الله ما حدث الضلال، وهوذا لا يعنني أنني شـاء

[تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور] (٥٢) فالحياة ابتلاء وامتحان للإنسان. ولكن حباً بالإنسان ورحمة به أرسل الله الرسل لهداية الناس وإرشادهم إلى الطريق المستقيم لأن **[الله يدعو إلى دار السلام]** (٥٣).

ويدعو عباده إلى الجنة ولهذا نصح المؤمنين بأن لا يتزوجوا المشركين أو المشركات أخذاً بالأسباب، وما يؤدي إليه التعايش مع المشركين لأن الله يدعو الناس إلى الجنة **[ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير**

من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون] (٥٤). كل طالب يسعى إلى مطلوبه لتحصيله، فمن سعى إلى الله سيجده أقرب إليه مما يظن [وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون] (٥٥). أي بيان أفصح من هذا البيان. ولكن ماذا يفيد دعاء الصم إذا عميت القلوب، وفسدت النوايا، فما فائدة الوحي والرسول لهؤلاء الناس. [قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون] (٥٦). لهذا كانت خلافة الإنسان في الأرض عن اختيار وإيمان وعبودية بطاعة الله فيما أمر، وتنصيب العقل في مركز السلطان من الجسم. أما خلافة الشيطان فإنها تأتي نتيجة للأهواء، وعجز الإنسان عن الوصول إلى طور الرجولة بالتحكم في غرائزه والسيطرة عليها بالعقل. والإنسان يظل في هذه الحالة مثل الطفل الذي توجهه أهواؤه بدون تقدير للخير أو الشر لهذا فهو محتاج إلى الرعاية الدائمة. وهذا الوضع قد يسود في مجتمعات بأكملها كما يسود في الأفراد. لهذا كان من إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علامات الساعة أن تكون الإمارة للصبيان "وكانت إمارة الصبيان... ويكثر أولاد الزنا" (٥٢) فإمارة الصبيان لا تعني صغر السن بقدر ما تعني صغراً في العقل، ورب كبير بالسن، صغير بالعقل بإتباعه لأهوائه وغرائزه. وإذا صار الحاكم مشغولاً بغرائزه، وهو بمثابة الرأس من الجسد للدولة، فإن النتيجة ستكون الفساد وانتشار الفحشاء، وكثرة أولاد الزنا. وهذا ما يحدث الآن في أغلب المجتمعات، كما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ببصيرته التي لا تخطئ. ومن البديهي القول بأن من لا يكبر بعقله، لا يكبر بغرائزه. وإذا صار السباق والعلو في ممارسة الغرائز، فإن بعض الحيوانات ستكون أعلى من الإنسان بما أوتيت من الشراهة والقوة الجنسية. لهذا كانت المسؤولية مقرونة بالعقل، وحرية الاختيار فيما لم تخطه الأقدار. لأن الإنسان يسير ضمن دائرتين، دائرة الأقدار ودائرة الاختيار، وفي حدود هذه الدائرة التي يستطيع أن يتصرف فيها سيكون السؤال. لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم" (٥٣). ولا حاجة إلى التأكيد بأن العدل الإلهي يقتضي إصدار الحكم على كل إنسان على ضوء هذه الأعمال، فمن رجح بعقله وكان ميزانه على جسمه فاز في الآخرة، ومن جاء بجسمه إلى الله متفاخراً

بما أكل من الطعام، وعشق من النساء بالحرام، فإن جسمه سيكون خطباً لجهنم مع الشيطان، لأن الشيطان يجري في الأجسام.

العقل والطبيعة في الوجود

إن الطبيعة كحبر للفكر، وعجينة بين يدي العقل تقوم بدور الأسباب بارتداء الثياب التي يبدعها العقل. والطبيعة كأداة للعقل تقوم بمهمتين لحدوث الإنتاج. مهمة تكون فيها بدور الفاعل، ومهمة تكون فيها بدور المنفعل. ومن هذا التناوب بين دور الفعل والانفعال يحدث التوالد والإنتاج. وهذا قانون سائد في الطبيعة لا يتحقق أي إبداع دونه. ولا تظهر أي صورة، أو تفتى، إلا بتأثيره. ولكن الطبيعة وحدها بدون عقل يقودها، ويؤثر فيها، ويحكم عليها، لا تستطيع أن تسير بنظام حتى لو قبلنا بقدرة الطبيعة على الإنتاج بسبب عمليات التفاعل غير المنتظم. فإن إنتاج الطبيعة في تلك الحالة سيكون خاضعاً للمصادفات التي لا تتكرر إلا نادراً. وإن طبيعة عمياء لا يحكمها نظام ولا عقل لا تستطيع أن تعطي النظام الذي نراه في تفاعل عناصر الوجود، في النبات والحيوان والإنسان. كما لا تستطيع أن تكون واهبة للعقول المتجلية بعظمتها في الإنسان. فمن أين سيأتي العقل للإنسان من طبيعة لا تملك العقل. لولا النظام ما وجدت السلالات التي تنتج دائماً أنواعها بنفس النظام، ولما تكررت حركة الشمس والقمر والنجوم بنفس النظام. والأنظمة التي تعمل بها الصور الظاهرة في الوجود لا يمكن إحصاءها، لأن النظام سائد في الكون من الذرة إلى المجرة. وهذا النظام هو الذي جعل عيني الإنسان في وجهه مثلاً ولم يجعلها مرة في قدميه وأخرى في رأسه. وهو الذي جعل كل نوع من أنواع النبات يثمر بنفس الثمار دائماً بدون تغيير مع إن العناصر المغذية للنبات واحدة دائماً. فما الذي جعل الحلو حلواً والمر مرّاً، والأحمر أحمرّاً. لا يمكن أن نعدد أنواع المخلوقات بدون أن تذهلنا حقيقة الطبيعة التي تتجلى بأشكال مختلفة في كل نوع من أنواع بذور النبات، أو سلالات الحيوان، وأخيراً الإنسان. فالأرض والسماء مشرقتان بمليارات البرامج والأنظمة الراسخة التي لا تتغير لحقب طويلة. والحياة تكشف في كل لحظة عن مخلوقات لا حصر لها من البعوضة الطائرة إلى أكوان لا نعلم ما فيها من ألوان الحياة وأشكالها عبر برنامج منظم لا يتغير لحقب طويلة. فمن أين ستأتي الطبيعة لنفسها بنظام إذا كانت عمياء، وإذا كانت تتوالد نتيجة لمصادفات ومؤثرات التفاعل الذي عبرنا عنه بالفعل أو الانفعال. هل يمكن أن تطير بعوضة أو تجري سيارة بمحض الصدفة، وكل ما

في الوجود يتكون من عناصر مادية متحركة بنظام. فإذا كانت عقولنا لا تعترف بقدرة سيارة على السير بدون إرادة تحركها فكيف سنقبل بحركة الصدفة للبعوضة أو العصفور أو للمادة التي تسير وفق نظام معين في كل سلالة من السلالات لتظهر بنفس مواصفات السلالة التي تحولت فيها هذا التحول المذهل؟. إن أي متأمل لطبيعة أي بذرة مهما صغر حجمها لا بد أن يشعر بأنها عبارة عن مصنع لإنتاج المواصفات التي تحملها السلالة. هذا النظام لا مجال للمجادلة في حقيقته وإن نسبه من نسبه إلى الله أو الطبيعة. فالنظام السائد في الطبيعة يدل على إرادة التنظيم الخفية والشاملة للوجود، والسارية في كل موجود حتى لا يشذ في ظهوره بالصدفة عن حقيقته وهويته وتكوينه.

هذه حقيقة أولى غير خافية على أي إنسان عاقل.

الحقيقة الثانية إن كل مخلوق له برنامجه الخاص أو عقله الخاص الذي يعقل به وجوده ويسعى للمحافظة عليه. ولو أننا كشفنا عن جذور شجرة مثلاً سنشاهد بأنها تمد جذورها باتجاه الماء، وإذا كان الماء في جهة أكثر من جهة فإننا سنشاهد هذه الجذور أكثر وأقوى ما تكون في جهة الرطوبة. ليجرب أحدنا أن يقتل بعوضة أو أي حشرة مهما صغرت وليراقب كيف ستهرب من الخطر للمحافظة على حياتها كما يفعل الإنسان عندما يواجه خطراً، مما يؤكد لنا بأن لكل صورة من صور الطبيعة الحية، ما نعرفه وما لا نعرفه نظام أو عقل للمحافظة على بقائها بالصورة التي ظهرت فيها. وهذه الحقيقة من طبيعة نظام الكائنات الحية، وهي في الإنسان تتجلى بالعقل الذي أبدع وما زال يبدع لحماية الإنسان وإطالة أمد حياته. فمن أين جاء العقل للإنسان إذا كانت الطبيعة خالية من العقل وليس فيها آثاره. وهل يمكن لوهاب أن يعطي مما لا يملك، أو يخلق بدون علم بما يخلق؟. إذا كانت الطبيعة تملك العقل الموهوب لكل إنسان فإنه لا شك بأنها تملك من العقل أضعاف ما يملكه الإنسان وإن خفي هذا العقل على الناس. فالناس لا يعرفون حقيقة الوجود وإن عرفوا بعض مظاهره. ولكن النهر يدل على النبع، وتغريد العصفور يدل على الوهاب الذي أعطى مما لديه حتى غرد العصفور، وغنت الطيور في الغابة بمئات الألحان، ونطق البشر بأنواع الكلام. فمن هو الوهاب الذي لا يدرك إلا بالعقول؟. إن كانت الطبيعة فهذا أيضاً يضعنا أمام اعتراف بعقلانية الطبيعة، وليس هناك مشكلة إذا قال غير المؤمن بأن الطبيعة مالكة للعقل. فالطبيعة بالنسبة إليه هي الله. والله لم يقل إنه ليس الطبيعة أو إنه الطبيعة المطلقة التي ترادف الوجود عند المؤمن. فهذه مسألة

تحتاج إلى تفكير أكثر عمقاً. ولكن عند هذا الحد نكون قد توصلنا إلى حقيقة العقل السارية في الوجود كما يقول المؤمن وغير المؤمن.

وبما أن العقل شيء والطبيعة شيء آخر غير العقل، فإننا لا نستطيع أن نقول بأن الطبيعة هي نفسها العقل ولذلك لا بد من التمييز بين الطبيعة والعقل، كما نميز بين المادة والطاقة، وإن كانت الطاقة في حقيقتها ليست إلا تجلّ من تجليات المادة. ولكن الطاقة بما إنها من جنس الطبيعة لا يمكن أن تتصرف بذاتها دون عقل سار فيها.

أي إن العقل في اتصاله بالمادة وكمونه فيها، أو مفارقتها لها هو شيء آخر غير الطبيعة، وإن سرى فيها سريان الأرواح في الأجساد. ولكن إذا كان لكل كتلة مادية نظامها أو عقلها المنفصل عن الكتلة الأخرى فكيف سيبدو النظام في كون فيه ملايين المجرات والنجوم الطائفة بسرعات هائلة؟ ألا يحتاج مثل هذا الكون إلى عقل يوازيه ليتمكن من إحكام النظام عليه؟. لو أننا تركنا شارعاً من مدننا يسير فيه السائقون كيفياً مع أن لهم عقولهم، دون إشارات، وبدون شرطة للسير لقمع المخالفين، ما الذي سيحدث؟. هذا يدعونا إلى القول بأنه لا بد لكل نظام من عقل مواز لحجم النظام. فالشرطي لا يستطيع أن يضبط النظام في شارع طويل، ولهذا فإننا نضع عند كل تقاطع شرطياً أو إشارة لتنظيم المرور، ووراء هذا النظام منظم للمدينة كلها حتى لا يختل النظام في أي شارع من شوارع المدينة. وبما أن السائقين الذي يسرون في شوارع المدن من دول شتى ولغات مختلفة، لهذا ابتدع الإنسان نظاماً عالمياً للسير ليكون شاملاً للكرة الأرضية كلها. والعقل المتجلي من وراء هذا النظام يظهر بصفارة الشرطي، كما يظهر بألوان الإشارات الخضراء والحمراء والصفراء، وآلات التصوير والمخالفات للمخالفين، ودوريات المرور.. وهذا كله يعبر عن حقيقة النظام المفروض، ويكشف عن العقل المبدع للنظام. ولو فقد المنظم لسادت الفوضى. وحيث لا يوجد فوضى فالمنظم موجود. ولو اختلف النظام بين مدينة وأخرى ستحدث الفوضى أيضاً. فالنظام الموحد لا بد منه للأرض، هذا على مستوى السير. وأين الأرض من الكون؟. فهل يمكن لهذا الكون الذي لا يمكن أن نتصور حجمه حتى بالخيال أن يكون غير خاضع لنظام واحد لينظم سيره وعمله؟. هل يمكن أن يكون لكل مجرة نظامها المنفصل عن النظام الشامل للكون؟. ثم أين هذا العقل الذي لا يشهد إلا بالأثر، ولا يعرف بالنظر. هل يمكن أن يكون جزءاً من تكوين الطبيعة وحقيقتها، وهو مثلها، أم إنه يفترض أن يكون متعالياً عليها ومتحكماً فيها لتصح له السيادة والتأثير؟. لا نريد أن نجادل

في مكان هذا العقل، لأن المهم هو أن نعترف بأنه لا بد للكون من عقل يوازيه. عقل قادر على التحكم فيه. عقل مسيطر على الطبيعة، لم تخلقه الطبيعة لأن الطبيعة لا تخلق ما ليس فيها، ولا تخلق عن وعي ما يحكمها. ولو كانت الطبيعة تعي ذاتها بذاتها أو تخلق لخلقت كل طبيعة إلهها، وعند ذلك سيذهب كل إله بما خلق. أو إن كل طبيعة ستقضي على إلهها الخاص كلما أرادت ذلك ما دامت الطبيعة متنوعة، على عكس العقل الذي يمتاز بالتجانس. ألا تدلنا هذه الحقائق بأن إله الطبيعة والأكوان كلها هو إله واحد، أو إن المسير لها والحاكم عليها هو عقل واحد. وهذا العقل لا يمكن أن يكون من خارج الطبيعة، لأن كل ما هو خارج الطبيعة عدم. والعدم ليس له أي وجود، أو قدرة على خلق نفسه، فكيف سيخلق غيره، أو سيؤثر في غيره. فما هي حقيقة العقل؟ هل هو من ماهية خاصة لا يمكن وصفها إلا بأثاره؟. لو حاولنا أن نحدد ماهية العقل الإنساني، وهو عقل مستمد من العقل الإلهي لن نستطيع، فكيف بعقل الوجود المطلق للطبيعة المطلقة.

فالعقل هو النور الذي نبدع به ونبصر فيه الوجود وهذا العقل لا يظهر إلا مع نمو أجسامنا، وإن كان في حالة كمون في عالم البذرة التي نشأنا منها. ولو تأملنا عقلنا ورغبنا في أن يكون عقلنا الكبير بعد سنوات النضج هو نفس عقلنا ونحن في رحم الأم، فهل سيطبق هذا العقل الجلوس في رحم الأم تسعة أشهر دون أن يموت من الحزن.

لهذا كان عقلنا في نموه يتناسب مع أوضاعنا وأحوالنا ونمو أجسامنا. ولو أن الطفل الصغير حمل هموم الكبار، ربما ستقتله الأحزان قبل أن يبلغ سن النضج. لهذا فإننا نلاحظ أن عقولنا في تغير وتطور يتناسب مع نمو أجسامنا لحكمة غير خافية على أي متأمل، ولعلاقة سببية بين النمو الجسماني والنمو العقلي، أو بين طول الأعمار ونضج العقول، لأن وزن الأجسام لا يفعل فعله كما يفعل مرور الليل والنهار في إنضاج العقول. فنحن أمام حقائق سببية مترابطة تدل على علاقة بين نمو الجسم والعقل، ثم انحدار الإنسان لكي لا يعلم بعد علم شيئاً، مع انهيار الجسم وتعرضه للعلل والأمراض ثم الموت. فالعقل كما نشاهد يتأثر بالجسم أو الطبيعة زيادة ونقصاناً وهذه حقيقة. مما يعني أنه بزوال الطبيعة الجسمانية للإنسان أو نقصها يزول العقل أو يتأثر. ولو قسنا هذه الحقيقة على العقل المطلق للطبيعة فإنها ستقودنا إلى القول بأن زيادة الطبيعة أو نقصانها سيؤثر أيضاً في العقل المطلق للطبيعة. ولكن كما رأينا فإن الطبيعة لا تزيد ولا

تنقص ولا يفنى منها شيء وإن كانت عناصر الطبيعة في تغير مستمر من حيث الظهور بالصور، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن العقل المطلق الساري في الأكوان لا يزيد ولا ينقص من الأزل إلى الأبد تبعاً لخلود الطبيعة التي هي في جوهرها الحيز الحامل للعقل الذي هو في كل مكان، وليس له مكان. والمكان لا يمكن تصوّره أو وجوده إلا في الطبيعة. وعقل الإنسان ربما هو الدليل على إحاطة العقل للجسم واستحالة تحديد مكانه، وإن كان الرأس هو الذي يحمل أكثر ما في الجسم من أدوات التنبيه التي نعقل بها بعض الأمور. ولكن العقل كما نعرف غير الأعصاب والدماغ والسمع والبصر وغيرها من الحواس. إنه بانفصاله عن الجسم وظهوره به يبدو مثل المصباح الكهربائي الذي يتغذى بالنور من مركز الطاقة، ولكن النور لا يظهر دون المصباح والتمديدات الكهربائية المعروفة. فالجسم الإنساني هو أداة لإظهار نور العقل. كما إن الطبيعة أداة لا بد منها لظهور العقل الكلي ليس في ماهيته المشهودة والمجهولة، بل بإبداعه أيضاً. فإبداع العقل لا يظهر دون مادة يظهر فيها، وأشكال ظهور إبداع العقل في الطبيعة يظهر بالنسبة للإنسان بما يوازي المعقول والمحسوس المتبلور في الحواس. فالطبيعة تشهد بالسمع، والبصر، والشم، والتذوق، واللمس. والعقل يحيل كل ما يشهده بالحواس إلى علوم وأفكار أو شهادات ينطق بها اللسان في محكمة الوجود، كأن الحواس هي مصباح العقل التي تضيء ساحة الطبيعة. والعقل بتجرده وسموه يحيل الطبيعة إلى رموز ومعان ومفاهيم وحكمة، فيبدع فيها وبها ويضيف إليها ما ليس فيها، مستخدماً قانون الأسباب، وقابلية العناصر للفعل والانفعال، عن طريق الذكر والأنثى، إذا اعتبرنا علاقات الطبيعة خاضعة لهذا المفهوم الجدلي في عملية الخلق والإبداع لحدوث الإنتاج، على اعتبار أن كل فاعل هو ذكراً، وكل منفعل هو أنثى، ولا بد من اللقاء بين الذكر والأنثى لحصول كل ولادة جديدة في الوجود.

وقد تحدث القرآن عن هذه الحقيقة "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" (١) فهذه أسباب فاعلة في الطبيعة بحكمة الله وقدرته، وإن كان الخلق الإلهي لا يتوقف على هذه الأسباب. ولهذا خلق الله آدم وحواء وعيسى عليهم السلام بأسباب غير الأسباب التي نعرفها لكي لا نظن أن الخلق مرهون بما اعتدنا شهوده. ولكننا نتحدث عن النظام الساري في الوجود كما نراه في الزوجية. وقد أشار الشيخ محيي الدين بن عربي إلى طبيعة هذا النظام فقال: "إنه لما كان المقصود من هذا العالم الإنسان، وهو الإمام، لذلك أضفنا الآباء والأمهات إليه فقلنا: آباؤنا العلويات وأمهاتنا السفليات. فكل مؤثر أب، وكل مؤثر فيه أم..

والمولود بينهما، من ذلك الأثر، يسمى ابناً ومولداً. وكذلك المعاني في إنتاج العلوم، إنما هما بمقدمتين تتكح إحداهما الأخرى بالمفرد الواحد الذي يتكرر فيهما، وهو الرابط وهذا هو النكاح (المعنوي). والنتيجة التي تصدر بينهما هي المطلوبة فالأرواح كلها آباء، والطبيعة أم لما كانت محل الاستحالات. وبتوجه هذه الأرواح على هذه الأركان، التي هي العناصر القابلة للتغير والاستحالة، تظهر فيها المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجان، والإنسان أكملها". (٢).

وأضاف الشيخ في توضيح المسألة فقال: "إن العقل الأول الذي هو أول مبدع خلق، هو القلم الأعلى، ولم يكن ثم محدث سواه، وكان مؤثراً فيه بما أحدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه، كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجرام، ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب ذلك القلم الأعلى الإلهي، وتخطيط الحروف للدلالة على ما جعلها الحق -تعالى- أدلة عليه. فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثي. وقد ورد في الشرع: "إن أول ما خلق الله القلم ثم اللوح. وقال للقلم: أكتب! قال القلم: و ما أكتب؟. قال الله له: أكتب وأنا ألمي عليك. فخط القلم في اللوح ما يلمي عليه الحق، وهو علمه في خلقه الذي يخلق، إلى يوم القيامة".

"فكان بين القلم واللوحة نكاح معنوي معقول، وأثر حسي مشهود.. ومن هنا كان العمل بالحروف عندنا -وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الدافق الحاصل في رحم الأنثى. وما ظهر من تلك الكتابة، من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية، (هو) بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم" (٣).

وقد ضرب الشيخ محي الدين أمثلة لهذا التناسل والتوالد السائد في الأركان والعناصر فقال: "وقد جعل الله هذا الزمان، الذي هو الليل والنهار، يوماً، والزمان هو اليوم.. والليل والنهار موجودان في الزمان، جعلهما أباً وأماً لما يحدث الله فيهما، كما قال: "يغشى الليل النهار" -كمثل قوله في آدم: "فلما تغشاها حملت".

فإذا غشى الليل النهار، كان الليل أباً وكان النهار أمماً، وصار كل ما يحدث الله في النهار بمنزلة الأولاد التي تلد المرأة. وإذا غشى النهار الليل، كان النهار أباً وكان الليل أمماً، وكان ما يحدث الله من الشؤون في الليل بمنزلة الأولاد التي تلد الأم" (٤).

"وكذلك قال تعالى: "يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل"... فهذا الليل والنهار أبوان بوجه، وأمان بوجه، وما يحدث الله فيهما في عالم الأركان من المولدات، عند تصريفهما، يسمونه أولاد الليل والنهار" (٥).

وعن الأسباب وأثرها قال الشيخ "قال تعالى: "أن أشكر لي ولوالديك" .. فقد تبين لك أيها الولي!

آباؤك وأمهاتك من هم؟. إلى أقرب أب لك وهو الذي ظهر عينك به، وأمك كذلك القريبة إليك، إلى الأب الأول، وهو الجد الأعلى، إلى ما بينهما من الآباء والأمهات.. فإنه -تعالى- قال: "أن أشكر لي -فقدم نفسه، ليعرفك أنه السبب الأول والأولى، ثم عطف وقال: "ولوالديك"- وهي الأسباب التي أوجدك الله عندها (لابها).

لتنسبها إليه سبحانه. ويكون لها عليك فضل التقدم بالوجود خاصة، لا فضل التأثير، لأنه في الحقيقة لا أثر لها، وإن كانت أسباباً لوجود الآثار (عنها، أو عندها). فهذا القدر صح لها الفضل، وطلب منك الشكر لها، وأنزلها الحق، لك وعندك، منزلته في التقدم عليك، لا في الأثر، ليكون الثناء بالتقدم والتأثير لله -تعالى- وبالتقدم والتوقف للوالدين، ولكن على ما شرطناه. (فلا تشرك بعبادة ربك أحداً)" (٦) وضرب الشيخ محيي الدين مثلاً لما يجري في الحياة فقال: "إن النجار المهندس، إذا كان عالماً ولا يحسن العمل، فيلقي ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة... فالمهندس أب، والصانع، الذي هو النجار، أم" (٧). ثم إن عمل النجار في الخشب هو بمنزلة الأب لإخراج الصورة المطلوبة. فكل مولود لا يظهر إلا عن مقدمتين. ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة لأُمَّته حبيب الله إليه النساء، فأحبهن طاعة لله. ومع أن الرسول صلى الله عليه وسلم "كان منقطعاً إلى ربه، لا ينظر معه إلى الأكوان، لشغله بالله عنه، فإن النبي مشغول بالتلقي من الله ومراعاة الأدب، فلا يتفرغ إلى شيء من دونه. "فحبب إليه النساء" فأحبهن، عناية من الله بهن. فكان صلى الله عليه وسلم يحبهن بكون الله حبيبهن إليه... وكان من سنته النكاح لا التبطل. وجعل النكاح عبادة للسر الإلهي الذي أودع فيه، وليس (هذا السر) إلا في النساء. وذلك ظهور الأعيان للثلاثة الأحكام، التي تقدم ذكرها: في الإنتاج عن المقدمتين، والرابط الذي جعله علة الإنتاج" (٨).

سنجد صدى لهذه الأفكار في الفلسفات الحديثة، وخاصة لدى هيجل الذي صاغ من مفهوم التناقض في الوجود منهجه الديالكتيكي، ليتوصل إلى القانون الشامل للوجود حسب رأيه، وخلصته "إن نمو أو تطور الفكر يجري من الوضع إلى السلب، إلى التأليف بينهما، أي على أساس هذا الثلاثي. من موضوع، إلى نقيضه، ثم إلى المؤلف من كليهما أي مركب الموضوع.. وعلى هذا فالديالكتيك يمكن أن يكون نمواً وتقدماً باطنياً محايثاً، وعلى هذا فالديالكتيك ليس نشاطاً ذاتياً

لفكرة خارجية، بل هو عينه روح المحتوى الذي ينتج عضويًا فروعه وثماره. إنه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقلها الخالص، والفكر الذاتي لا يفعل أكثر من أن يشاهد هذا التطور دون أن يساهم بشيء من جانبه، والتعينات في تطور الصور هي من ناحية تصورات، ومن ناحية أخرى ما دام التصور هو في جوهر الفكرة فإن هذه التعينات لها أيضاً شكل الوجود العيني في الحقيقة الواقعية" (٩). وكمثال على تأثير قانون الديالكتيك في الوجود استنتج هيغل بأن "في كل شيء مزيج من اللا وجود والوجود. فالزهرة لو كانت زهرة فحسب لظلت إلى الأبد ولكنها تنكسر ذاتها وتدحض نفسها، وذلك بأن تذبل كي تصبح ثمرة، وهكذا كل موجود يحوي في داخله اللا وجود الذي بفضلها يتطور وينمو، فلو لم يوجد نفي وسلب في الوجود لما حدث تطور ونمو. وهذا يخضع للمبدأ الأساسي عند هيغل وهو أن "الوجود يحتوي في داخله على الوجود واللا وجود في وقت واحد معاً، أي أن التناقض طبع الوجود، وكل مقولات الوجود تنمو من الصيرورة.. وعلى هذا فإن الشيء لا يكون حياً إلا بمقدار ما يتضمنه من تناقض" (١٠). لقد رأى هيغل إن التطور الحاصل نتيجة هذا الصراع هو تطور للعقل في الروح. أي إنه تطور للأعلى الذي يتجلى في الإنسان الذي يمضي في تاريخه لتحقيق أو تجسيد إرادة الروح المطلقة في الكون. وما يهمنا في فلسفة هيغل هو القانون الذي رآه لكل تطور. الصورة التي تحمل بداخلها نقيضها، الفناء، ومن ثم ولادة الصورة الجديدة. فالإنتاج لا يحدث إلا من تلاقي صورتين من صور الطبيعة أو عنصرين وتفاعلهما لظهور صورة جديدة. وإذا كان هيغل قد وصف هذا اللقاء بالصراع والتناقض أو وجود اللا وجود في ماهية كل صورة، كنقيض لوجودها الآني. فإن هيغل يكون قد التقى مع إشارات ابن عربي في هذا الموضوع، وإن كان ابن عربي قد سمى عملية الخلق بالتزاوج أو "النكاح الساري في كل الذراري" وعزاه إلى الحب، بينما سماه هيغل الديالكتيك وعزاه إلى الصراع والتناقض. وفي اعتقادي أن الاختلاف نجم عن رؤية ابن عربي لبداية الأسباب ومقدمات عملية التطور في المخلوقات، بينما بدأ هيغل من المرحلة الثانية، أي مرحلة المخاض والولادة للانتقال إلى الطور الجديد، بينما أهمل المرحلة الأولى التي هي مرحلة التفاعل بين الفاعل والمنفعل لحدوث الانتقال إلى المرحلة الثانية. وكأن هيغل صاغ قانونه بدءاً من المقدمة الصغرى في المنطق، بينما صاغه ابن عربي من المقدمة الكبرى. وكلاهما توصل إلى نفس النتيجة بالاتفاق على أن كل ما يجري في الوجود ما هو إلا تجسيد لإرادة الروح المطلقة في الطبيعة لأن "الفكرة المنطقية والطبيعة هما شرطان لتحقيق الروح.

ويجب أن نفهم الروح عند هيغل بأنها العقل في قمة فاعليته -الفكرة تبلغ أوج نموها في الروح، وفي الروح تتعين الفكرة إلى أقصى درجة وتصل حقاً إلى واقعها وواقعيتها العقلية. فالفكرة المنطقية والطبيعة هما شرطان لتحقيق الروح" (١١) ومن المفيد أن نعرف، بأن هيغل كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: "قد تأثر بالفيلسوف الصوفي ذا النزعة الكشفية فرانتس بادر وشرح بعض مؤلفاته، واهتم تبعاً لهذا التأثير بدراسة كبار الصوفية الألمان وعلى رأسهم إكهارت" (١٢). كما أثر عليه من قبل صديقه الشاعر الألماني هيلدرن "الذي كان شديد الحماسة لتمجيد الطبيعة والنظر إليها على أنها قبل كل شيء، كل حي. وقد عبر هيغل عن هذه الروح الجديدة في قصيدة له تعد خير ما كتب من قصائد على قلة ما نظم، وقد أهداها إلى هيلدرن سنة ١٧٩٦ وعنوانها من حولي وفي داخل نفسي سلام" - (١٣). ولهذا "مجد الواحدية أو وحدة الوجود في مواضع عديدة من كتبه، وبخاصة في رسالته عن براهين وجود الله، فمجد الواحد، ومجد النظرة الشرقية لأنها مجدت الواحد وردت إليه كل شيء" (١٤).

وهذا يدل أيضاً على إطلاع هيغل على الفكر الصوفي الشرقي والاستفادة منه لتكوين رؤيته المعاصرة للطبيعة كمظهر أو ثوب لفكرة العقل "الطبيعة عند هيغل هي الصورة على شكل غيرية بمعنى أنها الفكرة عندما تخرج عن ذاتها وتتخارج من أجل أن تصل إلى إنتاج الحياة الواعية ومن ثم إلى أن تدخل في نفسها وتستتبطن في فكرة الإنسان. ولهذا فإن صيرورة الطبيعة في صعود نحو الروح" (١٥). لأن "الفكرة هي المطلق، والفكرة" تشابه "الصورة" عند أفلاطون، وهي التي بالمشاركة فيها تتكون فيها جميع المحسوسات. بيد أن ثمة تفرقة كبيرة بين "الفكرة" عند هيغل وبين "الصورة" عند أفلاطون، لأن الصورة الأفلاطونية عالية. ومذهب أفلاطون ثنائي يقول بالثنائية بين العقل والمادة، بين العالم المعقول والمحسوس.. أما هيغل -عنده أن المطلق هو الذات الكلية التي تنتظم كل شيء. وكل الأشياء ليست إلا تطوراً ونمواً دياكتيكياً عن الفكرة الأصلية. وهذه الذات الكلية هي عينها "الفكرة" أو "التصور" عند هيغل" (١٦).

هذه النظرية الهيجلية سيقلب ماركس معطياتها فيما بعد لاستنتاج نظرية الصراع الطبقي وسقوط الرأسمالية، بعد إستبعاد تأثير العقل، وإحلال الطبيعة مكان الله. مع اختلاف النتائج التي توصل إليها كلاهما من نفس القانون فهيجل رأى الله والإيمان. وماركس رأى الطبيعة والإلحاد، وما رآه كل منهما ليس جديداً في تاريخ الفلسفة. فهذه أحكام يملها العقل لا المشاهدات لأن جميع الفلاسفة شاهدوا نفس

الحقائق ولكنهم اختلفوا في معرفة ما شاهدوا. فمنهم من رأى الطبيعة حبراً للكلمة "العقل" وعجيباً لسبك إبداعه، ومنهم من شاهد الطبيعة هي الناطقة بالكلام بالصدفة، أو بنظام من إبداعها. ولم ينظر إلى تكوينه الإنساني ليعرف ربه. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "من عرف نفسه عرف ربه". فالإنسان صورة العرفان الإلهي في الإمكان الطيني. وفي تكوين الإنسان، وصور الطبيعة عبر لأولي الألباب. ومن الطريف أن نذكر بأن "الكنيسة الإنجيلية- قالت عن هيجل- في قرار خاص أصدرته سنة ١٨٣٢، إنه خطر على الدين" (١٧). وبذلك ختمت حياة أعظم فيلسوف ألماني بالاتهام، ومنع إلقاء أي تأبين على ضريحه. بينما شقت الماركسية طريقها إلى النجاح باستثمارها آلام الناس وجوعهم بعد أن فقدت الرحمة وانتشر الضلال. ومن الملفت للنظر أن يقوم ديفيد شتراوس أحد تلاميذ هيجل بوصف الوجود بالشجرة الواحدة "المطلق يعكس ذاته منذ الأزل في أرواح متناهية مختلفة، فهو أشبه ما يكون بشجرة هائلة تحتوي باستمرار على براعم وأزهار، وثمار، رغم إنها ليست سوى موجود واحد" (١٨). وهذا الوصف رغم اختلافات في التفاصيل هو عنوان كتاب للشيخ محي الدين بن عربي باسم "شجرة الكون" قال فيه "إني نظرت إلى الكون وتكوينه، وإلى المكنون وتدوينه، فرأيت الكون كـ
شجرة، وأصل نورها من حبة "كن" قد لقحت كاف الكونية، بلقاح حبة -نحن خلقناكم- (١٩).

ورأى الشيخ أن الغاية من إبداع الشجرة هو ظهور الثمرة التي هي روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمعرفة الله، والأرواح السائرة على نهجه، والمستمدة من أنواره. وهي بمعنى أشمل روح الحقيقة الإنسانية المتجلية بكمال المعرفة المحمدية، السارية في العقول، والتميزة بالصور منذ خلق أبينا آدم من امتزاج الكلمة بالطبيعة، وظهور الموجد بالوجود بظهور كمال ثمرة التوحيد التي جاءت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم بما أظهر من آيات العرفان بشكل لم يسبق إليه، ليكون مسك الختام في كمالات العقول والأبدان. وكما قال الشيخ رضي الله عنه "لم تكن الشجرة مرادة لذاتها، وإنما كانت مرادة لثمرتها، فهي محمية محروسة لاجتناء ثمرتها، واستجلاء زهرتها" (٢٠). فالرسول صلى الله عليه وسلم "مراد الإرادة، مقصود المشيئة. فالكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، وأنت مختار الكون" (٢١).

وقد استنتج الشيخ محي الدين هذا الكلام من أحاديث كثيرة منها حديث

"كنت كنزاً مخفياً" وحديث "لما خلق الله العقل" وحديث الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر" (٢٢). وهذه حقائق مفهومة لأهل المعرفة من قول الله للرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". والرحمة الكاملة لا يمكن الوصول إليها إلا بالمعرفة الكاملة وهي شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي جعلها الله ختام الرسالات وكمالها فقال الله عنها **[اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً]** (٢٣). ومن الطبيعي أن يعطي الله الرسالة الكاملة للكامل، ليكون الحامل للرسالة أهلاً لما يحمل. وهذا واضح لكل مدقق في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله.

ومع ذلك ورغم التوضيحات والشرح التي امتلأ بها تاريخ الإنسانية عن العقل، فإننا أمام حقيقة العقل المذهلة والملتبسة لا يمكن إلا أن تملكنا الحيرة. فإذا كنا قد استطعنا أن نفهم علاقات الطبيعة بالعقل المطلق فإنه لا بد أن تملكنا الحيرة كلما حاولنا فهم الترابط بين العقل الإنساني والجسم. فإذا كان الجسم الإنساني سيفني فأين سيذهب العقل الإنساني، وهل سيبقى أم إنه سينفصل مع انفصال الروح ليعود إلى رحاب العقل المطلق، أم إن هذا العقل يتحول الجسم إلى صورة جديدة سيتبعثر إلى عقول، أو أنظمة جديدة تدور في أفلاك الوجود بتخلله إلى عناصره الأصلية. أم إن الجسم سيتحول إلى صورة جديدة من الطاقة والشفافية والترابط لا نعرفها إلا من خلال منطق الإيمان في عالم ما بعد الموت؟. فما هي الحقيقة المقابلة لهذه الأسئلة التي يسألها كل إنسان؟.

إن الأجوبة الشافية لعالم ما بعد الموت لا يمكن أن نصل إليها بشكل يقيني إلا بالإيمان بما جاء به الرسل. وهذا الغموض لو نظرنا إليه في حقيقته لا بد منه للامتحان لأن الإنسان لو عرف كل الحقائق عن الوجود وعالم ما بعد الموت، وشهد ما جاء به الدين عياناً، سيكون كل إنسان قد عرف النتيجة سلفاً، مما يلغي الفائدة من حرية الاختيار والامتحان. ولكننا إزاء هذه الأسئلة التي طرحناها نستطيع أن نملك بعض الدلالات بالعقل.

فقد تحقق لنا أن الطبيعة غير مفارقة للعقل، والعقل غير مفارق لها منذ الأزل، وبما أن الطبيعة لا تزيد ولا تنقص ولا تقنى، فإن العقل المقابل لها والساري فيها لا يزيد ولا ينقص من حيث الإمكانيات والقدرات كما إنه لا يفنى. وإذا كنا قد قسمنا الكون إلى ماهيتين متكاملتين، عقل وطبيعة، فإن هاتين الحقيقتين هما

اللتان تشكلان الوجود، وترفدانه بالخلق الدائم ومنه الإنسان، بإحداث العقل
لأسباب كفاعل في الطبيعة المنفعلة، وبحسب قابلية الطبيعة لإظهار الإبداع.

وهذه القابلية التي قصدناها هي النظام المقدر لظهور صور الوجود في
الطبيعة، على أساس أن كل صورة فيها عقلانية العقل، لتعقل وتبدع، وتركيب
الطبيعة، لتظهر. والقابلية، هي مثلاً الصوت الجميل لا يمكن أن يظهر في
المرئيات، وإنما في المسموعات، كما أن الصورة المبدعة لا تتجسد إلا في
الطبيعة أو اللوحة لتشهد بالعين.

وهذا من بديهيات النظام في الوجود. ولو أردنا أن نحول الصوت أو الرائحة
إلى لوحة تشاهد بالعين لما استطعنا، لأن الطبيعة لا تعطي مثل هذه القابلية.
والطبيعة في جوهرها مجموعة من الممكنات، والله، أو العقل المطلق حسب تعبير
الفلاسفة، يبدع في هذه القابليات الممكنة حقائق الوجود، ومن هذا الباب قال
الإمام الغزالي "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وإذا كان قد لامه النقاد فلأننا لا
نعرف كل الحقائق عن الطبيعة حتى في مجموعتنا لنعقد بأن الإمكان قد ظهر
كله في مجموعتنا، فما بالك في المجموعات الكونية البعيدة عنا. ومع ذلك فإن
الغزالي رضي الله عنه، لا يمكن أن يكون قد قال ما قال وهو غير مدرك لتنوع
الإبداع الإلهي في الأكوان. ولكنه قال هذا الكلام من باب قابليات الطبيعة كما
أوضحنا. وما نتوصل إليه كلما تأملنا حقائق الوجود هو التأكد من حقيقة العقل
المبدع الذي لا نراه إلا بالإبداع هذا من جهة، والطبيعة القابلة للخلق كما أوضحنا
من جهة ثانية. فالوجود هو المجال الذي تلقي فيه المادة أو الطبيعة بالعقل
لإظهار الصور والأنواع، والإبداع الذي ترتدي فيه الطبيعة ثوب الطين وصورة
الإنسان، أو الحيوان، أو النبات، لتتحول إلى أسماء، مستمدة من طاقة نبع الذات
الإلهية الفياض ما كان وما سيكون، وصفات الأسماء. فباجتماع الطبيعة مع
العقل يظهر الوجود، بإرادة واهب الصور نفحة الحياة وإرادة الظهور. ولهذا قبل
ظهور الصور، وتوحد الطبيعة مع العقل "كان الله ولم يكن معه شيء غيره، وكان
عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء هو كائن، وخلق السماوات
والأرض" (٢٤). كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. وذلك قبل "الفتق" وقبل
الصور والأشكال عندما كانت السماوات والأرض متصلة ومتحدة في كتلة واحدة،
وصورة واحدة. ثم أحدث الفتق، كما يأخذ أحدنا الطين ويصنع منه اللبن لبناء
بيت. [أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما
وجعلنا من الماء كل شيء حي] (٢٥). ما أوضح هذه الإشارة لحكمة الله من

"فتق" السماء عن الأرض بعد أن كانتا كتلة واحدة. مما يشير أيضاً إلى تجانس الأكوان. وذلك لكي يبيث صور الحياة في الطبيعة الميتة ليعرف العقل بإبداعه والمخلوقات، بصورها، وتظهر الطبيعة بما فيها من القابليات بالصور والألوان. وقد أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل "أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض."

فقال: كان في عماء، تحته هواء وفوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء" (٢٦). وجاء في رواية أنه قال "كان في عما" بالقصر، ومعناه ليس معه شيء" (٢٧). والروايتان متشابهتان من حيث المعنى. فالعماء كما فسرها المفسرون "السحاب" والسحاب هو المرحلة التي تسبق سقوط المطر. وبما أن العرش هو الكرسي الذي يجلس عليه الملك.

والملك لا يظهر إلا بالملك ومملوك أو ملك ورعية تابعة للملك. لهذا كان "خلق العرش على الماء" وليس على السحاب أو التراب، لأن المخلوقات بحسب قابلية الطبيعة وإرادة الله، لا تظهر إلا بالماء الذي هو أصل حياة الأحياء. ولهذا كان عرش الله على الماء حيث ستظهر الرعية وتولد. فالماء هو عاصمة المملكة، لأنه عاصمة الطبيعة بلغتنا المعاصرة، ومنه سيصدر الحكم إلى عناصر الطبيعة بسقيها بالماء في كل أنحاء المملكة، ليظهر التكوين بالصلصال، ويعرف الله. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الفتق، وقبل ظهور الحياة في مملكة الطبيعة المروية بالماء "كان في عماء" أو "عما" أي كان مجهولاً، لأنه لم يخلق الخلق، ولهذا خلقهم عندما أراد الظهور. وقد جاء في الحديث "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني" (٢٨).

ولهذا خلق الله المملكة التي نراها لتدل على المالك. فأمدتها من صفات أسمائه الحسنى بالجمال والجلال، حتى تظهر حقيقة الوجود ببهاء الأسماء وأنوار العقول، بالنقاء الكلام مع الأجسام، لظهور الجلال، والجمال، والرحمة، والوجود، والفيض الممدود بالتزاوج بين الذكور والإناث، لولادة كل جديد من الحب، لهذا يحب الآباء الأولاد لأنهم من ثمار الحب خرجوا. والله أرحم بالجميع من الآباء والأمهات، لأن الجميع من اسمه الكريم ظهوروا. ولكن الأذن ليست كالعين، والجلد ليس كاليد، والقلب ليس كالقدمين. لهذا أحب الله الإنسان لأنه في الوجود، القلب الذي وسع الرب بالمعرفة، ولم تسعه السموات والأرض، ولكن الجاحد الذي أوصد قلبه عن المعرفة، وضاق قلبه عن حب الخالق الذي خلقه، مع إدراكه بأنه مخلوق. يمهله الله بالتوبة حتى يفيق بعقله، أو بالرسول على حقائق الوجود برؤيته

للمبدع من خلف كل إبداع. فالعاقِل يؤمن بالدليل والبرهان بأن العقل الذي صنع الإنسان وصور الأكوان، قادر على صنع نفس هذا الإنسان من جديد. وهذا دليلنا العقلي إلى حقيقة الامتحان والحساب بعد الموت. وإن كان لا موت إلا من حيث فهمنا للحياة، وإدراكنا لها في مظاهر الأحياء وصفاتهم. وإن مظاهر الإعجاز الإلهي في أبسط المخلوقات تدلنا على عناية الله بالإنسان، وتسخير الطبيعة له. وقد أشرنا إلى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للأرض بأنها أم. لأنها الواهبة لأبناء آدم، الجسم والغذاء. وإننا بالعقل نشاهد حقيقة تسخير كل نبات الأرض ودوابها للإنسان، باستخدامه لها للغذاء أو اللباس، أو لشهود الجمال وتنوقه وتأمله في صور الأكوان، لإدراك مبدع الصور، ومبدع الإنسان. وإذا نظرنا إلى بعض المسائل البسيطة سنكتشف لنا عن سر عناية الله بالإنسان. فإننا نشاهد قبل أن تصنع السيارات التي تنقل المواد الغذائية والحاجات الإنسانية بين أصقاع الأرض، نشاهد في كل منطقة نوعاً من المزروعات التي لا تتجح إلا في هذه المنطقة. وإذا نظرنا إلى الأرض وما ينمو فيها من النباتات والأشجار بحسب المناطق المناخية فإننا سنشاهد أمراً عجباً، بل إن تنوع خضار الفصول وفاكهتها هما أمران يدعوان إلى العجب، فحيث توجد الصحراء والحرارة تصلح الأرض لزراعة النخيل، وهو غذاء كامل للإنسان ويصلح للحفظ بدون تلف طوال العام. بينما حيث يسود الجو المعتدل تصلح زراعة الزيتون والتين والعنب والقمح وهما أغذية مناسبة لجسم الإنسان ويمكن حفظها، بينما لا يصلح البطيخ إلا لفصل الصيف وهو مفيد لهذا الفصل ولا يفيد في غيره من الفصول. وفي فصل الشتاء حيث يحتاج الإنسان لفيتامين س الموجود في الحمضيات والملفوف تثمر هذه الثمار في هذا الفصل من العام. وكأنها تقول للإنسان، أنا الغذاء المناسب لك في هذا الفصل من العام. وقس على ذلك هذا الخلق البديع الذي رتبته الخالق بنظام ومعرفة لمصلحة الإنسان ليكون له غذاء ودواء في كل فصل من الفصول. مما يدعونا إلى الاستنتاج بأن ما يصلح لفصل من الفصول كغذاء، لا يصلح لكل الفصول، وإن حفظ بالثلاجات. لأن الخالق المبدع الذي سبقت عنايته بالإنسان، لم يخلق فاكهة وثمار الصيف التي لا تصلح إلا بالحفظ، للشتاء. بينما جعل القمح والشعير والأرز والذرة والعدس وأنواع البقول يابسة لكي تكون غذاء للإنسان، وحتى لحيواناته لكل الفصول، لأنه بحاجة إلى هذا الغذاء على الدوام. ولكن أحكام العباد التي بها يحكمون، ليست من أحكام الكمال، بل من أحكام الرفاهية التي لا تنفع العباد. ألا يدل توزيع الثمار في الأرض على حكمة مالك الملك للإنسان. بل ألا يدل هذا النظام على أن الإنسان الذي لم يتركه الله للصدف سيسأل عما فعل

بهذه النعم. ولمن يقول إن ثمة عبث، لينظر ويتأمل هل من عبث **[أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وإنكم إلينا لا ترجعون]** (٢٩). و **[منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى]** (٣٠). من رحم الأرض الأم سنعود كما خلقنا منها بإرادة الله ومشئته.

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في إشارة إلى استمرار وجود الإنسان بعد الموت "ليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة" (٣١). وقال "ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة" (٣٢).

وقد أشرنا في غير هذا الفصل إلى طبيعة النفخ لقيام القيامة ومن ثم لسريان الهواء في الأجساد والقيام للحساب. وأشرنا إلى أن "الصور" من الصور. وهو الذي به تعود الصور الإنسانية إلى صورها كما كانت.

فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كلها إشارات صادقة عن معرفة لما سيحدث بعد الموت. ومن سار على طريق الرسل وصل، ليشهد الحقائق من غير الطريق الذي ندركه بالعقول. لأن العقول قابلة بما فيها للإدراك، وقابلة بما لها من الإمكانية للتلقي من العلم الإلهي. فإن المتلقي سيعرف الحقائق التي تحدث عنها الرسل وأهل المعرفة عن هذا الطريق. ولكن لا يصح أن يكون لهؤلاء أي شرع يخالف الشريعة الإسلامية. وكل مخالفة هي تلبيس وضلال من إمداد إبليس، لأن باب الرسالة مغلق إلى قيام الساعة، وما بقي غير الاجتهاد فيما لا يخالف النصوص. فالإسلام ختام، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الطبيب للنفوس المؤمنة والأجسام، ولو كان في العلم الإلهي زيادة عما أعطاه الله للرسول صلى الله عليه وسلم ما قال الله **[اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً]** (٣٣).

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو سيد العلماء والعارفين، وإمام المتقين، وكل علم إلهي إنما يأتي بإتباعه وسلوك طريقه، وليس في الأمر زيادة. فقد رأى من آيات ربه الكبرى عندما وصل إلى قاب قوسين أو أدنى، وهذه غاية الوصول ومنتهاه.

وليس بعد هذا غير الشكر لمن رأى ما رآه، لأنه من الإمداد الإلهي عناية من الله بالعبد، ليشهد عن قرب حقيقة العبودية وثماره المتجلية بالطاعة والحب،

والمعرفة المزيّنة بإمداد العقل المشرق بأنوار الوجود بعد طي المسافات بالعقل والقلب بين الإنسان الطالب والمطلوب. سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عما إذا كان الله يقبل توبة عبده بعد الضلال.

فقال لأصحابه "للرب أفرح بتوبة أحدكم من رجل كان في فلاة من الأرض مع راحلته، عليها زاده وماؤه، فتوسد راحلته، فنام فغلبته عيناه، ثم قام وقد ذهبت الرحلة. فصعد مشرفاً، فنظر فلم ير شيئاً، ثم هبط فلم ير شيئاً.

فقال: لأعودن إلى المكان الذي كنت فيه حتى أموت، فنام فغلبته عيناه، ثم استنبه فإذا الرحلة قائمة على رأسه، فالرب بتوبة أحدكم أشد فرحاً من صاحب الرحلة بها حين وجدها" (٣٤). لأن الله لا يحب لعباده الكفر وإن أحبوه، وهم يدعوهم إلى الجنة، وإن ساروا بأعمالهم إلى النار. لأن الإنسان مخلوق من حب الله للعرفان. وقد أعد الله الأرض للإنسان، كما يعد الآباء البيوت لأبنائهم للزواج والإنجاب، ليعرفوا فضل الآباء وحبهم، وعطفهم، ورحمتهم بهم، وإن جحد من جحد من الأبناء. فالآباء يظنون رحماء. ينتظرون يقظة ضمير الأبناء ليغفروا عند أول اعتذار. وأين رحمة الآباء من رحمة الله، فهو أرحم الراحمين، وهم رحماء من فيض اسمه الرحيم. وأين من وسعت رحمته السماء والأرض، ممن وسعت رحمته الأبناء، وقد لا تسعهم. فالعاقل يستحي حق الحياء من المعطي، والجاهل يطمع بالغفران. والجاهد لا تطهره إلا النيران من الخبث الذي فيه. وبما أن المآل إلى الجنة لكل من قال لا إله إلا الله ولو مرة، لهذا لا بد من النيران لتطهير أهل الجنان من الخبائث. أما المؤمن الذي احترق في الدنيا بطاعة الله. فسوف تقول له النار وهو يمر على الصراط "جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي" (٣٥).

ذلك لأن النور هو خلاصة النار، لهذا لا تضر النار بالمؤمنين. ولا بد من النار، في الدنيا بالمجاهدات، ومخالفة النفوس، وإتباع الخلفاء العقلاء، وهم الرسل أو رسل الرسل، أو في الآخرة، لتطهير العقول مما شابها من الشبهات حتى تصل إلى عالم النور وتعرف الله. فالعرفان قدر الإنسان، ومن لم يعرف ربه بالإحسان في الدنيا، سيعرفه في الآخرة بالنيران "فبعلمه أو جدك، وبعجزك عبدته: فهو هو لهو لا لك، وأنت أنت: لأنت وله! فأنت مرتبط به، ما هو مرتبط بك" (٣٦).

العاقل لا يدعي، لأنه يعرف أنه قطرة من بحر الوجود، والوجود محيط به.. وليس في الوجود غير الله [هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم] (٣٧). أنت فكرة في ذات الله كنت، لهذا نقش في الطبيعة، وكسيت بثوب المجد لتكون دليلاً عليه. فأنت منه وإليه - وإلى الله المصير - فإلى أين

الفرار . إذا كان الوجود لا يصبح عدماً، والعدم لا يصبح وجوداً، وإذا كانت أعيان الوجود ستخرج كما بدأت للحساب بقدرة مسبب الأسباب؟. فهل تظن أن حقيقتك ستفنى بالموت؟. إن كان لك حقيقة في الوجود، فالوجود لا يفنى، فأنت عين تنتظر الأمر بعد الموت للظهور. وإن كنت فكرة لإبداع العقل في الطبيعة، فأين الفرار إذا كان المبدع قد أوجدك من اللا وجود. وهل يعجز أي صانع عن إعادة صنع المصنوع؟. فأين الفرار [يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه] (٣٨) و [إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً] (٣٩).

ما أطف إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحاب العقول عندما قال "ليس من الإنسان شيء يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة". فأين الفرار لمن جعله الله بذرة خالدة في الوجود، ودليلاً على المملكة والملك. [فليُنظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر] (٤٠).

من الإشارات الإلهية القرآنية لعصرنا، إجابة الله لمن كان يشكك بإمكانية خلق الإنسان من جديد كما هو الحال في كل زمان قول الله [أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه] (٤١).

فلماذا اختار الله البنان كإشارة إلى قدرته على إعادة خلق الإنسان. بما إن هذه الآيات للأجيال كلها منذ بداية الوحي إلى قيام الساعة. فلا بد أن تكون مفيدة لكل الأجيال. ولا بد للمبدع من الإشارة إلى سر يعجز غيره عن صنعه ليصح الإعجاز، ولذلك أشار الله إلى البنان، بصيغة المفرد وليس الجمع ولم يحدد أي بنان. وقد فهم المفسرون أن السبب في إشارة الله إلى صنع البنان كدليل على الإعجاز، إنما يعود إلى صغر حجم عظام الأصابع ودقة تكوينها. لهذا فهموا أن تفسير الآية كما جاء في تفسير الجلالين "وهو الأصابع أي نعيد عظامها كما كانت مع صغرها فكيف بالكبيرة" (٤٢). هذا المعنى كان يناسب العصر الذي عاشوا فيه حيث يمكن الاستدلال من صنع الصغير على الكبير. ولهذا ذهبوا إلى معنى الجمع، مع أن كلمة "بنان" جاءت بالمفرد. ولكن المفاجأة المذهلة ستكون في عصرنا حينما سيتبين لكل إنسان، أن بصمات الإبهام في يد كل إنسان لا تتشابه أبداً، بل إنها الدليل عليه. لهذا نشأ علم جديد للجريمة بالاعتماد على البصمات. وسنفهم بفضل التطور العلمي سر الإعجاز الإلهي في خلق البنان.

فمن يستطيع أن يعلم هذا السر أو يكتشفه غير صانع يعرف أسرار صنعته. ولا نريد أن نعدد الإشارات الإلهية في القرآن إلى الإعجاز مما اكتشف في عصرنا. فالعقل تكفيه الإشارة، وقد دعا الله إلى تأمل الكون بالعقل والسمع والبصر، ليفهم العاقل حتى يبلغ سن الرشد ويعقل، ويبصر المبصر. وقد أغرى العباد بالثواب حباً بهم وحرصاً على هدايتهم، ليشهد شهادة الحق في الصانع المبدع، فأرسل الرسل، وزودهم بالمعجزات التي يعجز عن الإتيان بها الإنسان بقواه الطبيعية، حتى لا يبقى أي مبرر للضلال. فهل بعد البرهان بالدليل من سبب للغفران، لمن ينكر الجنة والنار. لهذا إذا كانت الرحمة لا تفيد العصاة، فلا بد من البرهان بالعقاب لإصلاح بذرة الطين حتى يدرك من لم يدرك ذلك أنه "لا إله إلا الله" فهو حقيقة الوجود التي خرج منها الإنسان، بالتكوين بمشيئة العقل، وصنعه من عناصر الطبيعة ليكون للإنسان الظهور بما يحير العقول.

فالعقل الإنساني الباهر بتأملاته للكون وانفعالاته وأسئلته وإبداعه، إذا كان باهراً ومحيراً إلى هذا الحد، فكيف سيكون مبدع الأكوان، ومظهر وجود كل موجود؟. فالإنسان استفاد من كونه إشارة للدلالة على عظمة مالك الملك، ولهذا أنعم عليه بالوجود. وليس للإنسان إلا الشكر والعرفان.

فالإنسان الذي تميز بالعقل آية الله الكبرى في كل ملك. ولهذا سماه الشيخ محيي الدين بن عربي "تاج الملك". ولهذا كان الوجود مسخراً للإنسان بأمر الرب. فالإنسان ابن العقل في الأرض، وفي كل أرض، بل إنه المهيأ للظهور في صورة النائب الحامل لأسماء الرب. فهو الجامع لها. وكل صور الوجود حاملة لبعض الأسماء، أما الإنسان فهو موضع العناية الذي جمعت في تكوينه كل الأسماء. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة" (٤٣). أي من استخراجها من ذاته صار موضعاً للأسرار، ودخل جنته الحقيقية بشهود الحقائق الكونية عن يقين ومشاهدة، فلا ينشغل في البحث عن المستحيل. لأن الإنسان في الوجود آية العقل الإلهي، ولا يدرك عظمة الله إلا الإنسان العظيم.

والإنسان هو عصارة الوجود الذي التقت بين جنبه أسرار الكلام، وجمال الأكوان ليكون المثال. فهو كنز الوجود، وسره الدفين الذي تحيرت فيه الملائكة وغار منه الشيطان. إنه مجد عظمة العقل، وجمال الطين. لهذا حار من شهوده لعظمة الأكوان، وحارت فيه العقول ليكون الدليل على من لا يحد ولا يعرف بالدلائل. فهو الله المشهود من وراء كل اسم وعنوان، ليصح قول القائل بالتسبيح

من الحيرة، وقول الشاهد بعظمة مكون الأكوان، وقول المهلل بالتكبير، وقول الناطق بالحمد. فهذا شراب العارفين الذين شهدوه في كل اسم فقالوا "الله" ثم قالوا "سبحان ربك رب العزة عما يصفون" (٤٤). عندما عجز اللسان عن الكلام، وعجز العقل عن إرشاد اللسان إلى النطق بما يناسب المقام. ثم حارت الحيرة فأسعفنا الله بالقول "قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون" (٤٥).

فهو الله الذي تدل عليه العقول ومظاهر الوجود، وهو الذي لا يعرف لأنه
[كل يوم هو في شأن] (٤٦).

وهو الكل إن قرأت "هو الأول والآخر والظاهر والباطن". فكان الوجود من فيض أسمائه الذي أظهره الكلام. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله في قبلة المصلي" (٤٧) لمن شهد هذا التجلي، ورأى أن الله معه أينما كان "وهو بكل شيء بصير" فالطبيعة رداء، والعقل شهود للإنسان. والله من وراء وراء في ملكه الذي لا يحد ولا يوصف، ولا يوصل إليه إلا بالحب والإيمان. لأن العقول مهما حاولت لا تشاهد إلا آثار الملك، والمالك ليس السماء ولا الأرض ولا البحار. وأين المالك من الملك. لهذا لا يوصل إلى معرفة الله إلا بالنور الفاض من القلب.



■ مراجع " خلافة الإنسان في الأرض "

مراجع " حدود الخلافة الإنسانية "

- ١- سورة المائدة- الآية ٣
- ٢- كنز العمال- رقم ١٨٦٠٣/ج٧
- ٣- كنز العمال- رقم ١٨٦٣١/ج٧
- ٤- كنز العمال- رقم ٣٦٩٤١/ج١٣
- ٥- س
- ٦- كنز العمال- رقم ٦٢٣٢/ج٣
- ٧-٨- صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص ٣٥٦
- ٩- صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص ٤١٢
- ١٠- كنز العمال- رقم ٣٢٨٤٩/ج١١
- ١١- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٩٨/ج٤
- ١٢- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٩٢/ج٣
- ١٣- كنز العمال- رقم ٣١٨٥٤/ج١١
- ١٤- كنز العمال- رقم ٢٣٥١٢/ج٨
- ١٥- صحيح مسلم- رقم ١٧٩/ج٣
- ١٦- صحيح مسلم- رقم ١٧٨/ج٣
- ١٧- صحيح مسلم- رقم ١٧٨/ج٣
- ١٨- صحيح مسلم- رقم ١٧٧/ج٣
- ١٩- كنز العمال- رقم ١٣٦٤/ج١
- ٢٠- كنز العمال- رقم ٨١٣٧-ج٣
- ٢١- ابن عربي- الفتوحات المكية- ص ٢٢٧/ج١ م
- ٢٢- ابن عربي- الفتوحات المكية- ص ٢١٢/ج١ م
- ٢٣- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٠٦/ج٢
- ٢٤- كنز العمال- رقم ٢٣١٤٩/ج٨
- ٢٥- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٩٧/ج٢
- ٢٦- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٩٨/ج٣

- ٢٧- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ٣٢٤
٢٨- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ٢١٧
٢٩- سورة الأنفال- الآية ٦٧-٦٨
٣٠- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢٢٦/ج ٢
٣١- سورة الأنفال- الآية ١٧
٣٢- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢٩/ج ٣
٣٣- كنز العمال- رقم ٣٢١٧٨/ج ١١
٣٤- كنز العمال- رقم ٢٨٦٨٧/ج ١٠
٣٥- كنز العمال- رقم ٢٤٧٧/ج ١٥
٣٦- كنز العمال- رقم ٢٤٨٧/ج ١٥
٣٧- كنز العمال- رقم ٢٤٨١/ج ١٥
٣٨- صفي الرحمن- الرحيق المختوم، ص ٢٠٦
٣٩- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٩١/ج ٢
٤٠- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ٢٠١
٤١- كنز العمال- رقم ٨١٦٠/ج ٣
٤٢- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ١٨٥
٤٣- ابن هشام- السيرة النبوية-ص ٤٧/ج ٢
٤٤- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ١٢٢
٤٥- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ١٢٤
٤٦- صفي الرحمن- الرحيق المختوم-ص ١٢٤
٤٧- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٤٩/ج ٢
٤٨- كنز العمال- رقم ٣٢٢٢٧/ج ١١
٤٩- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢٢٥/ج ١
٥٠- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢٢٦/ج ١
٥١- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢٢٦/ج ١
٥٢- سورة طه- الآيات ٦٦-٦٨
٥٣- صفي الرحمن- الرحيق المختوم- ص ١١٩
٥٤- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٢٠/ج ٤
٥٥- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٢٠/ج ٤
٥٦- سورة آل عمران- الآية ١٢٨
٥٧- كنز العمال- رقم ٣٢٧٣٧/ج ١١
٥٨- كنز العمال- رقم ٣٢٧٤٥/ج ١١
٥٩- كنز العمال- رقم ٣٢٨٩٠/ج ١١

- ٦٠- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ٢١٨/ج ٣
٦١- كنز العمال- رقم ٣٢١٨٨/ج ١١
٦٢- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٩٩/ج ٤
٦٣- ابن هشام- السيرة النبوية- ص ١٩٩/ج ٤

مراجع "الرسول وعالم الغيب"

- ١- سورة لقمان- الآية ٣٤
٢- سورة يونس- الآية ٢٤
٣- كنز العمال- الحديث رقم ٣١٩٧١/ج ١١
٤- سورة البقرة- الآية ٢٨٢
٥- كنز العمال- رقم ٣٦٩٩١/ج ١٣
٦- صحيح مسلم- رقم ٢٥٤٢/ج ١٦
٧- كنز العمال- رقم ٣٧٨٢٦/ج ١٤
٨- كنز العمال- رقم ٣٧٨٣١/ج ١٤
٩- كنز العمال- رقم ٣٦٨٥٥/ج ١٣
١٠- كنز العمال- رقم ٣٤٦٠٣/ج ١٢
١١- كنز العمال- رقم ٣٤٦٠٩/ج ١٢
١٢- كنز العمال- رقم ٣٤٦٠٥/ج ١٢
١٣- ابن هشام- السيرة النبوية- ج ١/ ص ١٤١
١٤- ابن هشام- السيرة النبوية- ج ١/ ص ١٨٦
١٥- ابن هشام- السيرة النبوية- ج ١/ ص ٢٤٩
١٦- إنجيل يوحنا- ص ٢١٣
١٧- كنز العمال- رقم ٣١٩٨١/ج ١١
١٨- كنز العمال- رقم ٣٢٣٧٣/ج ١١
١٩- كنز العمال- رقم ٣٢٣٤٦/ج ١١
٢٠- كنز العمال- رقم ٣٢٤٥٦/ج ١١
٢١- كنز العمال- رقم ٣١٨٨٣/ج ١١
٢٢- كنز العمال- رقم ٣١٨٩٥/ج ١١
٢٣- سورة النجم- الآية ٣-٤
٢٤- سورة البقرة- الآية ٢٨٥
٢٥- سورة النساء- الآية ١٧١

- ٢٦- إنجيل متى-ص ٩
٢٧- إنجيل متى-ص ٩
٢٨- إنجيل متى-ص ١١
٢٩- إنجيل لوقا-ص ١٢٣
٣٠- إنجيل لوقا-ص ١٤٢
٣١- إنجيل يوحنا-ص ١٩٦
٣٢- إنجيل مرقس-ص ٩١
٣٣- سورة الصف- الآية ٦
٣٤- كنز العمال- رقم ٢٩٨٢٩/ج ١٠
٣٥- إنجيل متى-ص ٥٦
٣٦- موريس بوكاي- دراسة الكتب المقدسة- ص ٩٩
٣٧- موريس بوكاي- دراسة الكتب المقدسة- ص ٩٩
٣٨- إنجيل برنابا- مقدمة المترجم-ص(ل)
٣٩- إنجيل برنابا- مقدمة المترجم-ص(ط)
٤٠- كنز العمال- رقم ٣٨٨٤٣/ج ١٤
٤١- إنجيل برنابا-مقدمة المترجم-ص(د)
٤٢- إنجيل برنابا-ص ٦٧-٦٨
٤٣- إنجيل برنابا-ص ١١٠
٤٤- كنز العمال- رقم ٣٣٣٤٠/ج ١١
٤٥- ابن هشام- السيرة النبوية-ج ١-ص ١٦٦
٤٦- ابن هشام- السيرة النبوية-ص ١٦٥/ج ١
٤٧- كنز العمال- رقم ١١٥٥/ج ١
٤٨- سورة الكهف- الآيات ٧١-٧٤-٧٧-٧٨
٤٩- سورة الكهف- الآيات ٦٧-٦٨
٥٠- كنز العمال- رقم ٣٢٣٦٣/ج ١١
٥١- كنز العمال- رقم ٣٦٩٦٩/ج ١٣
٥٢- كنز العمال- رقم ٣٦٩٦٨/ج ١٣
٥٣- كنز العمال- رقم ٣٦٩٦٠/ج ١٣
٥٤- كنز العمال- رقم ٤٢٩٤/ج ٥
٥٥- كنز العمال- رقم ٣٠٧٣٠/ج ١١

- ٥٦- كنز العمال - رقم ١٠١/ج ١
٥٧- كنز العمال - رقم ٢٦٠/ج ١
٥٨- سورة الأنبياء - الآية ١٠٧

مراجع الطريق إلى الخلافة

- ١- سورة البقرة - الآية ٣٠.
٢- سورة فاطر - الآية ٣٩.
٣- سورة العلق - الآيات ١-٥.
٤- كنز العمال - رقم ٢٨٧٨٩ / ج ١٠.
٥- كنز العمال - رقم ٢٨٧٥٢ / ج ١٠.
٦- سورة البقرة - الآية ٢٨٢.
٧- سورة المائدة - الآية ٣.
٨- كنز العمال - رقم ٣٨٥٧٣ / ج ١٤.
٩- كنز العمال - رقم ٣٨٥٨٧ / ج ١٤.
١٠- كنز العمال - رقم ٣٨٥٨٩ / ج ١٤.
١١- كنز العمال - رقم ٣٨٥٨٨ / ج ١٤.
١٢- كنز العمال - رقم ٣٩٧٤١ / ج ١٤.
١٣- كنز العمال - رقم ٧٧٧٧ / ج ٣.
١٤- كنز العمال - رقم ٤٠٧٩١ / ج ١٥.
١٥- كنز العمال - رقم ٧٧٤٧ / ج ٣.
١٦- سورة ق - الآية ٢٢.
١٧- كنز العمال - رقم ٢٩٨٢٩ / ج ١٠.
١٨- سورة البقرة - الآية ٣١.
١٩- كنز العمال - رقم ١٣٠٦ / ج ١.
٢٠- كنز العمال - رقم ١٢٧٥ / ج ١.
٢١- صفى الرحمن - الرحيق المختوم - ص ٣٩٨.
٢٢- ابن هشام - السيرة النبوية - ص ١٠٤ / ج ٤.
٢٣- كنز العمال - رقم ١٦٦٧٤ / ج ٦.
٢٤- كنز العمال - رقم ٣٦٢١٧ / ج ١٣.
٢٥- كنز العمال - رقم ١٨٦٠٦ / ج ٧.
٢٦- كنز العمال - رقم ١٨٦٠٩ / ج ٧.
٢٧- كنز العمال - رقم ١٨٦١٢ / ج ٧.

- ٢٨- كنز العمال - رقم ١٨٦٠٢ / ج٧,
٢٩- كنز العمال - رقم ١٨٦١٦ / ج٧,
٣٠- كنز العمال - رقم ١٨٦٢٨ / ج٧,
٣١- كنز العمال - رقم ١٨٦٣٢ / ج٧,
٣٢- كنز العمال - رقم ١٨٦١٥ / ج٧,
٣٣- كنز العمال - رقم ١٨٦٣٧ / ج٧,
٣٤- كنز العمال - رقم ١٨٦٤٣ / ج٧,
٣٥- كنز العمال - رقم ١٨٦٣٩ / ج٧,
٣٦- العهد القديم - ص ١٨٧,
٣٧- كنز العمال - رقم ١٠٩٢٤ / ج٤,
٣٨- العهد القديم - ص ١٩١,
٣٩- إنجيل لوقا - ص ١٥٠,
٤٠- كنز العمال - رقم ٢٩٨٨٣ / ج١٠,
٤١- إنجيل لوقا - ص ١٦٧,
٤٢- إنجيل لوقا - ص ١٧٤,
٤٣- كنز العمال - رقم ٣٢٣٤٦ / ج١١,
٤٤- سورة الأحزاب - الآية ٤,
٤٥- كنز العمال - رقم ١٥٦٥١ / ج٦,
٤٦- ابن هشام - السيرة النبوية - ص ٢٤٩ / ج١,
٤٧- كنز العمال - رقم ٧٤٩٠ / ج٣,
٤٨- كنز العمال - رقم ٤٠١ / ج١,
٤٩- كنز العمال - رقم ١٠٩١٣ / ج٤,
٥٠- كنز العمال - رقم ١٠٩٢٩ / ج٤,
٥١- كنز العمال - رقم ١٠٩٣٠ / ج٤,
٥٢- إنجيل متى - ص ٢١,
٥٣- إنجيل متى - ص ٥٥,
٥٤- كنز العمال - رقم ٤٣٢٧٧ / ج١٥,
٥٥- كنز العمال - رقم ٦٣ / ج١,
٥٦- كنز العمال - رقم ٩٥ / ج١,
٥٧- ابن هشام - السيرة النبوية - ص ١١٤ / ج٢,
٥٨- إنجيل مرقس - ص ٧١,
٥٩- إنجيل متى - ص ٤٧,

- ٦٠- كنز العمال - رقم ١١٤٨ / ج ١,
٦١- سورة القصص - الآية ٥٦,
٦٢- كنز العمال - رقم ٧٣٠٤ / ج ٣,
٦٣- كنز العمال - رقم ٧٢٠٤ / ج ٣,
٦٤- كنز العمال - رقم ١٥٦ / ج ١,
٦٥- سورة الأنعام - الآية ٥٤,
٦٦- الغزالي - إحياء علوم الدين - ص ١٥ / ج ٣,
٦٧- كنز العمال - رقم ١٢٠٧ / ج ١,
٦٨- سورة الحج - الآية ٤٧,
٦٩- سورة المعارج - الآية ٤,
٧٠- ابن عربي - تفسير القرآن - ص ٦٩٧ / ج ٢,
٧١- ابن عربي - تفسير القرآن - ص ٦٩٩ / ج ٢,
٧٢- الفخر الرازي - التفسير الكبير - ص ١٢٣ / ج ٣٠,
٧٣- كنز العمال - رقم ٢٤٦٨٥ / ج ٩,
٧٤- كنز العمال - رقم ١٣٨٦ / ج ١,
٧٥- كنز العمال - رقم ٢٨٦٩٧ / ج ١٠,
٧٦- كنز العمال - رقم ٢٨٧٥٠ / ج ١٠,
٧٧- كنز العمال - رقم ٢٨٩٤٢ / ج ١٠,
٧٨- كنز العمال - رقم ٢٨٧٣٠ / ج ١٠,
٧٩- كنز العمال - رقم ٢٨٦٨٧ / ج ١٠.

مراجع العقل والإيمان

- ١- كنز العمال - رقم ١١٤٨ / ج ١,
٢- سورة التين - الآية ٤,
٣- سورة الأحزاب - الآية ٧٢.
٤- كنز العمال - رقم ٢٩٠٤٠ / ج ١٠.
٥- سورة البقرة - الآية ٣١.
٦- سورة الملك - الآية ١٤,
٧- سورة الأنبياء - الآية ٤٧,
٨- كنز العمال - رقم ٢٨٧٣٠ / ج ١٠,
٩- كنز العمال - رقم ٧٠٣٣ / ج ٣.
١٠- كنز العمال - رقم ٧٠٣٧ / ج ٣.

- ١١- كنز العمال - رقم ٧٠٥٧/ج٣,
- ١٢- سورة العنكبوت- الآية ٦٩ .
- ١٣- سورة البقرة - الآية ٢٨٢,
- ١٤- سورة النور - الآية ٣٥ .
- ١٥- سورة النور- الآية ٣٦-٣٧,
- ١٦- كنز العمال - رقم ١/١٠٥٣.
- ١٧- سورة البقرة - الآية ١٦٥ .
- ١٨- كنز العمال - رقم ١/١٨٧٢.
- ١٩- كنز العمال - رقم ١/١٨٧٧ ج, ١,
- ٢٠- كنز العمال - رقم ١/١٨٧١ ج, ١,
- ٢١- كنز العمال - رقم ٣٤٦٢٢/ج ١٢ .
- ٢٢- كنز العمال - رقم ٣٤٦١٩/ج ١٢ .
- ٢٣- كنز العمال - رقم ٤٣٦٧٣/ج ١٦ .
- ٢٤- كنز العمال - رقم ١/١٢٥٢ ج, ١,
- ٢٥- سورة الانشقاق- الآية ٦ .

مراجع " الأقدار وحرية الاختيار "

- ١- كنز العمال - رقم ١/١٣١٤ ج, ١,
- ٢- كنز العمال - رقم ١/٥١٤٦ ج, ٦,
- ٣- سورة الكهف- الآية ١٧,
- ٤- كنز العمال - رقم ٣/١٨٦٧ ج, ١١,
- ٥- كنز العمال - رقم ١/١٣٠٦ ج, ١,
- ٦- كنز العمال - رقم ٣/٥٦٩٥ ج, ١٢,
- ٧- كنز العمال - رقم ٣/٤٢٥١ ج, ١٢,
- ٨- كنز العمال - رقم ٤/٤٥٥٩ ج, ١٦,
- ٩- كنز العمال - رقم ٤/٤٥٥٧ ج, ١٦,
- ١٠- كنز العمال - رقم ٤/٥٦٢٠ ج, ١٦,
- ١١- سورة الملك- الآية ١٤,
- ١٢- سورة فصلت - الآية ١٢,
- ١٣- سورة يونس- الآية ٥,
- ١٤- سورة الفرقان- الآية ٢,
- ١٥- سورة فصلت - الآية ١٠,

- ١٦- سورة البقرة- الآية ٣٠،
١٧- كنز العمال -رقم ٥٠٩ / ج ١،
١٨- سورة القلم -الآية ٣٥-، ٣٦،
١٩- سورة النساء- الآية -، ٧٩،
٢٠- كنز العمال -رقم ٤٣٦١٥ / ج ١٥،
٢١- كنز العمال -رقم ٥٦٦١ / ج ٣،
٢٢- كنز العمال - رقم ٥٩١٨ / ج ٣،
٢٣- كنز العمال -رقم ٤٣٦٠٧ / ج ١٥،
٢٤- سورة الزمر- الآية ٧،
٢٥- سورة الأنفال- الآية ٧،
٢٦- سورة الحج- الآية ٣٨،
٢٧- سورة الأنعام- الآية ١٤٩،
٢٨- سورة البلد- الآيات: ٨، ٩، ١٠،
٢٩- سورة الإنسان - الآية ٣،
٣٠- سورة فصلت - الآية ١٧،
٣١- سورة الصف- الآية ٥،
٣٢- الغزالي- مكاشفة القلوب- ص ٢١،
٣٣- سورة الزخرف- الآية ٢٥،
٣٤- كنز العمال -رقم ٥٥٢٤ / ج ٣،
٣٥- سورة البقرة - الآية ٢٨٦،
٣٦- كنز العمال -رقم ٢٨٧٥٠ / ج ١٠،
٣٧- كنز العمال -رقم ٤٣٥٩٠ / ج ١٥،
٣٨- كنز العمال -رقم ٢٩١٣٠ / ج ١٠،
٣٩- كنز العمال -رقم ٢٩١٣١ / ج ١٠،
٤٠- كنز العمال -رقم ٢٩٤١٤ / ج ١٠،
٤١- ابن هشام -السيرة النبوية- ص ١٣ / ج ٢،
٤٢- ابن هشام -السيرة النبوية- ص ١٤ / ج ٢،
٤٣- ابن هشام -السيرة النبوية- ص ٢٢٢ / ج ٣،
٤٤- كنز العمال -رقم ٢٩٠٩١ / ج ١٠،
٤٥- كنز العمال - رقم ٣٤١٥١ / ج ١٥،
٤٦- سورة النحل- الآية ٧٨،
٤٧- سورة الأحقاف- الآية ٢٦،

- ٤٨- سورة الحج- الآية ٤٦ .
٤٩- سورة الفرقان- الآية ٤٣-٤٤,
٥٠- كنز العمال - رقم ٢٨٦٨٧ / ج ١٠,
٥١- كنز العمال - رقم ١٥٩٥ / ج ١,
٥٢- سورة الملك - الآية ١-٢,
٥٣- سورة يونس- الآية ٢٥ .
٥٤- سورة البقرة- الآية ٢٢١,
٥٥- سورة البقرة - الآية ١٨٦ .
٥٦- سورة الأنبياء- الآية ٤٥ .
٥٢- كنز العمال - رقم ٣٨٥٠١ / ج ١٤,
٥٣- كنز العمال - رقم ٣٨٩٨٣ / ج ١٤.

"مراجع العقل والطبيعة في الوجود"

- ١- سورة الذاريات - الآية ٤٩,
٢- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣٠٩ / ج ٢-م.
٣- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣١٣ / ج ٢-م.
٤- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣١٩ / ج ٢-م.
٥- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣٢٠ / ج ٢-م.
٦- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣٢٤ / ج ٢-م.
٧- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣١٥ / ج ٢-م.
٨- ابن عربي-الفتوحات المكية- ص ٣٤٠ / ج ٢-م.
٩- د. عبد الرحمن بدوي-موسوعة الفلسفة- ص ٥٨١ / ج ٢,
١٠- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٨٢ / ج ٢,
١١- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٨٩ / ج ٢,
١٢- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٧٣ / ج ٢,
١٣- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٧٢ / ج ٢,
١٤- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٨٨ / ج ٢,
١٥- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٨٧ / ج ٢,
١٦- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة- ص ٥٧٩ / ج ٢,
١٧- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة - ص ٥٧٥ / ج ٢,
١٨- الموسوعة الفلسفية العربية- ص ٤٣٧ / ج ٢

- ١٩- ابن عربي- شجرة الكون- ص, ٥
٢٠- ابن عربي- شجرة الكون- ص, ٤٦
٢١- ابن عربي- شجرة الكون- ص, ٤٧
٢٢- ابن عربي- شجرة الكون- ص, ٤٦
٢٣- سورة المائدة- الآية, ٣
٢٤- كنز العمال- رقم ٢٩٨٥٠ / ج, ١٠
٢٥- سورة الأنبياء الآية, ٣٠
٢٦- كنز العمال- رقم ٢٩٨٥١ / ج, ١٠
٢٧- كنز العمال- ص ٣٧٠ / ج, ١٠
٢٨- الترمذي- ختم الأولياء- ص, ٢٩٠
٢٩- سورة المؤمنون- الآية, ١٥
٣٠- سورة طه- الآية, ٥٥
٣١- كنز العمال- رقم ٣٨٩١٥ / ج, ١٤
٣٢- كنز العمال- رقم ٣٨٩٠٨ / ج, ١٤
٣٣- سورة المائدة- الآية, ٣
٣٤- كنز العمال- رقم ١٠٢٧٢ / ج, ٤
٣٥- كنز العمال- رقم ٣٩٠٢٩ / ج, ١٤
٣٦- ابن عربي- الفتوحات المكية- ص ٢١٢ / ج ١-م.
٣٧- سورة الحديد- الآية, ٣
٣٨- سورة الانشقاق- الآية, ٦
٣٩- سورة النبأ- الآية, ٤٠
٤٠- سورة الطارق- الآيات ٥-١٠
٤١- سورة القيامة- الآية ٣-٤
٤٢- محمد المحلي والسيوطي- تفسير الجلالين- ص, ٧٧٩
٤٣- ابن عربي- الفتوحات المكية- ص ٣٤٩ / ج ١ م
٤٤- سورة الصافات- الآية, ١٨٠
٤٥- سورة الأنعام- الآية, ٩١
٤٦- سورة الرحمن- الآية, ٢٩
٤٧- ابن عربي- الفتوحات المكية- ص ٢١٦ / ج ٧.

■■■

المصادر والمراجع

- ١- محمد فؤاد عبد الباقي- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- منشورات دار المعرفة- بيروت - لبنان.
- ٢- الفخر الرازي- التفسير الكبير- منشورات دار إحياء التراث العربي- بيروت الطبعة الثالثة
- ٣- علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - منشورات مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الخامسة - ١٤٠٥م - ١٩٨٥م.
- ٤- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي- منشورات مؤسسة مناهل العرفان- بيروت ومكتبة الغزالي- دمشق
- ٥- جلال الدين محمد بن أحمد المحلي- وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تفسير الجلالين- منشورات دار المعرفة -بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٦- ابن هشام- السيرة النبوية- تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- منشورات دار إحياء الكتب العربية- القاهرة
- ٧- علي بن أبي طالب - نهج البلاغة - جمع الشريف الرضي وشرح الشيخ محمد عبده- منشورات دار الفكر
- ٨- محي الدين بن عربي- الفتوحات المكية- منشورات دار صادر- بيروت
- ٩- محي الدين بن عربي- الفتوحات المكية- تحقيق د. عثمان يحيى - مراجعة د. إبراهيم مذكور- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٠- محيي الدين بن عربي- تفسير القرآن الكريم- تحقيق د. مصطفى غالب- منشورات ناصر خسرو- تهران- الطبعة الثانية ١٩٧٨. وهناك من ينسب هذا التفسير للقرآن لعبد الرزاق الكاشاني، لوجود نسخة خطية باسمه محفوظة بالمكتبة السلিমانيّة بتركيا تحت رقم /١٨٠١٧/ والواقع أن أسلوب التفسير لا يدل بأنه للشيخ محيي الدين.

- ١١- محيي الدين بن عربي- شجرة الكون- الناشر مكتبة عالم الفكر- القاهرة- الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٢- أبو حامد بن محمد الغزالي- إحياء علوم الدين- منشورات دار المعرفة- بيروت- لبنان.
- ١٣- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي- مجموعة رسائل الإمام الغزالي- منشورات دار الفكر-
بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٦ / ١٩٩٦م.
- ١٤- العهد القديم - منشورات دار المشرق ش م م - بيروت- الطبعة ١٩٨٨
- ١٥- العهد الجديد- نقله عن اليونانية الأب جورج فاخوري البولسي- المطبعة البولسية- جونيه
(لبنان)- طبعة ١٩٧٣
- ١٦- إنجيل برنابا- ترجمة د. خليل سعادة- منشورات دار الحكمة - دمشق
- ١٧- إسماعيل بن السيد محمد سعيد القادري - الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية-
منشورات عيسى البابي الحلبي - مصر.
- ١٨- صفي الرحمن المباركفوري- الرحيق المختوم- منشورات دار السلام - الرياض- الطبعة
الأولى ١٤١٨هـ
- ١٩- عباس محمود العقاد- العبقريات الإسلامية - منشورات دار الآداب- بيروت - الطبعة
الثانية، ١٩٦٨
- ٢٠- خالد محمد خالد- رجال حول الرسول- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثانية
١٩٧٣،
- ٢١- د. عرفان عبد الحميد فتاح- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها- منشورات دار الجبل-
بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- ٢٢- د. محمود ناظم النسيبي - الطب النبوي والعلم الحديث - منشورات مؤسسة الرسالة -
بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ٢٣- د. حسن إبراهيم حسن- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي- منشورات
مكتبة النهضة المصرية القاهرة - الطبعة السابعة ١٩٦٤
- ٢٤- د. محمد سعيد رمضان البوطي- كبرى اليقينيات الكونية- منشورات دار الفكر- دمشق-
الطبعة الثامنة ١٤٠٢هـ
- ٢٥- د. عبد الرحمن بدوي- موسوعة الفلسفة - المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت -
الطبعة الأولى، ١٩٨٤
- ٢٦- الموسوعة الفلسفية العربية - بإشراف د. معن زيادة - منشورات معهد الإنماء العربي-
بيروت - الطبعة الأولى، ١٩٨٦
- ٢٧- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري- لسان العرب-
منشورات دار صادر- بيروت
- ٢٨- محمد أبي الهدى الرفاعي الخالدي الصيادي- قلادة الجواهر في ذكر الغوث
الرفاعي وأتباعه الأكابر

- ٢٩- بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الشهير بالرواسس- المجموعة النادرة لأبناء الآخرة - منشورات دار البشائر - دمشق- الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م
- ٣٠- أبو المواهب المعروف بالشعراني - تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر - منشورات دار البشائر - دمشق.
- ٣١- كليف كيلمستر - طبعة الكون- ترجمة المهندس محمد بشار حكمت البيطار - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩١
- ٣٢- عدد من المؤلفين - المادة كما ترى اليوم- ترجمة وائل أتاسي- منشورات وزارة الثقافة - دمشق، ١٩٨٥،
- ٣٣- ألكسندر كيتا يجورودسكي - الفوتونات والنويات، ترجمة داود سليمان المنير- منشورات دار مير- موسكو، ١٩٨٥،
- ٣٤- موريس بوكاي - دراسة الكتب المقدسة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم" منشورات دار رشا - بيروت
- ٣٥- الإمام أبي يحيى بن شرف النووي الدمشقي - رياض الصالحين - تحقيق شعيب الأرنؤوط- منشورات مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة السابعة عشر- ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- ٣٦- الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب - منشورات دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٣٧- الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي- ختم الأولياء - تحقيق عثمان يحيى- منشورات بإدارة معهد الآداب الشرقية- المطبعة الكاثوليكية - بيروت
- ٣٨- ول ديورانت- قصة الحضارة - ترجمة عدد من المترجمين بإشراف جامعة الدول العربية- الطبعة الثالثة - ١٩٦٨ - القاهرة
- ٣٩- محيي الدين بن عربي- فصوص الحكم والتعليقات عليه- تحقيق د. أبو العلا عفيفي- منشورات دار الكاتب العربي- بيروت.
- ٤٠- د. نصر حامد أبو زيد - فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي- منشورات دار التنوير - الطبعة الأولى ١٩٨٣ - بيروت.

■ ■ ■

فهرس المواضيع

٦.....	مدخل
١٠.....	مقدمة
٢٠.....	الفصل الأول: الإشراف بالعقل
٢٢.....	وسيلة المعرفة
٢٨.....	أخطاء العقل
٣٠.....	مصادر المعرفة الإنسانية
٣٦.....	المعرفة الإنسانية بحوادث الوجود
٤٠.....	معرفة الله
٤١.....	المعرفة الإنسانية بالوجود
٤٦.....	مظاهر الوجود
٤٧.....	نظام الوجود
٥٠.....	ماهية العقل
٦٠.....	الوجود القديم والوجود الحادث
٦٩.....	المعرفة بالحيرة
٧٣.....	عين اليقين
٧٦.....	لماذا كان الإنسان
٨٣.....	شهود الوجود
٨٧.....	مشكلات في المعرفة، لا تكذب
٩٣.....	■ مراجع "الإشراف بالعقل"
٩٧.....	الفصل الثاني: الإشراف بالإيمان
٩٩.....	المعرفة والموت
١٠٨.....	مهمة التبليغ والكفاح الدامي
١١٨.....	رسول الحب
١٣٠.....	الرسول الشاهد
١٤١.....	الرسول الطيب
١٥٠.....	الفتوحات الإسلامية بين الخيال والحقيقة

١٦٣	النبوة والدليل النفسي.....
١٧٢	الخلفاء الأربعة والاختداء.....
١٧٥	خلافة أبي بكر الصديق.....
١٨١	خلافة عمر بن الخطاب.....
١٩٠	خلافة عثمان بن عفان.....
١٩٩	خلافة علي بن أبي طالب.....
٢١٦	■ مراجع الإشراف بالإيمان.....
٢٢٨	الفصل الثالث: خلافة الإنسان في الأرض.....
٢٣٠	حدود الخلافة الإنسانية.....
٢٤٥	الرسول وعالم الغيب.....
٢٦٤	الطريق إلى الخلافة.....
٢٨١	العقل والإيمان.....
٢٨٧	الأقدار وحرية الاختيار.....
٢٩٩	العقل والطبيعة في الوجود.....
٣١٨	■ مراجع " خلافة الإنسان في الأرض.....
٣٢٩	المصادر والمراجع.....
٣٣٢	فهرس المواضيع.....

■ ■ ■

محمد عرب

- أديب عربي سوري من محافظة إدلب- بلدة أرمناز- مواليد ١٩٤٧
- أسهم بدراسات مستقلة في بعض الكتب منها كتاب:
"دراسات في القومية العربية والوحدة" ، الصادر عن مركز دراسات الوحدة
العربية.

صدر له عن اتحاد الكتاب العرب كتاب
"الشخصية الصهيونية ملامحها في الرواية الغربية وجذورها التوراتية"

